قال الشاعر:

يا ناظراً فيه سل الله مرحمة ... على المصنف واستغفر لكاتبه
واطلب لنفسك من خير تريد لها ... وبعد ذٰلك غفراناً لصاحبه

المجلد الثامن[1]

من

تيسير الكريم الرحمٰن

في

تفسير كلام الملك المنّان

لجامعه الفقير إلى اللّه

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي

غفر اللّه له ولجميع المسلمين

(١) في (ب): «المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان، منّ به الله على عبده وابن عبده وابن أمته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي».

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

هٰذا متضمنٌ للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ والتعظيم والاحترام له[١] وإكرامه، فأمر الله عبادَه المؤمنين بما يقتضيه الإيمانُ بالله ورسوله[٢] من امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ؛ في جميع أمورهم، وأن لا[٣] يتقدَّموا بين يدي الله ورسوله؛ فلا[٤] يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمرَ، فإنَّ هٰذا حقيقةُ الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادةُ الأبديَّة والنعيم السرمديُّ. وفي هٰذا النهيُ الشديدُ عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله؛ فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ؛ وجبَ اتِّباعها وتقديمُها على غيرها كائناً من كان.

﴿١﴾ ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طَلْق بن حبيب: أن تعملَ بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله. وقوله: ﴿إنَّ الله سميعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، في خفيِّ المواضع والجهات، ﴿عليمٌ﴾: بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والجائزات[٥]. وفي ذكر الاسمين

---

(١) في (ب): «والتعظيم له واحترامه».
(٢) في (ب): «وبرسوله».
(٣) في (ب): «ولا».
(٤) في (ب): «ولا».
(٥) في (ب): «والممكنات».

الكريمين بعد النهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه حثٌّ على امتثال تلك الأوامر الحسنة والآداب المستحسنة وترهيبٌ عن ضدِّه[١].

﴿٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النبيِّ ولا تَجْهَروا له بالقولِ﴾: وهٰذا أدب مع الرسول ﷺ في خطابه؛ أي: لا يرفع المخاطِبُ له صوتَهُ معه فوق صوتِهِ، ولا يجهرْ له بالقول، بل يغضُّ الصوتَ ويخاطبُه بأدبٍ ولينٍ وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميِّزونه في خطابهم كما تميَّز عن غيرِه في وجوبِ حقِّه على الأمّة، ووجوب الإيمان به، والحبِّ الذي لا يتمُّ الإيمانُ إلا به؛ فإن في عدم القيام بذٰلك محذوراً وخشية أن يحبط عملُ العبد وهو لا يشعر؛ كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

﴿٣﴾ ثم مدح من غضَّ صوته عند رسول الله ﷺ بأنَّ الله امتحن قلوبَهم للتقوى؛ أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجةُ ذٰلك بأن صَلَحَت قلوبهم للتقوى. ثم وَعَدَهم المغفرةَ لذنوبهم، المتضمِّنة لزوال الشرِّ والمكروه، وحصول الأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلَّا الله تعالى، وفيه حصولُ كل محبوب. وفي هٰذا دليلٌ على أن الله يمتحنُ القلوبَ بالأمر والنهي والمحن؛ فمَن لازمَ أمر الله واتَّبع رضاه وسارعَ إلى ذٰلك وقدَّمه على هواه؛ تمحَّض وتمحَّص للتقوى، وصار قلبُه صالحاً لها، ومَن لم يكن كذٰلك؛ علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ نزلت هٰذه الآيات الكريمة في ناس[٢] من الأعراب، الذين وصفهم الله بالجفاء، وأنهم أجدرُ أن لا يعلموا حدودَ ما أنزل الله على رسوله؛ قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائِهِ، فلم يصبروا ويتأدَّبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد، يا محمد[٣]؛ أي: اخرج إلينا. فذمَّهم الله بعدم العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه؛ كما أن من العقل استعمال الأدب؛ فأدب العبد عنوان عقله، وأنَّ الله مريدٌ به الخير.

(١) في (ب): «وترهيب عن عدم الامتثال». (٢) في (ب): «أناس».
(٣) انظر تفسير ابن جرير (٢٢/ ٢٨٥).

﴿٥﴾ ولهذا قال: ﴿ولو أنهم صبَروا حتى تخرجَ إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: غفورٌ لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، رحيمٌ بهم حيث لم يعاجلْهم بذنوبهم بالعقوبات والمَثُلات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾.

﴿٦﴾ وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدُّبُ بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسقٌ بنبأ؛ أي: خبرٍ: أن يتثبَّتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً؛ فإن في ذلك خطراً كبيراً ووقوعاً في الإثم؛ فإنَّ خبره إذا جُعل بمنزلة خبر الصادق العدل؛ حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حقٍّ بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجبُ عند خبر الفاسق التثبُّت والتبيُّن؛ فإن دلَّت الدلائل والقرائن على صدقه؛ عُمِلَ به وصُدِّق، وإن دلت على كذبه؛ كذِّب ولم يعمل به؛ ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقَّف فيه[1]، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فساقاً.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

﴿٧﴾ أي: وليكن لديكم معلومًا أنَّ ﴿رسول الله﴾ ﷺ بين أظهُرِكم، وهو الرسولُ الكريم البارُّ الراشدُ، الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشرِّ والمضرَّة ما لا يوافقكم الرسولُ عليه، و﴿لو يطيعكم في كثيرٍ من الأمر﴾ لشقَّ عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكُم، والله تعالى يحبِّب إليكم ﴿الإيمان﴾ ويزيِّنه ﴿في قلوبكم﴾ بما أودع في قلوبكم من محبة الحقِّ وإيثاره، وبما نصب على الحقِّ من الشواهد والأدلَّة الدالَّة على صحَّته وقبول القلوب والفِطَر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإنابة إليه، ويكرِّه ﴿إليكم الكفر والفسوق﴾؛ أي: الذنوبَ الكبار. ﴿والعصيان﴾؛ أي: الذنوبَ الصغار؛ بما أودع في قلوبكم من

(١) في (ب): «متوقف فيه كما ذكرنا».

كراهة الشرِّ وعدم إرادة فعله، وبما نَصَبَه من الأدلَّة والشواهد على فسادِه ومضرَّته وعدم قبول الفطر له، وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

﴿أولئك﴾؛ أي: الذين زيَّن الله الإيمان في قلوبهم وحبَّبه إليهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هم الراشدونَ﴾؛ أي: الذين صلحت علومُهم وأعمالُهم، واستقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم، وضدُّهم الغاوون الذين حُبِّب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكُرِّه إليهم الإيمان، والذنب ذنبُهم؛ فإنهم لما فسقوا؛ طبعَ اللهُ على قلوبهم، ولما زاغوا؛ أزاغ اللهُ قلوبهم، ولما لم يؤمنوا بالحق لمَّا جاءهم أولَ مرة؛ قلب الله أفئدتهم.

﴿٨﴾ وقوله: ﴿فضلاً من اللهِ ونعمةً﴾؛ أي: ذٰلك الخير الذي حصل لهم هو بفضل الله عليهم وإحسانِه، لا بحولهم وقوَّتهم. ﴿واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بمن يشكر النعمة فيوفِّقه لها ممَّن لا يشكرها ولا تليقُ به، فيضع فضلَه حيث تقتضيه حكمتُه.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ هٰذا متضمِّنٌ لنهي المؤمنين عن أن يبغيَ بعضُهم على بعض ويقتلَ بعضُهم بعضاً، وأنه إذا اقتتلتْ طائفتان من المؤمنين؛ فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافَوْا هٰذا الشرَّ الكبير بالإصلاح بينهم والتوسُّط على أكمل وجه يقع به الصلحُ ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك؛ فإن صلحتا؛ فبها ونعمت. ﴿فإن بغتْ إحداهُما على الأخرى فقاتِلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمرِ اللهِ﴾؛ أي: ترجع إلى ما حدَّ الله ورسولُه من فعل الخير وتركِ الشرِّ الذي من أعظمه الاقتتال. وقولُه: ﴿فإن فاءتْ فأصْلِحوا بينهما بالعَدْلِ﴾: هٰذا أمرٌ بالصُّلح وبالعدل في الصلح؛ فإنَّ الصُّلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظُّلم والحيف على أحد الخصمين؛ فهذا ليس هو الصُّلح المأمورُ به، فيجب أن لا يراعَى أحدهما لقرابةٍ أو وطنٍ أو غير ذٰلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل. ﴿إنَّ اللَّهَ يحبُّ المُقْسِطينَ﴾؛ أي: العادلين في حكمهم بين الناس، وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذٰلك عدلُ الرجل في أهله وعيالِه في أداء حقوقهم،

وفي الحديث الصحيح: «المقسِطون عند الله على منابرَ من نورٍ؛ الذين يعدِلون في حكمِهم وأهليهم وما ولوا»[١].

﴿١٠﴾ ﴿إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ﴾: هٰذا عقدٌ عقدَه الله بين المؤمنين؛ أنَّه إذا وجد من أيِّ شخصٍ كان في مشرق الأرض ومغربها الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ فإنَّه أخٌ للمؤمنين أخوَّةً توجبُ أن يحبَّ له المؤمنون ما يحبُّون لأنفسهم، ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ آمراً بالأخوَّة الإيمانيَّة: «لا تَحاسدوا ولا تَناجشوا ولا تَباغضوا ولا تَدابروا، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً. المسلمُ أخو المسلم؛ لا يظلمُه ولا يخذُلُه ولا يكذبه». متفقٌ عليه[٢]. وفيهما عن النبيِّ ﷺ: «المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً، وشبك ﷺ بين أصابعه»[٣].

ولقد أمر اللهُ ورسولُه بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض وبما يحصُلُ به التآلفُ والتوادُدُ والتواصُلُ بينهم، كل هٰذا تأييدٌ لحقوق بعضهم على بعض؛ فمن ذٰلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرُّق القلوب وتباغُضها وتدابُرها؛ فَلْيُصْلِح المؤمنون بين إخوانهم، ولْيَسْعَوا فيما به يزول شَنَآنهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين الرحمةَ، فقال: ﴿لعلَّكم تُرْحَمونَ﴾، وإذا حصلت الرحمةُ؛ حصل خيرُ الدنيا والآخرة. ودلَّ ذٰلك على أنَّ عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد غير ما تقدم: أنَّ الاقتتال بين المؤمنين منافٍ للأخوَّة الإيمانيَّة، ولهٰذا كان من أكبر الكبائر. وأنَّ الإيمان والأخوَّة الإيمانيَّة لا يزولان مع وجود الاقتتال؛ كغيره من الذنوب الكبائر، التي دون الشرك، وعلى ذٰلك مذهب أهل السنة والجماعة. وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل. وعلى وجوب قتال البُغاة حتى يرجِعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله؛ بأن رجعوا على وجهٍ لا يجوز الإقرار عليه والتزامه؛ أنَّه لايجوز ذٰلك. وأنَّ أموالهم معصومةٌ؛ لأنَّ الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بَغْيِهم خاصةً دون أموالهم.

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٨٢٧) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (١٩٩٩).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ وهٰذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض؛ أن: ﴿لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ﴾: بكلِّ كلامٍ وقولٍ وفعلٍ دالٍّ على تحقير الأخ المسلم؛ فإنَّ ذٰلك حرامٌ لا يجوز، وهو دالٌّ على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخورُ به خيراً من الساخر، وهو الغالبُ والواقعُ؛ فإنَّ السخرية لا تقع إلَّا من قلب ممتلىءٍ من مساوىء الأخلاق، متحلٍّ بكل خلقٍ ذميم، متخلٍّ من كلِّ خلقٍ كريم، ولهٰذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرىءٍ من الشرِّ أن يحقِّر أخاه المسلمَ»(١).

ثم قال: ﴿ولا تَلْمِزوا أنفُسَكُم﴾؛ أي: لا يعب بعضكم على بَعض، واللَّمزُ بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهيٌّ عنه حرامٌ متوعَّدٌ عليه بالنار؛ كما قال تعالى: ﴿ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ...﴾ الآية، وسمَّى الأخ المسلم نفساً لأخيهِ؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هٰكذا حالُهم؛ كالجسد الواحد، ولأنَّه إذا همزَ غيرَه؛ أوجبَ للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبِّب لذٰلك، ﴿ولا تنابَزوا بِالألقابِ﴾؛ أي: لا يعيِّر أحدُكم أخاه ويلقِّبه بلقبٍ يكره أن يقالَ فيه، وهٰذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة؛ فلا تدخل في هٰذا. ﴿بئسَ الاسمُ الفُسوقُ بعدَ الإيمانِ﴾؛ أي: بئسما تبدَّلتم عن الإيمان والعمل بشرائعِهِ وما يقتضيه بالإعراض عن أوامرِهِ ونواهيه باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنابزُ بالألقاب، ﴿ومَن لم يَتُبْ فأولٰئك هم الظَّالمونَ﴾: وهٰذا هو الواجب على العبد: أن يتوبَ إلى الله تعالى، ويخرجَ من حقِّ أخيه المسلم باستحلالِهِ والاستغفار والمدح له مقابلةً على ذمِّه. ﴿ومَن لَمْ يَتُبْ فأولٰئك هم الظالمونَ﴾؛ فالناس قسمان: ظالمٌ لنفسه غيرُ تائبٍ، وتائبٌ مفلحٌ، ولا ثَمَّ غيرهما.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ نهى تعالى عن كثيرٍ من الظَّنِّ السيِّىءِ بالمؤمنين، ﴿إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثمٌ﴾:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

وذلك كالظَّنِّ الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظنِّ السَّوْءِ الذي يقترن به كثيرٌ من الأقوال والأفعال المحرَّمة؛ فإنَّ بقاءَ ظنِّ السَّوْءِ بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرَّد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءةُ الظنِّ بالمسلم وبغضُهُ وعداوتُهُ المأمور بخلافها منه، ﴿ولا تَجَسَّسوا﴾؛ أي: لا تفتِّشوا عن عورات المسلمين، ولا تَتَّبعوها، ودَعُوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافُل عن زلَّاته، التي إذا فُتِّشَتْ؛ ظهرَ منها ما لا ينبغي، ﴿ولا يَغْتَب بعضُكُم بعضاً﴾: والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذِكْرُكَ أخاك بما يكرَهُ، ولو كان فيه»[١]. ثم ذَكَرَ مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: ﴿أيحبُّ أحدُكُم أن يأكُلَ لحمَ أخيه مَيتاً فكَرِهتُموه﴾: شبَّه أكلَ لحمِهِ ميتاً المكروه للنفوس غايةَ الكراهةِ باغتيابه؛ فكما أنَّكم تكرهون أكل لحمه، خصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح؛ فكذلك فلْتَكرهوا غيبته وأكل لحمه حيًّا، ﴿واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ توابٌ رحيمٌ﴾: والتوَّابُ: الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفِّقه لها، ثم يتوبُ عليه بقبول توبته، رحيمٌ بعباده؛ حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة. وفي هذه الآية دليلٌ على التَّحذير الشديد من الغِيبة، وأنَّها من الكبائر؛ لأنَّ الله شبَّهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٣﴾ يخبرُ تعالى أنَّه خلقَ بني آدم من أصل واحدٍ وجنسٍ واحدٍ، وكلُّهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعُهم إلى آدم وحواء، ولكنَّ الله تعالى بثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرَّقهم، وجعلهم ﴿شعوباً وقبائلَ﴾؛ أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارَفوا؛ فإنَّه لو استقلَّ كلُّ واحد منهم بنفسه؛ لم يحصُلْ بذلك التعارف الذي يترتَّب عليه التَّناصر والتَّعاون والتَّوارث والقيام بحقوق الأقارب، ولكنَّ الله جعلهم شعوباً وقبائل؛ لأجل أن تحصُلَ هذه الأمور وغيرها ممَّا يتوقَّف على التعارف ولحوق الأنساب، ولكن الكرمَ بالتَّقوى؛ فأكرمُهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرُهم طاعةً وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرُهم قرابةً وقوماً، ولا أشرفُهم نسباً، ولكن اللهَ تعالى ﴿عليمٌ خبيرٌ﴾، يعلمُ منهم مَن يقوم بتقوى الله ظاهراً وباطناً ممَّن لا يقوم بذلك ظاهراً ولا باطناً، فيجازي كلًّا بما يستحقُّ. وفي هذه الآية دليلٌ على

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة.

أنَّ معرفة الأنساب مطلوبةٌ مشروعةٌ؛ لأنَّ الله جعلهم شعوباً وقبائلَ لأجل ذٰلك.

﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٤﴾ يخبرُ تعالى عن مقالةِ الأعراب، الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرةٍ ولا قيام بما يجبُ ويقتضيه الإيمان؛ أنَّهم مع هٰذا ادَّعوا وقالوا ﴿آمنَّا﴾؛ أي: إيماناً كاملاً مستوفياً لجميع أموره. هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يردَّ عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾؛ أي: لا تدَّعوا لأنفسِكُم مقامَ الإيمان ظاهراً وباطناً كاملاً، ﴿ولٰكن قولوا أسْلَمْنا﴾؛ أي: دخلْنا في الإسلام، واقتَصِروا على ذٰلك، ﴿و﴾ السبب في ذٰلك أنه ﴿لمَّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبِكُم﴾: وإنَّما أسلمتم خوفاً أو رجاءً أو نحو ذٰلك مما هو السبب في إيمانكم؛ فلذٰلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم. وفي قوله: ﴿ولمَّا يـدخلِ الإيمانُ في قلوبِكُم﴾؛ أي: وقتَ هٰذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارةٌ إلى أحوالهم بعد ذٰلك؛ فإنَّ كثيراً منهم منَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقيِّ والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تُطيعوا اللهَ ورسولَه﴾: بفعل خير أو ترك شرٍّ ﴿لا يَلِتْكُم من أعمالِكُمْ شيئاً﴾؛ أي: لا يَنْقُصْكم منها مثقال ذرَّةٍ، بل يوفيكم إيَّاها أكمل ما تكون، لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً. ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: غفورٌ لمَن تابَ إليه وأناب، رحيمٌ به؛ حيث قبل توبته.

﴿١٥﴾ ﴿إنَّما المؤمنون﴾؛ أي: على الحقيقة، ﴿الذين آمنوا بالله ورسولِهِ وجاهدوا في سبيلِ اللهِ﴾؛ أي: من جمعوا بينَ الإيمان بالله ورسولِهِ والجهادِ في سبيله؛ فإنَّ مَن جاهدَ الكفارَ؛ دلَّ ذٰلك على الإيمان التامِّ في قلبِهِ؛ لأنَّ من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه؛ فجهاده لنفسه على ذٰلك من باب أولى وأحرى، ولأنَّ من لم يقوَ على الجهاد؛ فإنَّ ذٰلك دليلٌ على ضعف إيمانه. وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب؛ أي: الشكُّ؛ لأنَّ الإيمان النافع هو الجزم اليقينيُّ بما

أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شكٌّ بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿أولٰئك هم الصادقون﴾؛ أي: الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة؛ فإنَّ الصدقَ دعوى عظيمةٌ في كل شيء يُدَّعى، يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهانٍ، وأعظم ذٰلك دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة والفوز الأبديِّ والفلاح السرمديِّ؛ فمن ادَّعاه وقام بواجباته ولوازمه؛ فهو الصادق المؤمن حقًّا، ومن لم يكن كذٰلك؛ عُلِم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة؛ فإنَّ الإيمان في القلب، لا يطلع عليه إلا الله تعالى؛ فإثباتُه ونفيُه من باب تعليم الله بما في القلب وهو سوء أدبٍ وظنٍّ بالله.

﴿١٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿قل أتُعَلِّمون اللهَ بِدينِكم واللهُ يعلمُ ما في السمٰواتِ وما في الأرضِ واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾: وهٰذا شاملٌ للأشياء كلِّها، التي من جملتِها ما في القلوب من الإيمان والكفران والبرِّ والفجور؛ فإنَّه تعالى يعلمُ ذٰلك كلَّه، ويجازي عليه، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

﴿١٧﴾ هٰذه حالةٌ من أحوال من ادَّعى لنفسه الإيمان وليس به؛ فإنَّه إمَّا أن يكون ذٰلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالمٌ بكلِّ شيء، وإمَّا أن يكون قصدُهم بهٰذا الكلام المنة على رسولِه، وأنَّهم قد بذلوا وتبرَّعوا بما ليس من مصالحهم بل هو من حظوظه الدنيويَّة، وهٰذا تجمُّلٌ بما لا يجمل، وفخرٌ بما لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله؛ فإنَّ المنَّة لله تعالى عليهم؛ فكما أنه تعالى هو المانُّ عليهم بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فمنَّتُه عليهم بهدايتهم إلى الإسلام ومنَّتُه عليهم بالإيمان أفضلُ من كلِّ شيء، ولهٰذا قال: ﴿يَمُنُّونَ عليك أنْ أسلَموا قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامكم بلِ اللهُ يمنُّ عليكم أنْ هداكُم للإيمانِ إن كنتُم صادقينَ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿إنَّ اللهَ يعلمُ غَيْبَ السَّمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق؛ كالذي في لُجَج البحار، ومَهامِهِ القِفار، وما جنَّهُ الليلُ أو واراهُ النهارُ؛ يعلمُ قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور، ﴿وما تَسقُطُ مِن ورقةٍ إلَّا يَعْلَمُها ولا حبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابس إلَّا في كتابٍ مبينٍ﴾. ﴿واللهُ بصيرٌ بما تعملون﴾: يُحصي عليكم أعمالَكم ويُوَفيكُم إيَّاها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات بعون الله ومنه وجوده وكرمه. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة قٓ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ②
أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ④﴾.

﴿١﴾ يقسم تعالى بـ﴿القرآنِ المجيد﴾؛ أي: وسيع المعاني، عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرات، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بذٰلك هٰذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأوَّلين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملَها، ومن الألفاظ أجزلَها، ومن المعاني أعمَّها وأحسنها.

﴿٢﴾ وهٰذا موجب لكمال اتِّباعه وسرعة الانقياد له وشكر الله على المنَّة به، ولٰكن أكثر الناس لا يقدِّر نعمَ الله قَدْرَها، ولهٰذا قال تعالى: ﴿بلْ عَجِبوا﴾؛ أي: المكذِّبون للرسول ﷺ، ﴿أن جاءَهُم منذرٌ منهم﴾؛ أي: يُنذرهم ما يضرُّهم ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنُهم التلقِّي عنه ومعرفة أحوالِه وصدقِه، فتعجَّبوا من أمرٍ لا ينبغي لهم التعجُّب منه، بل يتعجَّب من عَقل من تعجب منه، ﴿فقالَ الكافرون﴾؛ أي: الذين حَمَلَهُم كفرُهم وتكذيبُهم لا نقص بذكائِهِم وآرائِهِم[1]: ﴿هٰذا شيءٌ عجيبٌ﴾؛ أي: مستغربٌ.

وهم في هٰذا الاستغراب بين أمرين: إمَّا صادقونَ في استغرابهم وتعجُّبهم؛ فهٰذا يدلُّ على غاية جهلهم وضعف عقولهم؛ بمنزلة المجنون الذي يستغربُ كلامَ العاقل، وبمنزلة الجبانِ الذي يتعجَّب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السَّخاء؛ فأيُّ ضررٍ يلحق من تعجب مَن هٰذه حالُه؟! وهل تعجُّبه إلا دليلٌ على زيادة جهله وظلمه[2]؟! وإما أن يكونوا متعجِّبين على وجهٍ يعلمون خطأهم فيه؛ فهٰذا من أعظمِ الظُّلم وأشنعِه.

﴿٣ ـ ٤﴾ ثم ذكر وجه تعجُّبهم، فقال: ﴿أإذا مِتْنا وكُنَّا تراباً ذٰلك رَجْعٌ بعيدٌ﴾: فقاسوا قدرة من هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ الكامل من كلِّ وجهٍ، بقدرة العبد الفقير

---

(١) في (ب): «بقلوبهم وعقولهم».

(٢) في (ب): «ظلمه وجهله».

العاجز من جميع الوجوه! وقاسوا الجاهلَ الذي لا علمَ له، بمن هو بكلِّ شيءٍ عليمٌ، الذي يعلم ﴿ما تَنقُصُ الأرضُ﴾: من أجسادهم مدَّة مقامِهم في البرزخ[1]، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده ـ محفوظٌ عن التغيير والتبديل ـ كلَّ ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم. وهٰذا استدلالٌ بكمال سعة علمه[2]، التي لا يحيطُ بها إلَّا هو على قدرته على إحياء الموتى.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

﴿٥﴾ أي: ﴿بل﴾: كلامُهم الذي صدر منهم إنَّما هو عنادٌ وتكذيبٌ للحقِّ الذي هو أعلى أنواع الصدق. ﴿لمَّا جاءهم فهم في أمرٍ مَريجٍ﴾؛ أي: مختلطٍ مشتبهٍ، لا يثبتون على شيءٍ، ولا يستقرُّ لهم قرارٌ، فتارةً يقولونَ عنك: إنَّك ساحرٌ! وتارةً: مجنونٌ! وتارة: شاعرٌ! وكذٰلك جعلوا القرآن عِضين، كلٌّ قال فيه ما اقتضاه فيه رأيُه الفاسدُ. وهٰكذا كلُّ من كذَّب بالحقِّ؛ فإنَّه في أمرٍ مختلطٍ، لا يدرى له وجهٌ ولا قرارٌ، فترى أموره متناقضةً مؤتفكةً؛ كما أنَّ من اتَّبع الحقَّ وصدق به قد استقام أمرُه واعتدل سبيلُه، وصدق فعلُه قيلَه.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

﴿٦﴾ لمَّا ذكر تعالى حالة المكذِّبين وما ذمَّهم به؛ دعاهم إلى النَّظر في آياته الأفقيَّة كي يعتبروا ويستدلُّوا بها على ما جُعلت أدلةً عليه، فقال: ﴿أفلمْ ينظُروا إلى السماءِ فوقَهم﴾؛ أي: لا يحتاجُ ذٰلك النظرُ إلى كلفةٍ وشدِّ رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كيفَ بَنَيْناها﴾: قبةً مستويةَ الأرجاء ثابتة البناء مزيَّنةً بالنجوم الخُنَّس والجواري الكُنَّس، التي ضُرِبتْ من الأفق إلى الأفُق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيباً ولا فروجاً ولا خلالاً ولا إخلالاً، قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضروريَّة ما أودع.

---

(١) في (ب): «برزخهم».

(٢) في (ب): «علمه وسعته».

﴿٧﴾ وإلى الأرض كيف مَدَدْناها ووسَّعناها حتى أمكن كلَّ حيوانٍ السكونُ فيها والاستقرار[١] والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال؛ لتستقرَّ من التَّزلزل والتموُّج. ﴿وأنبَتْنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيجٍ﴾؛ أي: من كل صنفٍ من أصناف النبات التي تسرُّ ناظريها، وتُعجِب مبصرِيها، وتُقِرُّ عين رامقيها[٢] لأكل بني آدم وأكل بهائمهم ومنافعهم.

﴿٨ ـ ١١﴾ وخصَّ من تلك المنافع [بالذكر] الجنَّات المشتملة على الفواكه اللَّذيذة من العنب والرُّمان والأترجِّ والتُّفاح وغير ذٰلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات؛ أي: الطوال، التي يطول نفعها[٣]، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثيرٌ من الأشجار، فتخرجَ من الطلع النضيد في قنوانها ما هو رزقٌ للعباد قوتاً وأدماً وفاكهةً يأكلون منه ويدَّخرون هم ومواشيهم. وكذٰلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض و[التي] تحتها من ﴿حبَّ الحصيدِ﴾؛ أي: من الزَّرع المحصود من بُرٍّ وشعير وذرة وأرزٍّ ودخن وغيره؛ فإن في النظر في هٰذه الأشياء ﴿تبصرةً﴾: يُتَبَصَّر بها[٤] من عمى الجهل، ﴿وذكرى﴾: يُتَذَكَّر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويُتَذَكَّر بها ما أخبر الله به وأخبرت به رسله، وليس ذٰلك لكلِّ أحدٍ، بل ﴿لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾ إلى الله؛ أي: مقبل عليه بالحبِّ والخوف والرجاء وإجابة داعيه، وأمَّا المكذِّب أو المعرض؛ فما تغني الآياتُ والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصلُ هٰذا أنَّ ما فيها من الخلق الباهر والقوَّة والشدَّة[٥] دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى، **وما فيها** من الحسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع[٦] الخلقة دليلٌ على أنَّ اللهَ أحكمُ الحاكمين، وأنَّه بكلِّ شيء عليمٌ، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد دليلٌ على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عمَّ كلَّ حيٍّ، **وما فيها** من عظمة الخلقة وبديع النِّظام دليلٌ على أنَّ الله تعالى هو الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحدٌ، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذُّلُّ والحبُّ إلَّا له، **وما فيها** من إحياء الأرض بعد موتها دليلٌ على

---

(١) في (ب): «والقرار».
(٢) في (ب): «تسرُّ ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقرّ عين رامقها».
(٣) في (ب): «يستمر نفعها ويطول». (٤) في (ب): «به».
(٥) في (ب): «والشدّة والقوّة». (٦) في (ب): «وعجيب».

إحياء الله الموتى ليجازِيَهم بأعمالهم، ولهٰذا قال: ﴿وأحْيَيْنا به بلدةً ميتاً كذٰلك الخروجُ﴾.

ولـمَّا ذكَّرهـم بهٰذه الآيات السماوية والأرضيَّة؛ خوَّفهم أخذات الأمم، وألَّا يستمرُّوا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانَهم من المكذِّبين، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٢ ـ ١٤﴾ أي: كذَّب الذين من قبلهم من الأمم رُسُلَهم الكرام وأنبياءَهم العظام؛ كنوح كذَّبه قومه، وثمود كذَّبوا صالحاً، وعاد كذَّبوا هوداً، وإخوان لوطٍ كذَّبوا لوطاً، وأصحابُ الأيكةِ كذَّبوا شعيباً، وقوم تُبَّع ـ وتُبَّعٌ كل ملكٍ مَلَكَ اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام ـ فقوم تُبَّع كذَّبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبِرْنا اللهُ من هو ذٰلك الرسولُ، وأيُّ تُبَّعٍ من التَّبابعة؛ لأنه ـ والله أعلم ـ كان مشهوراً عند العرب العرباء[1]، الذين لا تخفَى ماجرياتهم على العرب، خصوصاً مثل هٰذه الحادثة العظيمة؛ فهٰؤلاء كلُّهم كذَّبوا الرُّسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحقَّ عليهم وعيدُ الله وعقوبته، ولستم أيُّها المكذِّبون لمحمدٍ ﷺ خيراً منهم، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم؛ فاحذروا جرمهم؛ لئلَّا يصيبكم ما أصابهم.

﴿١٥﴾ ثم استدل تعالى بالخلق الأول ـ وهو النشأة الأولى ـ على الخلق الآخر ـ وهو النشأة الآخرة ـ؛ فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم؛ كذٰلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرُّفات والرِّمم، فقال: ﴿أفعَيينا﴾؛ أي: أفعَجَزْنا وضعفتْ قدرتُنا ﴿بالخلق الأوَّلِ﴾: ليس الأمر كذٰلك، فلم نعجز ونعيَ عن ذٰلك، وليسوا في شكٍّ من ذٰلك، وإنما ﴿هم في لَبسٍ من خَلْقٍ جديدٍ﴾: هٰذا الذي شكُّوا فيه والتبس عليهم أمره، مع أنَّه لا محلَّ للَّبس فيه؛ لأنَّ الإعادة أهونُ من الابتداء؛ كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخَلْقَ ثمَّ يعيدُهُ وهو أهونُ عليه﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى

---

(١) في (ب): «كان مشهوراً عند العرب؛ لكونهم من العرب العرباء».

﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنَّه المتفرِّد بخلق[١] جنس الإنسان ذكورِهم وإناثِهم، وأنَّه يعلم أحواله وما يُسِرُّه وتوسوس به نفسه[٢]، وأنه ﴿أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ﴾: الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو [العرق][٣] المكتنف لثُغرة النحر. وهٰذا ممّا يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطَّلع على ضميره وباطنه، القريب إليه[٤] في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

﴿١٧﴾ وكذٰلك ينبغي له أن يجعل الملائكةَ الكرامَ الكاتبين منه على بال، فيجلُّهم ويوقِّرهم ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه ممّا لا يرضي ربَّ العالمين، ولهٰذا قال: ﴿إذ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيانِ﴾؛ أي: يتلقَّيانِ عن العبد أعماله كلَّها، واحدٌ ﴿عن اليمين﴾: يكتب الحسنات، ﴿و﴾ الآخر ﴿عن الشمال﴾: يكتب السيئات، وكل منهما مقيدٌ بذٰلك، متهيىءٌ لعمله الذي أعدَّ له، ملازمٌ لذٰلك.

﴿١٨﴾ ﴿ما يَلْفِظُ من قولٍ﴾: خير أو شرٌ ﴿إلَّا لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾؛ أي: مراقب له، حاضرٌ لحاله؛ كما قال تعالى: ﴿وإنَّ عليكم لحافظينَ . كراماً كاتبينَ . يعلمون ما تفعلون﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: وجاءت هٰذا الغافل المكذِّب بآيات الله، ﴿سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ﴾: الذي لا مردَّ له ولا مناص. ﴿ذٰلك ما كنتَ منه تَحيدُ﴾؛ أي: تتأخَّر وتنكصُ[٥] عنه.

﴿٢٠﴾ ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ ذٰلك يَوْمُ الوعيدِ﴾؛ أي: اليوم الذي يلحقُ الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿٢١﴾ ﴿وجاءتْ كلُّ نفسٍ معها سائقٌ﴾: يسوقُها إلى موقف القيامة؛ فلا يمكنُها

---

(١) في (ب): «أنه الذي خلق».
(٢) في (ب): «ويوسوس في صدره».
(٣) كذا في (ب) بعد أن صوبها الشيخ في الهامش. وفي (أ) بقيت كما هي: «العظم».
(٤) في (ب): «منه».
(٥) في (ب): «وتحيد».

أن تتأخَّر عنه، ﴿وشهيدٌ﴾: يشهدُ عليها بأعمالها؛ خيرِها وشرِّها. وهٰذا يدلُّ على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل.

﴿٢٢﴾ فهٰذا الأمر مما يجب أن يجعله العبدُ منه على بالٍ، ولٰكن أكثر الناس غافلون، ولهٰذا قال: ﴿لقد كُنتَ في غفلةٍ من هٰذا﴾؛ أي: يقال للمعرض المكذِّب يوم القيامة هٰذا الكلام توبيخاً ولوماً وتعنيفاً؛ أي: لقد كنتَ مكذِّباً بهٰذا تاركاً للعمل له[1]. ﴿فـ﴾: الآن ﴿كَشَفْنا عنك غِطاءَك﴾: الذي غطَّى قلبَك فكثر نومُك واستمرَّ[2] إعراضُك، ﴿فبصرُك اليومَ حديدٌ﴾: ينظر ما يزعجه ويروِّعه من أنواع العذاب والنَّكال، أو هٰذا خطابٌ من الله للعبد؛ فإنَّه في الدُّنيا في غفلةٍ[3] عما خُلِقَ له، ولٰكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وَسَنُه في وقت لا يمكِنُه أن يتداركَ الفارطَ ولا يستدركَ الفائتَ. وهٰذا كلُّه تخويفٌ من الله للعباد، وترهيبٌ بذكر ما يكون على المكذِّبين في ذٰلك اليوم العظيم.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿وقال قرينُهُ﴾؛ أي: قرين هٰذا المكذِّب المعرض من الملائكة، الذين وَكَلَهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة، ويحضر أعماله، ويقول: ﴿هٰذا ما لديَّ عتيدٌ﴾؛ أي: قد أحضرتُ ما جعلتُ عليه من حفظه وحفظ عمله.

﴿٢٤﴾ فيجازى بعمله، ويقال لمن استحقَّ النار: ﴿ألقِيا في جَهَنَّم كلَّ كفَّارٍ عنيدٍ﴾؛ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المتجرِّىء على المحارم والمآثم.

﴿٢٥﴾ ﴿منَّاعٍ للخيرِ﴾؛ أي: يمنع الخير الذي قِبَله[4]، الذي أعظمه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، منَّاع لنفع ماله وبدنه، ﴿معتدٍ﴾: على عباد الله وعلى

---

(١) في (ب): «به».
(٢) في (ب): «ودام».
(٣) في (ب): «أنه في غفلة في الدنيا».
(٤) في (ب): «عنده».

حدوده، أثيم، أي: كثير الإثم، ﴿مريبٍ﴾؛ أي: شاكٌّ في وعد الله ووعيده؛ فلا إيمان ولا إحسان، ولكن وصفه الكفر والعدوان والشكُّ والريب والشحُّ واتِّخاذُ الآلهة من دون الرحمٰن.

﴿٢٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿الذي جَعَلَ مع اللهِ إلٰهاً آخر﴾؛ أي: عبد معه غيره ممَّن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ﴿فألقياه﴾: أيُّها المَلَكان القرينان ﴿في العذابِ الشديدِ﴾: الذي هو معظمها وأشدُّها وأشنعُها.

﴿٢٧﴾ ﴿قال قرينُهُ﴾: الشيطان متبرِّئاً منه حاملاً عليه إثمه: ﴿ربَّنا ما أطْغَيْتُه﴾: لأنِّي لم يكن لي عليه سلطانٌ ولا حجةٌ ولا برهانٌ، ﴿ولٰكن كانَ في ضلالٍ بعيدٍ﴾: فهو الذي ضلَّ وبَعُدَ عن الحقِّ باختياره؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الشيطانُ لَمَّا قُضِيَ الأمرُ إن الله وَعَدَكم وَعْدَ الحقِّ ووعدتُكم فأخْلَفْتُكم[1]...﴾ الآية.

﴿٢٨﴾ قال الله تعالى مجيباً لاختصامهم: ﴿لا تَخْتَصِموا لديَّ﴾؛ أي: لا فائدة في اختصامكم عندي، ﴿و﴾ الحال أني ﴿قد قدَّمْتُ إليكم بالوعيدِ﴾؛ أي: جاءتكم رسلي بالآيات البيِّنات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجَّتي وانقطعت حجَّتُكم، وقدمتُم إليَّ بما أسلفتم من الأعمال التي وَجَبَ جزاؤها.

﴿٢٩﴾ ﴿ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ﴾؛ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به؛ لأنَّه لا أصدق من الله قيلاً، ولا أصدق حديثاً. ﴿وما أنا بظلاَّمٍ للعبيدِ﴾: بل أجزيهم بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ؛ فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٠﴾ يقول تعالى مخوِّفاً لعباده: ﴿يومَ نقولُ لجهنَّم هلِ امتلأتِ﴾: وذٰلك من كثرةِ ما ألقيَ فيها، ﴿وتقولُ هلْ مِن مَزيدٍ﴾؛ أي: لا تزال تطلبُ الزيادة من المجرمين العاصين؛ غضباً لربِّها، وغيظاً على الكافرين، وقد[2] وعدها الله ملأها؛ كما قال تعالى: ﴿لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّة والنَّاس أجمعينَ﴾: حتى يضعَ ربُّ العزَّة

---

(١) في (ب): ذكر المؤلف الآية إلى قوله تعالى: ﴿ولُوموا أنفسَكم﴾.

(٢) في (ب): «حتى وقد».

عليها قدمه الكريمة المنزَّهة عن التشبيه، فينزوي بعضُها على بعضٍ، وتقول: قط، قط[١]؛ قد اكتفيت وامتلأت.

﴿٣١﴾ ﴿وأزلِفَتِ الجنةُ﴾؛ أي: قرِّبت بحيث تشاهَد ويُنْظَرُ ما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، وإنما أزلِفَتْ وقُرِّبَتْ لأجل المتَّقين لربِّهم، التاركين للشرك كبيره وصغيره[٢]، الممتثِلينَ لأوامر ربهم، المنقادين له.

﴿٣٢﴾ ويقال لهم على وجه التَّهنئة: ﴿هٰذا ما توعدون لكلِّ أوَّابٍ حفيظٍ﴾؛ أي: هٰذه الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين هي التي وعدَ اللهُ كلَّ أوابٍ؛ أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأوقات؛ بذكرِه وحبِّه والاستعانةِ به ودعائِه وخوفِه ورجائِه. ﴿حفيظ﴾؛ أي: محافظ على ما أمر الله به؛ بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له على أتمِّ الوجوه، حفيظ لحدوده.

﴿٣٣﴾ ﴿مَنْ خَشِيَ الرحمٰنَ﴾؛ أي: خافه على وجه المعرفة بربِّه والرجاء لرحمته، ولازم على خشية الله في حال غيبه؛ أي: مغيبه عن أعين الناس. وهٰذه الخشية الحقيقيَّة، وأمَّا خشيتُه في حال نظر الناس وحضورهم؛ فقد يكون رياءً وسمعةً؛ فلا يدلُّ على الخشية، وإنما الخشية النافعة خشيته في الغيب والشهادة، [ويحتمل أنَّ المراد بخشية اللّٰه بالغيب، كالمراد بالإيمان بالغيب. وأنَّ هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب، وتأتي آيات اللّٰه وهذا هو الظاهر.] ﴿وجاء بقلبٍ منيبٍ﴾؛ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه.

﴿٣٤﴾ ويقال لهٰؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادْخلوها بِسلام﴾؛ أي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشرور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور؛ فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص. ﴿ذٰلك يومُ الخُلودِ﴾: الذي لا زوال له ولا موت ولا شيء من المكدِّرات.

﴿٣٥﴾ ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾؛ أي: كلُّ ما تعلَّقت به مشيئتهم؛ فهو حاصلٌ فيها، ﴿ولدَينا﴾: فوق ذٰلك ﴿مَزيدٌ﴾؛ أي: ثوابٌ يمدُّهم به الرحمٰن الرحيم، ممَّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ، وأعظم ذٰلك وأجلُّه وأفضله

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «صغيره وكبيره».

النظر إلى وجهه الكريم، والتمتُّع بسماع كلامه، والتنعُّم بقربه، فنسأله من فضله[(١)].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى مخوفاً للمشركين المكذِّبين للرسول: ﴿وكمْ أهلَكْنا قبلَهم من قرنٍ﴾؛ أي: أمماً كثيرة ﴿هم أشدُّ منهم بَطْشاً﴾؛ أي: قوةً وآثاراً في الأرض، ولهٰذا قال: ﴿فنَقَّبوا في البلاد﴾؛ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمَّروا، ودمَّروا، فلما كذَّبوا رسل الله وجحدوا آياته[(٢)]؛ أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد. ﴿هل من مَحيصٍ﴾؛ أي: لا مفرَّ لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوَّتُهم ولا أموالهم ولا أولادهم.

﴿٣٧﴾ ﴿إنَّ في ذٰلك لَذِكْرى لِمَن كان له قلبٌ﴾؛ أي: قلبٌ عظيمٌ حيٌّ ذكيٌّ زكيٌّ؛ فهٰذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله؛ تذكَّر بها وانتفع فارتفع، وكذٰلك من ألقى سمعه إلى آيات الله واستمعها استماعاً يسترشد به وقلبُه ﴿شهيدٌ﴾؛ أي: حاضرٌ؛ فهٰذا أيضاً له ذكرى وموعظةٌ وشفاءٌ وهدى، وأمَّا المعرض الذي لم يصغ[(٣)] سمعه إلى الآيات؛ فهٰذا لا تفيده شيئاً؛ لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمةُ الله هداية من هٰذا نعته[(٤)].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ وهٰذا إخبارٌ منه تعالى عن قدرته العظيمة ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات؛ ﴿السمٰواتِ والأرضَ وما بينَهما في ستَّة أيام﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة؛ من غير تعبٍ ولا نصبٍ ولا لغوبٍ ولا إعياءٍ؛ فالذي أوجدها على كبرها وعظمها قادرٌ على إحياء الموتى من باب أولى وأحرى.

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ ﴿فاصبرْ على ما يقولونَ﴾: من الذمِّ لك والتكذيب بما جئتَ به، واشتغلْ عنهم واله بطاعة ربِّك وتسبيحه أول النهار وآخره وفي أوقات الليل وأدبار

---

(١) في (ب): «فنسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم». (٢) في (ب): «آيات الله».
(٣) في (ب): «لم يلقِ». (٤) في (ب): «هذا وصفه ونعته».

الصلوات؛ فإن ذِكْرَ الله تعالى مسلٍّ للنفس مؤنسٌ لها مهوِّنٌ للصبر.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿واستمعْ﴾: بقلبك نداء المنادي، وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخُ في الصور ﴿من مكانٍ قريبٍ﴾: من الأرض[1].

﴿٤٢﴾ ﴿يوم يسمعونَ الصَّيحَةَ﴾؛ أي: كلُّ الخلائق يسمعون تلك ﴿الصيحة﴾: المزعجة المهولة ﴿بالحقِّ﴾: الذي لا شكَّ فيه ولا امتراء. ﴿ذٰلك يومُ الخروج﴾: من القبور، الذي انفرد به القادر على كلِّ شيء.

﴿٤٣ ـ ٤٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿إنَّا نحن نحيي ونميتُ وإلينا المصيرُ. يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم﴾؛ أي: عن الخلائق ﴿سراعاً﴾؛ أي: يسرعون لإجابة الدَّاعي لهم إلى موقفِ القيامة. ﴿ذٰلك حشرٌ علينا يسيرٌ﴾؛ أي: سهل على الله[2]، لا تعبَ فيه ولا كلفةَ.

﴿٤٥﴾ ﴿نحنُ أعلمُ بما يقولون﴾: لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنَّا أعلم بذٰلك؛ فقد علمت كيف اعتناؤنا بك وتيسيرنا لأمورك ونصرنا لك على أعدائك؛ فليفرح قلبك، ولتطمئنَّ نفسُك، ولتعلم أنَّنا أرحم بك وأرأف من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسِّي بأولي العزم من رسلِ الله، ﴿وما أنت عليهم بجبَّارٍ﴾؛ أي: مسلَّط عليهم، ﴿إنَّما أنت منذرٌ ولكلِّ قوم هادٍ﴾، ولهٰذا قال: ﴿فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾، والتذكير هو تذكير ما تقرَّر في العقول والفطر من محبَّة الخير وإيثاره وفعله ومن بغض الشرِّ ومجانبته، وإنما يتذكَّر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخفِ الوعيد ولم يؤمنْ به؛ فهٰذا فائدة تذكيره إقامة الحجَّة عليه لئلا يقول: ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ.

آخر تفسير سورة قٓ.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

❁ ❁ ❁

---

(١) وفي هامش (ب) الخلق.

(٢) في (ب): «هين على الله يسير».

تفسير سورة والذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ هٰذا قسمٌ من الله الصادق في قيله بهٰذه المخلوقات العظيمة، التي جعل اللهُ فيها من المصالح والمنافع ما جعل، على أنَّ وعدَه صدقٌ، وأنَّ الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال لواقعٌ لا محالةَ، ما له من دافع. فإذا أخبر به الصادقُ العظيم، وأقسم عليه، وأقام الأدلَّة والبراهين عليه؛ فلِمَ يكذِّب به المكذِّبون، ويعرِض عن العمل له العاملون؟! ﴿والذَّارياتِ﴾[1]: هي الرياح التي تذرو في هبوبها ﴿ذرواً﴾: بلينها ولطفها وقوَّتها وإزعاجها، ﴿فالحاملاتِ وِقراً﴾: هي السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به العباد والبلاد[2]، ﴿فالجارياتِ يُسراً﴾: النجوم التي تجري على وجه اليُسر والسُّهولة، فتتزيَّن بها السماواتُ، ويُهتدَى بها في ظلمات البرِّ والبحر، ويُنْتَفَعُ بالاعتبار بها، والمقَسِّمات ﴿أمراً﴾: الملائكة التي تقسِّم الأمر وتدبِّره بإذن الله؛ فكلٌّ منهم قد جعله الله على تدبير أمرٍ من أمور الدنيا والآخرة لا يتعدَّى ما حُدَّ له وقُدِّر ورُسِم ولا ينقص منه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾.

﴿٧﴾ أي: ﴿والسماء﴾: ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حُبُكَ الرمال ومياه الغدران حين يحركها النسيم.

﴿٨﴾ ﴿إنَّكم﴾: أيُّها المكذِّبون لمحمدٍ ﷺ، ﴿لفي قول مختلفٍ﴾: منكم من يقولُ: ساحر! ومنكم من يقول: كاهن! ومنكم من يقول: مجنون! إلى غير ذٰلك من الأقوال المختلفة الدالَّة على حيرتهم وشكِّهم، وأنَّ ما هم عليه باطلٌ.

﴿٩﴾ ﴿يؤفَكُ عنه من أُفِكَ﴾؛ أي: يُصْرَفُ عنه من صُرف عن الإيمان وانصرف [قلبه] عن أدلَّة الله اليقينيَّة وبراهينه. واختلافُ قولهم دليلٌ على فساده وبطلانه؛ كما

(١) في (ب): «والمراد بـ﴿الذاريات﴾». (٢) في (ب): «البلاد والعباد».

أنَّ الحقَّ الذي جاء به محمد ﷺ متَّفق؛ يصدِّقُ بعضه بعضاً، لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليلٌ على صحَّته، وأنَّه من عند الله؛ فلو كان من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿قُتِلَ الخرَّاصونَ﴾؛ أي: قاتل الله الذين كَذَبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل ليُدْحِضوا به الحقَّ، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

﴿١١﴾ ﴿الذين هم في غمرةٍ﴾؛ أي: في لُجَّةٍ من الكفر والجهل والضلال، ﴿ساهون﴾.

﴿١٢﴾ ﴿يسألون﴾: على وجه الشكِّ والتكذيب: ﴿أيَّان [يوم الدين][1]﴾: يبعثون؛ أي: متى يُبعثون؟! مستبعدين لذلك!

﴿١٣ ـ ١٤﴾ فلا تسألْ عن حالهم وسوء مآلهم! ﴿يوم هم على النار يُفتنون﴾؛ أي: يعذَّبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويُقالُ لهم: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾؛ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به من الابتلاء، الذي صيَّرهم إلى الكفر والضلال. ﴿هٰذا﴾: العذابُ الذي وصلتم إليه هو ﴿الذي كنتُم به تستعجلونَ﴾: فالآن تمتَّعوا بأنواع العقاب والنَّكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوَبال.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتَّقين وأعمالهم التي وصلوا بها إلى ذٰلك الجزاء[2]: ﴿إنَّ المتَّقينَ﴾؛ أي: الذين كانت التَّقوى شعارهم وطاعةُ اللهِ دثارهم، ﴿في جناتٍ﴾: مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه، التي يوجد لها نظيرٌ في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظيرٌ، مما لم تنظر العيونُ إلى مثله، ولم تسمع

---

(١) في النسختين: «يبعثون».

(٢) في (ب): «التي أوصلتهم إلى ذلك الجزاء».

الآذانُ، ولم يخطرْ على قلب بشرٍ[١]، ﴿وعيونٍ﴾: سارحة تشرب منها تلك البساتين، ويشربُ بها عبادُ الله يفجِّرونها تفجيراً.

﴿١٦﴾ ﴿آخذينَ ما آتاهم ربُّهم﴾: **يُحتملُ** أنَّ المعنى أنَّ أهل الجنَّة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذٰلك راضين به، قد قرَّت به أعينُهم، وفرحتْ به نفوسُهم، ولم يطلبُوا منه بدلاً، ولا يبغون عنه حولاً، وكلٌّ قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد. **ويُحتمل** أنَّ هٰذا وصف المتَّقين في الدُّنيا، وأنَّهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي؛ أي: قد تلقَّوها بالرحب وانشراح الصدر، منقادين لما أمر الله به بالامتثال على أكمل الوجوه، ولما نهى عنه بالانزجار عنه لله على أكمل وجه؛ فإنَّ الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا التي حقُّها أن تُتَلَقَّى بالشُّكر لله عليها والانقياد.

والمعنى الأول ألصقُ بسياق الكلام؛ لأنَّه ذكر وصفهم في الدُّنيا وأعمالهم بقوله: ﴿إنَّهم كانوا قبل ذٰلك﴾: الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿محسنين﴾: وهٰذا شاملٌ لإحسانهم بعبادة ربِّهم؛ بأن يعبدوه كأنهم يرونه؛ فإنْ لم يكونوا يرونه؛ فإنَّه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاهٍ أو نصيحةٍ أوأمرٍ بمعروف أو نهيٍ عن منكرٍ، أو غير ذٰلك من وجوه البرِّ[٢] وطرق الخيرات، حتى إنَّه يدخُلُ في ذٰلك الإحسان بالقول والكلام الليِّن والإحسان إلى المماليك والبهائم المملوكة وغير المملوكة[٣].

﴿١٧﴾ ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق صلاةُ الليل الدالَّة على الإخلاص وتواطؤ القلب واللسان، ولهٰذا قال: ﴿كانوا﴾؛ أي: المحسنون، ﴿قليلاً من الليل ما يَهْجَعونَ﴾؛ أي: كان هجوعهم؛ أي: نومهم بالليل قليلاً، وأمَّا أكثر الليل؛ فإنَّهم قانتون لربِّهم، ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرُّع.

﴿١٨﴾ ﴿وبالأسحار﴾: التي هي قبيل الفجر، ﴿هم يستغفرونَ﴾: الله تعالى، فمدُّوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون الله تعالى استغفار المذنبِ لذنبه. وللاستغفار بالأسحار فضيلةٌ وخصيصةٌ ليست لغيره؛ كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿والمستغفرينَ بالأسحار﴾.

---

(١) في (ب): «على قلوب العباد». (٢) في (ب): «وجوه الإحسان».

(٣) في (ب): «والبهائم التي تملك والتي لا تملك».

﴿١٩﴾ ﴿وفي أموالهم حقٌّ﴾: واجبٌ ومستحبٌّ ﴿للسائل والمحروم﴾؛ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس والذين لا يسألونهم.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿٢٠﴾ يقول تعالى داعياً عباده إلى التفكُّر والاعتبار: ﴿وفي الأرض آياتٌ للموقِنين﴾: وذٰلك شاملٌ لنفس الأرض وما فيها من جبال وبحارٍ وأنهارٍ وأشجارٍ ونباتٍ تدلُّ المتفكِّر فيها، المتأمِّل لمعانيها على عظمة خالقها وسعة سلطانه وعميم إحسانه وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

﴿٢١﴾ وكذٰلك في نفس العبد من العِبَرِ والحكمة والرحمة ما يدلُّ على أنَّ الله واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ[١]، وأنَّه لم يخلق الخلق سدىً.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وفي السماء رزقُكُم﴾؛ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار؛ الرزق الدينيُّ والدنيويُّ، وما توعدونه من الجزاء في الدنيا والآخرة؛ فإنَّه ينزل من عند الله كسائر الأقدار.

﴿٢٣﴾ فلما بيَّن الآيات ونبَّه عليها تنبيهاً ينتبه به الذكيُّ اللبيبُ؛ أقسم تعالى على أنَّ وعده وجزاءه حقٌّ، وشبَّه ذٰلك بأظهر الأشياء لنا، وهو النُّطق، فقال: ﴿فوربِّ السماءِ والأرضِ إنَّه لَحقٌّ مثلما أنَّكم تَنطِقونَ﴾؛ فكما أنَّكم لا تشكُّون في نطقكم؛ فكذٰلك ينبغي أن لا يعترِيَكم الشكُّ في البعث والجزاء[٢].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ[٣] ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ

(١) في (ب): «ما يدلُّ على أن الله وحده الأحد الفرد الصمد».
(٢) في (ب): «في البعث بعد الموت».
(٣) في (ب): لم تذكر الآيات التي بعدها.

رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ
﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾؛ أي: أما جاءك؟ ﴿حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المُكْرَمينَ﴾: ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوطٍ، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاؤوه في صورة أضياف.

﴿٢٥﴾ ﴿إذْ دَخَلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾: مجيباً لهم: ﴿سلامٌ﴾؛ أي: عليكم، ﴿قومٌ منكَرون﴾؛ أي: أنتم قوم منكَرون، فأحبُّ أن تعرِّفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلَّا بعد ذٰلك.

﴿٢٦﴾ ولهذا راغ ﴿إلى أهلِهِ﴾؛ أي: ذهب سريعاً في خفيةٍ ليحضر لهم قِراهم، ﴿فجاء بعجلٍ سمينٍ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿فقرَّبه إليهم﴾: وعرض عليهم الأكل، فَـ﴿قَالَ ألا تأكُلونَ﴾؟

﴿٢٨﴾ ﴿فأوجسَ منهم خيفةً﴾: حين رأى أيديهم لا تصلُ إليه، ﴿قالوا لا تخفْ﴾: وأخبروه بما جاؤوا له، ﴿وبشَّروه بغلام عليم﴾: وهو إسحاق عليه السلام.

﴿٢٩﴾ فلمَّا سمعت المرأةُ البشارةَ؛ ﴿أقبلتْ﴾: فرحةً مستبشرةً ﴿في صَرَّةٍ﴾؛ أي: صيحة، ﴿فصكَّتْ وجهها﴾: وهٰذا من جنس ما يجري للنساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وقالتْ عجوزٌ عقيمٌ﴾؛ أي: أنَّى لي الولد وأنا عجوزٌ قد بلغتُ من السنِّ ما لا تلد معه النساء! ومع ذٰلك؛ فأنا عقيمٌ غير صالح رحمي للولادة أصلاً؛ فثمَّ مانعان، كلٌّ منهما مانعٌ من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هودٍ في قولها: ﴿وهٰذا بعلي شيخاً إنَّ هٰذا لشيءٌ عجيبٌ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿قالوا كذٰلِكِ قال ربُّكِ﴾؛ أي: الله الذي قدَّر ذلك وأمضاه؛ فلا عجب في قدرة الله [تعالى]، ﴿إنَّه هو الحكيم العليم﴾؛ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسعَ كلَّ شيء علماً، فسلِّموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

﴿٣١﴾ ﴿قال فما خطبُكم أيُّها المرسلونَ﴾[1]؛ أي: قال لهم إبراهيم عليه

(١) في (ب): «الآيات».

السلام: ما شأنكم أيُّها المرسلون؟! وماذا تريدون؟! لأنَّه استشعر[١] أنهم رسلٌ أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمَّة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنَّا أرسِلْنا إلى قوم مجرمينَ﴾: وهم قومُ لوطٍ، قد أجرموا بإشراكهم بالله وتكذيبهم لرسولهم وإتيانهم الفاحشة التي لم يَسْبِقْهم إليها[٢] أحدٌ من العالمين.

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ ﴿لنرسلَ عليهم حجارةً من طينٍ. مسوَّمةً عند ربِّكَ للمسرفينَ﴾؛ أي: معلَّمة على كلِّ حجرٍ اسم[٣] صاحبه؛ لأنَّهم أسرفوا وتجاوزوا الحدَّ. فجعل إبراهيمُ يجادِلُهم في قوم لوطٍ، لعلَّ الله يدفعُ عنهم العذاب، فقيل له[٤]: ﴿يا إبراهيمُ أعْرِضْ عن هٰذا إنَّه قد جاء أمرُ رَبِّك وإنَّهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ﴾.

﴿٣٥ ـ ٣٦﴾ ﴿فأخْرَجْنا من كان فيها من المؤمنينَ. فما وَجَدْنا فيها غيرَ بيتٍ من المسلمين﴾: وهم بيتُ لوطٍ عليه السلام؛ إلَّا امرأتَه؛ فإنَّها من المهلكين.

﴿٣٧﴾ ﴿وتركْنا فيها آيةً للذين يخافون العذابَ الأليمَ﴾: يعتبرون بها ويعلمون أنَّ الله شديدُ العقاب، وأنَّ رسلَه صادقون مصدوقون.

فصل

في ذكر بعض ما تضمَّنته هٰذه القصةُ من الحِكَم والأحكام

منها: أنَّ من الحكمة قصَّ الله على عباده نبأ الأخيار والفجَّار؛ ليعتبروا بهم[٥]، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضيلة[٦] إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث ابتدأ الله قصَّته بما يدلُّ على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

ومنها: مشروعيَّة الضيافة، وأنَّها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمداً[٧] وأمته أن يتَّبعوا ملَّته، وساقها الله في هٰذا الموضع على وجه المدح والثناء.

---

(١) في (ب): «أي ما شأنكم وما تريدون لأنه علم..

(٢) في (ب): «قد أجرموا وأشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم عليها».

(٣) في (ب): «سمة».

(٤) في (ب): «قال الله».

(٥) في (ب): «بحالهم».

(٦) في (ب): «فضل».

(٧) في (ب): «هذا النبي».

ومنها: أنَّ الضَّيف يُكْرَمُ بأنواع الإكرام؛ بالقول والفعل؛ لأنَّ الله وصف أضياف إبراهيم بأنَّهم مكرمون؛ أي: أكرمهم إبراهيم، ووصفَ الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلاً، ومكرمون أيضاً عند الله [تعالى].

ومنها: أنَّ إبراهيم عليه السلام قد كان بيته مأوىً للطارقين والأضياف؛ لأنَّهم دخلوا عليه من غير استئذانٍ، وإنَّما سلكوا طريق الأدب في ابتداء السلام، فردَّ عليهم إبراهيم سلاماً أكملَ من سلامهم وأتمَّ؛ لأنَّه أتى به جملة اسميَّة دالَّة على الثُّبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعيَّة تعرُّف من جاء إلى الإنسان أو صار له فيه نوعُ اتِّصال؛ لأنَّ في ذٰلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام؛ حيث قال: ﴿قومٌ منكرون﴾، ولم يقل: أنكرتكم، وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى.

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البرِّ عاجِلُه، ولهٰذا بادر إبراهيم بإحضار قِرى أضيافه.

ومنها: أنَّ الذَّبيحة الحاضرة التي قد أعدَّت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانةٍ، بل ذٰلك من الإكرام؛ كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أنَّ ضيفه مكرمون.

ومنها: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذٰلك حاضراً لديه[1] وفي بيته معدًا لا يحتاج إلى أن يأتي به[2] من السوق أو الجيران أو غير ذٰلك.

ومنها: أنَّ إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمٰن وسيِّد[3] من ضيَّف الضيفان.

ومنها: أنَّه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجْعله في موضع ويقولُ لهم تفضَّلوا أو ائتوا عليه؛ لأنَّ هٰذا أيسر وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام الليِّن، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه؛

---

(١) في (ب): «عنده».
(٢) في (ب): «أن يستلحقه».
(٣) في (ب): «وكبير».

فإنَّ إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، فقال: ﴿ألا تأكلونَ﴾، ولم يقل: كلوا! ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿ألا تأكلونَ﴾؛ فينبغي للمقتدي به أنْ يستعملَ من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال؛ كقوله لأضيافه: ألا تأكلون؟ أو: ألا تتفضَّلون؟ أو تشرِّفوننا وتحسنون إلينا... ونحو ذٰلك[1].

ومنها: أنَّ من خاف من أحدٍ لسبب من الأسباب؛ فإنَّ عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمِّن روعه ويسكِّن جأشه؛ كما قالت الملائكة لإبراهيم لمَّا خافهم: ﴿لا تخفْ﴾، وأخبروه بتلك البشارة السارَّة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدَّة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صكِّ وجهها وصرَّتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: ﴿وفي موسى﴾: وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات والمعجزات الظاهرات آيةٌ للذين يخافون العذاب الأليم.

﴿٣٩﴾ فلمَّا أتى موسى فرعون بذٰلك السلطان المبين؛ تولَّى فرعون ﴿بركنِهِ﴾؛ أي: أعرض بجانبه عن الحقِّ، ولم يلتفتْ إليه، وقدحوا فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿ساحرٌ أو مجنونٌ﴾؛ أي: إن موسى لا يخلوا إمَّا أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذةً ليس من الحقِّ في شيء، وإمَّا أن يكون مجنوناً لا يؤاخَذُ بما صدر منه لعدم عقله! هٰذا وقد علموا ـ خصوصاً فرعون ـ أنَّ موسى صادقٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وجَحَدوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنفسُهم[2] ظلماً وعلوًّا﴾، وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمتَ ما أنزل هٰؤلاءِ إلَّا ربُّ السمٰواتِ والأرض بصائرَ...﴾ الآية.

﴿٤٠﴾ ﴿فأخذْناه وجنودَه فنَبَذْناهم في اليمِّ وهو مُليمٌ﴾؛ أي: مذنبٌ طاغٍ عاتٍ على الله، فأخذه [اللَّهُ] أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

---

(١) في (ب): «... أو: ألا تتفضلون علينا، وتشرفونا، وتحسنون إلينا.. ونحوه».

(٢) في (ب): «.. الآية».

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿و﴾ آية لهم ﴿في عادٍ﴾[١]: القبيلة المعروفة، ﴿إذْ أرسَلْنا عليهم الريحَ العقيمَ﴾؛ أي: التي لا خير فيها، حين كذَّبوا نبيَّهم هوداً عليه السلام.

﴿٤٢﴾ ﴿ما تَذَرُ من شيءٍ أتتْ عليه إلَّا جَعَلَتْهُ كالرَّميم﴾؛ أي: كالرِّمم البالية؛ فالذي أهلكهم على قوَّتهم وبطشهم دليلٌ على كمال قوَّته واقتداره، الذي لا يعجِزُه شيء، المنتقم ممَّن عصاه.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ﴿وفي ثمودَ﴾: آيةٌ عظيمةٌ حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذَّبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آيةً مبصرةً، فلم يزدْهم ذٰلك إلَّا عتوًّا ونفوراً، ﴿قيل لهم تمتَّعوا حتى حينٍ﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿فعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم فأخَذَتْهُمُ الصَّاعقةُ﴾؛ أي: الصيحة العظيمة المهلكة، ﴿وهم ينظرونَ﴾: إلى عقوبتهم بأعينهم.

﴿٤٥﴾ ﴿فما استَطاعوا من قيامٍ﴾: ينجون به من العذاب، ﴿وما كانوا منتصِرينَ﴾: لأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وكذٰلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذَّبوا نوحاً عليه السلام وفَسَقوا عن أمِر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بماءٍ منهمرٍ[٢]، فأغرقهم عن آخرهم، ولم يُبْقِ من الكافرين ديَّاراً. وهٰذه عادة الله وسنَّته فيمَن عصاه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى مبيِّناً لقدرته العظيمة: ﴿والسماءَ بَنَيْناها﴾؛ أي: خلقناها

(١) في (ب): «أي: ﴿وفي عاد﴾». (٢) في (ب): «بالماء المنهمر».

وأتقنَّاها وجَعَلْناها سقفاً للأرض وما عليها، ﴿بأيدٍ﴾؛ أي: بقوَّةٍ وقدرةٍ عظيمةٍ، ﴿وإنَّا لَموسعونَ﴾: لأرجائها وأنحائها، وإنَّا لموسعون أيضاً على عبادنا بالرِّزق الذي ما ترك دابَّة في مهامه القفارِ ولُجج البحارِ وأقطار العالم العلويِّ والسفليِّ إلَّا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يُغنيها. **فسبحان** من عمَّ بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعتْ رحمتُه جميع البريَّات.

﴿٤٨﴾ ﴿والأرضَ فَرَشْناها﴾؛ أي: جعلناها فراشاً للخلق يتمكَّنون فيها من كلِّ ما تتعلَّق به مصالحهم من مساكنَ وغراسٍ وزرعٍ وحرثٍ وجلوسٍ وسلوكٍ للسُّبل[١] الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم. ولمَّا كان الفراشُ قد يكون صالحاً للانتفاع من كلِّ وجهٍ، وقد يكون من وجهٍ دون وجهٍ؛ أخبر تعالى أنه مَهَدَها أحسنَ مهادٍ على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فنعمَ الماهِدونَ﴾: الذي مَهَدَ لعبادِهِ ما اقتضتْه حكمتُه ورحمتُه[٢].

﴿٤٩﴾ ﴿ومن كلِّ شيءٍ خَلَقْنا زوجين﴾؛ أي: صنفين ذكرٍ وأنثى من كلِّ نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلَّكم تذكَّرونَ﴾: لنعم اللهِ التي أنعم بها عليكم في تقدير ذلك وحكمتِهِ؛ حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها؛ لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

﴿٥٠﴾ فلما دعا العبادَ إلى النظر إلى آياته[٣] الموجبة لخشيته والإنابة إليه؛ أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرارُ إليه؛ أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبُّه ظاهراً وباطناً، فرارٌ من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، من الغفلة إلى الذِّكر؛ فمن استكمل هذه الأمور؛ فقد استكمل الدين كلَّه، وزال عنه المرهوب، وحصل له غايةُ[٤] المراد والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فراراً؛ لأنَّ في الرجوع إلى غيره[٥] أنواعَ المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواعَ المحابِّ والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفرُّ العبدُ من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكلُّ مَنْ خِفْتَ منه فررتَ منه إلَّا الله تعالى؛ فإنَّه بحسب الخوف منه يكون الفرارُ إليه، ﴿إنِّي لكُم منه نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: منذرٌ لكم من عذاب الله ومخوِّفٌ بيِّن النذارة.

---

(١) في (ب): «للطُّرق».
(٢) في (ب): «رحمته وإحسانه».
(٣) في (ب): «لآياته».
(٤) في (ب): «نهاية».
(٥) في (ب): «لغيره».

﴿٥١﴾ ﴿ولا تَجْعَلوا مع الله إلٰهاً آخرَ﴾: هٰذا من الفرار إلى الله، بل هٰذا أصلُ الفرارِ إليه: أنْ يَفِرَّ العبدُ من اتِّخاذ آلهةٍ غير الله من الأوثان والأندادِ والقبورِ وغيرها مما عُبِدَ من دون الله، ويخلِصَ [العبدُ] لربِّه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٢﴾ يقول الله مسلياً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذِّبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزَّه عنه، وأنَّ هٰذه الأقوال ما زالتْ دأباً وعادةً للمجرمين المكذِّبين للرسل؛ فما أرسل اللهُ من رسول؛ إلَّا رماه قومُه بالسحر أو الجنون.

﴿٥٣﴾ يقول الله تعالى: هٰذه الأقوال التي صَدَرَتْ منهم ـ الأولين والآخرين ـ هل هي أقوالٌ تواصَوْا بها، ولقَّن بعضُهم بعضاً بها؛ فلا يُستغرب بسبب ذٰلك اتِّفاقهم عليها؟! أم ﴿هم قومٌ طاغونَ﴾؛ تشابهتْ قلوبُهم وأعمالهم بالكفر والطُّغيان، فتشابهت أقوالُهم الناشئة عن طغيانهم؟! وهٰذا هو الواقع؛ كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كَفَروا لولا يُكَلِّمُنا الله أو تأتينا آيةٌ كذٰلك قال الذينَ من قَبْلِهِم مثلَ قولِهِم تشابهتْ قلوبُهم﴾، وكذٰلك المؤمنون لـمَّا تشابهتْ قلوبُهم بالإذعان للحقِّ وطلبه والسعي فيه؛ بادروا إلى الإيمان برسُلِهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يقولُ تعالى آمراً رسولَه بالإعراض عن المعرضين المكذِّبين: ﴿فتولَّ عنهم﴾؛ أي: لا تبالِ بهم، ولا تؤاخِذْهم، وأقبِلْ على شأنك؛ فليس عليك لومٌ في ذنبهم، وإنَّما عليك البلاغُ، وقد أدَّيت ما حملتَ وبلَّغتَ ما أرسلت به.

﴿٥٥﴾ ﴿وذكِّرْ فإنَّ الذِّكْرى تنفعُ المؤمنين﴾: والتَّذكير نوعان: تذكيرٌ بما لم يُعْرَفْ تفصيله مما عُرِفَ مجملُه بالفِطَر والعقول[1]؛ فإنَّ الله فطر العقول على محبَّة الخير وإيثاره وكراهة الشرِّ والزُّهد فيه، وشرعُه موافقٌ لذٰلك؛ فكل أمرٍ ونهيٍ من

(١) في (ب): «مما عرف في الفطر والعقول مجملة».

الشرع؛ فهو[١] من التذكير، وتمامُ التذكير أن يذكر ما في المأمور من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهيِّ عنه من المضارِّ. والنوع الثاني من التذكير: تذكيرٌ بما[٢] هو معلومٌ للمؤمنين، ولكن انسحبتْ عليه الغفلةُ والذُّهول، فيذكَّرون بذلك، ويكرَّر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا، ويعملوا بما تَذَكَّروه من ذلك، وليحدثَ لهم نشاطاً وهمَّة توجب لهم الانتفاع والارتفاع. وأخبر الله أنَّ الذِّكرى تنفع المؤمنين؛ لأنَّ ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتِّباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذِّكرى وتقع الموعظة منهم[٣] موقعها؛ كما قال تعالى: ﴿فذكِّرْ إن نفعتِ الذِّكرى. سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشى. وَيَتَجَنَّبُها الأشقى﴾، وأما من ليس معه إيمانٌ ولا استعدادٌ لقبول التذكير؛ فهذا لا ينفع تذكيره؛ بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً. وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كلُّ آية؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٦﴾ هذه الغاية التي خَلَقَ الله الجنَّ والإنس لها، وبعث جميعَ الرسل يدعون إليها، وهي[٤] عبادتُه المتضمِّنة لمعرفته ومحبَّته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذلك متوقِّف على معرفة الله تعالى[٥]؛ فإنَّ تمام العبادة متوقِّف على المعرفةِ بالله[٦]، بل كلَّما ازداد العبد معرفةً بربِّه[٧]؛ كانت عبادته أكمل؛ فهذا الذي خلق الله المكلَّفين لأجله؛ فما خَلَقَهم لحاجة منه إليهم.

﴿٥٧﴾ فما يريد ﴿منهم من رزقٍ وما﴾ يريدُ ﴿أن يطعمونِ﴾: تعالى الغنيُّ المغني عن الحاجة إلى أحدٍ بوجه من الوجوه، وإنَّما جميع الخلق فقراءُ إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم الضروريَّة وغيرها.

﴿٥٨﴾ ولهذا قال: ﴿إنَّ الله هو الرزَّاقُ﴾؛ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابَّةٍ في الأرض ولا في السماء إلَّا على الله رزقُها، ويعلمُ مستقرَّها ومستودَعها، ﴿ذو

---

(١) في (ب): «فكل ما أمر به ونَهى من الشرع فإنه».
(٢) في (ب): «ما».
(٣) في (ب): «وتقع منهم الموعظة».
(٤) في (ب): «وهو».
(٥) في (ب): «وذلك يتضمن معرفته تعالى».
(٦) في (ب): «لله».
(٧) في (ب): «لربه».

القوةِ المتينُ﴾؛ أي: الذي له القوة والقدرةُ كلُّها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفليَّة والعلويَّة، وبها تصرَّف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريَّات؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجِزُه هاربٌ، ولا يخرج عن سلطانه أحدٌ، ومن قوَّته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوَّته أنه يبعث الأموات بعدما مزَّقهم البِلى، وعصفت بهم[1] الرياحُ، وابتلعتْهم الطيور والسِّباع، وتفرَّقوا وتمزَّقوا في مهامه القفار ولُجج البحار؛ فلا يفوته منهم أحدٌ، ويعلم ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم؛ فسبحان القويِّ المتين.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٩﴾ أي: ﴿فإنَّ للذين ظلموا﴾: بتكذيبهم محمداً ﷺ من العذاب والنَّكال ﴿ذَنوباً﴾؛ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فُعِلَ بأصحابهم من أهل الظُّلم والتكذيب، ﴿فلا يستعجلونَ﴾: بالعذاب؛ فإنَّ سنة الله في الأمم واحدةٌ؛ فكلُّ مكذِّب يدوم على تكذيبه من غير توبةٍ وإنابةٍ؛ فإنَّه لا بدَّ أن يقع عليه العذابُ ولو تأخَّر عنه مدَّة.

﴿٦٠﴾ ولهٰذا توعَّدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فويلٌ للذين كفروا من يومهمُ الذي يوعَدون﴾: وهو يومُ القيامةِ، الذي قد وُعِدوا فيه بأنواع العذاب والنَّكال [والسلاسل] والأغلال؛ فلا مغيثَ ولا منقذَ لهم من عذاب الله. نعوذ بالله منه.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة والطور

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ

(١) في (ب): «بترابهم».

﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾.

﴿١﴾ يقسم تعالى بهٰذه الأمور العظيمة المشتملة على الحِكَم الجليلة على البعث والجزاء للمتَّقين وللمكذِّبين[1]، فأقسم بالطور، وهو الجبلُ الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة السلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذٰلك من المنَّة عليه وعلى أمَّته ما هو من آيات الله العظيمة ونعمه التي لا يَقْدِرُ العباد لها على عدٍّ ولا ثمن.

﴿٢﴾ ﴿وكتابٍ مسطورٍ﴾: يُحتمل أنَّ المراد به اللوحُ المحفوظ، الذي كتب الله به كلَّ شيءٍ، ويُحتمل أنَّ المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل الكتب[2]، أنزله الله محتوياً على نبأ الأوَّلين والآخرين وعلوم السَّابقين واللاحقين.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿في رَقٍّ﴾؛ أي: ورقٍ ﴿منشورٍ﴾؛ أي: مكتوبٍ، مسطرٍ، ظاهرٍ غير خفيٍّ، لا تخفى حالُه على كلِّ عاقل بصيرٍ.

﴿٤﴾ ﴿والبيت المعمورِ﴾: وهو البيتُ الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، [الذي] يدخُله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك، يتعبَّدون فيه لربِّهم، ثمَّ لا يعودون إليه إلى يوم القيامةِ، وقيل: إنَّ البيت المعمور هو بيت الله الحرام المعمور بالطائفين والمصلِّين والذَّاكرين كلَّ وقت وبالوفود إليه بالحجِّ والعمرة؛ كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهٰذا البلدِ الأمين﴾، وحقيقٌ ببيت هو أفضل بيوت الأرض، الذي يَقْصِدُه الناس بالحجِّ والعمرة، أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، التي لا يتمُّ إلَّا بها، وهو الذي بناه إبراهيمُ وإسماعيلُ، وجعله الله مثابةً للناس وأمناً؛ أنْ يُقْسِمَ الله به، ويبيِّن من عظمته ما هو اللائقُ به وبحرمته.

﴿٥﴾ ﴿والسقفِ المرفوع﴾؛ أي: السماء التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات وبناءً للأرض تستمدُّ منها أنوارها، ويُقتدى بعلاماتها ومنارها، ويُنْزِلُ اللهُ منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿٦﴾ ﴿والبحر المَسْجورِ﴾: أي: المملوء ماءً، قد سجره الله ومنعه من أن يَفيضَ على وجه الأرض، مع أنَّ مقتضى الطبيعة أن يغمرَ وجه الأرض، ولكنَّ

---

(١) في (ب): «والمكذبين».

(٢) في (ب): «الكتاب».

حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان؛ ليعيش مَنْ على وجه الأرض من أنواع الحيوان[١]. وقيل: إنَّ المراد بالمسجور: الموقَد، الذي يوقَدُ ناراً يوم القيامةِ، فيصير ناراً تَلَظَّى، ممتلئاً على سعته من أصناف العذاب.

﴿٧﴾ هٰذه الأشياء التي أقسم الله بها ممَّا يدلُّ على أنَّها من آيات الله وأدلَّة توحيده وبراهين قدرته وبعثه الأموات، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ عذابَ ربِّك لواقعٌ﴾؛ أي: لابدَّ أن يقع، ولا يخلفُ اللهُ وعده وقيله.

﴿٨﴾ ﴿ما له من دافعٍ﴾: يدفعُه، ولا مانع يمنعُه، لأنَّ قدرة الله لا يغالبها مغالبٌ ولا يفوتها هاربٌ.

﴿٩﴾ ثم ذكر وصفَ ذٰلك اليوم الذي يقع فيه[٢] العذابُ، فقال: ﴿يوم تمورُ السَّماء مَوْراً﴾؛ أي: تدور السماء وتضطرب وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكونٍ.

﴿١٠﴾ ﴿وتسير الجبالُ سيراً﴾؛ أي: تزولُ عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلوَّن كالعهن المنفوش، وتبثُّ بعد ذٰلك حتى تصير مثل الهباء، وذٰلك كلُّه لعظم هول يوم القيامةِ؛ [وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة والزلازل المقلقة التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة] فكيف بالآدميِّ الضعيف؟!

﴿١١﴾ ﴿فويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: والويل كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ عقوبةٍ وحزنٍ وعذابٍ وخوفٍ[٣].

﴿١٢﴾ ثم ذَكَرَ وصفَ المكذِّبين، الذين استحقُّوا به الويل، فقال: ﴿الذين هم في خَوْضٍ يلعبون﴾؛ أي: خوض بالباطل[٤] ولعب به؛ فعلومُهم وبحوثهم بالعلوم الضارَّة المتضمِّنة للتكذيب بالحقِّ والتصديق بالباطل، وأعمالُهم أعمال أهل الجهل والسَّفَه واللعب؛ بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ﴿يومَ يُدَعُّونَ إلى نار جهنَّم دعًّاً﴾؛ أي: [يوم] يُدفعون إليها دفعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويُقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هٰذه النارُ التي كنتمُ بها تكذِّبون﴾: فاليوم ذوقوا عذابَ الخُلد الذي لا يُبْلَغُ قدرهُ ولا يوصَفُ أمره.

---

(١) في (ب): «الحيوانات».
(٢) في (ب): «به».
(٣) في (ب): «وخوف وعذاب».
(٤) في (ب): «في الباطل».

﴿١٥﴾ ﴿أفسحرٌ هٰذا أم أنتم لا تُبصرونَ﴾: يُحتمل أنَّ الإشارة إلى النار والعذاب؛ كما تدلُّ عليه سياق الآيات[١]؛ أي: لما رأوا النار والعذاب؛ قيل لهم من باب التقريع: أهٰذا سحرٌ لا حقيقة له؛ فقد رأيتموه؟! أم أنتم في الدُّنيا لا تبصرون؛ أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتُم جاهلين بهٰذا الأمر، لم تقمْ عليكم الحجَّة؟! والجواب انتفاء الأمرين: أمَّا كونُه سحراً؛ فقد ظهر لهم أنَّه أحقُّ الحقِّ وأصدق الصدق المنافي[٢] للسحر من جميع الوجوه. وأمَّا كونُهم لا يبصرون؛ فإنَّ الأمر بخلاف ذٰلك، بل حجَّة اللّه قد قامت عليهم، ودعتهُم الرُّسل إلى الإيمان بذٰلك، وأقامت من الأدلَّة والبراهين على ذٰلك ما يجعله من أعظم الأمور المبرهَنَة الواضحة الجليَّة.

ويُحتمل أنَّ الإشارة بقولِهِ: ﴿أفسحرٌ هٰذا أم أنتُم لا تبصرونَ﴾: إلى ما جاء به محمدٌ ﷺ من الحقِّ المبين والصراط المستقيم؛ أي: أفيتصوَّر مَن له عقلٌ أن يقولَ عنه: إنَّه سحرٌ، وهو أعظم الحقِّ وأجلُّه، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا[٣].

﴿١٦﴾ ﴿اصْلَوْها﴾؛ أي: ادخلوا النار على وجهٍ تحيطُ بكم وتشملُ[٤] أبدانكم وتطَّلع على أفئدتكم، ﴿فاصْبِروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم﴾؛ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسَّى بعضُكم ببعض، ولا يخفَّف عنكم العذاب، وليست[٥] من الأمور التي إذا صبر العبدُ عليها هانت مشقَّتها وزالت شدَّتها، وإنَّما فُعِلَ بهم ذٰلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، ولهٰذا قال: ﴿إنَّما تُجْزَوْن ما كنتم تعملونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٧﴾ لمَّا ذكر تعالى عقوبة المكذِّبين؛ ذكر نعيم المتَّقين؛ ليجمع بين الترغيب

---

(١) في (ب): «الآية». (٢) في (ب): «المخالف».

(٣) في (ب): «ويحتمل أن الإشارةَ إلى ما جاء به الرسول من الحقِّ المبين والصراط المستقيم؛ أي: أهذا الذي جاء به محمد ﷺ سحرٌ أم عدم بصيرة بكم حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقةُ الأمرِ أنه أوضحُ من كلِّ شيءٍ، وأحقُّ الحقِّ، وأنَّ حجة اللهِ قامت عليهم».

(٤) في (ب): «وتستوعب جميع». (٥) في (ب): «وليس».

والترهيب، فتكون القلوبُ بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إنَّ المتَّقين﴾: لربِّهم، الذين اتَّقوا سخطه وعذابه بفعلِ أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ﴿في جنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفَّة والأنهار المتدفِّقة والقصور المُخدِقة والمنازل المُزَخْرَفة، ﴿ونعيمٍ﴾: وهٰذا شاملٌ لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿١٨﴾ ﴿فاكهين بما آتاهم ربُّهم﴾؛ أي: معجبين به، متمتِّعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفُه، و ﴿لا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرَّةِ أعينٍ﴾، ﴿ووقاهم ربُّهم عذابَ الجحيم﴾: فرزقهم المحبوب، ونجَّاهم من المرهوب، لمَّا فعلوا ما أحبَّه [اللَّهُ] وجانبوا ما يسخطه.

﴿١٩﴾ ﴿كلوا واشربوا﴾؛ أي: مما تشتهيه أنفسكم من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة ﴿هنيئاً﴾؛ أي: متهنِّئين بذٰلك[1] على وجه البهجة والفرح والسرور والحبور، ﴿بما كنتُم تعملون﴾؛ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة وأقوالكم المستحسنة.

﴿٢٠﴾ ﴿متَّكِئينَ على سررٍ مصفوفةٍ﴾: الاتِّكاء هو الجلوس على وجه التمكُّن والراحة والاستقرار، والسرر هي الأرائك المزيَّنة بأنواعِ الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية. ووصف الله السُّرر بأنها مصفوفةٌ؛ ليدلَّ ذلك على كثرتها وحسن تنظيمها واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم وملاطفة بعضهم بعضاً[2]. فلمَّا اجتمع لهم من نعيم القلب والرُّوح والبدن ما لا يخطُرُ بالبال ولا يدور في الخيال من المآكل والمشارب اللذيذة[3] والمجالس الحسنة الأنيقة؛ لم يبق إلَّا التمتُّع بالنساء اللاتي لا يتمُّ سرورٌ إلَّا بهنَّ، فذكر تعالى أنَّ لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهٰذا قال: ﴿وزوَّجْناهم بحورٍ عينٍ﴾: وهنَّ النساء اللواتي قد جَمَعْنَ جمال الصورة الظاهرة وبهاءها ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيِّرْنَ بحسنهنَّ الناظرين، ويسلبنَ عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطير[4] شوقاً إليهن ورغبةً في وصالهنَّ، والعِيْن: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

---

(١) في (ب): «بتلك المآكل والمشارب».
(٢) في (ب): «ولطف كلام بعضهم لبعض».
(٣) في (ب): «لا يتم سرور بدونهنّ».
(٤) في (ب): «تطيش».

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢١﴾ وهٰذا من تمام نعيم [أهلِ] الجنَّة: أنْ ألحقَ الله بهم ذُرِّيَّتهم الذين اتَّبعوهم بإيمان؛ أي: لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذُّرِّية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى؛ إذا تبعتهم ذُرِّيَّتهم بإيمانهم الصادر من أنفسهم؛ فهٰؤلاء المذكورون يُلْحِقُهُمُ اللهُ بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها؛ جزاءً لآبائهم، وزيادةً في ثوابهم، ومع ذٰلك؛ لا يَنْقُصُ اللهُ الآباء من أعمالهم شيئاً. ولمَّا كان ربَّما توهَّم متوهِّم أن أهل النار كذٰلك يُلْحِقُ اللهُ بهم ذرِّيَّتهم[1]؛ أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً؛ فإنَّ النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذِّب أحداً إلَّا بذنبٍ، ولهٰذا قال: ﴿كلُّ امرىءٍ بما كَسَبَ رهينٌ﴾؛ أي: مرتهنٌ بعمله؛ فلا[2] تزر وازرةٌ وزرَ أخرى، ولا يُحْمَلُ على أحدٍ ذنبُ أحدٍ، فهٰذا[3] اعتراضٌ من فوائده إزالة هٰذا الوهم المذكور.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وأمددْناهم﴾؛ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بفاكهةٍ﴾: من العنب والرُّمان والتُّفاح وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوَّتون، ﴿ولحمٍ ممَّا يشتهونَ﴾: من كلِّ ما طلبوه واشتهته أنفسُهم من لحوم[4] الطير وغيرها.

﴿٢٣﴾ ﴿يتنازَعون فيها كأساً﴾؛ أي: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطَونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدانُ المخلَّدون بأكواب وأباريق. ﴿لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ﴾؛ أي: ليس في الجنَّة كلامُ لغوٍ، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثمٌ ومعصيةٌ. وإذا انتفى الأمران؛ ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامَهم فيها سلامٌ طيبٌ طاهرٌ مسرٌّ للنفوس مفرحٌ للقلوب، يتعاشرون أحسن

(١) في (ب): «أبناءَهم وذريتهم».
(٢) في (ب): «لا».
(٣) في (ب): «هذا».
(٤) في (ب): «لحم».

عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربِّهم إلَّا ما يُقِرُّ أعينَهم ويدلُّ على رضاه عنهم ومحبَّته لهم.

﴿٢٤﴾ ﴿ويطوف عليهم غلمانٌ لهم﴾؛ أي: خدمٌ شبابٌ، ﴿كأنَّهم لؤلؤٌ [مكنون][١]﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء أشغالهم[٢]، وهٰذا يدلُّ على كثرة نعيمهم وسعته وكمال راحتهم.

﴿٢٥﴾ ﴿وأقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلونَ﴾: عن أمور الدُّنيا وأحوالها.

﴿٢٦﴾ ﴿قالوا﴾: في ذكر بيان الذي أوصَلَهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور: ﴿إنَّا كنَّا قبلُ﴾؛ أي: في دار الدُّنيا ﴿في أهلِنا مشفقينَ﴾؛ أي: خائفين وجِلين، فتركْنا من خوفه الذُّنوب، وأصلحنا لذٰلك العيوب.

﴿٢٧﴾ ﴿فمنَّ اللهُ علينا﴾: بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذابَ السَّموم﴾؛ أي: العذاب الحار الشديد حرُّه.

﴿٢٨﴾ ﴿إنَّا كنَّا من قبلُ ندعوه﴾: أن يَقِيَنا عذابَ السَّموم، ويوصِلَنا إلى النعيم، وهٰذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرَّب إليه بأنواع العبادات[٣]، وندعوه في سائر الأوقات. ﴿إنَّه هو البرُّ الرحيم﴾: فمن برِّه [بنا] ورحمته إيَّانا أنالَنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾
أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ
﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ
فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) في النسختين: «منثور». وصوِّبت (أ) بخط مغاير إلى: «مكنون».

(٢) في (ب): «وقضاء ما يحتاجون إليه». (٣) في (ب): «القربات».

﴿٢٩﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يُذَكِّرَ الناس مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجَّة الله على الظَّالمين، ويهتدي بتذكيره الموفَّقون، وأن لا يبالي بقول المشركين المكذِّبين وأذيَّتهم وأقوالهم التي يَصدُّون بها الناس عن اتِّباعه، مع علمهم أنَّه أبعدُ الناس عنها، ولهٰذا نفى عنه كلَّ نقص رَمَوْه به، فقال: ﴿فما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ﴾؛ أي: منَّه ولطفه ﴿بكاهنٍ﴾؛ أي: له رِئيٌ من الجنِّ يأتيه بخبر[1] بعض الغيوب التي يضمُّ إليها مئة كذبةٍ، ﴿ولا مجنونٍ﴾: فاقد العقل[2]، بل أنت أكملُ الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلُّهم، وأكملهم.

﴿٣٠﴾ وتارةً ﴿يقولون﴾ فيه: إنَّه ﴿شاعرٌ﴾: يقول الشعر، والذي جاء به شعرٌ، والله يقول: ﴿وما علَّمناه الشعرَ وما ينبغي له﴾، ﴿نتربَّصُ به ريبَ المَنونِ﴾؛ أي: ننتظر به الموتَ، فيبطُلُ[3] أمرُه ونستريح منه.

﴿٣١﴾ ﴿قل﴾: لهم جواباً لهٰذا الكلام السخيف: ﴿تربَّصوا﴾؛ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فإنِّي معكم من المتربِّصين﴾: نتربَّص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده، أو بأيدينا.

﴿٣٢﴾ ﴿أم تأمُرُهم أحلامُهم بهٰذا أم هم قومٌ طاغونَ﴾؛ أي: أهٰذا التكذيبُ لك والأقوال التي قالوها؛ هل صدرتْ عن عقولِهم وأحلامِهم؛ فبئس العقولُ والأحلامُ التي هٰذه نتائجها وهٰذه ثمراتها[4]؛ فإنَّ عقولاً جعلتْ أكملَ الخلق عقلاً مجنوناً، وجعلت أصدقَ الصِّدق وأحقَّ الحقِّ كذِباً وباطلاً؛ لهي العقول التي ينزَّه المجانين عنها؟ أم الذي حملهم على ذٰلك ظلمُهم وطغيانُهم؟ وهو الواقع؛ فالطغيانُ ليس له حدٌّ[5] يقف عليه؛ فلا يُستغرب من الطاغي المتجاوزِ الحدَّ[6]، كلُّ قول وفعل صَدَرَ منه.

﴿٣٣﴾ ﴿أم يقولون تَقَوَّلَه﴾؛ أي: تقوَّل محمدٌ القرآن وقاله من تلقاء نفسه، ﴿بل لا يؤمنونَ﴾؛ فلو آمنوا؛ لم يقولوا ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فَلْيَأتوا بحديثٍ مثلِهِ إنْ كانوا صادقينَ﴾: إنَّه تقوَّله؛ فإنَّكم العرب الفصحاء والفحول البلغاء، وقد تحدَّاكم أن تأتوا بمثلِهِ؛ فتصدق معارضتكم، أو

---

(١) في (ب): «بأخبار». (٢) في (ب): «للعقل».
(٣) في (ب): «نتربص به الموت وننتظره فيه فسيبطل».
(٤) التي أثرت ما أثرت وصدر منها ما صدر». (٥) في (ب): «لا حدَّ له».
(٦) في (ب): «للحدِّ».

تقرُّوا بصدقه، وإنكم لو اجتمعتم أنتم والإنس والجنُّ؛ لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله؛ فحينئذٍ أنتم بين أمرين: إمَّا مؤمنون به مقتدون[١] بهديِهِ، وإمَّا معاندون متَّبعون لما علمتُم من الباطل.

﴿٣٥﴾ ﴿أم خُلِقوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالقونَ﴾: وهٰذا استدلالٌ عليهم بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلَّا التسليمُ للحقِّ، أو الخروج عن موجب العقل والدين. وبيان ذٰلك أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذِّبون لرسوله، وذٰلك مستلزمٌ لإنكار أنَّ الله خَلَقَهم، وقد تقرَّر في العقل مع الشرع أنَّ ذٰلك لا يخلو[٢] من **أحد ثلاثة أمورٍ: إمَّا** أنهم ﴿خُلِقوا من غير شيءٍ﴾؛ أي: لا خالق خلقهم؛ بل وجدوا من غير إيجادٍ ولا موجدٍ؛ وهٰذا عينُ المحال. ﴿أم هم الخالقونَ﴾: لأنفسِهم؛ وهٰذا أيضاً محالٌ؛ فإنَّه لا يتصوَّر أن يوجِدَ أحدٌ نفسَه. فإذا بطل هٰذان الأمران وبانَ استحالتُهما؛ تعيَّن **القسم الثالثُ، وهو أنَّ الله** هو الذي خلقهم. وإذا تعين ذٰلك؛ عُلِمَ أنَّ الله[٣] تعالى هو المعبودُ وحدَه، الذي لا تنبغي العبادة ولا تَصْلُح إلَّا له تعالى.

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿أم خَلَقوا السمٰواتِ والأرضَ﴾: وهٰذا استفهامٌ يدلُّ على تقرير النفي؛ أي: ما خلقوا السماواتِ والأرضَ، فيكونوا شركاء لله، وهٰذا أمرٌ واضحٌ جدًّا. ﴿بل﴾ المكذبونَ[٤] ﴿لا يوقنونَ﴾؛ أي: ليس عندهم [علم تامٌّ و] يقينٌ يوجب لهم الانتفاع بالأدلَّة الشرعيَّة والعقليَّة.

﴿٣٧﴾ ﴿أمْ عندَهم خزائنُ ربِّك أم هم المُصَيطِرونَ﴾؛ أي: أعند هٰؤلاء المكذِّبين خزائنُ رحمة ربِّك، فيعطوا[٥] من يشاؤون ويمنعوا من يشاؤون[٦]؛ أي: فلذٰلك حجروا على الله أن يُعطي النبوَّة عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ، وكأنَّهم الوكلاء المفوَّضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقرُ وأذلُّ من ذٰلك؛ فليس في أيديهم لأنفسهم نفعٌ ولا ضرٌّ ولا موتٌ ولا حياةٌ ولا نشورٌ؛ ﴿أهم يقسِمونَ رحمةَ ربِّك نحنُ قَسَمْنا بينهم معيشَتَهم في الحياة الدُّنيا﴾؟ ﴿أم هم المُصَيطِرُونَ﴾؛ أي: المتسلِّطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟! ليس الأمر كذٰلك، بل هم العاجزون الفقراء.

---

(١) في (ب): «مهتدون».

(٢) في (ب): «أن الأمور لا تخلو».

(٣) في (ب): «علم أنه تعالى».

(٤) في (ب): «ولكن المكذبين».

(٥) في (ب): «فيعطون».

(٦) في (ب): «يريدون».

﴿٣٨﴾ ﴿أم لهم سُلَّمٌ يستمعون فيه﴾؛ أي: ألهم اطِّلاع على الغيب واستماعٌ له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمورٍ لا يعلمُها غيرُهم، ﴿فليأتِ مستمِعُهم﴾: المدَّعي لذلك ﴿بسلطانٍ مبينٍ﴾: وأنَّى له ذٰلك والله تعالى عالم الغيب والشهادة؛ فلا يُظْهِرُ على غيبه أحداً؛ إلَّا من ارتضى من رسولٍ يخبره بما أراد من علمِهِ، وإذا كان محمدٌ ﷺ، أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به من توحيد الله ووعده ووعيده وغير ذٰلك من أخباره الصادقة، والمكذِّبون هم أهل الجهل والضَّلال والغيِّ والعناد؛ فأيُّ المخبرين أحقُّ بقَبول خبره، خصوصاً والرسول ﷺ قد أقام من الأدلَّة والبراهين على ما أخبر به ما يوجِبُ أن يكون ذٰلك[1] عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يُقيموا على ما ادَّعَوْه شبهةً فضلاً عن إقامة حجَّة؟!

﴿٣٩﴾ وقوله: ﴿أم له البناتُ﴾: كما زعمتُم، ﴿ولكم البنونَ﴾: فتجمعون بين المحذورَيْن: جَعْلُكُم له الولد، واختيارُكُم له أنقص الصنفين؛ فهل بعد هٰذا التنقُّص لربِّ العالمين غايةٌ أو دونه نهايةٌ؟!

﴿٤٠﴾ ﴿أم تسألُهُم﴾: يا أيُّها الرسولُ، ﴿أجراً﴾: على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ﴾: ليس الأمر كذٰلك، بل أنت الحريص على تعليمهم تبرُّعاً من غير شيءٍ، بل تبذلُ لهم الأموالَ الجزيلة على قَبول رسالتك والاستجابة لأمرِك ودعوتك[2]، وتعطي المؤلَّفة قلوبهم؛ ليتمكَّن العلم والإيمان من قلوبهم.

﴿٤١﴾ ﴿أم عندَهم الغيبُ فهم يكتبونَ﴾: ما كانوا يعلمونَه من الغُيوب، فيكونون قد اطَّلعوا على ما لم يطَّلع عليه رسولُ الله، فعارضوه وعاندوه بما عندَهم من علم الغيب، وقد عُلِمَ أنَّهم الأمَّة الأميَّة الجهَّال الضَّالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ من الخلق، وهٰذا كلُّه إلزامٌ لهم بالطرق العقليَّة والنقليَّة على فساد قولهم وتصوير بطلانِهِ بأحسن الطُّرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿أم يريدون﴾: بقدحِهِم فيك وفيما جئتَ به ﴿كيداً﴾: يُبْطلونَ به دينَك، ويفسدون به أمرَك. ﴿فالذين كفروا هُمُ المَكيدونَ﴾؛ أي: كيدُهم في نحورهم، ومضرَّته عائدةٌ إليهم، وقد فعل الله ذٰلك، ولله الحمد، فلم يُبْقِ الكفارُ

---

(١) في (ب): «خبره».

(٢) في (ب): «والاستجابة لدعوتك».

من مقدورهم من المكر شيئاً إلَّا فعلوه، فنصر الله نبيَّه عليهم، وأظهر دينه[١]، وخَذَلَهُم وانتصر منهم.

﴿٤٣﴾ ﴿أم لهم إلٰهٌ غير اللهِ﴾؛ أي: ألهم إلٰهٌ يُدعى ويرجى نفعُه ويُخاف من ضرِّه غير الله تعالى؟ ﴿سبحان اللهِ عمَّا يشرِكون﴾: فليس له شريكٌ في الملك، ولا شريكٌ في الوحدانيَّة والعبادة، وهٰذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلانُ عبادة ما سوى الله، وبيانُ فسادها بتلك الأدلَّة القاطعة، وأنَّ ما عليه المشركون هو الباطلُ، وأنَّ الذي ينبغي أن يُعْبَدَ ويصلَّى له ويُسْجَدَ ويُخْلَصَ له دعاءُ العبادة ودعاءُ المسألة هو الله المألوهُ المعبود، كاملُ الأسماء والصفاتِ، كثيرُ النعوتِ الحسنة والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام والعزِّ الذي لا يُرام، الواحد الأحدُ، الفردُ الصمدُ، الكبيرُ الحميدُ المجيدُ.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يقول تعالى في ذكر بيان أنَّ المشركين المكذِّبين بالحقِّ الواضح قد عَتَوا عن الحقِّ وعسوا على الباطل، وأنَّه لو قام على الحقِّ كلُّ دليل؛ لما اتَّبعوه، ولخالفوه وعاندوه: ﴿وإنْ يروا كِسْفَاً من السماء ساقطاً﴾؛ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كِسْفٌ[٢]؛ أي: قطعٌ كبارٌ[٣] من العذاب، ﴿يقولوا سحابٌ مركومٌ﴾؛ أي: هٰذا سحابٌ متراكمٌ على العادة؛ أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها!

﴿٤٥﴾ وهٰؤلاء لا دواء لهم إلَّا العذاب والنَّكال، ولهٰذا قال: ﴿فَذَرْهم حتى يُلاقوا يومَهم الذي فيه يُصْعَقون﴾: وهو يوم القيامةِ، الذي يصيبهم فيه من العذاب ما لا يقادَرُ قَدْرُه ولا يوصَف أمرُه.

﴿٤٦﴾ ﴿يوم لا يُغْني عنهم كيدُهم شيئاً﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإنْ كان في الدُّنيا قد يوجد منهم كيدٌ يعيشون به زمناً قليلاً؛ فيوم القيامةِ يضمحلُّ كيدُهم، وتبطلُ مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله، ﴿ولا هم يُنصَرون﴾.

---

(١) في (ب): «فنصر الله نبيه ودينه عليهم». (٢) في (ب): «كسفاً».

(٣) في (ب): «قطعاً كباراً».

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٧﴾ لما ذَكَرَ اللهُ عذابَ الظالمين في الآخرة؛ أخبر أنَّ لهم عذاباً قبل[1] عذاب يوم القيامةِ، وذلك شاملٌ لعذاب الدُّنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذابِ البرزخ والقبر. ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمونَ﴾؛ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ ولمَّا بيَّن تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذِّبين؛ أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئاً، وأنْ يصبرَ لحكم ربِّه القدريِّ والشرعيِّ؛ بلزومه والاستقامة عليه، وَوَعَدَهُ الله الكفاية[2] بقوله: ﴿فإنَّك بأعيننا﴾؛ أي: بمرأى منَّا وحفظٍ واعتناءٍ بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: ﴿وسبِّح بحمد ربِّك حين تقومُ﴾؛ [أي]: من الليل؛ ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقومُ إلى الصلوات الخمس؛ بدليل قوله: ﴿ومن الليل فسبِّحْه وإدْبارَ النُّجومِ﴾؛ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر. والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة والنجم

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) في (ب): «دون».

(٢) في (ب): «بالكفاية».

﴿١﴾ يقسم تعالى بالنجم عند هُوِيِّه؛ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار؛ لأنَّ في ذٰلك من الآيات العظيمة ما أوجب أنْ أقسم به، والصحيحُ أنَّ النجم اسم جنسٍ شامل للنُّجوم كلِّها. وأقسم بالنجوم على صحَّة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلٰهيِّ؛ لأنَّ في ذٰلك مناسبةً عجيبةً؛ فإنَّ اللّٰه تعالى جعل النجوم زينةً للسماء؛ فكذٰلك الوحي وآثاره زينةٌ للأرض؛ فلولا العلم الموروث عن الأنبياء؛ لكان الناس في ظلمة أشدَّ من ظلمة الليل البهيم.

﴿٢﴾ والمقسم عليه تنزيه الرسول [ﷺ] عن الضَّلال في علمه والغيِّ في قصده، ويلزم من ذٰلك أن يكون مهتدياً في علمه هادياً حسنَ القصدِ ناصحاً للخلق[1]، بعكس ما عليه أهل الضَّلال من فساد العلم وسوء[2] القصد، وقال: ﴿صاحبُكم﴾؛ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصِّدق والهداية، وأنَّه لا يخفى عليهم أمره.

﴿٣ ـ ٤﴾ ﴿وما ينطِقُ عن الهوى﴾؛ أي: ليس نطقُه صادراً عن هوى نفسه. ﴿إن هو إلَّا وحيٌ يُوحى﴾؛ أي: لا يتَّبع إلَّا ما أوحي إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره. ودلَّ هٰذا على أنَّ السنَّة وحيٌ من اللّٰه لرسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وأنزل اللّٰه عليك الكتابَ والحكمةَ﴾. وأنَّه معصومٌ فيما يخبر به عن اللّٰه تعالى وعن شرعه؛ لأنَّ كلامه لا يصدُرُ عن هوى، وإنَّما يصدر عن وحي يوحى[3].

﴿٥﴾ ثم ذكر المعلِّم للرسول [ﷺ]، وهو جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة الكرام وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿علَّمه شديدُ القُوى﴾؛ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريلُ عليه السلام، شديدُ القُوى؛ أي: شديد القوَّة الظاهرة والباطنة، قويٌّ على تنفيذ ما أمره اللّٰه بتنفيذه، قويٌّ على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ومنعه من اختلاس الشياطين له أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهٰذا من حفظ اللّٰه لوحيه؛ أنْ أرسلَه مع هٰذا الرسول القويِّ الأمين.

﴿٦﴾ ﴿ذو مِرَّةٍ﴾؛ أي: قوَّةٍ وخلقٍ حسنٍ وجمال ظاهرٍ وباطنٍ، ﴿فاستوى﴾: جبريلُ عليه السلام.

﴿٧﴾ ﴿وهو بالأفقُ الأعلى﴾؛ أي: أُفق السماء الذي هو أعلى من الأرض[4]؛

---

(١) في (ب): «للأمة».
(٢) في (ب): «فساد».
(٣) في (ب): «عن الوحي».
(٤) في (ب): «الأعلى على الأرض».

فهو من الأرواح العلويَّة، التي لا تنالُها الشياطين ولا يتمكَّنون من الوصول إليها.

﴿٨﴾ ﴿ثم دنا﴾: جبريلُ من النبيِّ ﷺ لإيصال الوحي إليه، ﴿فتدلَّى﴾: عليه من الأفق الأعلى.

﴿٩﴾ ﴿فكان﴾: في قربه منه ﴿قابَ قوسينِ﴾؛ أي: قدر قوسين، والقوس معروفٌ، ﴿أو أدنى﴾؛ أي: أقرب من القوسين. وهٰذا يدلُّ[1] على كمال مباشرته للرسول ﷺ بالرسالة، وأنَّه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿١٠﴾ ﴿فأوحى﴾ اللّهُ بواسطةِ جبريل عليه السلام ﴿إلى عبدِهِ﴾ [محمد ﷺ] ﴿ما أوحى﴾؛ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم والنبأ المستقيم.

﴿١١ ـ ١٢﴾ ﴿ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى﴾؛ أي: اتَّفق فؤادُ الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه اللّه إليه، وتواطأ عليه سمعُه وبصرُه وقلبُه[2]، وهٰذا دليلٌ على كمال الوحي الذي أوحاه اللّه إليه، وأنَّه تلقَّاه منه تلقِّياً لا شكَّ فيه ولا شبهة ولا ريبَ، فلم يكذِبْ فؤادُه ما رأى بَصَرُه، ولم يشكَّ في ذٰلك[3].

ويُحتمل أنَّ المراد بذٰلك ما رأى ﷺ ليلة أسْرِيَ به من آيات اللّه العظيمة، وأنَّه تيقَّنه حقًّا بقلبه ورؤيته، هٰذا هو الصحيحُ في تأويل الآية الكريمة. وقيل: إنَّ المرادَ بذٰلك رؤيةُ الرسول ﷺ لربِّه ليلة الإسراء وتكليمه إيَّاه. وهٰذا اختيار كثيرٍ من العلماء رحمهم اللّه، فأثبتوا بهٰذا رؤية الرسول ﷺ لربِّه في الدنيا.

ولٰكنَّ الصحيح القول الأول، وأنَّ المراد به جبريل عليه السلام؛ كما يدلُّ عليه السياق، وأنَّ محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصليَّة التي هو عليها مرتين[4][5]: مرةً في الأفق الأعلى تحت السماء الدُّنيا كما تقدَّم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أُسْرِيَ برسول اللّه ﷺ.

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾؛ أي: رأى محمدٌ جبريل مرةً أخرى نازلاً إليه، ﴿عند سِدْرَةِ المُنتَهى﴾: وهي شجرةٌ عظيمةٌ جدًّا فوق السماء السابعة، سميت سدرةَ المنتهى؛ لأنَّه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها

---

(١) في (ب): «ليدلَّ».
(٢) في (ب): «قلبه وبصره».
(٣) في (ب): «بذلك».
(٤) أخرجه مسلم (١٧٧) عن حديث عائشة رضي اللّه عنها.
(٥) في (ب): «مرتين مرتين».

ما ينزل من اللّه من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم المخلوقات[١] إليها؛ أي: لكونها فوق السماواتِ والأرض؛ فهي المنتهى في علومها، أو لغير ذٰلك. واللّه أعلم. فرأى محمد ﷺ جبريلَ في ذٰلك المكان الذي هو محلُّ الأرواح العلويَّة الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطانٌ ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

﴿١٥﴾ عند تلك الشجرة، ﴿جنَّة المأوى﴾؛ أي: الجنة الجامعة لكلِّ نعيم؛ بحيث كانت محلاًّ تنتهي إليه[٢] الأماني، وترغب فيها الإرادات، وتأوي إليها الرغبات. وهٰذا دليلٌ على أنَّ الجنة في أعلىٰ الأماكن وفوق السماء السابعة.

﴿١٦﴾ ﴿إذْ يغشى السِّدرة ما يَغْشى﴾؛ أي: يغشاها من أمر اللّه شيءٌ عظيم لا يَعْلَمُ وصفَه إلَّا اللّه عز وجل.

﴿١٧﴾ ﴿ما زاغ البصرُ[٣]﴾؛ أي: ما زاغ يمنةً ولا يسرةً عن مقصوده ﴿وما طغى﴾؛ أي: وما تجاوز البصر. وهٰذا كمال الأدب منه صلوات اللّه وسلامه عليه؛ أنْ قام مقاماً أقامه اللّه فيه، ولم يقصِّرْ عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهٰذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأوَّلين والآخرين؛ فإنَّ الإخلال يكون بأحد هٰذه الأمور: إمَّا أن لا يقوم العبدُ بما أُمِر به، أو يقومَ به على وجه التفريط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدةِ يميناً وشمالاً. وهٰذه الأمور كلُّها منتفيةٌ عنه ﷺ.

﴿١٨﴾ ﴿لقد رأى من آياتِ ربِّه الكُبرى﴾: من الجنَّة والنار وغير ذٰلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أُسْرِي به.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ لما ذَكَرَ تعالى ما جاء به محمدٌ ﷺ من الهدى ودين الحقِّ والأمر بعبادة اللّه وتوحيده؛ ذَكَرَ بطلان ما عليه المشركون من عبادة مَنْ ليس له من

---

(١) في (ب): «الخلق». (٢) في (ب): «إليها».
(٣) في (ب): «ما زاغ البصر وما طغى».

أوصاف الكمال شيءٌ ولا تنفع ولا تضرُّ، وإنَّما هي أسماءٌ فارغة من المعنى سمَّاها المشركون هم وآباؤهم الجهَّال الضلاَّل، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقُّها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضُّلاَّل؛ فالآلهةُ التي بهٰذه الحال لا تستحقُّ مثقال ذرَّة من العبادة، وهٰذه الأنداد التي سمَّوها بهٰذه الأسماء زعموا أنها مشتقَّة من أوصاف هي متَّصفة بها، فسمَّوا اللات من الإلٰه المستحقِّ للعبادة، والعُزَّى من العزيز، ومناة من المنَّان؛ إلحاداً في أسماء اللّٰه، وتجرِّياً على الشرك به! وهٰذه أسماءٌ متجرِّدة من[1] المعاني؛ فكلُّ من له أدنى مُسكةٍ من عقل يعلم بطلان هٰذه الأوصاف فيها.

﴿٢١﴾ ﴿أَلكم الذَّكرُ وله الأنثى﴾؛ أي: أتجعلون للّٰه البنات بزعمكم ولكم البنون.

﴿٢٢﴾ ﴿تلك إذاً قسمةٌ ضيزى﴾؛ أي: ظالمة جائرة. وأيُّ ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟! تعالى عن قولهم علوًّا كبيراً.

﴿٢٣﴾ وقوله: ﴿إنْ هي إلَّا أسماءٌ سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللّٰه بها من سلطانٍ﴾؛ أي: من حجَّة وبرهان على صحَّة مذهبكم، وكلُّ أمرٍ ما أنزل اللّٰه فيه من سلطانٍ؛ فهو باطلٌ فاسدٌ لا يُتَّخذ ديناً، وهم في أنفسهم ليسوا بمتَّبعين لبرهان يتيقَّنون به ما ذهبوا إليه، وإنَّما دلُّهم على قولهم الظنُّ الفاسد والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسُهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحالُ أنَّه لا موجب لهم يقتضي اتِّباعهم الظنَّ من فقدِ العلم والهدى، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى﴾؛ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوَّة وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد؛ فكلُّها قد بيَّنها اللّٰه أكمل بيان وأوضحه وأدلَّه على المقصود، وأقام عليه من الأدلَّة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتِّباعه، فلم يبق لأحدٍ حجَّة ولا عذر من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتِّباع الظنِّ ونهايته الشقاءُ الأبديُّ والعذاب السرمديُّ؛ فالبقاء على هٰذه الحال من أسفه السَّفه وأظلم الظلم.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ ومع ذٰلك يتمنَّون الأماني ويغترُّون بأنفسهم[2]! ولهٰذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصلُ له ما تمنَّى وهو كاذبٌ في ذٰلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما

---

(١) في (ب): «عن».

(٢) في (ب): «بأنفسكم».

تمنَّى. فللّهِ الآخرةُ والأولى﴾: فيعطي منهما مَن يشاء ويمنع مَن يشاء؛ فليس الأمر تابعاً لأمانيِّهم ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى منكراً على مَن عَبَدَ غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنَّها تنفعه وتشفع له عند اللّه يوم القيامةِ: ﴿وكم من مَلَكٍ في السمٰواتِ﴾: من الملائكة المقرَّبين وكرام الملائكة، ﴿لا تُغْني شفاعتُهم شيئاً﴾؛ أي: لا تفيد من دعاها وتعلَّق بها ورجاها، ﴿إلَّا من بعدِ أن يأذنَ اللّه لمن يشاءُ ويرضى﴾؛ أي: لا بدَّ من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرِّر أنَّه لا يقبل من العمل إلَّا ما كان خالصاً لوجه اللّه، موافقاً فيه صاحبُه الشريعةَ؛ فالمشركون إذاً لا نصيبَ لهم من شفاعة الشافعين؛ [وقد][1] سدُّوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يعني: أنَّ المشركين باللّه، المكذِّبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ [و] بسبب عدم إيمانهم بالآخرة؛ تجرَّؤوا على ما تجرؤوا عليه من الأقوال والأفعال المحادَّة للّه ولرسوله؛ من قولهم: الملائكة بناتُ اللّه! فلم ينزِّهوا ربَّهم عن الولادة، ولم يكرِموا الملائكة ويُجِلُّوهم عن تسميتهم إيَّاهم إناثاً، والحال أنَّه ليس لهم بذٰلك علمٌ لا عن اللّه ولا عن رسوله ولا دلَّت على ذٰلك الفطر والعقول، بل العلمُ كلُّه دالٌّ على نقيض قولهم، وأنَّ اللّه منزَّهٌ عن الأولاد والصاحبة؛ لأنَّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكن له كفواً أحدٌ، وأنَّ الملائكة كرامٌ مقرَّبون إلى اللّه قائمون بخدمته، ﴿لا يعصون اللّه ما أمَرَهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾.

(١) في (أ): بياض. وما بين المعقوفتين من (ب).

﴿٢٨﴾ والمشركون[١] إنَّما يتَّبعون في ذٰلك القول القبيح، وهو الظنُّ[٢] الذي لا يُغني من الحقِّ شيئاً؛ فإنَّ الحقَّ لا بدَّ فيه من اليقين المستفاد من الأدلَّة [القاطعة] والبراهين الساطعة.

﴿٢٩﴾ ولما كان هٰذا دأب هٰؤلاء المذكورين، أنَّهم لا غرض لهم في اتِّباع الحقِّ، وإنَّما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسُهم؛ أمر اللّه رسوله بالإعراض عن من تولَّى عن ذكرِهِ، الذي هو الذكرُ الحكيم والقرآنُ العظيم [والنبأ الكريم]، فأعرضَ عن العلوم النافعة، ولم يُرِدْ إلَّا الحياة الدنيا؛ فهٰذا منتهى إرادتِه. ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلَّا للشيء الذي يريدُه؛ فسعيُ هٰؤلاء[٣] مقصورٌ على الدُّنيا ولذَّاتها وشهواتها كيف حصلتْ حَصَّلوها، وبأيِّ طريق سنحت ابتدروها.

﴿٣٠﴾ ﴿ذٰلك مبلغُهم من العلم﴾؛ أي: هٰذا منتهى علمهم وغايته، وأمَّا المؤمنون بالآخرة المصدِّقون بها أولو الألباب والعقول؛ فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومُهم أفضلُ العلوم وأجلُّها، وهو العلم المأخوذُ من كتاب اللّه وسنَّة رسوله ﷺ، واللّه تعالى أعلمُ بمن يستحقُّ الهداية فيهديه ممَّن لا يستحقُّ ذٰلك فيكِلُه إلى نفسه ويخذُلُه فيضلُّ عن سبيل اللّه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿إنَّ ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمنِ اهتدى﴾: فيضع فضلَه حيث يعلم المحلَّ اللائقَ به.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣١﴾ يخبر تعالى أنَّه مالك الملك، المتفرِّدُ بملك الدنيا والآخرة، وأنَّ جميع ما فيهما[٤] ملكٌ للّه، يتصرَّف فيهم تصرُّف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفِّذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعَه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي، ﴿لِيجزِيَ الذين أساؤوا﴾ العمل من سيئات[٥] الكفر فما دونَه من المعاصي، وبما عملوه من أعمال الشرِّ بالعقوبة الفظيعة[٦]، ﴿ويجزِيَ الذين أحسنوا﴾: في عبادة اللّه، وأحسنوا إلى خلق اللّه

---

(١) في (ب): «وهم إنما».
(٢) في (ب): «إلا الظن».
(٣) في (ب): «فسعيهم».
(٤) في (ب): «مَنْ في السماوات والأرض».
(٥) في (ب): «السيئات من الكفر».
(٦) في (ب): «البليغة».

بأنواع المنافع ﴿بالحُسْنى﴾؛ أي: بالحالة الحسنة في الدُّنيا والآخرة، وأكبر ذٰلك وأجلّه رضا ربِّهم والفوزُ بالجنة وما فيها من النعيم[١].

﴿٣٢﴾ ثم ذكر وصفَهم، فقال: ﴿الذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإثم والفواحشَ﴾؛ أي: يفعلون ما أمرهم اللّهُ به من الواجبات، التي يكون تركُها من كبائر الذُّنوب، ويتركون المحرَّمات الكبار من الزِّنا[٢] وشرب الخمر وأكل الرِّبا والقتل ونحو ذٰلك من الذُّنوب العظيمة، ﴿إلَّا اللَّمم﴾: وهو الذُّنوب الصغارُ التي لا يصرُّ صاحبها عليها، أو التي يلمُّ العبدُ بها المرَّة بعد المرَّة على وجه الندرة والقلَّة؛ فهٰذه ليس مجرَّد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين؛ فإنَّ هٰذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات تدخُلُ تحت مغفرة اللّه التي وسعتْ كلَّ شيءٍ، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ ربَّك واسعُ المغفرةِ﴾: فلولا مغفرتُه؛ لهلكتِ البلادُ والعبادُ، ولولا عفوُه وحلمه؛ لسقطتِ السماء على الأرض، ولَمَا ترك على ظهرها من دابَّةٍ، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائر»[٣]. وقوله: ﴿هو أعلم بكم إذْ أنشأكُم من الأرضِ وإذْ أنتُم أجنَّةٌ في بطون أمَّهاتِكم﴾؛ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلِّها، وما جبلكم عليه من الضَّعف والخَوَر عن كثيرٍ مما أمركم اللّه به، ومن كثرة الدواعي إلى فعل[٤] المحرَّمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القويَّة، والضعف موجودٌ مشاهدٌ منكم حين أخرجكم اللّه من الأرض، وإذ كنتم في بطونِ أمَّهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإنْ كان اللّه تعالى قد أوجدَ فيكم قوَّةً على ما أمركم به. ولٰكنَّ الضعف لم يزلْ؛ فلعلمه تعالى بأحوالكم هٰذه؛ ناسبت الحكمةُ الإلٰهيَّة والجود الربانيُّ أن يتغمَّدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمرَكم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبدُ مقصودُه مرضاة ربِّه في جميع الأوقات، وسعيُه فيما يقرِّبُ إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذُّنوب التي يمقتُ بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة؛ فإنَّ اللّه تعالى أكرم الأكرمين[٥] وأجود الأجودين، أرحم بعبادِهِ من الوالدةِ بولدِها؛ فلا بدَّ لمثل هٰذا أن يكون من مغفرة ربِّه قريباً، وأن يكونَ اللّه له في جميع أحوالِهِ مجيباً، ولهٰذا قال تعالى: ﴿فلا تزكُّوا

---

(١) في (ب): «والفوز بنعيم الجنة».
(٢) في (ب): «كالزنا».
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣).
(٤) في (ب): «إلى بعض».
(٥) في (ب): «أرحم الراحمين».

أنفسكم﴾؛ أي: تخبرون الناس بطهارتها[١] على وجه التمدُّح عندهم، ﴿هو أعلم بمن اتَّقى﴾؛ فإنَّ التَّقوى محلُّها القلبُ، واللّه هو المطَّلع عليه، المجازي على ما فيه من برٍّ وتقوى، وأما الناسُ؛ فلا يغنون عنكم من اللّه شيئاً.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾[٢] وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ[٣] ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٣٣ ـ ٣٥﴾ يقول تعالى: أفرأيت قُبْحَ حالة من أُمِرَ بعبادة ربِّه وتوحيده فتولَّى عن ذٰلك وأعرض عنه؟! فإنْ سمحتْ نفسُه ببعض الشيء القليل؛ فإنَّه لا يستمرُّ عليه، بل يبخل ويُكْدي ويمنعُ؛ فإنَّ الإحسان[٤] ليس سجيَّةً له وطبعاً، بل طبعه التولِّي عن الطاعة وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هٰذا؛ فهو يزكِّي نفسه وينزلها غير منزلتها التي أنزلها اللّه بها. ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾: الغيبَ فيخبر[٥] به؟! أم هو متقوِّلٌ على اللّه متجرِّىء عليه جامعٌ[٦] بين المحذورين الإساءة والتزكية؟! كما هو الواقع؛ لأنَّه قد عُلِمَ أنَّه ليس عنده علمٌ من الغيب، وأنَّه لو قدِّر أنَّه ادَّعى ذٰلك؛ فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبيِّ المعصوم تدلُّ على نقيض قوله، وذٰلك دليل على بطلانه.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ ﴿أم لم يُنَبَّأْ﴾: هٰذا المدَّعي ﴿بما في صُحُف موسى. وإبراهيم

---

(١) في (ب): «أي: تطهرونها وتخبرون الناس بذلك».
(٢) في (أ) إلى آخر السورة.
(٣) في (ب): إلى آخر السورة.
(٤) في (ب): «المعروف».
(٥) في (ب): «ويخبر».
(٦) في (ب): «على الجمع».

الذي وَفَّى﴾؛ أي: قام بجميع ما ابتلاه اللّه به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.

﴿٣٨ ـ ٤١﴾ وفي تلك الصحف أحكامٌ كثيرةٌ، من أهمِّها ما ذكره اللّه بقوله: ﴿أن لا تزرَ وازرةٌ وِزرَ أخرى. وأن ليس للإنسان إلَّا ما سَعى﴾؛ أي: كلُّ عامل له عمله الحسن والسيئ؛ فليس له من عمل غيره وسعيه شيء، ولا يتحمَّل أحدٌ عن أحدٍ ذنباً، ﴿وأنَّ سعيَه سوف يُرى﴾: في الآخرة، فيميَّز حسنُه من سيِّئه، ﴿ثم يُجْزاه الجزاءَ الأوفى﴾؛ أي: المستكمل لجميع العمل، الخالص الحسن[1] بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوأى، والمشوب بحسبه؛ جزاء تُقِرُّ بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتَحْمَدُ اللّه عليه، حتى إنَّ أهل النار ليدخلون[2] النار، وإنَّ قلوبهم مملوءةٌ من حمد ربِّهم والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنَّهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شرَّ الموارد. وقد استدل بقوله [تعالى]: ﴿وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى﴾: من يرى أنَّ القُرَب لا يجوز[3] إهداؤها للأحياء ولا للأموات، قالوا: لأنَّ اللّه قال: ﴿وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى﴾؛ فوصول سعي غيره إليه منافٍ لذٰلك. وفي هٰذا الاستدلال نظرٌ؛ فإنَّ الآية إنما تدلُّ على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهٰذا حقٌّ لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدلُّ على أنَّه لا ينتفع بسعي غيره إذا أهداه ذٰلك الغير إليه[4]؛ كما أنَّه ليس للإنسان من المال إلَّا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذٰلك أن لا يملِكَ ما وَهَبَه الغير له من مالِهِ الذي يملِكُه.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿وأنَّ إلى ربِّك المنتهى﴾؛ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائقُ بالبعث والنُّشور، وإلى اللّه المنتهى في كلِّ حال؛ فإليه ينتهي العلم والحكم والرحمة وسائر الكمالات.

﴿٤٣﴾ ﴿وأنَّه هو أضحكَ وأبكى﴾؛ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشرُّ والفرح والسرور والهمُّ والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغةُ في ذٰلك.

﴿٤٤﴾ ﴿وأنَّه هو أماتَ وأحيا﴾؛ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي

(١) في (ب): «الحسن الخالص».
(٢) في (ب): «يدخلون».
(٣) في (ب): «لا يفيد».
(٤) في (ب): «له».

أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدُهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدُّنيا.

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ ﴿وأنَّه خَلَقَ الزوجين﴾: فسَّرهما[١] بقوله: ﴿الذَّكَر والأنثى﴾: وهٰذا اسمُ جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيمها؛ فهو المنفرد بخلقها ﴿من نُطفةٍ إذا تُمنى﴾: وهٰذا من أعظم الأدلَّة على كمال قدرته وانفراده بالعزَّة العظيمة؛ حيث أوجد تلك الحيوانات صغيرها وكبيرها من نطفةٍ ضعيفةٍ[٢] من ماءٍ مَهينٍ، ثم نمَّاها وكمَّلها حتى بلغت ما بلغتْ، ثم صار الآدميُّ منها إمَّا إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإمَّا إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

﴿٤٧﴾ ولهٰذا استدلَّ بالبداءة على الإعادة، فقال: ﴿وأنَّ عليه النشأةَ الأخرى﴾: فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿٤٨﴾ ﴿وأنَّه هو أغنى وأقنى﴾؛ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التِّجارات وأنواع المكاسب من الحِرَف وغيرها، ﴿وأقنى﴾؛ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها ما يصيرون به مقتنين لها ومالكين لكثيرٍ من الأعيان، وهٰذا من نعمه تعالى؛ أنْ أخبرهم[٣] أنَّ جميع النعم منه، وهٰذا يوجب للعبادِ أنْ يشكُروه ويعبدُوه وحدَه لا شريك له.

﴿٤٩﴾ ﴿وأنَّه هو ربُّ الشِّعرى﴾: وهو[٤] النجم المعروف بالشِّعْرى العبور، المسماة بالمرزم، وخصَّها الله بالذِّكر وإن كان هو ربُّ كلِّ شيء؛ لأنَّ هٰذا النجم مما عُبِد في الجاهلية، فأخبر تعالى أنَّ جنس ما يعبد[٥] المشركون مربوبٌ مدبَّرٌ مخلوقٌ؛ فكيف يُتَّخَذُ مع الله آلهة؟!

﴿٥٠﴾ ﴿وأنَّه أهلك عاداً الأولى﴾: وهم قوم هودٍ عليه السلام حين كذَّبوا هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصرٍ عاتيةٍ.

﴿٥١﴾ ﴿وثمودَ﴾: قومُ صالح عليه السلام؛ أرسله الله إلى ثمود، فكذَّبوه،

---

(١) في (ب): «فسَّر الزوجين».

(٢) في (ب): «كبيرها وصغيرها من نطفة قليلة».

(٣) في (ب): «وهذا من نعمه على عباده أنّ جميع . . .».

(٤) في (ب): «وهي». (٥) في (ب): «يعبده».

فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها وكذَّبوه، فأهلكهم الله [تعالى]، ﴿فما أبقى﴾: منهم أحداً، بل أبادهم[١] عن آخرهم.

﴿٥٢﴾ ﴿وقومَ نوحٍ من قبلُ إنَّهم كانوا هم أظلمَ وأطغى﴾: من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم[٢].

﴿٥٣ ـ ٥٤﴾ ﴿والمؤتفكةَ﴾: وهم قومُ لوطٍ عليه السلام، ﴿أهوى﴾؛ أي: أصابهم الله بعذابٍ ما عذَّب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارةً من سجِّيل، ولهذا قال: ﴿فغشَّاها ما غشَّى﴾؛ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشي؛ أي: شيءٌ عظيمٌ لا يمكن وصفه.

﴿٥٥﴾ ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّك تتمارى﴾؛ أي: فبأيِّ نعم الله وفضله تشكُّ أيُّها الإنسان؛ فإنَّ نعم الله ظاهرةٌ لا تقبل الشكَّ بوجه من الوجوه؛ فما بالعباد من نعمةٍ إلَّا منه تعالى، ولا يدفع النِّقَم إلَّا هو.

﴿٥٦﴾ ﴿هذا نذيرٌ من النُّذُر الأولى﴾؛ أي: هذا الرسول القرشيُّ الهاشميُّ محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدَّمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه؛ فلأيِّ شيءٍ تنكر رسالته؟! وبأيِّ حجَّة تبطل دعوته؟! أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام؟! أليس يدعو إلى كلِّ خير وينهى عن كل شرٍّ[٣]؟! ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ؟! ألم يُهلك الله مَن كَذَّب مَن قبله من الرسل الكرام؟! فما الذي يمنع العذابَ عن المكذِّبين لمحمد سيِّد المرسلين وإمام المتَّقين وقائد الغرِّ المحجَّلين؟!

﴿٥٧﴾ ﴿أزِفَتِ الآزفةُ﴾؛ أي: قربت القيامة ودنا وقتُها وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دونِ الله كاشفةٌ﴾؛ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذابُ الموعود به.

﴿٥٨﴾ ثم توعَّد المنكرين لرسالة الرسول محمدٍ ﷺ، المكذِّبين لما[٤] جاء به من القرآن الكريم، فقال:

﴿٥٩﴾ ﴿أفمِنْ هذا الحديث تعجبونَ﴾؛ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير

---

(١) في (ب): «أهلكهم الله». (٢) في (ب): «وأغرقهم في اليمِّ».
(٣) في (ب): «أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كلِّ شرٍّ».
(٤) في (ب): «بما».

الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة، الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟! هٰذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلَّا؛ فهو الحديث الذي إذا حَدَّث صَدَق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل، ليس بالهزل، وهو القرآن[١] العظيم، الذي لو أُنزِل على جبل لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية اللّه، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً وتسديداً وثباتاً وإيقاناً وإيماناً، بل الذي[٢] ينبغي العَجَبُ من عقل من تعجَّب منه وسفهه وضلاله.

﴿٦٠﴾ ﴿وتضحكون ولا تبكونَ﴾؛ أي: تستعجلون الضَّحك والاستهزاء به، مع أنه الذي ينبغي أن تتأثَّر منه النفوس وتلين له القلوب وتبكي له العيون؛ سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة[٣].

﴿٦١﴾ ﴿وأنتُم سامدونَ﴾؛ أي: غافلون لاهون عنه وعن تدبُّره[٤]، وهٰذا من قلَّة عقولكم وأديانكم؛ فلو عبدتم اللّه وطلبتم رضاه في جميع الأحوال؛ لما كنتُم بهٰذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب.

﴿٦٢﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿فاسجُدوا للّه واعبدوا﴾: الأمر بالسجود للّه خصوصاً يدلُّ على فضله، وأنَّه سرُّ العبادة ولبُّها؛ فإنَّ روحها الخشوع للّه والخضوع له، والسجود [هو] أعظم حالة يخضع بها [العبد][٥]؛ فإنَّه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام. ثم أمر بالعبادة عموماً الشاملة لجميع ما يحبُّه اللّه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم.

والحمد للّه [الذي لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده وصلّى الله على محمد وسلّم تسليماً كثيراً].

❀ ❀ ❀

---

(١) في (ب): «الكلام».
(٢) في (ب): «وإيماناً ويقيناً، والذي».
(٣) في (ب): «الحسنة الصادقة».
(٤) في (ب): «أي: غافلون عنه لاهون عن تدبره».
(٥) في (ب): «القلب». والكلمة في (أ) غير واضحة ولعلّها: «العبد» كما هي في الطبعة الأولى.

تفسير سورة اقتربت الساعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ
مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى أنَّ الساعة ـ وهي القيامة ـ اقتربت، وآن أوانُها، وحان وقتُ مجيئها، ومع هٰذا[1]؛ فهٰؤلاء المكذِّبون لم يزالوا مكذِّبين بها غير مستعدين لنزولها، ويريهم اللّه من الآيات العظيمة الدالَّة على وقوعها ما يؤمنُ على مثله البشرُ؛ فمن أعظمِ الآياتِ الدالَّة على صحَّة ما جاء به محمد بن عبداللّه ﷺ أنَّه لما طلب منه المكذِّبون أن يُرِيَهم من خوارق العادات ما يدلُّ على صحَّة ما جاء به وصدقه[2]؛ أشار ﷺ إلى القمر، فانشقَّ بإذن اللّه فلقتين؛ فلقةً على جبل أبي قُبيس، وفلقةً على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هٰذه الآية العظيمة[3] الكائنة في العالم العلويِّ، التي لا يقدر الخلقُ على التمويه بها والتخييل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثلَه، بل ولم يسمعوا أنَّه جرى لأحدٍ من المرسلين قبلَه نظيره، فانبهروا لذٰلك، ولم يدخُل الإيمانُ في قلوبهم، ولم يردِ اللّه بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمدٌ! ولٰكنَّ علامة ذٰلك أنكم تسألون من وَرَدَ عليكم[4] من السفر؛ فإنَّه إن قدر على سحركم؛ لم يقدِرْ أن يسحرَ مَن ليس مشاهداً مثلكم! فسألوا كلَّ من قدم، فأخبروهم بوقوع ذٰلك، فقالوا: ﴿سحرٌ مستمرٌّ﴾! سحرنا محمدٌ وسحر غيرنا!! وهٰذا من البَهْتِ الذي لا يروج إلَّا على أسفه الخلق وأضلِّهم عن الهدى والعقل.

﴿٢﴾ وهٰذا ليس إنكاراً منهم لهٰذه الآية وحدَها، بل كلُّ آية تأتيهم؛ فإنَّهم مستعدُّون لمقابلتها بالتكذيب[5] والردِّ لها، ولهٰذا قال: ﴿وإن يَرَوا آيةً يعرِضوا﴾:

---

(١) في (ب): «ذلك».
(٢) في (ب): «ما يدلُّ على صدقه».
(٣) في (ب): «الكبرى».
(٤) في (ب): «من قدم إليكم».
(٥) في (ب): «بالباطل».

فلم يعدْ الضمير على انشقاق القمر، [فلم يقل: وإن يروها]، بل قال: ﴿وإن يَرَوا آيةً يعرضوا﴾؛ فليس[١] قصدهم اتِّباع الحق والهدى، وإنَّما مقصودهم اتِّباع الهوى.

﴿٣﴾ ولهذا قال: ﴿وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءهم﴾؛ كقوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعْلَمْ أنَّما يتَّبِعون أهواءَهم﴾؛ فإنَّه لو كان قصدُهم اتِّباعَ الهدى؛ لآمنوا قطعاً واتَّبعوا محمداً ﷺ؛ لأنه أراهم اللّه على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دلَّ على جميع المطالب الإلٰهيَّة والمقاصد الشرعيَّة، ﴿وكلُّ أمرٍ مستقرٌ﴾؛ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره؛ فالمصدِّق يتقلَّب في جنَّات النعيم ومغفرة اللّه ورضوانه، والمكذِّب يتقلَّب في سخط اللّه وعذابِهِ خالداً مخلداً أبداً.

﴿٤﴾ وقال تعالى مبيِّناً أنَّهم ليس لهم قصدٌ صحيحٌ واتباعٌ للهدى[٢]: ﴿ولقد جاءهم من الأنباءِ﴾؛ [أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة] ﴿ما فيه مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: زاجر يزجرهم عن غيِّهم وضلالهم.

﴿٥﴾ وذٰلك ﴿حكمةٌ﴾: منه تعالى ﴿بالغةٌ﴾؛ أي: لتقوم حجَّته على العالمين[٣]، ولا يبقى لأحدٍ على اللّه حجَّةٌ بعد الرسل، ﴿فما تغني النُّذُر﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ لا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿٦﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أنَّ المكذِّبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلَّا الإعراضُ عنهم[٤]، فقال: ﴿فتولَّ عنهم﴾: وانتظرْ بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذٰلك حين ﴿يَدعُ الداعِ﴾؛ وهو إسرافيلُ عليه السلام ﴿إلى شيء نُكُرٍ﴾؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظراً أفظع ولا أوجع منه، فينفخُ إسرافيل نفخةً يخرج بها[٥] الأمواتُ من قبورهم لموقف القيامة.

﴿٧﴾ ﴿خُشَّعاً أبصارُهم﴾؛ أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم،

---

(١) في (ب): «وليس».
(٢) في (ب): «ولا اتباع الهدى».
(٣) في (ب): «المخالفين».
(٤) في (ب): «الإعراض عنهم والتولي عنهم. فتولَّ عنهم».
(٥) في (ب): «فينفخ إسرائيل في الصور نفخة يخرج منها».

فخضعت وذلَّت، وخشعت لذلك أبصارهم ﴿يخرجون من الأجداثِ﴾: وهي القبورُ ﴿كأنَّهم﴾: من كثرتهم وروَجان بعضهم ببعض ﴿جرادٌ منتشرٌ﴾؛ أي: مبثوثٌ في الأرض متكاثرٌ جدًّا.

﴿٨﴾ ﴿مهطعينَ إلى الدَّاعِ﴾؛ أي: مسرعين لإجابة نداء[1] الدَّاعي، وهذا يدلُّ على أنَّ الدَّاعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبُّون دعوته ويسرعون إلى إجابته، ﴿يقول الكافرون﴾: الذين قد حَضَرَ عذابُهم: ﴿هذا يومٌ عَسِرٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿على الكافرين غيرُ يسيرٍ﴾: مفهوم ذلك أنَّه يسيرٌ سهلٌ على المؤمنين.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾[2] فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿٩﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حالَ المكذِّبين لرسوله وأنَّ الآياتِ لا تنفع فيهم ولا تُجدي عليهم شيئاً؛ أنذرهم وخوَّفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذِّبة للرسل وكيف أهلكهم اللَّهُ وأحلَّ بهم عقابه، فذكر قومَ نوحٍ؛ أول رسول بعثه اللَّه إلى قوم يعبُدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد اللَّه وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك، وقالوا: ﴿لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويَعوقَ ونَسْراً﴾، ولم يزل نوحٌ يدعوهم إلى اللَّه ليلاً ونهاراً سرًّا وجهاراً، فلم يزدْهم ذلك إلَّا عناداً وطغياناً وقدحاً في نبيِّهم، ولهذا قال هنا: ﴿فكذَّبوا عبدَنا وقالوا مجنونٌ﴾: لزعمهم أنَّ ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدلُّ عليه العقل، وأنَّ ما جاء به نوحٌ عليه السلام جهلٌ وضلالٌ لا يصدُر إلَّا من المجانين، وكَذَبوا في ذلك، وقَلَبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً[3]؛ فإنَّ ما جاء به هو الحقُّ الثابت الذي يرشد العقول النيِّرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرُّشد، وما هم عليه جهلٌ وضلالٌ مبينٌ. وقوله: ﴿وازْدُجِرَ﴾؛ أي: زجره قومه وعنَّفوه لما دعاهم إلى اللَّه تعالى، فلم

(١) في (ب): «مسرعين لنداء».

(٢) في (أ): إلى آخر قصته. وفي (ب) ذكرت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر...﴾.

(٣) في (ب): «عقلاً وشرعاً».

يكفِهِم قبَّحَهُمُ اللّٰهُ عدمُ الإيمان به ولا تكذيبُهم إيَّاه، حتى أوصلوا إليه من أذيَّتهم ما قدروا عليه، وهٰكذا جميع أعداء الرسل هٰذه حالهم مع أنبيائهم.

﴿١٠﴾ فعند ذٰلك دعا نوحٌ ربَّه، فقال: ﴿إنِّي مغلوبٌ﴾: لا قدرةَ لي على الانتصار منهم؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلَّا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فانتَصِرْ﴾: اللهمَّ لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين دَيَّاراً...﴾ الآيات.

﴿١١﴾ فأجاب اللّٰه سؤاله، فانتصر[1] له من قومه؛ قال تعالى: ﴿ففَتَحْنا أبوابَ السماءِ بماءٍ منهمرٍ﴾؛ أي: كثير جدًّا متتابع.

﴿١٢﴾ ﴿وفجَّرْنا الأرض عُيوناً﴾: فجعلتِ السماءُ ينزل منها من الماء شيءٌ خارقٌ للعادة، وتفجَّرت الأرضُ كلُّها، حتى التنُّور الذي لم تَجْرِ العادةُ بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونِهِ منبعاً للماء؛ لأنَّه موضع النار، ﴿فالتقى الماء﴾؛ أي: ماء السماء والأرض، ﴿على أمرٍ﴾: من اللّٰه له بذٰلك، ﴿قد قُدِرَ﴾؛ أي: قد كتبه اللّٰه في الأزل وقضاه عقوبةً لهٰؤلاء الظالمين الطاغين.

﴿١٣﴾ ﴿وحَمَلْناه على ذاتِ ألواح ودُسُرٍ﴾؛ أي: ونجَّينا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدُّسُر[2]؛ أي: المسامير التي قد سُمِرَتْ بها ألواحُها وشُدَّ بها أسرها.

﴿١٤﴾ ﴿تجري بأعْيُنِنا﴾؛ أي: تجري بنوح ومَنْ آمن معه ومَنْ حمله مِن أصناف المخلوقات برعايةٍ من اللّٰه وحفظٍ منه لها عن الغرق ونظرٍ وكلاءةٍ منه تعالى، وهو نعم الحافظُ الوكيلُ، ﴿جزاءً لِمَن كان كُفِرَ﴾؛ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النَّجاة من الغرق العامِّ جزاءً له؛ حيث كذَّبه قومُه وكفروا به، فصبر على دعوتِهِم، واستمرَّ على أمر اللّٰه، فلم يردَّه عنه رادٌّ ولا صدَّه عن ذٰلك[3] صادٌّ؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قيل يا نوحُ اهبطْ بسلام مِنَّا وبَرَكاتٍ عليك وعلى أمم مِمَّن معك...﴾ الآية. **ويُحتمل** أنَّ المراد أنَّا أهلَكنا قومَ نوح وفعلنا بهم ما فَعَلنا مِن العذاب والخزي جزاءً لهم على كفرِهم وعنادهم. وهٰذا متوجِّهٌ على قراءة من قرأها بفتح الكاف.

---

(١) في (ب): «وانتصر».
(٢) في (ب): «ودسر».
(٣) في (ب): «ولا صدّه عنه».

﴿١٥﴾ ﴿ولقد تركناها آيةً فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آيةً يتذكَّر بها المتذكِّرون على أنَّ من عصى الرُّسل وعاندهم أهْلَكَه الله بعقابٍ عامٍّ شديدٍ، أو أنَّ الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأنَّ أصل صنعتها تعليمٌ من الله لرسوله[1] نوح عليه السلام، ثم أبقى الله صنعتها وجنسها بين الناس؛ ليدلَّ ذلك على رحمته بخلقه وعنايته وكمال قدرته وبديع صنعته. ﴿فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: فهل متذكِّر للآيات ملقٍ ذهنَه وفكرته لما يأتيه منها؛ فإنَّها في غاية البيان واليُسر؟

﴿١٦﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾؛ أي: فكيف رأيتَ أيها المخاطَبُ عذابَ الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحدٍ عليه حجة.

﴿١٧﴾ ﴿ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: ولقد يسَّرْنا وسهَّلْنا هذا القرآن الكريم ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنَّه أحسن الكلام لفظاً، وأصدقُه معنىً، وأبينه تفسيراً؛ فكلُّ من أقبل عليه؛ يَسَّرَ الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهَّله عليه، والذِّكر شاملٌ لكل ما يتذكَّر به العالمون من الحلال والحرام وأحكام الأمرِ والنَّهي وأحكام الجزاء والمواعظ والعِبَرِ والعقائِد النَّافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم وأجلَّها على الإطلاق، وهو العلمُ النافعُ الذي إذا طلبه العبدُ؛ أُعِينَ عليه. قال بعضُ السَّلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه. ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكُّر بقوله: ﴿فهل من مُدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ وعادٌ هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذَّبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ريحاً صرصراً﴾؛ أي: شديدة جدًّا. ﴿في يوم نحسٍ﴾؛ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مستمرٍّ﴾: عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً.

﴿٢٠﴾ ﴿تنزِعُ الناسَ﴾: من شدَّتها فترفعهم إلى جوِّ السماء، ثم تدمغهم

(١) في (ب): «العبده».

بالأرض، فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنَّهم أعجازُ نخلٍ مُنقعِرٍ﴾؛ أي: كأنَّ جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعته[١] الريح فسقط على الأرض؛ فما أهون الخلق على الله إذا عَصَوْا أمرَه!

﴿٢١﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾: كان والله العذاب الأليم والنِّذارة التي ما أبقت لأحدٍ عليه حجة.

﴿٢٢﴾ ﴿ولقد يَسَّرْنا القرآن للذِّكْر فهل من مُدَّكِرٍ﴾: كرَّر تعالى ذٰلك رحمة بعباده وعناية بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يصلِحُ دنياهم وأخراهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿كذَّبت ثمودُ﴾: وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحِجْر نبيَّهم صالحاً عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إنْ هم خالفوه.

﴿٢٤﴾ فكذَّبوه واستكبروا عليه وقالوا كبراً وتيهاً: ﴿أبشراً مِنَّا واحداً نَتَّبِعُهُ﴾؛ أي: كيف نتَّبع بشراً لا مَلَكاً، منَّا لا من غيرنا ممَّن هو أكبر عند الناس منَّا، ومع ذٰلك؛ فهو شخصٌ واحدٌ. ﴿إنَّا إذاً﴾؛ أي: إن اتَّبعناه وهو في هٰذه[٢] الحالة ﴿لفي ضلال وسُعُرٍ﴾؛ أي: [إنَّا] لضالُّون أشقياء. وهٰذا الكلام من ضلالهم وشقائهم؛ فإنهم أنِفوا أنْ يَتَّبِعوا رسولاً من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصُّوَر.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿أألقي الذِّكر عليه من بيننا﴾؛ أي: كيف يخصُّه الله من بيننا وينزِّل عليه الذِّكر؛ فأيُّ مزيَّةٍ خصَّه من بيننا؟! وهٰذا اعتراضٌ من المكذِّبين على الله لم يزالوا يُدلون به ويصولون [ويحولون] ويردُّون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هٰذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قالت رسُلُهم إن نحنُ إلَّا بشرٌ مثلُكم

---

(١) في (ب): «أصابته».
(٢) في (ب): «وهو بهذه».

ولٰكنَّ اللّه يَمُنُّ على مَنْ يشاءُ من عبادِهِ﴾: فالرسل مَنَّ اللّه عليهم بصفاتٍ وأخلاق وكمالاتٍ بها صلحوا لرسالات ربِّهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر؛ فلو كانوا من الملائكة؛ لم يمكن البشر أن يتلقَّوا عنهم، ولو جعلَهم من الملائكة؛ لعاجل المكذِّبين لهم بالعقاب العاجل. والمقصود من هٰذا[١] الكلام الصادر من ثمود لنبيِّهم صالح تكذيبه، ولهٰذا حكموا عليه بهٰذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بل هو كذَّابٌ أشِرٌ﴾؛ أي: كثير الكذب والشرِّ! فقبَّحهم اللّه ما أسفه أحلامهم وأظلمهم وأشدَّهم مقابلةً للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع.

﴿٢٧﴾ لا جرم عاقبهم اللّه حين اشتدَّ طغيانُهم، فأرسل اللّه الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم آية من آيات اللّه ونعمة؛ يحلبونَ من دَرِّها[٢] ما يكفيهم أجمعين، ﴿فتنةً لهم﴾؛ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً، ﴿فارتَقِبْهم واصْطَبِر﴾؛ أي: اصبر على دعوتك إيَّاهم وارتقبْ ما يحلُّ بهم، أو ارتقبْ هل يؤمنون أو يكفُرون.

﴿٢٨﴾ ﴿ونبِّئْهم أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهم﴾؛ أي: وأخبرهم أنَّ الماء؛ أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمةٌ بينهم وبين الناقة، لها شِرْبُ يوم ولهم شِرْبُ يوم آخر معلوم. ﴿كلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾؛ أي: يحضره من كان قسمته، ويُحْظَر على من ليس بقسمة له.

﴿٢٩﴾ ﴿فنادوا صاحبَهم﴾: الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة، ﴿فتعاطى﴾؛ أي: انقاد لما أمروه به من عقرها، ﴿فعقر﴾.

﴿٣٠ ـ ٣٢﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾: كان أشدَّ عذاب، أرسل اللّه عليهم صيحةً ورجفةً أهلكتهم عن آخرهم، ونجَّى اللّه صالحاً ومَن آمن معه، ﴿ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْر فهل من مُدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٣ ـ ٤٠﴾ أي: ﴿كذَّبت قومُ لوط﴾: لوطاً عليه السلام حين دعاهم إلى

---

(١) في (ب): «بهذا».

(٢) في (ب): «ضرعها».

عبادة اللّه وحده لا شريك له ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، فكذَّبوه واستمرُّوا على شركهم وقبائحهم، حتى إنَّ الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف، حين سمع بهم قومُه؛ جاؤوا مسرعين يريدون إيقاع الفاحشة فيهم لعنهم اللّه وقبَّحهم وراودوه عنهم، فأمر اللّه جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيُّهم بطشة اللّه وعقوبته، ﴿فتماروْا بالنُّذُر﴾، ﴿ولقد صبَّحهم بُكرةً عذابٌ مستقرٌّ﴾: قلب اللّه عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبَّعهم بحجارة من سِجِّيل منضودٍ مسوَّمة عند ربِّك للمسرفين، ونجَّى اللّه لوطاً وأهله من الكرب العظيم؛ جزاء لهم على شكرهم لربِّهم وعبادته وحدَه لا شريك له.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ[1] ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٤١ ـ ٤٢﴾ أي: ﴿ولقد جاء آلَ فرعونَ﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿النُّذُر﴾: فأرسل اللّه إليهم موسى الكليم، وأيَّده بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات[2]، وأشهدهم من العبر ما لم يشهدْ غيرهم[3]، فكذَّبوا بآيات اللّه كلِّها، فأخذهم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فأغرقه وجنوده في اليمِّ.

﴿٤٣﴾ والمراد من ذِكر هٰذه القصص تحذير الناس والمكذِّبين لمحمد ﷺ، ولهٰذا قال: ﴿أكفَّاركم خيرٌ من أولٰئكم﴾؛ أي: أهٰؤلاء الذين كذَّبوا أفضل الرسل خيرٌ من أولٰئك[4] المكذِّبين الذين ذكر اللّه هلاكَهم وما جرى عليهم؟ فإنْ كانوا

(١) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكرت الآيات إلى نهاية السورة.
(٢) في (ب): «بالآيات الباهرات والمعجزات القاهرات».
(٣) في (ب): «ما لم يشهد عليهم أحداً غيرهم». (٤) في (ب): «هؤلاء».

خيراً منهم؛ أمكن أن يَنجوا من العذاب ولم يصبهم ما أصاب أولٰئك الأشرار، وليس الأمر كذٰلك؛ فإنَّهم إن لم يكونوا شرًّا منهم؛ فليسوا بخير منهم. ﴿أم لكم بَرَآءَةٌ في الزُّبُرِ﴾؛ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذٍ أنَّكم الناجون بأخبار الله ووعده؟! وهٰذا غير واقع، بل غير ممكنٍ عقلاً وشرعاً أن تُكتب براءتهم في الكُتب الإلٰهية المتضمِّنة للعدل والحكمة؛ فليس من الحكمة نجاةُ أمثال هٰؤلاء المعاندين المكذِّبين لأفضل الرسل وأكرمهم على الله.

﴿٤٤﴾ فلم يبق إلَّا أن يكون بهم قوَّةٌ ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نحن جميعٌ منتصرٌ﴾.

﴿٤٥﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿سيُهزَمُ الجمعُ ويولُّون الدُّبُرَ﴾: فوقع كما أخبر؛ هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدرٍ، وقُتلت صناديدُهم وكبراؤهم، فأذلُّوا[1]، ونصر الله دينه ونبيَّه وحزبه المؤمنين.

﴿٤٦﴾ ومع ذٰلك؛ فلهم موعدٌ يجمع به أولهم وآخرهم ومن أصيب في الدُّنيا منهم ومن متع بلذاته، ولهٰذا قال: ﴿بل الساعةُ موعدُهم﴾: الذي يجازون به ويؤخذ منهم الحقُّ بالقسط، ﴿والساعةُ أدهى وأمرُّ﴾؛ أي: أعظم وأشقُّ وأكبر من كلِّ ما يتوهَّم أو يدور في الخيال[2].

﴿٤٧﴾ ﴿إنَّ المجرمينَ﴾؛ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة؛ من الشرك وغيره من المعاصي ﴿في ضلال وسُعُرٍ﴾؛ أي: هم ضالُّون في الدُّنيا، ضُلَّالٌ عن العلم وضُلَّالٌ عن العمل الذي ينجِّيهم من العذاب، ويوم القيامةِ في العذاب الأليم والنار التي تستعر بهم وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿يوم يُسْحَبون في النار على وجوهِهِم﴾: التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشدُّ من [أَلَم] غيرها، فيُهانون بذٰلك ويُخْزَون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مَسَّ سَقَرَ﴾؛ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿٤٩﴾ ﴿إنَّا كلَّ شيءٍ خَلَقْناه بقدرٍ﴾: وهٰذا شاملٌ للمخلوقات والعوالم العلويَّة والسفليَّة؛ إنَّ الله تعالى وحدَه خلَقَها، لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في

---

(١) في (ب): «وقتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلُّوا به».

(٢) في (ب): «بالبال».

خلقه[١]، وخلقها بقضاءٍ سبق به علمُه وجرى به قلمُه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

﴿٥٠﴾ وذٰلك على اللّه يسيرٌ؛ فلهٰذا قال: ﴿وما أمرُنا إلَّا واحدةٌ كلمحٍ بالبصرِ﴾: فإذا أراد شيئاً؛ قال له: كن فيكونُ؛ كما أراد؛ كلمح البصر؛ من غير ممانعةٍ ولا صعوبةٍ.

﴿٥١﴾ ﴿ولقد أهلَكْنا أشياعَكم﴾: من الأمم السابقين، الذين عملوا كما عملتُم وكذَّبوا كما كذَّبتم، ﴿فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: متذكِّر يعلم أن سنَّة اللّه في الأولين والآخرين واحدةٌ، وأن حكمتَه كما اقتضت إهلاك أولٰئك الأشرار فإنَّ هٰؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

﴿٥٢﴾ ﴿وكلُّ شيءٍ فعلوه في الزُّبر﴾؛ أي: كل ما فعلوه من خيرٍ وشرٍّ مكتوبٌ عليهم في الكتب القدريَّة.

﴿٥٣﴾ ﴿وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾؛ أي: مسطَّرٌ مكتوبٌ، وهٰذه حقيقة القضاء والقدر، وأنَّ جميع الأشياء كلها قد علمها اللّه تعالى وسطرها عنده في اللوح المحفوظ؛ فما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكنْ؛ فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطِئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه.

﴿٥٤ ـ ٥٥﴾ ﴿إنَّ المتَّقين﴾: للّه بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتَّقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿في جناتٍ ونَهَرٍ﴾؛ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضا[٢] الملك الدَّيَّان والفوز بقربه، ولهٰذا قال: ﴿في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ﴾؛ فلا تسأل بعد هٰذا عما يعطيهم ربُّهم من كرامته وجوده ويمدُّهم به من إحسانه ومنَّته! جعلنا اللّه منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشرِّ ما عندنا.

تم تفسير هٰذه السورة[٣]. والحمد للّه.

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «خلقها».

(٢) في (ب): «ورضوان».

(٣) في (ب): «تمَّ تفسير سورة اقتربت».

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا
تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

﴿١﴾ هٰذه السورة الكريمة الجليلةُ افتتحها باسمه الرحمٰن، الدالِّ على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل برِّه وواسع فضله، ثم ذَكَرَ ما يدلُّ على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينيَّة والدنيويَّة والأخرويَّة، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبِّه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تـكذِّبان﴾.

﴿٢﴾ فذكر أنه: ﴿علم القرآن﴾؛ أي: علَّم عباده ألفاظه ومعانيه ويسَّرها على عباده، وهٰذا أعظم منَّة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن الألفاظ وأوضح المعاني[١]، مشتملٌ على كلِّ خير، زاجرٌ عن كلِّ شرٍّ.

﴿٣ ـ ٤﴾ ﴿خلق الإنسان﴾: في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفَى الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البارىء تعالى البديع خلقه أيَّ إتقان، وميَّزه على سائر الحيوانات بأن ﴿علَّمه البيانَ﴾؛ أي: التبيين عمَّا في ضميره. وهٰذا شاملٌ للتعليم النُّطقيِّ والتعليم الخطِّيِّ؛ فالبيان الذي ميَّز الله به الآدميَّ على غيره من أجلِّ نعمه وأكبرها عليه.

﴿٥﴾ ﴿الشمسُ والقمرُ بحُسْبانٍ﴾؛ أي: خلق الله الشمس والقمر وسخَّرهما يجريان بحساب مقنَّن وتقدير مقدَّر رحمةً بالعباد وعنايةً بهم، وليقوم بذٰلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرفوا عدد السنين والحساب.

﴿٦﴾ ﴿والنجم والشجر يسجُدان﴾؛ أي: نجوم السماء وأشجار الأرض تعرِفُ

(١) في (ب): «وأحسن تفسيرٍ».

ربَّها وتسجُد له وتطيع وتخضع[١] وتنقاد لما سخَّرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿والسماء رفعها﴾: سقفاً للمخلوقات الأرضيَّة، ﴿ووضع﴾ [اللّه] ﴿الميزان﴾؛ أي: العدل بين العبادِ في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا؛ يدخل فيه الميزان المعروف والمكيال الذي تُكال به الأشياء والمقادير والمساحات التي تُضبَط بها المجهولات والحقائق التي يُفْصَل بها بين المخلوقات ويُقام بها العدل بينهم، ولهٰذا قال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا في الميزان﴾؛ أي: أنزل اللّه الميزان لئلَّا تتجاوزوا الحدَّ في الميزان؛ فإنَّ الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم؛ لحصل من الخلل ما اللّه به عليم، ولفسدت السماواتُ والأرض ومن فيهنَّ.

﴿٩﴾ ﴿وأقيموا الوزنَ بالقسطِ﴾؛ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿ولا تُخسِروا الميزانَ﴾؛ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضدِّه، وهو الجور والظلم والطغيان.

﴿١٠﴾ ﴿والأرضَ وضعها﴾: اللّه على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها ﴿للأنام﴾؛ أي: للخلق؛ لكي يستقرُّوا عليها، وتكون لهم مهاداً وفراشاً، يبنون بها ويحرُثون ويغرِسون ويحفرون، ويسلكون سُبُلَها فجاجاً، وينتفعون بمعادنها، وجميع ما فيها مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال:

﴿١١﴾ ﴿فيها فاكهةٌ﴾: وهي[٢] جميع الأشجار التي تثمر الثمراتِ التي يتفكَّه بها العبادُ من العنب والتين والرمان والتُّفاح وغير ذٰلك، ﴿والنَّخلُ ذاتُ الأكمام﴾؛ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن القِنْوان التي تَخْرُجُ شيئاً فشيئاً حتى تتمَّ فتكون قوتاً يدَّخر ويؤكل[٣] ويتزوَّد منه المقيم والمسافر وفاكهةً لذيذةً من أحسن الفواكه.

﴿١٢﴾ ﴿والحبُّ ذو العصفِ﴾؛ أي: ذو الساق الذي يُداس فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذٰلك حبُّ البرِّ والشعير والذُّرة والأرز والدخن وغير ذٰلك، ﴿والريحانُ﴾: يُحتمل أنَّ المراد به[٤] جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميُّون، فيكون هٰذا من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، ويكون اللّه [تعالى] قد امتنَّ على عباده

---

(١) في (ب): «وتخشع».
(٢) في (ب): «وهو».
(٣) في (ب): «يؤكل ويُدَّخر».
(٤) في (ب): «بذلك».

بالقوت والرزق عموماً وخصوصاً. **ويُحتمل** أنَّ المراد بالريحان الريحان المعروف، وأنَّ اللّه امتنَّ على عباده بما يسَّره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة والمشامِّ الفاخرة التي تسرُّ الأرواح وتنشرح لها النفوس.

﴿١٣﴾ ولما ذَكَرَ جملةً كثيرةً من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطابُ للثَّقلين الجن والإنس؛ قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؛ أي: فبأيِّ نعم اللّه الدينيَّة والدنيويَّة تكذِّبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبيُّ ﷺ هٰذه السورة؛ فكلَّما مرَّ بقوله: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان﴾؛ قالوا[١]: ولا بشيءٍ من آلائك ربنا نكذِّبُ؛ فلك الحمد[٢]. فهٰكذا[٣] ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم اللّه وآلاؤه أن يُقِرَّ بها ويشكر ويحمد اللّه عليها.

ثم قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٤﴾ وهٰذا من نعمه تعالى على عباده؛ حيث أراهم من آثارِ قدرتِهِ وبديع صنعته أنْ ﴿خلَقَ﴾ أبا ﴿الإنسان﴾، وهو آدم عليه السلام، ﴿من صلصالٍ كالفخَّارِ﴾؛ أي: من طينٍ مبلول، قد أحكم بلَّه وأتقن، حتى جفَّ فصار له صلصلةٌ وصوتٌ يشبه صوت الفخَّار، وهو الطين المشويُّ[٤].

﴿١٥﴾ ﴿وخلق الجانَّ﴾؛ أي: أبا الجنِّ، وهو إبليس لعنه اللّه[٥] ﴿من مارجٍ من نارٍ﴾؛ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. وهٰذا يدلُّ على شرف عنصر الآدميِّ المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع؛ بخلاف عنصر الجانِّ، وهو النار، التي هي محلُّ الخفَّة والطيش والشرِّ والفساد.

---

(١) في (ب): «فما مرَّ بقوله: ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾ إلَّا قالوا».
(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٢/٤٧٣) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٥٠).
(٣) في (ب): «فهذا الذي».
(٤) في (ب): «صوت الفخار الذي طبخ على النار».
(٥) في (ب): «وهو إبليس اللعين».

﴿١٦﴾ ولما بيَّن خَلْقَ الثَّقَلَين ومادة ذٰلك[١]، وكان ذٰلك مِنَّةً منه تعالى عليهم[٢]؛ قال: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؟!

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ أي: هو تعالى ربُّ كلِّ ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيِّرة، وكلِّ ما غربت عليه، وكلِّ ما كانا فيه؛ فالجميع تحت[٣] تدبيره وربوبيته، وثنَّاهما هنا باعتبار مشارقها شتاءً وصيفاً. والله أعلم[٤].

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿١٩ ـ ٢٣﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح؛ فهما يلتقيان [كلاهما]، فيصبُّ العذب في البحر المالح ويختلطان ويمتزجان، ولٰكنَّ الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصُلَ النفع بكلٍّ منهما؛ فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيبُ الهواء ويتولَّد الحوت والسمك واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقرًّا مسخراً للسفن والمراكب، ولهٰذا قال:

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ أي: وسخَّر تعالى لعباده السفن الجواري التي تمخرُ البحر وتشقُّه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من عِظَمِها وكبرها[٥] كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم وغير ذٰلك ممّا تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظُ السماواتِ والأرض، وهٰذه من نعم الله الجليلة، ولهٰذا[٦] قال: ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان﴾؟!

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ولما بين مادة الثقلين». (٢) في (ب): «على عباده».
(٣) في (ب): «وكلما غربت عليه فهي تحت».
(٤) في (ب): «وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقي الشمس شتاء وصيفاً ومغربها كذلك».
(٥) في (ب): «من كبرها وعظمها». (٦) في (ب): «فلذلك».

﴿٢٦ ـ ٢٨﴾ أي: كلُّ مَن على الأرض من إنسٍ وجنٍّ ودوابٍّ وسائر المخلوقات يفنى [ويموت] ويبيد، ويبقى الحيُّ الذي لا يموت، ﴿ذو الجلال والإكرام﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظَّم ويبجَّل ويجلُّ لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، الذي يكرم أولياءه وخواصَّ خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرِمُه أولياؤه ويجلُّونه ويعظِّمونه ويحبُّونه وينيبون إليه ويعبدونه. ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبانِ﴾؟!

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٩ ـ ٣٠﴾ أي: هو الغنيُّ بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسعُ الجود والكرم، فكلُّ الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ من ذٰلك، وهو تعالى ﴿كلَّ يوم هو في شأنٍ﴾: يغني فقيراً ويجبرُ كسيراً ويعطي قوماً، ويمنع آخرينَ، ويميتُ، ويُحيي، ويخفض، ويرفع[1]، لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ، ولا تغلِّطُه المسائل، ولا يبرِمُه إلحاح الملحين، ولا طول مسألةِ السائلين. فسبحان الكريم الوهَّاب، الذي عمَّت مواهبه أهل الأرض والسماواتِ، وعمَّ لطفه جميعَ الخلق في كلِّ الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء[2] معصيةُ العاصين ولا استغناءُ الفقراء الجاهلين به وبكرمِهِ.

وهٰذه الشؤون التي أخبر أنَّه [تعالى] ﴿كلَّ يوم هو في شأنٍ﴾: هي تقاديره وتدابيره التي قدَّرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامُه الدينيَّة التي هي الأمر والنهي، والقدريَّة التي يُجريها على عباده مدَّة مقامهم في هٰذه الدار، حتى إذا تمَّتْ هٰذه الخليقة، وأفناهم[3] الله تعالى، وأراد أن ينفِّذَ فيهم أحكام الجزاء ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه ما به يعرِفونه ويوحِّدونه؛ نقل المكلَّفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان، وفرغ حينئذٍ لتنفيذ هٰذه الأحكام التي جاء وقتُها، وهو المراد بقولِهِ:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ويرفع ويخفض». (٢) في (ب): «العطاء».

(٣) في (ب): «وأفنى».

﴿٣١ ـ ٣٢﴾ أي: سَنَفْرُغُ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدُّنيا.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ [لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤﴾][1].

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة؛ أخبرهم بعجزهم وضَعْفهم وكمال سلطانِهِ ونفوذ مشيئتِهِ وقدرتِهِ، فقال معجِّزاً لهم: **﴿يا معشر الجنِّ والإنس إنِ اسْتَطَعْتُم أن تَنفُذوا من أقطارِ السمٰواتِ والأرضِ﴾**؛ أي: تجدون مسلكاً ومنفذاً[2] تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، **﴿فانفُذوا لا تَنفُذونَ إلَّا بسلطانٍ﴾**؛ أي: لا تخرجون منه إلَّا بقوَّةٍ وتسلُّطٍ منكم وكمال قدرةٍ، وأنَّى لهم ذٰلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؛ ففي ذٰلك الموقف لا يتكلَّم أحدٌ إلَّا بإذنه، ولا تسمعُ إلَّا همساً، وفي ذٰلك الموقف يستوي الملوك والمماليك والرؤساء والمرؤوسون والأغنياء والفقراء.

ثم ذكر ما أعدَّ لهم في ذٰلك اليوم[3]، فقال:

﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾[4].

﴿٣٥ ـ ٣٦﴾ أي: **﴿يرسَل عليكما﴾** لهبٌ صافٍ من النار **﴿ونحاسٌ﴾** وهو اللهب الذي قد خالَطَه الدخانُ. والمعنى: أنَّ هٰذين الأمرين الفظيعين يرسلانِ عليكما [يا معشر الجن والإنس] ويحيطانِ بكما فلا تنتصران؛ لا بناصرٍ من أنفسكم، ولا بأحدٍ ينصُرُكم من دون الله. ولما كان تخويفُهُ لعباده نعمةً منه عليهم وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب؛ ذكر منَّته بذٰلك فقال[5]: **﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾**؟!

[﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ

(١) ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.
(٢) في (ب): «منفذاً أو مسلكاً».
(٣) في (ب): «في ذلك الموقف العظيم».
(٤) ذكرت الآيات في (أ). ولم تذكر في (ب).
(٥) في (ب): «امتن عليهم فقال».

فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾][1].

﴿٣٧ ـ ٣٨﴾ ﴿فإذا انشقَّتِ السماءُ﴾؛ أي: يوم القيامة من الأهوال وكثرة البلبال وترادُف الأوجال، فانخسفتْ شمسُها وقمرُها، وانتثرتْ نجومُها؛ ﴿فكانت﴾: من شدَّة الخوفِ والانزعاج ﴿وردةً كالدِّهانِ﴾؛ أي: كانت كالمهل والرصاص المذابِ ونحوه. ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان﴾؟!

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ ﴿فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ﴾؛ أي: سؤال استعلام بما وقع؛ لأنَّه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخيرِ والشرِّ يوم القيامةِ علاماتٍ يُعرفون بها؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ﴾.

﴿٤١ ـ ٤٢﴾ وقال هنا: ﴿يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم فيؤخَذُ بالنواصي والأقدام. فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؛ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيُلْقَوْنَ في النار ويُسحبون إليها. وإنَّما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقريرٍ بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنَّه تعالى يريد أن تَظْهَرَ للخلق حجَّته البالغة وحكمته الجليلة.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣ ـ ٤٥﴾ أي: يقالُ للمكذِّبين بالوعد والوعيد حين تُسَعَّر الجحيم: ﴿هٰذه جهنَّمُ التي يكذِّبُ بها المجرمون﴾: فليهنهم تكذيبُهم بها، وليذوقوا من عذابها ونَكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاءٌ لهم على تكذيبهم[2]، يطوفون بين أطباق الجحيم ولهبها، ﴿وبين حميم آنٍ﴾؛ أي: ماء حارٌّ جدًّا قد انتهى حرُّه، وزمهريرٍ قد اشتدَّ بردُه وقرُّه. ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؟!

ولما ذكر ما يُفعل بالمجرمين؛ ذكر جزاء المتَّقين الخائفين، فقال:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ [3]ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ

(١) الآيات زيادة على النسختين.
(٢) في (ب): «ما هو جزاء لتكذيبهم».
(٣) في النسختين: إلى آخر السورة.

﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ
ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ
خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ
خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٤٦ ـ ٤٧﴾ أي: وللذي خاف ربَّه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به؛ له ﴿جنَّتانِ﴾ من ذهبٍ آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاءً على ترك المنهيَّات، والأخرى على فعل الطَّاعات.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ ومن أوصاف تلك الجنتين أنَّهما ﴿ذواتا أفنانٍ﴾؛ أي: فيهما من ألوان النَّعيم المتنوِّعة؛ نعيم الظاهر والباطن؛ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشرٍ؛ أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة، ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللَّذيذة.

﴿٥٠ ـ ٥١﴾ وفي تلك الجنتين ﴿عينانِ تجريانِ﴾: يفجِّرونَهما على ما يريدون ويشتَهون.

﴿٥٢ ـ ٥٣﴾ ﴿فيهما من كلِّ فاكهةٍ﴾: من جميع أصناف الفواكه ﴿زوجان﴾؛ أي: صنفان؛ كلُّ صنف له لَذَّةٌ ولونٌ ليس للنوع الآخر.

﴿٥٤ ـ ٥٥﴾ ﴿متكئين على فرشٍ بطائِنُها من إستبرقٍ﴾: هٰذه صفة فُرُشِ أهل الجنَّة وجلوسهم عليها، وأنَّهم متَّكئون عليها؛ أي: جلوسَ تمكُّن واستقرار وراحةٍ؛ كجلوس الملوك على الأسرَّة، وتلك الفُرُش لا يعلم وصفَها وحسنَها إلَّا اللَّه تعالى[(١)]، حتى إنَّ بطائنها التي تلي الأرض منها من إستبرقٍ وهو أحسن الحرير

(١) في (ب): «عزّ وجلّ».

وأفخره؛ فكيف بظواهرها التي يباشرون[١]، ﴿وجنى الجنَّتينِ دانٍ﴾: الجنى هو الثمر المستوي؛ أي: وثمر هاتين الجنتين قريبُ التناول، ينالُه القائم والقاعدُ والمضطجع.

﴿٥٦ ـ ٥٩﴾ ﴿فيهنَّ قاصراتُ الطرفِ﴾؛ أي: قد قصرنَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ من حسنهم وجمالهم وكمال محبتهنَّ لهم، وقصرنَ أيضاً طرفَ أزواجهنَّ عليهنَّ من حسنهنَّ وجمالهنَّ ولَذَّةِ وصالهنَّ وشدَّة محبَّتهنَّ، ﴿لم يطمثهنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ﴾؛ أي: لم ينلهنَّ أحدٌ قبلهم[٢] من الإنس والجنِّ، بل هنَّ أبكارٌ عربٌ متحبِّباتٌ إلى أزواجهنَّ؛ بحسن التبعُّل والتغنُّج والملاحة والدَّلال، ولهٰذا قال: ﴿كأنهنَّ الياقوت والمرجان﴾، وذٰلك لصفائهنَّ وجمال منظرهنَّ وبهائهنَّ.

﴿٦٠ ـ ٦١﴾ ﴿هل جزاءُ الإحسان إلَّا الإحسان﴾؛ أي: هل جزاء مَن أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيدَه إلَّا أن يُحْسَنَ إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم؟ فهاتان الجنَّتان العاليتان للمقرَّبين.

﴿٦٢ ـ ٦٩﴾ ﴿ومن دونِهما جنَّتانِ﴾: من فضَّة بنيانهما وحليتهما وآنيتهما[٣] وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتانِ ﴿مدهامَّتان﴾؛ أي: سوداوان من شدَّة الخضرة والريِّ[٤]، ﴿فيهما عينان نَضَّاختانِ﴾؛ أي: فوَّارتان، ﴿فيهما فاكهةٌ﴾: من جميع أصناف الفواكه، وأخصُّها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

﴿٧٠ ـ ٧٥﴾ ﴿فيهنَّ﴾؛ أي: في الجنات كلِّها ﴿خيراتٌ حسانٌ﴾؛ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعنَ بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخَلْق والخُلُق. ﴿حورٌ مقصوراتٌ في الخيام﴾؛ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأنَ وأعددنَ أنفسهنَّ لأزواجهنَّ، ولا ينفي ذٰلك خروجهنَّ في البساتين ورياض الجنة كما جرت العادةُ لبنات الملوك المخدَّرات الخَفِرات[٥]، ﴿لم يطمثهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ. فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان﴾؟!

﴿٧٦ ـ ٧٧﴾ ﴿متَّكئين على رفرفٍ خضرٍ﴾؛ أي: أصحاب هاتين الجنتين متَّكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي تحت[٦] المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم؛ لزيادة البهاء وحسن

---

(١) في (ب): «التي تلي بشرتهم».
(٢) في (ب): «لم ينلهنّ قبلهم أحد».
(٣) في (ب): «وآنيتهما وحليتهما».
(٤) في (ب): «الخضرة التي هي أثر الرّي».
(٥) في (ب): «ونحوهنّ الخَفِرات».
(٦) في (ب): «فوق».

المنظر، ﴿وعبقريٍّ حسانٍ﴾: العبقريُّ نسبةٌ لكلِّ منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهٰذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة و [حسن] المنظر ونعومة الملمس وهاتان الجنتان دون الجنتين الأولَيَيْن؛ كما نصَّ اللّه على ذٰلك بقوله: ﴿ومن دونِهِما جنَّتانِ﴾، وكما وصف الأوليين بعدَّة أوصاف لم يصِفْ به[1] الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿فيهما عينان تجريانِ﴾، وفي الأخريين: ﴿عينان نضَّاختان﴾: ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضَّاخة، وقال في الأوليين: ﴿ذواتا أفنانٍ﴾، ولم يقلْ ذٰلك في الأخريين، وقال في الأوليين: ﴿فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجانِ﴾، وفي الأخريين: ﴿فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمانٌ﴾، وقد عُلِمَ ما بين الوصفين من التفاوت. وقال في الأوليين: ﴿متَّكئين على فرشٍ بطائنها من إستبرقٍ وجنى الجنَّتين دانٍ﴾، ولم يقلْ ذٰلك في الأخريين، بل قال: ﴿متكئينَ على رفرفٍ خضرٍ وعبقريٍّ حسانٍ﴾، وقال في الأوليين في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فيهن قاصراتُ الطرفِ [لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان]﴾، وفي الأخريين: ﴿حور مقصوراتٌ في الخيام﴾، وقد عُلم التفاوت بين ذٰلك، وقال في الأوليين: ﴿هل جزاءُ الإحسان إلَّا الإحسانُ﴾، فدلَّ ذٰلك أنَّ الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذٰلك في الأخيرتين، ومجرَّد تقديم الأوليين على الأخريين يدلُّ على فضلهما.

فبهٰذه الأوجه يُعْرَفُ فضلُ الأوليين على الأخريين، وأنهما معدَّتان للمقرَّبين من الأنبياء والصدِّيقين وخواصِّ عباد اللّه الصالحين، وأنَّ الأخريين معدَّتان لعموم المؤمنين. وفي كلٍّ من الجنات المذكورات ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشرٍ، وفيهنَّ ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين، وأهلهنَّ في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إنَّ كلَّ واحدٍ منهم[2] لا يرى أحداً أحسن حالاً منه ولا أعلى من نعيمِهِ الذي هو فيه.

﴿٧٨﴾ ولـمَّا ذكر سعةَ فضله وإحسانه؛ قال: ﴿تبارك اسمُ ربِّك ذي الجلال والإكرام﴾؛ أي: تعاظم وكثر خيره الذي له الجلال الباهر والمجدُ الكامل والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمٰن. وللّه الحمد والشكر والثناء الحسن

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «بها».

(٢) في (ب): «حتى إنّ كلًّا منهم لا يرى».

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ [ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾][1].

﴿١ ـ ٣﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بدَّ من وقوعها، وهي القيامة، التي ﴿ليس لوقعتها كاذِبةٌ﴾؛ أي: لا شكَّ فيها؛ لأنَّها قد تظاهرت عليها الأدلَّة العقليَّة والسمعيَّة، ودلَّت عليها حكمته تعالى ﴿خافضةٌ رافعةٌ﴾؛ أي: خافضةٌ لأناس في أسفل سافلين، رافعةٌ لأناس في أعلى عليين، أو: خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعتْ فأسمعتِ البعيد.

﴿٤ ـ ٦﴾ ﴿إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا﴾؛ أي: حُركت واضطربتْ، ﴿وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا﴾؛ أي: فتت، ﴿فكانت هباءً منبثًّا﴾: فأصبحت ليس عليها جبلٌ ولا مَعْلَمٌ، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

﴿٧ ـ ٩﴾ ﴿وكنتم﴾: أيُّها الخلق، ﴿أزواجاً ثلاثةً﴾؛ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة. ثم فصَّل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فأصحابُ الميمنةِ ما أصحابُ الميمنةِ﴾: تعظيمٌ لشأنهم وتفخيمٌ لأحوالهم، ﴿وأصحابُ المشأمة﴾؛ أي: الشمال، ﴿ما أصحابُ المشأمة﴾: تهويلٌ لحالهم.

---

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ ﴿والسابقون السابقون. أولٰئك المقرَّبون﴾؛ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات، أولٰئك الذين هٰذا وصفهم المقرَّبون عند الله ﴿في جنات النعيم﴾: في أعلى علِّيين، في المنازل العاليات التي لا منزلة فوقها، وهٰؤلاء المذكورون ﴿ثُلَّةٌ من الأوَّلين﴾؛ أي: جماعة كثيرون من المتقدِّمين من هٰذه الأمة وغيرهم. ﴿وقليلٌ من الآخِرينَ﴾: وهٰذا يدلُّ على فضل صدر هٰذه الأمَّة في الجملة على متأخِّريها[1]؛ لكون المقرَّبين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقرَّبون هم خواصُّ الخلق.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ﴿على سررٍ موضونةٍ﴾؛ أي: مرمولةٍ بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذٰلك من الحليِّ والزينة التي لا يعلمها إلَّا الله تعالى، ﴿متكئين عليها﴾؛ أي: على تلك السرر، جلوس تمكُّن وطمأنينةٍ وراحةٍ واستقرارٍ، ﴿متقابلين﴾: وجه كلٍّ منهم إلى وجه صاحبه؛ من صفاء قلوبهم وتقابلها بالمحبة وحسن أدبهم[2].

﴿١٧ ـ ١٩﴾ ﴿يطوفُ عليهم ولدانٌ مخلَّدونَ﴾؛ أي: يدور على أهل الجنة لخدمتهم[3] وقضاء حوائجهم ولدانٌ صغارُ الأسنانِ في غاية الحسن والبهاء. ﴿كأنَّهم لؤلؤٌ مكنونٌ﴾؛ أي: مستورٌ لا يناله ما يغيِّره، مخلوقون للبقاء والخلد؛ لا يهرمون ولا يتغيَّرون ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآنية شرابهم؛ ﴿بأكوابٍ﴾: وهي التي لا عُرى لها، ﴿وأباريقَ﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وكأسٍ من مَعينٍ﴾؛ أي: من خمرٍ لذيذِ المشربِ لا آفة فيه، ﴿لا يُصَدَّعونَ عنها﴾؛ أي: لا تصدِّعهم رؤوسُهم كما تصدِّعُ خمرة الدُّنيا رأس شاربها، ولا هم عنها ﴿يُنزِفونَ﴾؛ أي: لا تُنْزَفُ عقولهم ولا تذهب أحلامُهم منها كما يكون لخمر الدنيا. والحاصلُ أنَّ كلَّ[4] ما في الجنة من [أنواع] النعيم الموجود جنسه في الدُّنيا لا يوجد في الجنة فيه آفةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُه وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسل مُصَفًّى﴾، وذكر هنا خمر الجنَّة، ونفى عنه كلَّ آفة توجد في الدُّنيا.

﴿٢٠﴾ ﴿وفاكهةٍ مما يتخيَّرون﴾؛ أي: مهما تخيَّروا وراق في أعينهم واشتهته

---

(١) في (ب): «متأخرها».
(٢) في (ب): «وحسن أدبهم وتقابل قلوبهم».
(٣) في (ب): «للخدمة».
(٤) في (ب): «أن جميع ما».

نفوسُهم من أنواع الفواكه الشهيَّة والجنى اللذيذة؛ حَصَلَ لهم على أكمل وجهٍ وأحسنه.

﴿٢١﴾ ﴿ولحم طيرٍ ممَّا يشتهون﴾؛ أي: من كلِّ صنف من الطيور يشتهونه، ومن أيِّ جنس من لحمه أرادوا؛ إن شاؤوا[1] مشويًّا أو طبيخاً أو غير ذلك.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ﴿وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾؛ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحلٌ وملاحةٌ وحسنٌ وبهاءٌ، والعِينُ حسانُ الأعين ضخامها[2]، وحسنُ عين الأنثى[3]، من أعظم الأدلَّة على حسنها وجمالها. ﴿كأمثال اللُّؤلؤِ المكنونِ﴾؛ أي: كأنَّهن اللؤلؤ [الأبيض] الرطبُ الصافي البهيُّ المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونُه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجهٍ من الوجوه؛ فكذلك الحور العين، لا عيبَ فيهنَّ بوجهٍ، بل هنَّ كاملاتُ الأوصاف جميلاتُ النُّعوت؛ فكلُّ ما تأمَّلته منها؛ لم تجدْ فيه إلَّا ما يسرُّ القلب[4] ويروق الناظر.

﴿٢٤﴾ وذلك النعيم المعدُّ لهم ﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾؛ فكما حَسُنَتْ منهم الأعمال؛ أحسن الله لهم الجزاء، ووفَّر لهم الفوز والنعيم.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾؛ أي: لا يسمعون في جنَّاتِ النعيم كلاماً يُلغي، ولا يكون فيه فائدةٌ ولا كلاماً يؤثم صاحبه ﴿إلَّا قيلاً سلاماً سلاماً﴾؛ أي: إلَّا كلاماً طيباً، وذلك لأنَّها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلَّا كلُّ طيبٍ، وهذا دليلٌ على حسن أدب أهل الجنَّة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيبُ كلامٍ وأسرُّه للقلوب[5] وأسلمه من كلِّ لغوٍ وإثم، نسأل الله من فضله.

[﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾][6].

---

(١) في (ب): «وإن شاؤوا».
(٢) في (ب): «والعين ضخام الأعين».
(٣) في (ب): «وحسن العين في الأنثى».
(٤) في (ب): «الخاطر».
(٥) في (ب): «للنفوس».
(٦) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

﴿٢٧ ـ ٣٤﴾ ثم ذَكَرَ ما أعدَّ لأصحاب اليمين[1]، فقال: ﴿وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين﴾؛ أي: شأنُهم عظيمٌ وحالهم جسيمٌ، ﴿في سدرٍ مخضودٍ﴾؛ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرَّديئة المضرَّة، مجعول مكان ذٰلك الثمر الطيب. وللسِّدْرِ من الخواصِّ الظلُّ الظَّليل وراحة الجسم فيه، ﴿وطلح منضودٍ﴾: والطَّلْح معروفٌ، وهو شجرٌ كبارٌ يكون بالبادية تُنَضَّدُ أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي، ﴿وماءٍ مسكوبٍ﴾؛ أي: كثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفِّقة، ﴿وفاكهةٍ كثيرةٍ. لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ﴾؛ أي: ليست بمنزلة فاكهة الدُّنيا؛ تنقطعُ في وقتٍ من الأوقات وتكون ممتنعةً؛ أي: متعسِّرة على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودةٌ، وجناها قريبٌ يتناوله العبد على أيِّ حال يكون، ﴿وفُرُشٍ مرفوعةٍ﴾؛ أي: مرفوعة فوق الأسرَّة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلَّا الله.

﴿٣٥ ـ ٣٨﴾ ﴿إنَّا أنشأناهنَّ إنشاءً﴾؛ أي: إنَّا أنشأنا نساءَ أهل الجنة نشأةً غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأةً كاملةً، لا تقبل الفناء، ﴿فَجَعَلْناهنَّ أبكاراً﴾: صغارهنَّ وكبارهنَّ، وعموم ذٰلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأنَّ هٰذا الوصف ـ وهو البكارةُ ـ ملازم لهنَّ في جميع الأحوال؛ كما أنَّ كونهنَّ ﴿عُرُباً أتراباً﴾: ملازمٌ لهنَّ في كلِّ حال، والعَروبُ هي المرأة المتحبِّبة إلى بعلها بحسن لفظها وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبَّتها؛ فهي التي إن تكلَّمت سبتِ العقول، ووَدَّ السامعُ أنَّ كلامها لا ينقضي، خصوصاً عند غنائهنَّ بتلك الأصوات الرخيمة والنَّغَمات المطربة، وإنْ نَظَرَ إلى أدبها وسمتها ودَلِّها؛ ملأت قلبَ بعلها فرحاً وسروراً، وإن انتقلتْ[2] من محلٍّ إلى آخر؛ امتلأ ذٰلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً، ويدخُلُ في ذٰلك الغنجة عند الجماع، والأتراب: اللاتي على سنٍّ واحدةٍ ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غايةُ ما يتمنَّى ونهاية سنِّ الشباب؛ فنساؤهم عربٌ أترابٌ متفقاتٌ مؤتلفاتٌ راضياتٌ مرضياتٌ لا يَحْزَنَّ ولا يُحْزِنَّ، بل هنَّ أفراح النفوس وقُرَّة العيون وجلاء الأبصار، ﴿لأصحاب اليمين﴾؛ أي: معدات لهم مهيَّآت.

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ ﴿ثلَّةٌ من الأوَّلين. وثُلَّةٌ من الآخرين﴾؛ أي: هٰذا القسم، وهم[3]

---

(١) في (ب): «ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين». (٢) في (ب): «برزت».
(٣) في (ب): «من».

أصحاب اليمين، عددٌ كثيرٌ من الأوَّلين وعدد كثيرٌ من الآخرينِ.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿٤١ ـ ٤٤﴾ المرادُ بأصحاب الشمال هم أصحابُ النارِ والأعمال المشؤومة، فذكر اللّه لهم من العقاب ما هم حقيقون به، فأخبر أنَّهم ﴿في سَموم﴾؛ أي: ريح حارَّة من حرِّ نار جهنَّم؛ تأخذ[1] بأنفاسِهم، وتقلِقُهم[2] أشدَّ القلق، ﴿وحميم﴾؛ أي: ماءٍ حارٍّ يقطِّع أمعاءهم، ﴿وظِلٍّ من يَحْموم﴾؛ أي: لهب نارٍ يختلط[3] بدخان، ﴿لا باردٍ ولا كريم﴾؛ أي: لا بردَ فيه ولا كرم. والمقصودُ أنَّ هناك الهمَّ والغمَّ والحزنَ والشرَّ الذي لا خير فيه؛ لأنَّ نفي الضدِّ إثباتٌ لضدِّه.

﴿٤٥ ـ ٤٨﴾ ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هٰذا الجزاء، فقال: ﴿إنَّهم كانوا قبل ذٰلك مُتْرَفينَ﴾؛ أي: قد ألهتْهم دنياهم وعمِلوا لها وتنعَّموا وتمتَّعوا بها، فألهاهم الأملُ عن إحسان العمل؛ فهٰذا الترفُ الذي ذمَّهم اللّه عليه، ﴿وكانوا يُصِرُّونَ على الحِنثِ العظيم﴾؛ أي: وكانوا يفعلون الذُّنوب الكبار ولا يتوبون منها ولا يندمون عليها، بل يصرُّون على ما يُسْخِطُ مولاهم، فقَدِموا عليه بأوزارٍ كثيرةٍ غير مغفورةٍ، وكانوا يُنْكِرونَ البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿أإذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثونَ. أوَ آباؤنا الأوَّلونَ﴾؛ أي: كيف نُبْعَثُ بعد موتنا وقد بلينا فكُنَّا تراباً وعظاماً! هٰذا من المحال[4].

قال تعالى في جوابهم[5]:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾

---

(١) في (ب): «يأخذ». (٢) في (ب): «يقلقهم».

(٣) في (ب): «مختلط».

(٤) في (ب): «فكنا تراباً وعظاماً ﴿أإنا لمبعثون. أو آباؤنا الأولون﴾».

(٥) في (ب): «قال تعالى جواباً لهم وردًّا عليهم».

فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾][1].

﴿٤٩ ـ ٥٠﴾ أي: قل: إنَّ متقدِّم الخلق ومتأخِّرهم؛ الجميع سيبعثهم اللّه ويجمعهم لميقات يوم معلوم قدَّره اللّه لعباده حين تنقضي الخليقة، ويريد اللّه [تعالى] جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

﴿٥١ ـ ٥٣﴾ ﴿ثم إنَّكم أيُّها الضالُّون﴾: عن طريق الهدى، التابعون لطريق الرَّدى، ﴿المكذِّبون﴾: بالرسول ﷺ وما جاء به من الحقِّ والوعد والوعيد، ﴿لآكلون من شجرٍ من زَقوم﴾: وهو أقبح الأشجار وأخسُّها وأنتنُها ريحاً وأبشعها منظراً، ﴿فمالِئونَ منها البطونَ﴾: والذي أوجب لهم أكلها مع ما هي عليه من الشناعة، الجوعُ المفرِطُ الذي يلتهبُ في أكبادِهم وتكادُ تنقطعُ منه أفئدتهم، هٰذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمِنُ ولا يُغْني من جوع.

﴿٥٤ ـ ٥٦﴾ وأما شرابهم؛ فهو بئس الشرابُ، وهو أنهم يشربون على هٰذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون ﴿شُرْبَ الهيم﴾: وهي الإبل العطاش[2]، التي قد اشتدَّ عَطَشها، أو أنَّ الهَيَم داءٌ يصيب الإبل لا تَرْوَى معه من شرب الماء. ﴿هٰذا﴾: الطعام والشراب ﴿نُزُلُهم﴾؛ أي: ضيافتهم ﴿يومَ الدِّين﴾: وهي الضيافة التي قدَّموها لأنفسهم وآثروها على ضيافةِ اللّه لأوليائه؛ قال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ كانتْ لهم جنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً. خالدين فيها لا يَبْغونَ عنها حِوَلاً﴾.

﴿٥٧﴾ ثم ذكر الدليل العقليَّ على البعث، فقال: ﴿نحن خَلَقْناكم فلولا تصدِّقونَ﴾؛ أي: نحن الذين أوجَدْناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً من غير عجزٍ ولا تعبٍ، أفليس القادر على ذٰلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى؟ بلى إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ولهٰذا وبَّخهم على عدم تصديقهم بالبعث وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

(٢) في (ب): «شرب الإبل الهيم أي: العطاش».

﴿٥٨ ـ ٦٢﴾ أي: ﴿أفرأيتم﴾ ابتداء خَلْقِكُم من المنيِّ الذي ﴿تُمنون﴾ فهل أنتم خالقون ذٰلك المنيِّ، وما ينشأ منه أم اللّه تعالى الخالق؟ الذي خَلَقَ فيكم من الشهوة وآلتها في[1] الذكر والأنثى، وهدى كلاًّ منهما لما هنالك، وحبَّب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودَّة والرَّحمة ما هو سبب التناسل[2]، ولهٰذا أحالهم اللّهُ تعالى بالاستدلال[3] بالنَّشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتُمُ النَّشأةَ الأولى فلولا تَذَكَّرونَ﴾: أنَّ القادر على ابتداء خلقكم قادرٌ على إعادتكم.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٣ ـ ٦٧﴾ وهٰذا امتنانٌ منه على عباده؛ يدعوهم به إلى توحيدِهِ وعبادتِهِ والإنابةِ إليه؛ حيث أنعم عليهم بما يسَّره لهم من الحرث للزُّروع والثمار، فيخرجُ من ذٰلك من الأقوات والأرزاق والفواكه ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم التي لا يقدِرون أن يُحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقِّها، فقرَّرهم بمنَّته، فقال: ﴿أأنتُم تَزْرَعونَه أم نحنُ الزَّارِعونَ﴾؛ أي: أنتم أخرجْتُموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتُم الذي نمَّيتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سُنْبله وثمرَه حتى صار حبًّا حصيداً وثمراً نضيجاً؟ أم اللّه الذي انفرد بذٰلك وحدَه وأنعم به عليكم، وأنتم غايةُ ما تفعلون أن تحرُثوا الأرض، وتشقُّوها، وتُلْقوا فيها البذرَ، ثم[4] لا علم عِندكم بما يكون بعد ذٰلك ولا قدرةَ لكم على أكثر من ذٰلك؟ ومع ذٰلك؛ فنبَّههم على أنَّ ذٰلك الحرثَ معرضٌ للأخطار لولا حفظُ اللّه وإبقاؤه بُلْغةً لكم ومتاعاً إلى حين. فقال: ﴿لو نشاء لجعلناه﴾؛ أي: الزرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿حُطاماً﴾؛ أي: فتاتاً متحطِّماً لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظَلْتُمْ﴾؛ أي: فصرتُم بسبب جعله حطاماً بعد أن تعبتم فيه، وأنفقتم النفقات الكثيرة، ﴿تفَكَّهونَ﴾؛ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذٰلك فرحُكم وسرورُكم وتفكُّهكم، فتقولون: ﴿إنَّا لَمُغْرَمونَ﴾؛ أي: إنَّا قد نقصنا وأصابتنا مصيبةٌ اجتاحَتْنا. ثم تعرفون بعد ذٰلك من أين أتيتُم، وبأيِّ سبب دُهيتم؟ فتقولون: ﴿بل نحنُ محرومونَ﴾! فاحْمَدوا اللّه تعالى حيث زَرَعَه [اللّهُ] لكم، ثم أبقاه وكمَّله لكم، ولم يرسلْ عليه من الآفات ما به تُحرمون من نفعِهِ وخيرِهِ.

---

(١) في (ب): «من».
(٢) في (ب): «للتناسل».
(٣) في (ب): «على الاستدلال».
(٤) في (ب): «ثم بعد ذلك».

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿٦٨ ـ ٧٠﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام؛ ذكَرَ نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنَّه لولا أنَّ اللّه يسَّره وسهَّله؛ لما كان لكم إليه سبيلٌ[١]، وأنَّه الذي أنزله ﴿من المزنِ﴾: وهو السحابُ والمطرُ الذي يُنْزِلُه اللّه تعالى، فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدرانُ المتدفِّقة، ومن نعمته تعالى أن جعله عذباً فراتاً تُسيغُه النفوس، ولو شاء؛ لَجَعَلَهُ ملحاً ﴿أجاجاً﴾: لا يُنتفع به[٢]، ﴿فلولا تشكرون﴾: اللّه تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧١ ـ ٧٣﴾ وهٰذه نعمةٌ تدخل في الضروريَّات التي لا غنى للخلق عنها؛ فإنَّ الناس محتاجون إليها في كثيرٍ من أمورهم وحوائجهم، فقرَّرهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأنَّ الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنَّما اللّه تعالى قد أنشأها من الشجر الأخضر؛ فإذا هي نارٌ توقد بقدر حاجة العباد؛ فإذا فرغوا من حاجتهم؛ أطفؤوها وأخمدوها. ﴿نحن جَعَلْناها تذكرةً﴾: للعباد بنعمة ربِّهم، وتذكرةً بنار جهنَّم التي أعدَّها اللّه للعاصين، وجعلها سوطاً يسوقُ به عبادَه إلى دار النعيم، ﴿ومتاعاً للمُقْوِينِ﴾؛ أي المنتفعين أو المسافرين، وخصَّ اللّه المسافرين؛ لأنَّ نفع المسافر بها أعظم من غيره، ولعلَّ السبب في ذٰلك لأنَّ الدُّنيا كلَّها دارُ سفرٍ، والعبدُ من حين ولد فهو مسافرٌ إلى ربِّه؛ فهٰذه النار جعلها اللّه متاعاً للمسافرين في هٰذه الدار وتذكرةً لهم بدار القرار.

﴿٧٤﴾ فلما بيَّن من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته؛ أمر بتسبيحه وتعظيمه[٣]، فقال: ﴿فسبِّحْ باسم ربِّك العظيم﴾؛ أي: نزِّهْ ربَّك العظيم كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحْمَدْه بقلبك ولسانك وجوارِحكَ؛ لأنَّه أهلٌ لذٰلك، وهو المستحقُّ لأن يُشكَرَ فلا يُكْفَرَ ويُذْكَرَ فلا ينسى ويُطاعَ فلا يُعْصَى.

---

(١) في (ب): «سبيل إليه».
(٢) في (ب): «ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس».
(٣) في (ب): «وتحميده».

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٧٥ ـ ٧٦﴾ أقسم تعالى بالنُّجوم ومواقعها، أي: مساقطها في مغاربها وما يُحدِثُ اللّه في تلك الأوقات من الحوادث الدالَّة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظَّم هٰذا المقسم به، فقال: ﴿وإنَّه لقسمٌ لو تعلمون عظيمٌ﴾، وإنَّما كان القسم عظيماً؛ لأنَّ في النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاربها آياتٍ وعبراً لا يمكن حصرها.

﴿٧٧﴾ وأمَّا المقسَمُ عليه؛ فهو إثبات القرآن، وأنه حقٌّ لا ريب فيه ولا شكَّ يعتريه، وأنَّه ﴿كريمٌ﴾؛ أي: كثير الخير غزير العلم، فكلُّ خيرٍ وعلم؛ فإنَّما يُستفادُ من كتاب اللّه ويُستَنْبَطُ منه.

﴿٧٨﴾ ﴿في كتابٍ مكنونٍ﴾؛ أي: مستورٍ عن أعين الخلق، وهٰذا الكتاب المكنون هو اللوحُ المحفوظُ؛ أي: أنَّ هٰذا القرآن مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، معظَّم عند اللّه وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويُحتمل أنَّ المراد بالكتاب المكنون هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين يُنْزِلُهُمُ اللّه لوحيه ورسالته[١]، وأنَّ المرادَ بذٰلك أنَّه مستورٌ عن الشياطين، لا قدرةَ لهم[٢] على تغييره ولا الزيادة والنقص منه واستراقه.

﴿٧٩﴾ ﴿لا يَمَسُّهُ إلَّا المُطَهَّرونَ﴾؛ أي: لا يَمَسُّ القرآن إلَّا الملائكةُ الكرام، الذينَ طهَّرهم اللّه تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسُّه إلَّا المطهَّرون، وأنَّ أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم ولا يدان إلى مسِّه؛ دلَّت الآية تنبيهاً[٣] على أنَّه لا يجوز أن يَمَسَّ القرآن إلَّا طاهرٌ [كما ورد بذلك الحديثُ، ولهذا قيل: إنّ الآية خبرٌ بمعنى النهي؛ أي: لا يمسُّ القرآن إلَّا طاهر] .

---

(١) في (ب): «بوحيه وتنزيله». (٢) في (ب): «لها».

(٣) في (ب): «بتنبيهها».

﴿٨٠﴾ ﴿تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾؛ أي: إنَّ هٰذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيلُ ربِّ العالمين، الذي يربِّي عباده بنعمه الدينيَّة والدنيويَّة، وأجلُّ[1] تربيةٍ ربَّى بها عباده إنزالُه هٰذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدَّارين، ورحم اللّٰه به العباد رحمةً لا يقدرون لها شكوراً، ومما يجب عليهم[2] أن يقوموا به، ويعلنوه، ويدعوا إليه، ويصدعوا به.

﴿٨١﴾ ولهٰذا قال: ﴿أفبهٰذا الحديث أنتم مُدْهِنونَ﴾؛ أي: أفبهٰذا الكتاب العظيم والذِّكرِ الحكيم ﴿أنتم مُدْهِنون[3]﴾؛ أي: تختفون وتدلِّسون خوفاً من الخلق وعارِهم وألسنتهم! هٰذا لا ينبغي ولا يَليقُ! إنَّما يليق أن يُداهَنَ بالحديث الذي لا يثقُ صاحبه منه، وأمَّا القرآن الكريم؛ فهو الحقُّ الذي لا يغالِبُ به مغالِبٌ إلَّا غَلَبَ، ولا يصول به صائلٌ إلَّا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يُداهَنُ به ويُختفى[4]، بل يُصْدَعُ به ويُعْلَن.

﴿٨٢﴾ وقوله: ﴿وتجعلون رِزْقَكم أنَّكم تكذِّبون﴾؛ أي: تجعلون مقابلة منَّة اللّٰه عليكم بالرزق التكذيبَ والكفرَ لنعمة اللّٰه، فتقولون: مُطِرْنا بِنَوْء كذا وكذا![5] وتضيفون النعمة لغير مُسديها ومُوليها؛ فهلَّا شكرتُم اللّٰه على إحسانه إذْ أنزله إليكم ليزيدَكم من فضله؛ فإنَّ التكذيب والكفر داعٍ لرفع النِّعم وحلول النِّقم.

﴿٨٣ ـ ٨٥﴾ ﴿فلولا إذا بلغتِ الحلقوم. وأنتُم حينئذٍ تنظرونَ. ونحنُ أقربُ إليه منكُم ولٰكن لا تُبْصِرونَ﴾؛ أي: فهلَّا إذا بلغت الروحُ الحلقومَ، وأنتم تنظُرون المحتضر في هٰذه الحالة، والحال أنَّا نحن أقربُ إليه منكم بعلمنا وملائكتنا، ولٰكن لا تبصرون.

﴿٨٦ ـ ٨٧﴾ ﴿فلولا إن كنتُم غير مَدينينَ﴾؛ أي: فهلَّا إذ[6] كنتُم تزعمون أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتُم صادقين﴾: وأنتم تقرُّون أنكم عاجزون عن ردِّها إلى موضعها؛ فحينئذٍ إمَّا أن تقرُّوا بالحقِّ الذي جاء[7] به محمدٌ ﷺ، وإمَّا أن تعانِدوا فتعلم حالكم وسوء مآلكم.

---

(١) في (ب): «ومن أَجلِّ».
(٢) في (ب): «عليهم به».
(٣) في (ب): «تدهنون».
(٤) في (ب): «ولا يختفى».
(٥) كما في حديث زيد بن خالد الجهني: أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).
(٦) في (ب): «إذا».
(٧) في (ب): «جاءكم».

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

﴿٨٨ ـ ٨٩﴾ ذكر اللّه تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقرَّبين، وأصحاب اليمين، والمكذِّبين الضالِّين في أول السورةِ في دارِ القرارِ، ثم ذكر أحوالَهم في آخرها عند الاحتضارِ والموتِ، فقال: ﴿فأمَّا إن كان من المقرَّبين﴾؛ أي: إن كان الميِّت من المقرَّبين إلى اللّه، المتقرِّبين إليه بأداء الواجبات والمستحبَّات وترك المحرَّمات والمكروهات[١] وفضول المباحات، ﴿فـ﴾ لهم ﴿روحٌ﴾؛ أي: راحةٌ وطمأنينةٌ وسرورٌ وبهجةٌ ونعيمُ القلب والروح، ﴿وريْحانٌ﴾: وهو اسم جامعٌ لكل لذَّةٍ بدنيَّةٍ من أنواع المآكل والمشارب وغيرها، وقيل: الريحانُ هو الطيبُ المعروف، فيكون من باب التعبير[٢] بنوع الشيء عن جنسه العام، ﴿وجنَّةُ نعيم﴾: جامعةٌ للأمرين كليهما، فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيبشَّر المقرَّبون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح فرحاً وسروراً[٣]؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللّه ثم استقَاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبْشِروا بالجنَّةِ التي كُنتُمْ توعَدونَ. نحنُ أولياؤكم في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ولكم فيها ما تَشْتَهي أنفسُكم ولكم فيها ما تدَّعونَ. نُزُلاً من غفورٍ رحيم﴾، وقد فُسِّرَ[٤] قولُه [تبارك و] تعالى: ﴿لهم البُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة﴾: أنَّ هذه البشارة المذكورة هي البُشرى في الحياة الدنيا.

﴿٩٠ ـ ٩١﴾ وقوله: ﴿وأمَّا إن كان من أصحابِ اليمين﴾؛ وهم الذين أدَّوا الواجبات وتركوا المحرَّمات، وإن حَصَلَ منهم بعضُ التقصير[٥] في بعض الحقوق التي لا تُخِلُّ بإيمانهم وتوحيدهم، فيقالُ لأحدهم: ﴿سلامٌ لك من أصحابِ اليمين﴾؛ أي: سلامٌ حاصلٌ لك من إخوانك أصحاب اليمين؛ أي: يسلِّمون عليه،

---

(١) في (ب): «﴿فأما إن كان﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات».

(٢) في (ب): «فيكون تعبيراً بنوع».

(٣) في (ب): «من الفرح والسرور».

(٤) في (ب): «أوِّل».

(٥) في (ب): «وحصل منهم التقصير».

ويحيُّونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلامٌ لك من الآفات والبليّات والعذاب؛ لأنَّك من أصحاب اليمين، الذين سَلِموا من الموبقات.

﴿٩٢ ـ ٩٤﴾ ﴿وأمَّا إن كان من المكذِّبين الضَّالِّين﴾ أي: الذين كذَّبوا بالحقِّ وضلُّوا عن الهدى، ﴿فنُزُلٌ من حميم. وتصليةُ جَحيم﴾؛ أي: ضيافتهم يومَ قدومهم على ربِّهم تصليةُ الجحيم التي تَحيط بهم وتصِلُ إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدَّة العطش والظمأ؛ ﴿يغاثوا بماءٍ كالمهل يَشْوي الوجوهَ بئس الشرابُ وساءتْ مُرْتَفَقاً﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿إنَّ هٰذا﴾: الذي ذكره اللّٰه تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرها وشرِّها وتفاصيل ذٰلك ﴿لَهُوَ حقُّ اليقينِ﴾؛ أي: الذي لا شكَّ فيه ولا مريةَ، بل هو الحقُّ الثابتُ الذي لا بدَّ من وقوعه، وقد أشهد اللّٰهُ عبادَه الأدلَّة القواطع على ذٰلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنَّهم ذائقون له مشاهدونَ لحقيقتِهِ[1]، فحمدوا اللّٰه تعالى على ما خصَّهم من هٰذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

﴿٩٦﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿فسبِّحْ باسم ربِّك العظيم﴾؛ فسبحان ربِّنا العظيم، وتعالى وتنزَّه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً، والحمدُ للّٰه ربِّ العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

تم تفسير سورة الواقعة.

❁ ❁ ❁

سورة الحديد

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) في (ب): «مشاهدون له».

بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿١﴾ يخبرُ تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانِهِ أنَّ جميع ﴿ما في السمٰواتِ والأرض﴾ من الحيوانات الناطقة [والصامتة] وغيرها والجوامد تسبِّحُ بحمد ربِّها وتنزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله، وأنها قانتةٌ لربِّها، منقادةٌ لعزَّته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهٰذا قال: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾؛ فهٰذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلويَّة والسفليَّة لربِّها في جميع أحوالها، وعموم عزَّته وقهره للأشياء كلِّها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

﴿٢﴾ ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿له ملكُ السمٰواتِ والأرضِ يحيي ويميتُ﴾؛ أي: هو الخالق لذٰلك، الرازق المدبِّر لها بقدرته، ﴿وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾.

﴿٣﴾ ﴿هو الأولُ﴾: الذي ليس قبلَه شيءٌ. ﴿والآخر﴾: الذي ليس بعدَه شيءٌ. ﴿والظاهر﴾: الذي ليس فوقَه شيءٌ. ﴿والباطن﴾: الذي ليس دونَه شيءٌ. ﴿وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾: قد أحاط علمُه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدِّمة والمتأخِّرة.

﴿٤﴾ ﴿هو الذي خلق السمٰواتِ والأرضَ في ستَّة أيام﴾: أولُها يومُ الأحد، وآخرُها يومُ الجمعة، ﴿ثم استوى على العرش﴾: استواءً يَليقُ بجلاله فوق جميع خلقه، ﴿يعلم ما يَلِجُ في الأرض﴾: من حبٍّ وحيوانٍ ومطرٍ وغير ذٰلك، ﴿وما يخرج منها﴾: من نبتٍ[1] وشجرٍ وحيوان وغير ذٰلك، ﴿وما ينزِلُ من السماء﴾: من الملائكة والأقدار والأرزاق، ﴿وما يَعْرُجُ فيها﴾: من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذٰلك، ﴿وهو معكم أينما كُنتم﴾؛ كقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلَّا هو رابِعُهم ولا خمسةٍ إلَّا هو سادسُهم ولا أدنى من ذٰلك ولا أكثر إلَّا هو معهم أينما كانوا﴾: وهٰذه المعيَّة معيَّةُ العلم والاطِّلاع، ولهٰذا توعَّد ووعد بالمجازاة[2] بالأعمال بقوله: ﴿والله بما تعلمون بصيرٌ﴾؛ أي: هو تعالى بصيرٌ بما يصدر منكم من الأعمال وما صدرت عنه تلك الأعمال من برٍّ وفجورٍ؛ فمجازيكم عليها وحافظها عليكم.

---

(١) في (ب): «نبات».

(٢) في (ب): «على المجازاة».

﴿٥﴾ ﴿له ما في السمٰوات والأرض﴾: ملكاً وخلقاً وعبيداً يتصرَّف فيهم بما شاءه من أوامره القدريَّة والشرعيَّة الجارية على الحكمة الربَّانيَّة، ﴿وإلى اللّه تُرْجَعُ الأمور﴾: من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العبادُ، فيميز الخبيثُ من الطيِّب، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿٦﴾ ﴿يولِجُ الليل في النَّهار ويولِجُ النهارَ في الليل﴾؛ أي: يدخِلُ الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يُدْخِلُ النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرَّك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم، ولا يزال اللّهُ يكوِّر الليلَ على النهار والنهارَ على الليل، ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر، حتى تقومَ بذٰلك الفصول وتستقيمَ الأزمنة ويحصلَ من المصالح بذٰلك ما يحصل[1]، فتبارك اللّه ربُّ العالمين، وتعالى الكريم الجواد الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وهو عليمٌ بذات الصُّدور﴾؛ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفِّق مَنْ يعلم أنَّه أهلٌ لذٰلك، ويخذُلُ من يعلم أنَّه لا يَصْلُحُ لهدايتِهِ[2].

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿٧﴾ يأمر تعالى عبادَه بالإيمان به، وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها اللّه في أيديهم واستخْلَفَهم عليها؛ لينظر كيف يعملونَ. ثم لمَّا أمرهم بذٰلك؛ رغَّبهم وحثَّهم عليه بذكر ما رتَّب عليه من الثواب، فقال: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان باللّه ورسوله

---

(١) في (ب): «ما يحصل بذلك».
(٢) في (ب): «ويخذل من يعلمه لا يصلح لذلك».

والنفقة في سبيله لهم أجرٌ كبيرٌ، أعظمه وأجلُّه رِضا ربِّهم والفوزُ بدار كرامته وما فيها من النعيم المقيم الذي أعدَّه الله للمؤمنين والمجاهدين.

﴿٨﴾ ثم ذكر السَّبب الداعي لهم إلى الإيمان وعدم المانع منه، فقال: ﴿وما لكم لا تؤمنونَ بالله والرسولُ يَدْعوكم لِتُؤْمِنوا بربِّكُم وقد أخذ ميثاقَكُم إن كنتُم مؤمنينَ﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمانِ والحالُ أنَّ الرسول محمداً ﷺ أفضلُ الرسل وأكرمُ داعٍ دعا إلى الله يدعوكم؟! فهٰذا مما يوجِبُ المبادرة إلى إجابة دعوتِهِ والتلبيةِ والإجابةِ للحقِّ الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهدَ والميثاق بالإيمان إن كنتُم مؤمنين.

﴿٩﴾ ومع ذٰلك من لطفه وعنايته بكم أنَّه لم يكتفِ بمجرَّد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالَم، بل أيَّده بالمعجزات، ودلَّكم على صدق ما جاء به بالآيات البيِّنات؛ فلهٰذا قال: ﴿هو الذي يُنَزِّلُ على عبدِهِ آياتٍ بيناتٍ﴾؛ أي: ظاهرات تدلُّ أهل العقول على صحَّة جميع[1] ما جاء به، وأنَّه الحقُّ[2] اليقين؛ ﴿لِيُخرِجَكم﴾: بإرسال الرسول إليكم وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة ﴿من الظُّلُمات إلى النور﴾؛ أي: من ظلمات الجهل والكفر[3] إلى نور العلم والإيمان. وهٰذا من رحمته بكم ورأفته؛ حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ﴿وإنَّ الله بكم لَرءوفٌ رحيمٌ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألَّا تُنفِقوا[4] في سبيلِ اللهِ ولله ميراثُ السمٰواتِ والأرض﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من النَّفقة في سبيل الله؟ وهي[5] طرق الخير كلُّها، ويوجب لكم أن تبخلوا، ﴿و﴾ الحال أنَّه ليس لكم شيءٌ، بل ﴿لله ميراثُ السمٰواتِ والأرض﴾: فجميع[6] الأموال ستنتقلُ من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلى مالكه تبارك وتعالى؛ فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهِزوا الفرصة. ثم ذَكَرَ تعالى تفاضُلَ الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلٰهيَّة، فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفقَ من قبل الفتح وقاتَلَ أولٰئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتَلوا﴾: المراد بالفتح هنا هو فتحُ الحُدَيْبِيَةِ، حين جرى من الصُّلح بين

---

(١) في (ب): «على صدق كلِّ ما جاء به». (٢) في (ب): «وأنه حق اليقين».
(٣) في (ب): «الكفر والجهل». (٤) في (ب): «وما لكم لا تنفقون».
(٥) في (ب): «وهو». (٦) في (ب): «جميع».

الرسول وبين قريش، مما هو أعظم الفتوحات التي حصل فيها نشرُ الإسلام واختلاطُ المسلمين بالكافرين والدَّعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذٰلك الوقت في دين اللّه أفواجاً، واعتزَّ الإسلام عزًّا عظيماً، وكان المسلمون قبل هٰذا الفتح لا يقدرون على الدَّعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلُها كالمدينة وتوابعها، وكان مَنْ أسلم من أهل مكَّة وغيرها من ديار المشركين يُؤذَى ويَخافُ؛ فلذٰلك كان مَنْ أسلم قبل الفتح [وأنفق] وقاتل أعظمَ درجةً وأجراً وثواباً ممَّن لم يسلمْ ويقاتِلْ وينفقْ إلَّا بعد ذٰلك؛ كما هو مقتضى الحكمة، ولهٰذا[(١)] كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح. ولمَّا كان التفضيلُ بين الأمور قد يُتَوَهَّم منه نقصٌ وقدحٌ في المفضول؛ احترز تعالى من هٰذا بقوله: ﴿**وكلًّا وَعَدَ اللّه الحسنى**﴾؛ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده كلُّهم وَعَدَه اللّه الجنة. وهٰذا يدلُّ على فضل الصحابة كلِّهم رضي اللّه عنهم، حيث شهد اللّه لهم بالإيمان ووعَدَهم الجنة. ﴿**واللّه بما تعملون خبيرٌ**﴾: فيجازي كلًّا منكم على ما يعلمه من عمله.

﴿١١﴾ ثم حثَّ على النفقة في سبيله؛ لأنَّ الجهاد متوقِّف على النفقة فيه وبذل الأموال في التجهُّز له، فقال: ﴿**مَن ذا الذي يُقْرِضُ اللّه قرضاً حسناً**﴾: وهي النفقة الطيِّبة التي تكون خالصةً لوجه اللّه موافقةً لمرضاة اللّه من مال حلال طيبٍ طيبةً به نفسه، وهٰذا من كرم اللّه تعالى؛ حيث سمَّاه قرضاً، والمال ماله، والعبيد عبيده[(٢)]، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرةً، وهو الكريم الوهَّابُ، وتلك المضاعفة محلُّها وموضعها يوم القيامةِ، يوم كلٌّ يتبيَّن فقرُه، ويحتاج إلى أقلِّ شيءٍ من الجزاء الحسن، ولهٰذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم[(٣)] بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ

---

(١) في (ب): «ولذلك». (٢) في (ب): «والعبد عبده».

(٣) في (أ) إلى قوله: «وبئس المصير»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامةِ: ﴿يوم ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانِهِم﴾؛ أي: إذا كان يوم القيامةِ، وكوِّرَتِ الشمسُ وخسفَ القمرُ وصار الناس في الظُّلمة، ونُصِبَ الصراط على متن جهنم؛ فحينئذٍ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم بينِ أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بنورهم وأيمانهم[1] في ذٰلك الموقف الهائل الصعب كلٌّ على قَدْرِ إيمانه، ويبشَّرون عند ذٰلك بأعظم بشارة، فيُقالُ: ﴿بُشراكم اليومَ جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها ذٰلك هو الفوزُ العظيمُ﴾: فللّه ما أحلى هٰذه البشارة بقلوبهم وألذَّها لنفوسهم؛ حيث حصل لهم كلُّ مطلوب محبوب، ونجوا من كلِّ شرٍّ ومرهوب.

﴿١٣﴾ فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم[2]، وهم قد طُفِيءَ نورُهم وبقوا في الظُّلمات حائرين؛ قالوا للمؤمنين: ﴿انظُرونا نَقْتَبِسْ من نورِكم﴾؛ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به لننجوَ من العذاب، فـ﴿قيلَ﴾ لهم: ﴿ارجِعوا وراءَكُم فالْتَمِسوا نوراً﴾؛ أي: إن كان ذٰلك ممكناً، والحال أنَّ ذٰلك غير ممكن، بل هو من المحالات، فضُرِبَ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بسورٍ﴾؛ أي: حائط منيع وحصنٍ حصينٍ ﴿له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ﴾: وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وظاهرُهُ من قِبَلِهِ العذابُ﴾: وهو الذي يلي المنافقين.

﴿١٤﴾ فينادي المنافقونَ المؤمنين، فيقولونَ[3] تضرُّعاً وترحُّماً: ﴿ألم نكن معكُمْ﴾: في الدُّنيا نقول: لا إله إلَّا اللّه، ونصلِّي ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم؟ ﴿قالوا بلى﴾: كنتم معنا في الدنيا وعملتُم في الظاهر مثلَ عملنا، ولٰكنَّ أعمالَكم أعمالُ المنافقين من غيرِ إيمانٍ ولا نيَّةٍ صادقةٍ صالحةٍ، ﴿بل فَتَنْتُم أنفسَكم [وتربَّصْتُم][4] وارْتَبْتُم﴾؛ أي: شككتم في خبر اللّه الذي لا يقبل شكًّا، ﴿وغرَّتْكُم الأماني﴾: الباطلة؛ حيث[5] تمنَّيتم أن تنالوا منالَ المؤمنين وأنتم غير موقنين،

---

(١) في (أ): «بأيمانهم ونورهم. وقد استدركها الشيخ في (ب) فقدم وأخّر بوضع الحرف «م».
(٢) في (ب): «فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به».
(٣) في (ب): «ويقولون». (٤) زيادة على النسختين.
(٥) في (ب): «التي».

﴿حتى جاء أمرُ اللّه﴾؛ أي: حتى جاءكم الموتُ وأنتم بتلك الحالة الذَّميمة، ﴿وغرَّكم باللّه الغَرورُ﴾: وهو الشيطانُ الذي زين لكم الكفر والريبَ فاطمأننتم به، ووثقتم بوعدِهِ وصدَّقتم خبره.

﴿١٥﴾ ﴿فاليومَ لا يؤخَذُ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا﴾: ولو[١] افتديتم بملء الأرض ذهباً ومثله معه؛ لما تقبل منكم. ﴿مأواكُم النارُ﴾؛ أي: مستقرُّكم، ﴿هي مولاكم﴾: التي تتولَّاكم وتضمُّكم إليها، ﴿وبئس المصير﴾: النار؛ قال تعالى: ﴿وأمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينُه. فأمُّه هاويةٌ وما أدراك ما هيه. نارٌ حاميةٌ﴾.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة؛ كان ذٰلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربِّها والاستكانة لعظمته، فعاتب اللّه المؤمنين على عدم ذٰلك، فقال: ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ اللّه وما نَزَلَ من الحقِّ﴾؛ أي: ألم يأتِ[٢] الوقتُ الذي به تلينُ[٣] قلوبهم وتخشعُ لذِكْر اللّه الذي هو القرآن وتنقادُ لأوامره وزواجره وما نَزَلَ من الحقِّ الذي جاء به محمدٌ ﷺ، وهٰذا فيه الحثُّ على الاجتهاد على خشوع القلب للّه تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكَّر المؤمنون المواعظ الإلٰهيَّة والأحكام الشرعيَّة كلَّ وقت ويحاسبوا أنفسَهم على ذٰلك، ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قَبْلُ فطال عليهم الأمدُ﴾؛ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل اللّه عليهم الكتابَ الموجبَ لخشوع القلب والانقياد التامِّ، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثَبَتوا، بل طال عليهم الزمان، واستمرَّتْ بهم الغفلةُ، فاضمحلَّ إيمانُهم وزال إيقانهم؛ ﴿فقستْ قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقونَ﴾: فالقلوب تحتاجُ في كلِّ وقتٍ إلى أن تُذَكَّرَ بما أنزل[٤] اللّه وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذٰلك؛ فإنَّه[٥] سببٌ لقسوة القلب وجمود العين.

(١) في (ب): «فلو».
(٢) في (ب): «يجيء».
(٣) في (ب): «الذي تلين به قلوبهم».
(٤) في (ب): «أنزله».
(٥) في (ب): «فإن ذلك».

﴿١٧﴾ ﴿اعلموا أنَّ الله يُحيي الأرض بعد موتِها قد بَيَّنَّا لكم الآياتِ لعلَّكم تَعْقِلونَ﴾: فإن الآيات تدلُّ العقول على المطالب[١] الإلْهيَّة، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على أن يُحْيِيَ الأموات بعد موتهم فيجازِيَهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المَطرِ، قادرٌ على أن يُحْيِيَ القلوب الميتة بما أنزله من الحقِّ على رسوله. وهٰذه الآية تدلُّ على أنه لا عقل لمن لَم يهتدِ بآيات الله ولم ينقدْ لشرائع الله.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٨﴾ ﴿إنَّ المصَّدِّقينَ والمُصَّدِّقاتِ﴾: بالتشديد؛ أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعيَّة والنفقات المرضيَّة، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾: بأن قدَّموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون ذخراً[٢] لهم عند ربِّهم، ﴿يضاعَفُ لهم﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ﴿ولهم أجرٌ كريمٌ﴾: وهو ما أعدَّه الله لهم في الجنة ممَّا لا تعلمُه النفوس.

﴿١٩﴾ ﴿والذين آمنوا بالله ورسلِهِ﴾: والإيمانُ عند أهل السُّنَّة ما[٣] دلَّ عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذٰلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا [بين] هٰذه الأمور ﴿هم الصدِّيقون﴾؛ أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء. وقوله: ﴿والشهداءُ عند ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم﴾؛ كما ورد في الحديث الصحيح[٤]: «إنَّ في الجنَّة مائةَ درجةٍ، ما بين كلِّ درجتين[٥] كما بين السماء والأرض، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله». وهٰذا يقتضي شدَّة علوِّهم ورفعتهم وقربهم من[٦] الله تعالى، ﴿والذين كفروا وكَذَّبوا بآياتنا أولٰئك أصحابُ الجحيم﴾: فهٰذه الآيات جمعت أصناف الخلق المتصدِّقين والصِّديقين والشهداء وأصحاب

---

(١) في (ب): «على العلم بالمطالب». (٢) في (ب): «مدَّخراً».
(٣) في (ب): «هو ما».
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) في (ب): «ما بين الدرجتين». (٦) في (ب): «إلى».

الجحيم، فالمتصدِّقون الذين [كان] جُلُّ عملهم الإحسان إلى الخلق وبذلُ النفع لهم[١] بغاية ما يمكنهم، خصوصاً بالنفع بالمال في سبيل الله، والصِّدِّيقون هم الذين كمَّلوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وبَذَلوا أنفسَهم وأموالهم فقُتِلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذَّبوا بآيات الله. وبقي قسمٌ ذكرهم[٢] الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدَّوا الواجبات وتركوا المحرمات؛ إلَّا أنَّهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله[٣] وحقوق عباده؛ فهؤلاء مآلهم الجنة[٤]، وإن حصل لبعضهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدُّنيا وما هي عليه، ويبيِّن غايتها وغاية أهلها؛ بأنَّها ﴿لعبٌ ولهوٌ﴾: تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقُه ما هو موجودٌ وواقعٌ من أبناء الدُّنيا؛ فإنَّك تجِدُهم قد قطعوا أوقاتَ عُمُرِهم بلهوِ قلوبهم وغفلتهم[٥] عن ذكر الله وعمَّا أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتَّخذوا دينَهم لعباً ولهواً؛ بخلاف أهل اليقظة وعُمَّال الآخرة؛ فإنَّ قلوبَهم معمورةٌ بذكر الله ومعرفته ومحبَّته، وقد شغلوا[٦] أوقاتهم بالأعمال التي تقرِّبهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدِّي. وقوله: ﴿وزينةٌ﴾؛ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدُّور والقصور والجاه وغير ذلك. ﴿وتفاخرٌ بينكم﴾؛ أي: كلُّ واحدٍ من أهلها يريد مفاخرةَ الآخر، وأن يكونَ هو الغالبَ في أمورها، والذي له الشهرة

---

(١) في (ب): «إليهم». (٢) في (ب): «ذكره».
(٣) في (ب): «إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله».
(٤) في (ب): «إلى الجنة».
(٥) في (ب): «قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب والغفلة».
(٦) في (ب): «أشغلوا».

في أحوالها، ﴿وتكاثرٌ في الأموال والأولادِ﴾؛ أي: كلٌّ يريدُ أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهٰذا مصداقُهُ وقوعُهُ من محبِّي الدُّنيا والمطمئنين إليها؛ بخلاف مَنْ عَرَفَ الدُّنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً، ولم يجعلها مستقرًّا، فنافس فيما يقرِّبُه إلى اللّه، واتَّخذ الوسائل التي توصلُه إلى دار كرامته[1]، وإذا رأى من يكاثره وينافسه في الأموال[2] والأولاد؛ نافَسَه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدُّنيا مثلاً بغيثٍ نزل على الأرض، فاختلط به نباتُ الأرض مما يأكُلُ الناسُ والأنعام، حتى إذا أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها، وأعجب نباتُه الكفارَ الذين قَصَروا نَظَرَهم وهِمَمَهم على الدُّنيا[3]؛ جاءها من أمرِ اللّه ما أتلفها، فهاجتْ ويبستْ وعادتْ إلى حالها الأولى[4]؛ كأنَّه لم ينبتْ فيها خضراءُ ولا رُئِيَ لها مَرْأًى أنيق، كذٰلك الدُّنيا؛ بينما هي زاهيةٌ لصاحبها زاهرةٌ؛ مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجَّه لأمرٍ من أمورها؛ وجد أبوابه مفتَّحة؛ إذ أصابها القَدَرُ، فأذهبها[5] من يده، وأزال تسلُّطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين؛ لم يتزوَّد منها سوى الكفن، فتبًّا لمن أضحتْ هي غايةَ أمنيَّته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة؛ فهو الذي ينفع ويُدَّخر لصاحبه ويصحب العبدَ على الأبد، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللّه ورضوانٌ﴾؛ أي: حال الآخرة ما يخلو من هٰذين الأمرين: إمَّا العذابُ الشديدُ في نار جهنَّم وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدُّنيا هي غايتَهُ ومنتهى مطلبِهِ، فتجرَّأ على معاصي اللّه، وكذَّب بآيات اللّه، وكفر بأنعم اللّه، وإمَّا مغفرةٌ من اللّه للسيئات، وإزالةُ العقوبات، ورضوانٌ من اللّه يُحِلُّ من أحَلَّه عليه[6] دارَ الرضوان لمن عرف الدُّنيا وسعى للآخرة سعيها؛ فهٰذا كلُّه مما يدعو إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ولهٰذا قال: ﴿وما الحياةُ الدُّنيا إلَّا متاعُ الغُرور﴾؛ أي: إلَّا متاعٌ يُتَمَتَّعُ به ويُنْتَفَعُ به ويُسْتَدْفَعُ به الحاجات؛ لا يغترُّ به ويطمئنُّ إليه إلَّا أهل العقول الضعيفة، الذين يغرُّهم باللّه الغرور.

﴿٢١﴾ ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة اللّه ورضوانه وجنته، وذٰلك يكون بالسعي

---

(١) في (ب): «إلى الله». (٢) في (ب): «بالأموال».
(٣) في (ب): «هممهم ونظرهم إلى الدنيا».
(٤) في (ب): «ما هاجت به ويبست فعادت على حالها الأولى».
(٥) في (ب): «بما أذهبها». (٦) في (ب): «يحل ما أحلَّه به».

بأسباب المغفرةِ من التوبة النَّصوح، والاستغفار النَّافع، والبعد عن الذُّنوب ومظانِّها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يُرضي الله على الدَّوام من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمالَ الموجبةَ لذلك، فقال: ﴿وجنَّةٍ عرضُها السمٰواتُ والأرضُ أعِدَّتْ للذين آمنوا باللهِ ورسلِهِ﴾، والإيمانُ بالله ورُسُلِهِ[١] يدخلُ فيه أصولُ الدِّين وفروعها. ﴿ذٰلك فضلُ الله يؤتيهِ مَن يشاءُ﴾؛ أي: هٰذا الذي بيَّنَّاه لكم وذَكَرْنا [لكم فيه] الطُّرُقَ الموصلة إلى الجنة والطُّرُقَ الموصلة إلى النار، وأنَّ ثواب الله بالأجر الجزيل والثواب الجميل[٢] من أعظم منَّته على عباده وفضله، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾: الذي لا يُحصى ثناءٌ عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني عليه أحدٌ من خلقه[٣].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائِهِ وقدرِهِ: ﴿ما أصابَ من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسِكُم﴾: وهٰذا شاملٌ لعموم المصائب التي تُصيبُ الخلق من خيرٍ وشرٍّ؛ فكلُّها قد كُتِبَتْ في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها، وهٰذا أمرٌ عظيمٌ لا تحيطُ به العقول، بل تَذْهلُ عنده أفئدةُ أولي الألباب، ولٰكنَّه على الله يسيرٌ.

﴿٢٣﴾ وأخبر الله عبادَه بذٰلك لأجل أن تتقرَّرَ هٰذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشرِّ؛ فلا يأسَوْا، ويحزنوا على ما فاتهم، مما طَمِحَتْ له أنفسُهم وتشوَّفوا إليه؛ لعلمِهِم أنَّ ذٰلك مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، لا بدَّ من نفوذه ووقوعه؛ فلا سبيل إلى دفعِهِ، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرحَ بَطَرٍ وأَشَرٍ؛ لعلمهم أنَّهم ما أدركوه بحولهم وقوَّتهم، وإنَّما أدركوه بفضل الله ومنِّه، فيشتغلوا بشكر مَن أولى النِّعم ودفع النِّقم، ولهٰذا قال: ﴿والله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ﴾؛

(١) في (ب): «ورسوله».
(٢) في (ب): «وأنَّ فضلَ الله بالثواب الجزيل والأجر الجميل».
(٣) في (ب): «عليه عباده».

أي: متكبِّر فظٌّ غليظٍ معجبٍ بنفسه فخورٍ بنعم اللّه ينسبها إلى نفسه وتُطغيه وتُلهيه؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا أذقْناه رحمةً منَّا قال إنَّما أوتيتُهُ على علم بَلْ هي فتنةٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿الذين يَبْخلونَ ويأمُرونَ الناس بالبُخلِ﴾؛ أي: يجمعون بين الأمرين الذَّميمين اللذين كلٌّ منهما كافٍ في الشرِّ: البخل، وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفِهِم بُخلُهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثُّوهم [على][1] هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربِّهم وتولِّيهم عنها، ﴿ومن يَتَولَّ﴾: عن طاعة اللّهِ؛ فلا يضرُّ إلَّا نفسه، ولن يضرَّ اللّه شيئاً، ﴿فإنَّ اللّه هو الغنيُّ الحميدُ﴾: الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له مُلْكُ السماواتِ والأرض، وهو الذي أغنى عبادَه وأقناهم، الحميدُ الذي له كلُّ اسم حسنٍ ووصفٍ كامل وفعل جميل يستحقُّ أن يُحْمَدَ عليه ويُثْنى ويُعَظَّم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا[2] وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٥﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ﴾: وهي الأدلَّة والشواهد والعلامات الدَّالَّة على صدق ما جاؤوا به وحقِّيَّتِهِ، ﴿وأنزلنا معهم الكتابَ﴾: وهو اسم جنس يَشْمَلُ سائر الكتب التي أنزلها اللّه لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ﴿والميزانَ﴾: وهو العدلُ في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرُّسل كلُّه عدلٌ وقسطٌ في الأوامر والنَّواهي وفي معاملات الخَلْق وفي الجنايات والقِصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿ليقومَ الناسُ بالقسطِ﴾: قياماً بدين اللّه، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكنُ حصرُها وعدُّها، وهذا دليلٌ على أنَّ الرسل متَّفقون في قاعدة الشرع، وهو القيامُ بالقسط، وإنِ

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «عليه».

(٢) في (أ) إلى قوله: «وكثير منهم فاسقون»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

اختلفتْ صورُ[1] العدل بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وأنزَلْنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ﴾: من آلات الحرب؛ كالسلاح والدُّروع وغير ذلك، ﴿ومنافعُ للناس﴾: وهو ما يشاهَدُ من نفعه في أنواع الصِّناعات والحرف والأواني وآلات الحَرْثِ، حتى إنَّه قَلَّ أن يوجَدَ شيءٌ إلَّا وهو يحتاجُ إلى الحديد، ﴿ولِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَنصُرُه ورُسُلَه بالغيب﴾؛ أي: ليقيم تعالى سوقَ الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبيَّن من ينصُرُه وينصُرُ رسله في حالة[2] الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها؛ لأنَّه حينئذٍ يكون ضروريًّا. ﴿إنَّ اللّه لَقَوِيٌّ عزيزٌ﴾؛ أي: لا يعجِزُه شيءٌ ولا يفوته هاربٌ، ومن قوَّته وعزَّته أن أنزل الحديدَ الذي منه الآلاتُ القويَّة، ومن قوَّته وعزَّته أنه قادرٌ على الانتصار من أعدائه، ولكنَّه يبتلي أولياءه بأعدائه؛ ليعلم من ينصرُهُ بالغيب.

وقَرَنَ تعالى بهذا[3] الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأنَّ بهذين الأمرين ينصر اللّه دينه ويُعلي كلمته: بالكتاب الذي فيه الحجَّة والبرهان، والسيف الناصر بإذن اللّه، وكلاهما قيامُهُ بالعدل والقِسْط، الذي يستدلُّ به على حكمةِ الباري وكماله وكمال شريعتِهِ التي شرعها على ألسنة رسله.

﴿٢٦﴾ ولما ذكر نبوَّة الأنبياء عموماً؛ ذكر من خواصِّهم النَّبِيَّيْنِ الكريمَيْنِ نوحاً وإبراهيم، اللَّذين جعل اللّه النبوَّة والكتاب في ذُرِّيَّتهما، فقال: ﴿ولقد أرسَلْنا نوحاً وإبراهيم وجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِما النبوَّةَ والكتابَ﴾؛ أي: الأنبياء المتقدِّمين والمتأخِّرين، كلُّهم من ذُرِّيَّة نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلُّها نزلت على ذُرِّيَّة هذين النبيَّيْنِ الكريمَيْنِ. ﴿فمنهم﴾؛ أي: ممَّن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مهتدٍ﴾: بدعوتهم، منقادٌ لأمرهم، مسترشدٌ بهداهم، ﴿وكثيرٌ منهم فاسقون﴾؛ أي: خارجون عن طاعة اللّه وطاعة رسله[4]؛ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصْتَ بمؤمنينَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿ثم قَفَّيْنا﴾؛ أي: أتبعنا ﴿على آثارِهم برُسُلِنا وقَفَّيْنا بعيسى ابن مريم﴾: خصَّ اللّه عيسى عليه السلام؛ لأنَّ السياق مع النصارى، الذين يزعُمون اتِّباع عيسى، ﴿وآتيناه الإنجيل﴾: الذي هو من كتب اللّه الفاضلة، ﴿وجَعَلْنا في قلوب الذين اتَّبعوه رأفةً ورحمةً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا

---

(١) في (ب): «أنواع».
(٢) في (ب): «حال».
(٣) في (ب): «في هذا».
(٤) في (ب): «خارجون عن طاعة الرسل والأنبياء».

اليهودَ والذين أشركوا ولَتَجِدَنَّ أقرَبَهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذٰلك بأنَّ منهم قِسِّيسينَ ورُهْباناً وأنَّهم لا يستكبرونَ...﴾ الآيات، ولهٰذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام، ﴿ورهبانيةً ابْتَدَعوها﴾: والرهبانيَّة العبادةُ؛ فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادةً، ووظَّفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها اللّه عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم؛ قصْدُهم بذٰلك رضا اللّه، ومع ذٰلك؛ ﴿فما رَعَوْها حقَّ رعايتها﴾؛ أي: ما قاموا بها، ولا أدَّوْا حقوقها، فقصَّروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فَرَضوه على أنفسهم. فهٰذه الحالُ هي الغالبُ من أحوالهم، ومنهم من هو مستقيمٌ على أمر اللّه، ولهٰذا قال: ﴿فآتَينا الذين آمنوا منهم أجْرَهُم﴾؛ أي: الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ مع إيمانهم بعيسى؛ كلٌّ أعطاه اللّه على حسب إيمانِهِ، ﴿وكثيرٌ منهم فاسقونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ **وهٰذا الخطابُ يُحتمل** أنه خطابٌ لأهل الكتاب، الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام؛ يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم؛ بأن يتَّقوا اللّه فيتركوا معاصِيَه ويؤمنوا برسوله محمدٍ ﷺ، وأنَّهم إن فعلوا ذٰلك؛ أعطاهم اللّه ﴿كِفْلَيْنِ من رحمتِهِ﴾؛ أي: نصيبين من الأجر؛ نصيبٌ على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيبٌ على إيمانهم بمحمدٍ ﷺ. **ويُحتمل** أن يكون الأمرُ عامًّا؛ يدخل فيه أهلُ الكتابِ وغيرُهم، وهٰذا الظاهر، وأنَّ اللّه أمرَهَم بالإيمان والتَّقوى، الذي يدخُلُ فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، وأنَّهم إن امتثلوا هٰذا الأمر العظيم؛ أعطاهم [اللّه] ﴿كِفْلَيْنِ من رحمتِهِ﴾؛ لا يعلم قدرهما ولا وصفَهما[1] إلَّا اللّه تعالى: أجرٌ على الإيمان وأجرٌ على التقوى، أو أجرٌ على امتثال الأوامر وأجرٌ على اجتناب النَّواهي، أو أنَّ التَّثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرةً بعد أخرى. ﴿ويَجْعَل لكم نوراً تمشون به﴾؛ أي: يعطيكم علماً وهدىً ونوراً تمشون به في ظُلُمات الجهل، ويغفر لكم السيئات، ﴿واللّه ذو الفضل العظيم﴾: فلا يُسْتَغْرَبُ[2] كثرةُ هٰذا الثواب على

(١) في (ب): «وصفهما وقدرهما». (٢) في (ب): «فلا يستكثر».

فضل ذي الفضل العظيم، الذي عمَّ فضلُه أهلَ السماواتِ والأرض؛ فلا يخلو مخلوقٌ من فضله طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ من ذٰلك.

﴿٢٩﴾ وقوله: ﴿لئلَّا يعلم أهلُ الكتاب أَلَّا يقدِرونَ على شيءٍ من فضل اللّٰه﴾؛ أي: بيَّنا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عامًّا واتَّقى اللّٰه وآمن برسوله؛ لأجل أن يكونَ عند أهل الكتاب علمٌ بأنَّهم لا يقدرونَ على شيءٍ من فضل اللّٰه؛ أي: لا يحجُرون على اللّٰه بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان هوداً أو نَصارى﴾، ويَتَمَنَّوْنَ على اللّٰه الأمانيَّ الفاسدةَ، فأخبر اللّٰه تعالى [أن] المؤمنين برسوله محمدٍ ﷺ، المتَّقين للّٰه أنَّ لهم كِفْلَيْنِ من رحمته ونوراً ومغفرةً؛ رغماً على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿أنَّ الفضلَ بيد اللّٰه يؤتيه من يشاءُ﴾: ممَّنِ اقتضت حكمتُه تعالى أن يؤتِيَه من فضله، ﴿واللّٰه ذو الفضل العظيم﴾: الذي لا يقادَرُ قدرُه.

تم تفسير [سورة الحديد. وللّٰه الحمد والمنّة. والحمد للّٰه].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة قد سمع اللّٰه

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا[(١)] وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ نزلت هٰذه الآيات الكريماتُ في رجل من الأنصار اشتكتْه زوجته إلى اللّٰه وجادلته إلى رسول اللّٰه ﷺ لمَّا حرَّمها على نفسه بعد الصُّحبة الطويلة والأولاد،

---

(١) في (أ) إلى قول: «وللكافرين عذاب أليم»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالَها وحالَه إلى اللّه وإلى رسول اللّه ﷺ، وكرَّرت ذٰلك، وأبدتْ فيه وأعادتْ، فقال تعالى: ﴿قد سَمِعَ اللّه قولَ التي تجادِلُك في زوجها وتَشتَكي إلى اللّه واللّهُ يسمعُ تحاوُرَكما﴾؛ أي: تخاطُبَكما فيما بينكما. ﴿إنَّ اللّه سميعٌ﴾: لجميع الأصوات في جميع الأوقات على تفنُّن الحاجات. ﴿بصيرٌ﴾: يبصر دبيبَ النملة السوداء، على الصَّخرة الصمَّاء، في الليلة الظلماء[1].

وهٰذا إخبارٌ عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدَّقيقة والجليلة، وفي ضمن ذٰلك الإشارة بأنَّ اللّه [تعالى] سيزيلُ شكواها ويرفع بلواها، ولهٰذا ذكر حكمها وحكمَ غيرها[2] على وجه العموم، فقال:

﴿٢﴾ ﴿الذين يظاهِرونَ منكم من نسائِهِم ما هنَّ أمَّهاتِهم إن أمَّهاتُهم إلَّا اللَّائي وَلَدْنَهم﴾: المظاهرة من الزوجة أن يقولَ الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهرِ أمِّي، أو غيرها من محارمه، أو أنت عليَّ حرامٌ. وكان المعتاد عندَهم في هٰذا اللفظ الظهر، ولهٰذا سماه اللّه ظِهاراً، فقال: ﴿الذين يظاهِرون منكم من نسائِهِم ما هنَّ أمَّهاتِهم﴾؛ أي: كيف يتكلَّمون بهٰذا الكلام الذي يعلمون[3] أنَّه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمَّهاتِهم اللَّاتي ولدنهم؟! ولهٰذا عظَّم اللّه أمره وقبَّحه، فقال: ﴿وإنَّهم لَيقولونَ منكراً من القول وزوراً﴾؛ أي: قولاً شنيعاً وكذباً[4]، ﴿وإنَّ اللّه لَعَفُوٌّ غفورٌ﴾: عمَّن صَدَرَ منه بعضُ المخالفات فتداركَها بالتَّوْبَةِ النَّصوح.

﴿٣﴾ ﴿والذين[5] يظاهِرونَ من نسائِهِم ثم يعودونَ لِما قالوا﴾: اختلف العلماء في معنى العَوْد، فقيل معناه العزمُ على جماع مَنْ ظاهر منها، وأنَّه بمجرَّد عزمِهِ؛ تجب عليه الكفَّارة المذكورة، ويدلُّ على هٰذا أنَّ اللّه تعالى ذَكَرَ في الكفَّارة أنَّها[6] تكون قبل المسيس، وذٰلك إنَّما يكون بمجرَّد العزم، وقيل: معناه حقيقةُ الوطءِ، ويدلُّ على ذٰلك أنَّ اللّه قال: ﴿ثم يعودونَ لِما قالوا﴾، والذي قالوا إنَّما هو الوطءُ، وعلى كلٍّ من القولين؛ فإذا وُجِدَ العَوْدُ؛ صار كفارةُ هٰذا التحريم ﴿تحرير

---

(١) في (ب): «في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء».
(٢) في (ب): «ولهذا ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره».
(٣) في (ب): «يعلم».
(٤) في (ب): «﴿منكراً من القول﴾؛ أي: قولاً شنيعاً. ﴿وزوراً﴾؛ أي: كذباً».
(٥) في (ب): «فالذين». (٦) في (ب): «أن».

رقبةٍ﴾: مؤمنةٍ؛ كما قُيِّدَتْ في آية القتل[١]؛ ذكرٍ أو أنثى؛ بشرط أن تكون سالمةً من العيوب الضارَّة[٢] بالعمل ﴿من قبل أن يَتَماسَّا﴾؛ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفِّرَ برقبة. ﴿ذٰلكم﴾: الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿توعظونَ به﴾؛ أي: يبيِّن لكم حكمه مع الترهيب المقرون به؛ لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب فالذي يريد أن يظاهر؛ إذا ذَكَرَ أنَّ[٣] عليه عتقَ رقبةٍ؛ كفَّ نفسه عنه. ﴿واللّٰه بما تعملونَ خبيرٌ﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله.

﴿٤﴾ ﴿فمن لم يجِدْ﴾: رقبةً يُعْتِقُها؛ بأن لم يجِدْها أو لم يجِدْ ثَمَنَها، ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيامُ شهرين متتابعين من قبل أن يَتَماسَّا فمَن لم يَسْتَطِعْ﴾: الصيام، ﴿فإطعامُ ستينَ مسكيناً﴾: إمَّا أنْ[٤] يطعِمَهم من قوت بلده ما يكفيهم؛ كما هو قول كثيرٍ من المفسِّرين، وإمَّا أنْ[٤] يطعِمَ كلَّ مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصفَ صاع من غيره مما يُجْزِي في الفطرة؛ كما هو قول طائفة أخرى. ﴿ذٰلك﴾: الحكم الذي بيَّنَّاه لكم ووضَّحناه، ﴿لتؤمِنوا باللّٰه ورسولِهِ﴾: وذٰلك بالتزام هٰذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به؛ فإنَّ التزام أحكام اللّٰه والعمل بها من الإيمانِ، بل هي المقصودةُ، ويزداد بها[٥] الإيمانُ ويكمُلُ وينمو. ﴿وتلك حدودُ اللّٰهِ﴾: التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب أن لا تُتَعَدَّى ولا يُقَصَّرَ عنها. ﴿وللكافرين عذابٌ أليمٌ﴾.

وفي هٰذه الآيات عدَّة أحكام:

منها: لطفُ اللّٰه بعباده واعتناؤه بهم؛ حيث ذَكَرَ شكوى هٰذه المرأة المصابة، وأزالها، ورَفَعَ عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمِهِ العامِّ لكلِّ مَن ابتلي بمثل هٰذه القضيَّة.

ومنها: أن الظِّهار مختصٌّ بتحريم الزوجة؛ لأنَّ اللّٰه قال: ﴿من نسائهم﴾؛ فلو حرم أمته؛ لم يكن ذٰلك ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطيبات كالطعام والشراب؛ تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصحُّ الظِّهار من امرأة قبل أن يتزوَّجها؛ لأنَّها لا تدخل في نسائه وقت الظهار؛ كما لا يصح طلاقها؛ سواء نجز ذٰلك أو علقه.

---

(١) في (ب): «آية أخرى».
(٢) في (ب): «المضرَّة».
(٣) في (ب): «أنه يجب عليه».
(٤) في (ب): «بأن».
(٥) في (ب): «ومما يزيد به».

ومنها: أن الظِّهار محرَّم؛ لأن اللّه سماه ﴿منكراً من القولِ وزُوراً﴾.

ومنها: تنبيه اللّه على الحكم وحكمته؛ لأن اللّه قال: ﴿ما هُنَّ أمَّهاتِهم﴾.

ومنها: أنَّه يُكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها[(١)] باسم محارمه؛ كقوله: يا أمي يا أختي ونحو ذٰلك؛ لأنَّ ذٰلك يشبه المحرَّم.

ومنها: أنَّ الكفَّارة إنَّما تجب بالعَوْدِ؛ لما قال المظاهِرُ على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرَّد الظهار.

ومنها: أنَّه يجزئ في كفارة الرَّقبة الصغير والكبير والذَّكر والأنثى؛ لإطلاق الآية في ذٰلك.

ومنها: أنَّه يجب إخراجها إذا[(٢)] كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس؛ كما قيَّده اللّه؛ بخلاف كفَّارة الإطعام؛ فإنَّه يجوز المسيس والوطءُ في أثنائها.

ومنها: أنَّه لعلَّ الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس أنَّ ذٰلك أدعى لإخراجها؛ فإنَّه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنَّه لا يمكَّن من ذٰلك إلَّا بعد الكفارة؛ بادرَ بإخراجها[(٣)].

ومنها: أنَّه لا بدَّ من إطعام ستين مسكيناً؛ فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحدٍ أو أكثر من ذٰلك دون الستين؛ لم يجزْ ذٰلك؛ لأنَّ اللّه قال: ﴿فإطعامُ ستينَ مسكيناً﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ محادَّة اللّه ورسوله مخالفتُهما ومعصيتُهما، خصوصاً في الأمور الفظيعة؛ كمحادَّة اللّه ورسوله بالكفر ومعاداة أولياء اللّه. وقوله: ﴿كُبِتُوا كما كُبِتَ الذين من قبلهم﴾؛ أي: أذِلُّوا وأهينوا كما فُعِلَ بمن قبلَهم جزاءً وِفاقاً، وليس لهم حجَّةٌ على اللّه؛ فإنَّ اللّه قد قامت حجَّته البالغةُ على الخلق، وقد أنزل من الآيات البيِّناتِ والبراهين ما يبيِّنُ الحقائق ويوضِّحُ المقاصدَ؛ فمن اتَّبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين. ﴿وللكافرين﴾: بها ﴿عذابٌ مهينٌ﴾؛ أي: يهينهم ويُذِلُّهم؛

---

(١) في (ب): «ويسميها». (٢) في (ب): «إن».

(٣) في (ب): «لإخراجها».

فكما[١] تكبَّروا عن آيات الله؛ أهانهم وأذلَّهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿٦﴾ يقول الله تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله﴾ الخلقَ جميعاً فيقومون[٢] من أجداثهم سريعاً، فيجازيهم بأعمالهم؛ وينبِّئهم بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ؛ لأنَّه علم ذٰلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحَفَظَة بكتابته، هٰذا والعاملون قد نسوا ما عملوه والله أحصى ذٰلك. ﴿والله على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾: على الظَّواهر[٣] والسَّرائر والخبايا والخفايا.

﴿٧﴾ ولهٰذا أخبر عن سعةِ علمه وإحاطته بما في السماواتِ والأرض من دقيق وجليل، وأنَّه ﴿ما يكون من نَجْوى ثلاثةٍ إلَّا هو رابِعُهم ولا خمسةٍ إلَّا هو سادِسُهم ولا أدنى مِن ذٰلك ولا أكثر إلَّا هو معَهُم أينما كانوا﴾: والمراد بهٰذه المعيَّة معيَّةُ العلم والإحاطة بما تناجَوْا به وأسرُّوه فيما بينَهم، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٨ ـ ٩﴾ النَّجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير وتكونُ في الشرِّ، فأمر الله المؤمنين أنْ يَتناجَوْا بالبرِّ، وهو اسمٌ جامعٌ لكلِّ خيرٍ وطاعةٍ وقيامٍ بحقِّ الله وحقِّ عباده[٤]، والتَّقوى، وهي هنا اسمٌ جامعٌ لترك جميع المحارم والمآثم؛ فالمؤمن يمتثل هٰذا الأمر الإلٰهيَّ؛ فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلَّا بما يقرِّبه

(١) في (ب): «كما».
(٢) في (ب): «ويقومون».
(٣) في (ب): «بالظواهر».
(٤) في (ب): «وقيام بحقِّ لله ولعباده».

إلى[١] اللّه ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاونُ بأمر اللّه ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول؛ كالمنافقين الذين هٰذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وإذا جاؤوك حَيَّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ به اللّه﴾؛ أي: يسيئون الأدب في تحيَّتهم لك، ﴿ويقولونَ في أنفسِهم﴾؛ أي: يسرُّون فيها[٢] ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لولا يُعَذِّبنا اللّه بما نقولُ﴾: ومعنى ذٰلك[٣] أنَّهم يتهاونون بذٰلك، ويستدلُّون بعدم تعجيلِ العقوبة عليهم أنَّ ما يقولونه[٤] غيرُ محذورٍ، قال تعالى في بيان أنَّه يمهِلُ ولا يهمِلُ: ﴿حَسْبُهُم جهنَّمُ يَصْلَوْنها فبئس المصيرُ﴾؛ أي: تكفيهم جهنَّم التي جمعت كلَّ عذابٍ وشقاء[٥] عليهم، تحيط بهم ويعذَّبون بها؛ فبئس[٦] المصير. وهٰؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين، يظهِرون الإيمان ويخاطبون الرسول ﷺ بهٰذا الخطاب[٧] الذي يوهمون أنَّهم أرادوا به خيراً، وهم كذبةٌ في ذٰلك، وإما أناسٌ من أهل الكتاب الذين إذا سلَّموا على رسول اللّه ﷺ؛ قالوا: السام عليك يا محمد[٨]. يعنون: الموت.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّما النَّجوى﴾؛ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكرِ والخديعة وطلب السوءِ من الشيطان الذي كيدُهُ ضعيفٌ، [ومكره غير مفيد] ﴿ليحزنَ الذين آمنوا﴾: هٰذا غايةُ هٰذا المكر ومقصوده، ﴿وليس بضارِّهم شيئاً إلَّا بإذنِ اللّه﴾: فإنَّ اللّه [تعالى] وَعَدَ المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿ولا يَحيقُ المكرُ السيِّئُ إلَّا بأهلِهِ﴾: فأعداء اللّه ورسوله والمؤمنين مهما تَناجَوْا ومَكَروا؛ فإنَّ ضَرَرَ ذٰلك عائدٌ إلى أنفسهم[٩]، ولا يضرُّ المؤمنين إلَّا شيءٌ قدَّره اللّه وقضاه. ﴿وعلى اللّه فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون﴾؛ أي: ليعتمدوا[١٠] عليه ويثِقوا

(١) في (ب): «مِن».
(٢) في (ب): «يسرون في أنفسهم».
(٣) في (ب): «ومعنى هذا».
(٤) في (ب): «يقولون».
(٥) في (ب): «كل شقاء وعذاب».
(٦) في (ب): «وبئس».
(٧) في (ب): «والخطاب للرسول ﷺ».
(٨) كما في «صحيح البخاري» (٦٣٥٦)، ومسلم (٢١٦٥) من حديث عائشة.
(٩) في (ب): «فإن ضررهم عائد على أنفسهم».
(١٠) في (ب): «يعتمدوا».

بوعده؛ فإنَّ مَن تَوَكَّلَ على اللّه؛ كَفاه وكَفاه[١] أمرَ دينِهِ ودُنياه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿١١﴾ هٰذا أدبٌ[٢] من اللّه لعباده [المؤمنين] إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاجَ بعضُهم أو بعضُ القادمين [عليهم] للتفسُّح له في المجلس؛ فإنَّ من الأدب أن يَفْسَحوا له؛ تحصيلاً لهٰذا المقصود، وليس ذٰلك بضارٍّ للفاسح[٣] شيئاً، فيحصلُ مقصود أخيه من غير ضررٍ يلحقه، والجزاء من جنس العمل؛ فإنَّ من فَسَحَ؛ فَسَحَ اللّه له، ومن وسَّع لأخيه؛ وسَّع اللّه عليه، ﴿وإذا قيل انشُزوا﴾؛ أي: ارتفعوا وتَنَحَّوْا عن مجالسكم لحاجةٍ تعرِضُ، ﴿فانشُزوا﴾؛ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة؛ فإنَّ القيام بمثل هٰذه الأمور من العلم والإيمان، واللّه تعالى يرفعُ أهلَ العلم والإيمان درجاتٍ بحسب ما خصَّهم [اللّه] به من العلم والإيمان. ﴿واللّه بما تعملونَ خبيرٌ﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله؛ إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ. وفي هٰذه الآية فضيلة العلم، وأنَّ زينته وثمرتَه التأدُّب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصَّدقة أمام مناجاة رسوله محمدٍ ﷺ تأديباً لهم وتعليماً وتعظيماً للرسول ﷺ؛ فإنَّ هٰذا التعظيم خيرٌ للمؤمنين وأطهر؛ أي: بذٰلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصُلُ لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدبِ معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرةَ تحتها؛ فإنَّه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاتِهِ؛ صار هٰذا ميزاناً لمن كان حريصاً على العلم والخير[٤]؛ فلا يُبالي بالصدقة، ومَنْ لم يكن له حرصٌ ولا رغبةٌ في الخير، وإنَّما مقصودُه مجرَّدُ كثرة الكلام، فينكفُّ بذٰلك عن الذي يشقُّ على الرسول، هٰذا في الواجد

---

(١) في (ب): «كفاه وتولّى».

(٢) في (ب): «تأديب».

(٣) في (ب): «للجالس».

(٤) في (ب): «الخير والعلم».

للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة؛ فإنَّ اللّه لم يضيِّقْ عليه الأمر، بل عفا عنه وسامَحَه وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقةٍ لا يقدِرُ عليها.

﴿١٣﴾ ثم لما رأى [تبارك و] تعالى شفقةَ المؤمنين ومشقَّةَ الصدقاتِ عليهم عند كلِّ مناجاةٍ؛ سهَّل الأمر عليهم، ولم يؤاخِذْهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم يُنْسَخْ؛ لأنَّ هٰذا [الحكمَ] من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنَّما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبارِ المقصودةِ بنفسها، فقال: ﴿فإذْ لم تَفْعَلوا﴾؛ أي: لم يهنْ عليكم تقديم الصدقةِ، ولا يكفي هٰذا؛ فإنَّه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهٰذا قيَّده بقوله: ﴿وتاب اللّه عليكم﴾؛ أي: عفا لكم عن ذٰلك، ﴿فأقيموا الصلاة﴾: بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وآتوا الزَّكاةَ﴾: المفروضة في أموالكم إلى مستحقِّيها.

وهاتان العبادتان هما أمُّ العبادات البدنيَّة والماليَّة؛ فمن[1] قام بهما على الوجه الشرعيِّ؛ فقد قام بحقوق اللّه وحقوق عباده، ولهٰذا قال بعده: ﴿وأطيعوا اللّهَ ورسولَه﴾: وهٰذا أشملُ ما يكون من الأوامر، فيدخُلُ في ذٰلك طاعة اللّه وطاعة رسوله بامتثال أوامرِهما واجتنابِ نواهيهما وتصديق ما أخبرا به والوقوفِ عند حدودِ الشرع[2]، والعبرةُ في ذٰلك على الإخلاص والإحسان؛ فلهٰذا قال: ﴿واللّه خبيرٌ بما تعملون﴾: فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أيِّ وجه صَدَرَتْ، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم[3] مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ومن». (٢) في (ب): «حدود الله».

(٣) في (أ) إلى قوله: «هم الخاسرون»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين، الذين يَتَوَلَّوْنَ الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم ممَّن غَضِبَ اللّه عليهم ونالوا من لعنةِ اللّه أوفى نصيبٍ، وأنَّهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين: ﴿مُذَبْذَبين بين ذٰلك لا إلى هٰؤلاءِ ولا إلى هٰؤلاءِ﴾: فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً؛ لأنَّ باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً؛ لأنَّ ظاهرهم مع المؤمنين، وهٰذا وصفهم الذي نعتهم اللّه به، والحالُ أنَّهم يحلفون على ضدِّه الذي هو الكذب، فيحلفون أنَّهم مؤمنون، والحال[1] أنَّهم ليسوا مؤمنين، فجزاءُ هٰؤلاء الخونة الفجرة الكَذَبة أنَّ اللّه أعدَّ لهم عذاباً شديداً لا يقادَرُ قدرُه ولا يُعْلَم وصفُه؛ ﴿إنَّهم ساء ما كانوا يعملون﴾: حيث عملوا بما يُسْخِطُ[2] اللّه ويوجِبُ عليهم العقوبة واللعنة.

﴿١٦﴾ ﴿اتَّخذوا أيمانَهم جُنَّةً﴾؛ أي: ترساً ووقايةً يتَّقون بها من لوم اللّه ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذٰلك صدُّوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل اللّه، وهو[3] الصراط الذي مَن سَلَكَه؛ أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صدَّ عنه؛ فليس إلَّا الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فلهم عذابٌ مهينٌ﴾: حيث استَكْبَروا عن الإيمان باللّه والانقياد لآياته؛ أهانهم بالعذاب السرمديِّ الذي لا يُفَتَّر عنهم ساعةً ولا هم يُنْظَرونَ.

﴿١٧﴾ ﴿لن تُغْنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من اللّه شيئاً﴾؛ أي: لا[4] تَدْفَعُ عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصِّلُ لهم قسطاً من الثواب، ﴿أولئك أصحابُ النار﴾: الملازمون لها، الذين لا يخرُجون عنها، و﴿هم فيها خالدون﴾.

﴿١٨﴾ ومن عاش على شيءٍ؛ مات عليه؛ فكما أنَّ المنافقين في الدُّنيا يموِّهون على المؤمنين ويحلفون لهم أنَّهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامةِ وبعثَهم اللّه جميعاً؛ حلفوا للّه كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هٰذا ﴿أنَّهم على شيءٍ﴾: لأنَّ كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تَزَلْ تَرْسخُ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرَّتهم وظنُّوا أنَّهم على شيءٍ يعتدُّ به ويعلِّقُ عليه الثواب، وهم كاذبون في ذٰلك، ومن المعلوم أن الكذِبَ لا يروجُ على عالم الغيب والشهادة.

﴿١٩﴾ وهٰذا الذي جرى عليهم من استحواذِ الشيطان الذي استولى عليهم وزَيَّنَ

---

(١) في (ب): «وهم يعلمون أنهم».
(٢) في (ب): «يسخطه».
(٣) في (ب): «وهي».
(٤) في (ب): «فلا».

لهم أعمالهم وأنساهم ذِكْرَ الله، وهو العدوُّ المبينُ الذي لا يريدُ بهم إلَّا الشرَّ، إنَّما يدعو حِزْبَه ليكونوا من أصحاب السعير، ﴿أولٰئك حزبُ الشيطان ألا إنَّ حزبَ الشيطانِ هم الخاسرون﴾: الذين خسروا دينَهم ودُنياهم وأنْفُسَهم وأهليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ هٰذا وعدٌ ووعيدٌ، وعيدٌ لمن حادَّ الله ورسوله بالكفر والمعاصي أنَّه مخذولٌ مذلولٌ لا عاقبةَ له حميدةٌ، ولا رايةَ له منصورةٌ، ووعدٌ لمن آمن به وبرسله واتَّبع ما جاء به المرسلون فصار من حزبِ الله المفلحين أنَّ لهم الفتحَ والنصرَ[١] والغلبةَ في الدُّنيا والآخرة، وهٰذا وعدٌ لا يُخْلَفُ ولا يغيَّر؛ فإنَّه من الصادق القويِّ العزيز الذي لا يعجِزُه شيءٌ يريده.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ[٢] وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿لا تَجِدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخرِ يوادُّونَ من حادَّ الله ورسولَه﴾؛ أي: لا يجتمع هٰذا وهٰذا، فلا يكون العبدُ مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقةً إلَّا كان عاملاً على مقتضى إيمانه[٣] ولوازمه من محبَّةِ مَنْ قام بالإيمان وموالاته وبُغْضِ مَنْ لم يَقُمْ به ومعاداتِهِ، ولو كان أقربَ الناس إليه، وهٰذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هٰذا الوصف هم الذين ﴿كَتَبَ﴾ الله ﴿في قلوبهم الإيمان﴾؛ أي: رسمه وثبَّته وغرسه غرساً لا يتزلزلُ ولا تؤثِّر فيه الشُّبه والشُّكوك، وهم الذين قواهم الله ﴿بروح منه﴾؛ أي: بوحيه ومعونته ومدده الإلٰهي وإحسانه الرباني وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هٰذه الدار، ولهم جناتُ النعيم في دار القرار، التي فيها كلُّ[٤] ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ

(١) في (ب): «النصرة».
(٢) في (أ) إلى آخر السورة، وفي (ب) ذكر الآيات إلى نهاية السورة.
(٣) في (ب): «الإيمان». (٤) في (ب): «من كلِّ».

الأعين وتختارُ، ولهم أفضل النعيم وأكبره[١]، وهو أنَّ اللّهَ يُحِلُّ عليهم رضوانَه؛ فلا يسخطُ عليهم أبداً، ويرضَوْن عن ربِّهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات ووافر المَثوبات وجزيلِ الهِبات ورفيع الدَّرجات؛ بحيث لا يَرَوْنَ فوق ما أعطاهم مولاهم غايةً ولا وراءه[٢] نهايةً، وأما مَنْ يزعُمُ أنَّه يؤمن باللّه واليوم الآخر، وهو مع ذٰلك موادٌّ لأعداء اللّه محبٌّ لمن نَبَذَ[٣] الإيمان وراء ظهرِهِ؛ فإنَّ هٰذا إيمانٌ زعميٌّ لا حقيقة له؛ فإنَّ كلَّ أمرٍ لا بدَّ له من برهانٍ يصدِّقه؛ فمجرَّدُ الدعوى لا تفيدُ شيئاً ولا يصدَّقُ صاحبها. والحمد للّه[٤].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا[٥] وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
الْفَاسِقِينَ ۝٥ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ
الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ

---

(١) في (ب): «ولهم أكبر النعيم وأفضله». (٢) في (ب): «فوقه».

(٣) في (ب): «ترك».

(٤) في (ب): «تمّ تفسير: قد سمع الله. بحمد الله وعونه وتسديده. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمدٍ وسلم تسليماً».

(٥) في (أ) إلى آخر ما ذكر الله من قصتهم، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾. ثم قال: إلى آخر القصة.

مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾
لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ
لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا
كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ
خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هٰذه السورة تُسمَّى سورة بني النضير، وهم طائفةٌ كبيرةٌ من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ، فلمَّا بُعث النبيُّ ﷺ[1] وهاجر إلى المدينة؛ كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فهادن النبيُّ ﷺ طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعةِ بدرٍ بستة أشهر أو نحوها؛ خرج إليهم النبيُّ ﷺ، وكلَّمهم أن يعينوه في دِيَةِ الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضَّمْريُّ، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم! اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك! فخلا بعضهم ببعض، وسوَّل لهم الشيطانُ الشقاء الذي كُتِبَ عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، فقالوا[2]: أيُّكم يأخُذُ هٰذه

(١) في (ب): «فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود».

(٢) في (ب): «وقالوا».

الرحى فيصعد[1] فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلامُ بن مشكمٍ: لا تفعلوا؛ فوالله؛ لَيُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنَّه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه.

وجاء الوحي على الفور إليه من ربِّه بما همُّوا به، فنهض مسرعاً، فتوجَّه إلى المدينة، ولحقه أصحابُه، فقالوا: نهضتَ ولم نشعرْ بك! فأخبرهم بما همَّتْ يهودُ به، وبعث إليهم رسولُ الله ﷺ أنِ اخْرُجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلْتُكم عشراً؛ فمن وجدتُ بعد ذٰلك؛ ضربتُ عُنُقه. فأقاموا أياماً يتجهَّزون، وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبيٍّ بن سلول أن لا تخرجوا من دياركم؛ فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصُرُكم قريظةُ وحلفاؤكم من غطفان. وطمع رئيسهم حييُّ بن أخطبَ فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنَّا لا نخرج من ديارنا؛ فاصنعْ ما بدا لك! فكبَّر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحملُ اللواء، وأقاموا على حصونهم يرمون بالنَّبْل والحجارة، واعتزلتهم قريظةُ، وخانهم ابنُ أبيٍّ وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلَهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرجُ من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريِّهم وأنَّ لهم ما حملتْ إبِلُهم إلَّا السلاحَ. وقبض رسولُ الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصةً لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمِّسْها؛ لأن الله أفاءها عليه ولم يوجِفِ المسلمون عليها بخيل ولا ركابٍ، وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حييُّ بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضةً وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هٰذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير[2].

﴿١﴾ فافتتح تعالى هٰذه السورة بالإخبار أنَّ جميع مَن في السماوات والأرض تسبِّح بحمد ربِّها وتنزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله وتعبُدُه وتخضعُ لعظمتِهِ[3]؛ لأنه العزيز الذي قد قهر كلَّ شيء؛ فلا يمتنعُ عليه شيءٌ، ولا يستعصي عليه عسيرٌ[4]، الحكيم

---

(١) في (ب): «ويصعد».

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٥٧)، و«الطبقات» لابن سعد (٢/ ٥٧).

(٣) في (ب): «لجلالته». (٤) في (ب): «مستعصٍ».

في خلقِهِ وأمرِهِ؛ فلا يخلُقُ شيئاً عبثاً، ولا يُشرِّعُ ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

﴿٢﴾ ومن ذٰلك نصرُه لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غَدَروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي أَلِفوها وأحبوها، وكان إخراجهم منها أولَ حشرٍ وجلاءٍ كتبه الله عليهم على يد رسولِه محمدٍ ﷺ، فجلوا إلى خيبر. ودلَّت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاءً غير هٰذا؛ فقد وقع حين أجلاهم النبيُّ ﷺ من خيبر، ثم عمرُ رضي الله عنه أخرج بقيتهم منها. ﴿ما ظننتُم﴾: أيها المسلمون ﴿أن يخرُجوا﴾: من ديارهم؛ لحصانتها ومنعتها وعزِّهم فيها، ﴿وظنوا أنهم مانعتُهم حصونُهم من اللهِ﴾: فأعجبوا بها، وغرَّتْهم، وحسبوا أنهم لا يُنالون بها، ولا يقدِرُ عليها أحدٌ، وقدَرُ الله وراء ذٰلك كلِّه، لا تغني عنه الحصونُ والقلاعُ ولا تجدي فيه[1] القوةُ والدفاع، ولهٰذا قال: ﴿فأتاهمُ اللهُ من حيثُ لم يحتسِبوا﴾؛ أي: من الأمر والباب الذي لم[2] يخطر ببالهم أن يُؤتَوا منه، وهو أنَّه تعالى: ﴿قَذَفَ في قلوبِهِم الرعبَ﴾: وهو الخوف الشديدُ، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عددٌ ولا عدةٌ ولا قوةٌ ولا شدةٌ؛ فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنُّون أنَّ الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصَّنوا بها واطمأنتْ نفوسُهم إليها، ومن وَثِقَ بغير الله؛ فهو مخذولٌ، ومن ركن إلى غير الله؛ كان وبالاً عليه[3]، فأتاهم أمرٌ سماويٌّ نزل على قلوبهم، التي هي محلُّ الثبات والصبر أو الخور والضعف، فأزال قوَّتها وشدَّتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً لا حيلة لهم في دفعه[4]، فصار ذٰلك عوناً عليهم، ولهٰذا قال: ﴿يُخرِبونَ بيوتَهم بأيديهِم وأيدي المُؤمنينَ﴾، وذٰلك أنَّهم صالحوا النبيَّ ﷺ على أنَّ لهم ما حملتِ الإبلُ، فنقضوا لذٰلك كثيراً من سقوفهم التي استحسنوها، وسلَّطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارِهم وهدم حصونِهم، فهم الذين جَنَوا على أنفسهم وصاروا أكبر[5] عونٍ عليها. ﴿فاعْتَبِروا يا أولي الأبصارِ﴾؛ أي: البصائر النافذة والعقول الكاملة؛ فإنَّ في هٰذا معتبراً يُعْرَف به صنع الله [تعالى] في المعاندين للحقِّ، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزَّتهم ولا مَنَعَتْهم قوتُهم ولا حصَّنتهم

(١) في (ب): «فيهم».
(٢) في (ب): «لا».
(٣) في (ب): «فهو عليه وبال».
(٤) في (ب): «لا حيلة لهم ولا منعة معه».
(٥) في (ب): «من أكبر».

حصونهم، حين جاءهم أمرُ الله؛ وصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم المعنى[١] لا بخصوص السبب؛ فإنَّ هٰذه الآية تدلُّ على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على ما يشابهه[٢]، والتفكُّر فيما تضمَّنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محلُّ العقل والفكرة، وبذٰلك يكمُلُ[٣] العقل، وتتنور البصيرة، ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقيُّ.

﴿٣﴾ ثم أخبر تعالى أنَّ هٰؤلاء اليهود لم يصِبْهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفَّف عنهم، فلولا أنه كتبَ عليهم الجلاءَ الذي أصابهم وقضاه عليهم [وقدره] بقدره الذي لا يُبَدَّلُ ولا يُغَيَّرُ؛ لكان لهم شأنٌ آخر من عذاب الدُّنيا ونَكالها، ولٰكنهم وإن فاتهم العذابُ الشديد الدنيويُّ؛ فإنَّ لهم في الآخرة عذابَ النار الذي لا يمكن أن يعلم شدَّته إلَّا الله؛ فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم [قد] انقضتْ وفرغتْ ولم يبقَ لهم منها بقيةٌ؛ فما أعدَّ الله لهم من العذابِ في الآخرة أعظم وأطمُّ.

﴿٤﴾ و﴿ذٰلك﴾ لأنَّهم ﴿شاقُّوا اللهَ ورسولَه﴾: وعادَوْهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهٰذه سنته وعادته فيمن شاقَّه. ﴿ومن يُشاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شديدُ العقابِ﴾.

﴿٥﴾ ولما لام بنو النضير رسولَ الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذٰلك من الفساد وتوصلوا بذٰلك[٤] إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أنَّ قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إيَّاه إن أبقَوْه؛ أنه بإذنه [تعالى] وأمره، ﴿ولِيُخزِيَ الفاسقين﴾: حيث سلَّطكم على قطع نخلهم وتحريقها؛ ليكون ذٰلك نكالاً لهم وخزياً في الدُّنيا وذلاً يُعرف به عجزُهم التامُّ الذي ما قدروا على استنقاذ نخلهم الذي هو[٥] مادة قوتهم. واللِّينة تشمل[٦] سائرَ النخيل على أصحِّ الاحتمالات وأولاها؛ فهٰذه حال بني النضير وكيف عاقبهم الله [تعالى] في الدُّنيا.

﴿٦﴾ ثم ذكر مَن انتقلت إليه أموالُهم وأمتعتُهم، فقال: ﴿وما أفاء اللهُ على رسولِهِ منهم﴾؛ أي: من أهل هٰذه القرية، وهم بنو النضير، ﴿فـ﴾: إنَّكم يا معشر المسلمين، ﴿ما أوجَفْتُم عليه من خيل ولا ركابٍ﴾؛ أي: ما أجلبتم وحشدتم[٧]؛

---

(١) في (ب): «اللفظ».
(٢) في (ب): «على مثله».
(٣) في (ب): «يزداد».
(٤) في (ب): «به».
(٥) في (ب): «التي هي».
(٦) في (ب): «واللينة اسم يشمل».
(٧) في (ب): «ما أوجفتم؛ أي: أجلبتم وأسرعتم وحشدتم عليه من خيل ولا ركاب».

أي: لم تتعبوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعبَ، فأتتكم صفواً عفواً، ولهٰذا قال: ﴿ولٰكنَّ الله يسلِّطُ رسله على من يشاءُ واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: من تمام قدرته أنَّه لا يمتنع عليه[١] ممتنعٌ ولا يتعزَّز من دونه قويٌّ.

﴿٧﴾ وتعريف الفيء باصطلاح الفقهاء: هو ما أخِذَ من مال الكفار بحقٍّ من غير قتال؛ كهٰذا المال الذي فرُّوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسُمِّي فيئاً؛ لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقِّين له إلى المسلمين الذين لهم الحقُّ الأوفر فيه. وحكمه العامُّ كما ذكره الله بقوله[٢]: ﴿ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ من أهلِ القُرى﴾: عموماً، سواء كان في وقت الرسول[٣] أو بعده على مَن تَوَلَّى من بعدِهِ من أمَّته، ﴿فللهِ وللرسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل﴾: وهٰذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال[٤]، وهي قوله[٥]: ﴿واعلموا أنَّما غَنِمْتُم من شيءٍ فأنَّ لله خُمُسَه وللرسول ولذي القُربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ﴾؛ فهٰذا الفيء يُقسم خمسة أقسام: لله ولرسوله يُصْرَفُ في مصالح المسلمين العامة. وخمسٌ لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ حيث كانوا، يسوَّى فيه بين ذكورهم وإناثهم، وإنَّما دخل بنو المطَّلب في خمس الخمس مع بني هاشم ولم يدخُلْ بقية بني عبد مناف؛ لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعبَ حين تعاقدتْ قريشٌ على هجرهم[٦] وعداوتهم، فنصروا[٧] رسولَ الله ﷺ؛ بخلاف غيرهم، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ في بني عبد المطلب: «إنَّهم لم يفارِقوني في جاهليَّة ولا إسلام»[٨]. وخمسٌ لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغْ. وخمسٌ للمساكين. وخمسٌ[٩] لأبناء السبيل، وهم الغرباء المنقطَع بهم في غير أوطانهم.

وإنَّما قدَّر الله هٰذا التقدير وحصر الفيء في هٰؤلاء المعيَّنين؛ لكي ﴿لا يكونَ

(١) في (ب): «منه».
(٢) في (ب): «في قوله».
(٣) في (ب): «سواء أفاء الله في وقت رسوله».
(٤) آية: (٤١).
(٥) في (ب): «في قوله».
(٦) في (ب): «حين تعاقدت على هجرهم قريش».
(٧) في (ب): «ونصروا».
(٨) كما في «المسند» (٤/ ٨١)، والنسائي (٧/ ١٣١)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٥/ ٧٨).
(٩) في (ب): «وسهم».

دُولَةً﴾؛ أي: مداولةً واختصاصاً ﴿بين الأغنياءِ منكم﴾: فإنَّه لو لم يقدِّره؛ لتداولته الأغنياءُ الأقوياء، ولما حَصَلَ لغيرهم من العاجزين منه شيءٌ، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله؛ كما أنَّ في اتِّباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلِّيَّة والأصل العام، فقال: ﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فخذوهُ وما نَهاكم عنهُ فانتهوا﴾: وهذا شاملٌ لأصول الدين وفروعه ظاهره وباطنه، وأنَّ ما جاء به الرسول يتعيَّن على العباد الأخذ به واتِّباعه، ولا تحلُّ مخالفته، وأنَّ نصَّ الرسول على حكم الشيء كنصِّ الله تعالى؛ لا رخصةَ لأحدٍ ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحدٍ على قوله. ثم أمر بتقواه التي بها عِمارةُ القلوب والأرواح والدُّنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوزُ العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبديُّ والعذاب السرمديُّ، فقال: ﴿واتَّقوا الله إنَّ الله شديدُ العقابِ﴾: على من ترك التقوى وآثر اتِّباع الهوى.

﴿٨ ـ ٩﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى أموال[1] الفيء لمن قدَّرها له، وأنَّهم حقيقون بالإعانة، مستحقُّون لأن تُجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين؛ قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال رغبةً في الله ونصرةً لدين الله ومحبةً لرسول الله؛ فهؤلاء هم الصادقون؛ الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدَّقوا إيمانَهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقَّة؛ بخلاف مَنِ ادَّعى الإيمان وهو لم يصدِّقه بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار، وهم الأوس والخزرج، الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبةً واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوَّءوا دار الهجرة والإيمان، حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون؛ إذ كانت البلدانُ كلُّها بلدانَ حربٍ وشركٍ وشرٍّ، فلم يزل أنصارُ الدين يأوون[2] إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي وجعل يزداد[3] شيئاً فشيئاً، [وينمو قليلاً قليلاً] حتى فتحوا القلوبَ بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدانَ بالسيف والسنان، الذين من جُملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يحبُّون مَن هاجَر إليهم﴾، وهذا لمحبَّتهم لله ورسوله، أحبُّوا أحبابه، وأحبُّوا من نصر دينه. ﴿ولا يجِدونَ في صدورهم حاجةً مما أوتوا﴾؛ أي: لا

---

(١) في (ب): «لجعله تعالى الأموال أموال الفيء».

(٢) في (ب): «تأوي». (٣) في (ب): «يزيد».

يحسُدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضلهِ وخصَّهم به من الفضائل والمناقب الذين[١] هم أهلها.

وهٰذا يدلُّ على سلامة صدورهم وانتفاء الغلِّ والحقد والحسد عنها، ويدلُّ ذٰلك على أنَّ المهاجرين أفضل من الأنصار؛ لأنَّ الله قدَّمهم بالذِّكر، وأخبر أنَّ الأنصارَ لا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا، فدلَّ على أنَّ الله تعالى آتاهم ما لم يؤتِ الأنصارَ ولا غيرهم، ولأنَّهم جمعوا بين النصرة والهجرة، وقوله: ﴿ويؤثِرونَ على أنفسِهِم ولو كان بهم خَصاصةٌ﴾؛ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم وتميَّزوا بها عمَّن سواهم الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحابِّ النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغيرِ، مع الحاجة إليها، بل مع الضَّرورة والخَصاصة، وهٰذا لا يكون إلا من خُلُقٍ زكيٍّ ومحبَّة لله تعالى مقدَّمة على [محبة] شهوات النفس ولذَّاتها. ومن ذٰلك قصَّة الأنصاريِّ[٢] الذي نزلت الآية بسببه حين آثر ضيفَه بطعامه وطعام أهله وأولادِهِ وباتوا جياعاً.

والإيثار عكس الأثَرَةِ؛ فالإيثارُ محمودٌ، والأثَرَةُ مذمومةٌ؛ لأنَّها من خصال البخل والشحِّ، ومن رُزِق الإيثار؛ فقد وُقِيَ شُحَّ نفسِه، ﴿ومَن يوقَ شُحَّ نفسهِ فأولٰئك همُ المفلحونَ﴾: ووقايةُ شحِّ النفس يشمل وقايتها الشحَّ في جميع ما أمر[٣] به؛ فإنَّه إذا وُقِيَ العبدُ شحَّ نفسه؛ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً منشرحاً بها صدرُه، وسمحت نفسه بترك ما نهى اللهُ عنه، وإنْ كان محبوباً للنفس؛ تدعو إليه وتطلَّع إليه، وسمحتْ نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاءِ مرضاتِه، وبذٰلك يحصُلُ الفلاح والفوزُ؛ بخلاف مَنْ لم يوقَ شحَّ نفسه، بل ابْتُلِيَ بالشُّحِّ بالخير الذي هو أصل الشرِّ ومادته.

﴿١٠﴾ فهٰذان[٤] الصنفان الفاضلان الزكيَّان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سَبَقوا به مَن بعدَهم وأدركوا به مَن قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتَّقين، وحسب من بعدهم من الفضل أن يسيرَ خلفَهم ويأتمَّ بهُداهم، ولهٰذا ذكر الله من اللاحقين مَن هو مؤتمٌّ بهم [وسائر خلفهم]، فقال: ﴿والذين جاؤوا من بعدِهم﴾؛ أي: من بعد

---

(١) في (ب): «التي».
(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) في (ب). «أمرت».
(٤) في (ب): «فهؤلاء».

المهاجرين والأنصارِ، ﴿يقولون﴾: على وجه النُّصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿ربَّنا اغْفِرْ لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقونا بالإيمانِ﴾: وهٰذا دعاءٌ شاملٌ لجميع المؤمنين من السابقين من الصحابة ومَن قبلَهم ومَن بعدهم، وهٰذا من فضائل الإيمان؛ أنَّ المؤمنين ينتفعُ بعضُهم ببعض ويدعو بعضُهم لبعض؛ بسبب المشاركةِ في الإيمان، المقتضي لعقد الأخوَّة بين المؤمنين، التي من فروعها أن يدعوَ بعضُهم لبعض، وأن يحبَّ بعضُهم بعضاً، ولهٰذا ذكر الله في هٰذا الدعاء نفي الغلِّ عن القلب، الشامل لقليلِه[1] وكثيرِه، الذي إذا انتفى؛ ثبت ضدُّه، وهو المحبَّة بين المؤمنين[2] والموالاة والنصح ونحو ذٰلك مما هو من حقوق المؤمنين، فوصفَ الله مَن بعد الصحابة بالإيمان؛ لأنَّ قولهم: ﴿سَبَقونا بالإيمان﴾: دليلٌ على المشاركة فيه[3]، وأنَّهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هٰذا الوصف التامُّ إلَّا عليهم، وَوَصَفَهم بالإقرار بالذُّنوب والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض واجتهادهم في إزالة الغلِّ والحقدِ [عن قلوبهم] لإخوانهم المؤمنين؛ لأنَّ دعاءهم بذٰلك مستلزمٌ لما ذكرنا ومتضمِّنٌ لمحبَّة بعضهم بعضاً، وأنْ يحبَّ أحدُهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، وأن ينصحَ له حاضراً وغائباً حيًّا وميتاً.

ودلَّت الآية الكريمة على أنَّ هٰذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض. ثم ختموا دعاءهم باسمينِ كريمينِ دالَّين على كمال رحمة الله وشدَّة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته: بل [من] أَجَلِّه توفيقُهم للقيام بحقوقه[4] وحقوق عباده.

فهٰؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هٰذه الأمة، وهم المستحقُّون للفيء، الذي مصرفه راجعٌ إلى مصالح الإسلام، وهٰؤلاء أهله الذين هم أهلُه، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

﴿١١﴾ ثم تعجَّب تعالى من حال المنافقين، الذين طمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنَّهم يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ معكم ولا نُطيعُ فيكم أحداً أبداً﴾؛ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذِلُنا أو يخوِّفنا، ﴿وإن[5] قوتِلْتُم لننصُرَنَّكم واللهُ يشهدُ إنَّهم لَكاذبونَ﴾: في هٰذا الوعد الذي غرُّوا به إخوانهم، ولا يستكثرُ هٰذا عليهم؛ فإنَّ الكذبَ وصفهم،

---

(١) في (ب): «للمؤمنين».
(٢) في (ب): «الشامل لقليل الغل وكثيره».
(٣) في (ب): «في الإيمان».
(٤) في (ب): «بحقوق الله».
(٥) في (ب): «ولئن».

والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم.

﴿١٢﴾ ولهٰذا كذَّبهم الله بقوله الذي وُجِدَ مخبرُه كما أخبر به ووقع طِبْقَ ما قال، فقال: ﴿لَئِنْ أُخرِجوا﴾؛ أي: من ديارهم جلاءً ونفياً ﴿لا يخرُجون معهم﴾: لمحبَّتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بالوعد[1]، ﴿ولَئِن قوتلوا لا يَنصُرونهم﴾: بل يستولي عليهم الجبنُ ويملكهم الفشل ويَخْذُلون إخوانَهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿ولئِن نَصَروهم﴾: على الفرض والتقدير[2]، ﴿لَيُوَلُّنَّ الأدبارَ ثم لا يُنصرون﴾؛ أي: سيحصل[3] منهم الإدبار عن القتال والنُّصرة، ولا يحصُل لهم نصرٌ من الله.

﴿١٣﴾ والسبب الذي حملهم على[4] ذٰلك أنَّكم أيُّها المؤمنون ﴿أشدُّ رهبةً في صدورِهِم من اللهِ﴾: فخافوا منكم أعظم ممَّا يخافون الله، وقدَّموا مخافَة المخلوق الذي لا يملك لنفسه [ولا لغيره] نفعاً ولا ضرًّا على مخافة الخالق الذي بيده الضرُّ والنفع[5] والعطاء والمنع. ﴿ذٰلك بأنَّهم قومٌ لا يفقهون﴾: مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصوَّرون العواقب، وإنَّما الفقه كلُّ الفقه أن يكون خوفُ الخالق ورجاؤه ومحبَّته مقدمةً على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ ﴿لا يقاتِلونَكم جميعاً﴾؛ أي: في حال الاجتماع ﴿إلَّا في قرىً محصَّنةٍ أو من وراءِ جُدُرٍ﴾؛ أي: لا يثبتون على قتالكم[6] ولا يعزِمون عليه إلَّا إذا كانوا متحصِّنين في القرى أو من وراء الجدر والأسوار؛ فإنهم إذ ذاك ربَّما يحصُل منهم امتناعٌ اعتماداً على حصونهم وجُدُرهم لا شجاعةً بأنفسهم، وهٰذا من أعظم الذَّمِّ. ﴿بأسُهُم بينَهم شديدٌ﴾؛ أي: بأسهم فيما بينهم شديدٌ، لا آفة في أبدانهم ولا في قوَّتهم، وإنَّما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كَلِمَتهم، ولهٰذا قال: ﴿تحسَبُهُم جميعاً﴾: حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين، ﴿و﴾ لٰكن ﴿قلوبُهم شتَّى﴾؛ أي: متباغضة متفرِّقة متشتِّتة. ﴿ذٰلك﴾: الذي أوجب لهم اتِّصافهم بما ذُكِرَ ﴿بأنَّهم قومٌ لا يعقلونَ﴾؛ أي: لا عقل عندهم ولا لبَّ؛ فإنَّهم لو كانت لهم عقولٌ؛ لآثروا الفاضل على المفضول، ولَما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطَّتين،

---

(١) في (ب): «بوعدهم».
(٢) في (ب): «على ضرب المثل».
(٣) في (ب): «ليحصل».
(٤) في (ب): «أوجب لهم».
(٥) في (ب): «النفع والضر».
(٦) في (ب): «لقتالكم».

ولكانت كلمتُهم مجتمعةً وقلوبهم مؤتلفةً؛ فبذلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحهم [ومنافعهم] الدينيَّة والدنيويَّة؛ مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقَهم الخزيَ في الحياة الدنيا، وعدمَ نصرِ مَنْ وعدَهم بالمعاونة.

﴿١٥﴾ ﴿كمثل الذين من قبلِهِم قريباً﴾: وهم كفارُ قريش، الذين ﴿زيَّن لهمُ الشَّيطانُ أعمالهم، وقال: لا غالِبَ لَكُمُ اليومَ من النَّاس، وإنِّي جَارٌ لكم، فَلَمَّا تَراءتِ الفئتانِ؛ نكص على عقبيهِ[١]، وقَالَ: إنِّي بَرِيءٌ منكم، إنِّي أرى ما لا تَرَوْنَ﴾! فغرَّتهم أنفسهم، وغرَّهم مَن غرَّهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا بدراً بفخرهم وخُيَلائِهم، ظانِّين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم، فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا مَن أسروا منهم، وفرَّ من فرَّ، وذاقوا بذلك وبالَ أمرِهم وعاقبةَ شِركهم وبغيهم. هذا في الدُّنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذابُ النارِ.

﴿١٦﴾ ومَثَلُ هؤلاء المنافقين الذين غرُّوا إخوانهم من أهل الكتاب، ﴿كمَثَل الشيطان إذ قال للإنسانِ اكْفُرْ﴾؛ أي: زيَّن له الكفر وحسَّنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر وحصل له الشقاء لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه بل تبرَّأ منه، ﴿وقال إني بريءٌ منك إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين﴾؛ أي: ليس لي قدرةٌ على دفع العذاب عنك، ولستُ بمغنٍ عنك مثقال ذرَّةٍ من الخير.

﴿١٧﴾ ﴿فكان عاقِبَتَهما﴾؛ أي: الداعي الذي هو الشيطان والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه، ﴿أنهما في النار خالدَيْنِ فيها﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يدعو حزبَه ليكونوا من أصحابِ السعيرِ﴾. ﴿وذلك جزاءُ الظالمين﴾: الذين اشتركوا في الظُّلم والكفر، وإن اختلفوا في شدَّة العذاب وقوته. وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائِه؛ فإنَّه يَدعوهم ويدلِّيهم بغرور إلى ما يضرُّهم[٢]، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاق[٣] بهم أسبابُ الهلاك؛ تبرأ منهم وتخلَّى عنهم، واللَّوم كلُّ اللَّوم على من أطاعه؛ فإنَّ الله قد حذَّر منه وأنذر، وأخبرَ بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدِم على طاعته عاصٍ على بصيرةٍ لا عذر له.

---

(١) في (ب): «ذكر الآية حتى عقبيه، وقال: الآية».
(٢) في (ب): «ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور».
(٣) في (ب): «وحاقت».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

﴿١٨﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًّا وعلانيةً في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامرِهِ وشرائعهِ وحدودِهِ، وينظُروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرُّهم في يوم القيامةِ؛ فإنَّهم إذا جعلوا الآخرة نصبَ أعينهم وقبلةَ قلوبهم، واهتمُّوا للمقام[1] بها؛ اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيتها من القواطع والعوائق، التي توقِفُهم عن السير أو تَعوقُهم أو تصرِفهم، وإذا علموا أيضاً أنَّ ﴿الله خبيرٌ بما﴾: يعملون، لا تخفى عليه أعمالُهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها؛ أوجب لهم الجدَّ والاجتهاد.

وهٰذه الآية الكريمةُ أصلٌ في محاسبة العبد نفسَه، وأنَّه ينبغي له أن يتفقَّدها؛ فإنْ رأى زللاً؛ تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله؛ بذل جهدَه واستعانَ بربِّه في تتميمه وتكميله[2] وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيرِهِ؛ فإن ذٰلك يوجب له الحياء لا[3] محالة.

﴿١٩﴾ والحرمانُ كلُّ الحرمان أن يغفل العبد عن هٰذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله، وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فُرُطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغُبِنوا غبناً لا يمكن تداركه ولا يُجبر كسرُه؛ لأنهم ﴿هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة ربِّهم، وأوضعوا في معاصيه.

---

(١) في (ب): «بالمقام».
(٢) في (ب): «تكميله وتتميمه».
(٣) في (ب): «بلا».

﴿٢٠﴾ فهل يستوي مَنْ حافظ على تقوى الله، ونظر لما قدَّم لغده فاستحقَّ جناتِ النعيم والعيش السليم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصالحين، ومن غَفَل عن ذكره ونسي حقوقَه فشقي في الدُّنيا، واستحقَّ العذاب في الآخرة؛ فالأوَّلون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

﴿٢١﴾ ولمَّا بيَّن تعالى لعباده ما بيَّن، وأمر عباده[1] ونهاهم في كتابه العزيز؛ كان هٰذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثَّهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي؛ فإنَّ هٰذا القرآن لو أنزله **﴿على جبل؛ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾**؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب؛ فإنَّ مواعظَ القرآن أعظمُ المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتويةٌ على الحكم والمصالح المقرونة بها وهي من أسهل شيء على النفوس وأيسرها على الأبدان، خاليةٌ من التكلُّف[2]، لا تناقض فيها ولا اختلاف ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلُحُ لكل زمانٍ ومكانٍ، وتليقُ لكلِّ أحدٍ. ثم أخبر تعالى أنه يضرِبُ للناس الأمثال، ويوضِّح لعباده [في كتابه] الحلال والحرام؛ لأجل أن يتفكَّروا في آياته ويتدبَّروها؛ فإنَّ التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبيِّن له طرق الخير والشرِّ، ويحثُّه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم، ويزجرُه عن مساوىء الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القرآن والتدبُّر لمعانيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ هٰذه الآياتُ الكريماتُ قد اشتملت[3] على كثيرٍ من أسماء الله الحسنى وأوصافه العُلى؛ عظيمة الشأن، وبديعة البرهان. فأخبر أنَّه **﴿الله﴾**: المألوه المعبودُ الذي **﴿لا إله إلَّا هو﴾**: وذٰلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العامِّ، وكلُّ إله غيره[4]؛ فإنَّه باطلٌ لا يستحقُّ من العبادة مثقال ذرَّةٍ؛ لأنه فقيرٌ عاجزٌ ناقصٌ لا يملك

---

(١) في (ب): «وأمرهم».
(٢) في (ب): «وأقلها تكلُّفاً».
(٣) في (ب): «اشتملن».
(٤) في (ب): «سواه».

لنفسه ولا لغيره شيئاً. ثم وصف نفسه بعموم العلم، الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه. وبعموم رحمته، التي وسعتْ كلَّ شيء، ووصلتْ إلى كلِّ حيٍّ.

﴿٢٣﴾ ثم كرَّر ذِكْر عموم إلٰهيَّته وانفراده بها، وأنَّه المالك لجميع الممالك؛ فالعالَم العلويُّ والسفليُّ وأهله، الجميع مماليكُ لله فقراءُ مدَبَّرون. ﴿القدُّوسُ السلامُ﴾؛ أي: المقدَّس السالم من كل عيبٍ [وآفة] ونقص المعظَّم الممجَّد؛ لأنَّ القدوس يدلُّ على التنزيه من كل نقص والتعظيم لله في أوصافه وجلاله. ﴿المؤمن﴾؛ أي: المصدِّق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به بالآيات البيِّنات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. ﴿العزيز﴾: الذي لا يغالَب ولا يمانَع، بل قد قهر كلَّ شيءٍ، وخضع له كلُّ شيءٍ. ﴿الجبار﴾: الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائرُ الخلق، الذي يجبرُ الكسيرَ ويغني الفقير. ﴿المتكبِّر﴾: الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزِّه عن جميع العيوب والظُّلم والجور. ﴿سبحان الله عمَّا يشركونَ﴾: وهٰذا تنزيهٌ عامٌّ عن كلِّ ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿٢٤﴾ ﴿هو اللهُ الخالقُ﴾: لجميع المخلوقات. ﴿البارىء﴾: للمبروءات. ﴿المصوِّر﴾: للمصوَّرات. وهٰذه الأسماء متعلِّقةٌ بالخلق والتدبير والتقدير، وأنَّ ذٰلك كله قد انفرد الله به لم يشارِكْه فيه مشاركٌ. ﴿له الأسماءُ الحسنى﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة جدًّا، التي لا يُحصيها ولا يعلمها أحدٌ إلا هو[1]، ومع ذٰلك؛ فكلُّها حسنى؛ أي: صفات كمال، بل تدلُّ على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجهٍ من الوجوه، ومن حسنها أنَّ الله يحبُّها ويحبُّ من يحبُّها ويحبُّ من عباده أن يدعوه ويسألوه بها[2]. ومن كماله وأنَّ له الأسماء الحسنى والصفات العليا أنَّ جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدَّوام؛ يسبِّحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمتُه وحكمتُه. ﴿وهو العزيزُ الحكيم﴾: الذي لا يريد شيئاً إلَّا ويكون، ولا يكوِّن شيئاً إلَّا لحكمةٍ ومصلحةٍ.

تم تفسير هٰذه السورة[3].

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «الله».
(٢) في (ب): «أن يدعوه بها ويسألوه».
(٣) في (ب): «تم تفسير سورة الحشر. فلله الحمد على ذلك والمنّة والإحسان».

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ[(١)] تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

ذكَرَ كثيرٌ من المفسِّرين رحمهم الله أنَّ سبب نزول هٰذه الآيات الكريمات في قصَّة حاطب بن أبي بلتعة؛ حين غزا النبيُّ ﷺ غزاة الفتح[(٢)]، فكتب حاطبٌ إلى المشركين[(٣)] من أهل مكَّة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم؛ ليتَّخذ بذٰلك يداً

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿ومن يتولهم منكم فأولٰئك هم الظالمون﴾، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿فأولٰئك هم الظالمون﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) في (ب): «قريش».

عندهم، لا شكًّا ونفاقاً، وأرسله مع امرأةٍ، فأُخْبِرَ النبيُّ ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها، وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطباً، فاعتذر بعذرٍ[١] قبله النبيُّ ﷺ.

وهٰذه الآيات فيها النهيُ الشديد عن موالاة الكفَّار من المشركين وغيرهم وإلقاءِ المودَّةِ إليهم، وأنَّ ذٰلك منافٍ للإيمان ومخالفٌ لملَّة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقضٌ للعقل الذي يوجِبُ الحذر كلَّ الحذر من العدوِّ الذي لا يُبقي من مجهوده في العداوة شيئاً وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوِّه.

﴿١﴾ فقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾؛ أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولايةِ مَنْ قام بالإيمان ومعاداة من عاداه؛ فإنَّه عدوٌّ لله وعدوٌّ للمؤمنين، فـ﴿لا تتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياءَ تُلْقون إليهم بالمودَّة﴾؛ أي: تسارعون في مودَّتهم والسعي في أسبابها؛ فإنَّ المودَّة إذا حصلت؛ تبعتْها النصرةُ والموالاةُ، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران [وانفصل عن أهل الإيمان]. وهٰذا المتَّخذُ للكافر وليًّا عادمُ المروءة أيضاً؛ فإنَّه كيف يوالي أعدى أعدائه، الذي لا يريد له إلَّا الشرَّ، ويخالف ربَّه ووليَّه الذي يريد به الخير، ويأمره به ويحثُّه عليه. ومما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار أنَّهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحقِّ، ولا أعظم من هٰذه المخالفة والمشاقَّة؛ فإنَّهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنَّكم ضلَّالٌ على غير هدىً، والحالُ أنَّهم كفروا بالحقِّ الذي لا شكَّ فيه ولا مريةَ، ومن ردَّ الحقَّ؛ فمحالٌ أن يوجد له دليلٌ أو حجَّةٌ تدلُّ على صحة قوله. بل مجرَّد العلم بالحقِّ[٢] يدلُّ على بطلان قول من ردَّه وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنَّهم ﴿يُخْرِجون الرسولَ وإيَّاكم﴾: أيُّها المؤمنون من دياركم ويشرِّدونكم من أوطانكم ولا ذنبَ لكم في ذٰلك عندهم إلَّا أنكم تؤمنون ﴿بالله ربِّكم﴾: الذي يتعيَّن على الخلق كلِّهم القيام بعبوديَّته؛ لأنَّه ربَّاهم، وأنعم عليهم بالنِّعم الظاهرة والباطنة [وهو اللّٰه تعالى]، فلمَّا أعرضوا عن هٰذا الأمر الذي هو أوجبُ الواجبات وقمتُم به؛ عادَوْكم وأخرجوكم من أجله من دياركم، فأيُّ دين وأيُّ مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هٰذا وصفُهم في كلِّ زمانٍ

(١) في (ب): «فاعتذر ـ رضي الله عنه ـ عذراً».
(٢) في (ب): «بل مجرد ردِّ الحق».

أو[١] مكان، ولا يمنعهم منه إلَّا خوفٌ أو مانعٌ قويٌّ. ﴿إن كنتُم خرجتُم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾؛ أي: إن كان خروجُكم مقصودُكم به الجهادُ في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وابتغاء رضاه[٢]؛ فاعملوا بمقتضى هٰذا من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائهِ؛ فإنَّ هٰذا من أعظم الجهاد[٣] في سبيله، ومن أعظم ما يتقرَّب به المتقرِّبون إلى الله ويبتغون به رضاه.

﴿تُسِرُّون إليهم بالمودَّةِ وأنا أعلمُ بما أخفيتُم وما أعلنتُم﴾؛ أي: كيف تسرُّون المودَّة للكافرين وتخفونها مع علمكم أنَّ الله عالمٌ بما تخفون وما تعلنون؛ فهو وإن خفي على المؤمنين؛ فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشرِّ. ﴿ومن يَفْعَلْه منكم﴾؛ أي: موالاة الكافرين بعدما حذَّركم الله منها، ﴿فقد ضلَّ سواءَ السبيل﴾: لأنَّه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانيَّة.

﴿٢﴾ ثم بيَّن تعالى شدَّة عداوتهم تهييجاً للمؤمنين على عداوتهم: ﴿إن يَثْقَفوكم﴾؛ أي: يجدوكم وتسنح لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يكونوا لكم أعداءً﴾: ظاهرين، ﴿ويَبْسُطوا إليكم أيدِيَهم﴾: بالقتل والضَّرب ونحو ذٰلك، ﴿وألسنَتَهم بالسوءِ﴾؛ أي: بالقول الذي يسوء من شَتْمٍ وغيره، ﴿وودُّوا لو تكفُرون﴾: فإنَّ هٰذا غاية ما يريدون منكم.

﴿٣﴾ فإن احتجَجْتُم وقلتُم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال؛ فلن تغنيَ عنكم أَموالُكم ولا أولادُكم من الله شيئاً ﴿والله بما تعملون بصيرٌ﴾ فلذٰلك حذَّركم من موالاة الكافرين الذين تضرُّكم موالاتهم.

﴿٤﴾ ﴿قد﴾ كان ﴿لكم﴾: يا معشر المؤمنينَ، ﴿أسوةٌ حسنةٌ﴾؛ أي: قدوةٌ صالحةٌ وائتمامٌ ينفعكم ﴿في إبراهيم والذين معه﴾: من المؤمنين؛ لأنَّكم قد أمرتم أن تتَّبعوا ملَّة إبراهيم حنيفاً، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا بُرءَاءُ منكم وممَّا تعبُدون من دونِ اللهِ﴾؛ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومَنْ معه من المؤمنين من قومهم المشركين وممَّا يعبُدون من دون الله، ثم صرَّحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كَفَرْنا بكم وبدا﴾؛ أي: ظهر وبان ﴿بينَنا وبينَكم العداوةُ والبغضاءُ﴾؛ أي: البغض

---

(١) في (ب): «و».

(٢) في (ب): «مرضاة الله».

(٣) في (ب): «فإن هذا هو الجهاد».

بالقلوب وزوال مودَّتها والعداوة بالأبدان. وليس لتلك العداوة والبغضاء وقتٌ ولا حدٌّ، بل ذٰلك ﴿أبداً﴾ ما دمتم مستمرِّين على كفركم، ﴿حتى تؤمِنوا بالله وحدَه﴾؛ أي: فإذا آمنتم بالله وحده؛ زالت العداوةُ والبغضاءُ وانقلبتْ مودَّةً وولايةً؛ فلكم أيُّها المؤمنون أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد ولوازم[1] ذٰلك ومقتضياته وفي كلِّ شيءٍ تَعَبَّدُوا به لله وحده، ﴿إلاَّ﴾: في خصلةٍ واحدةٍ، وهي: ﴿قولَ إبراهيمَ لأبيه﴾: آزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمانِ والتوحيدِ، فامتنع، فقال إبراهيمُ له: ﴿لأستغفرنَّ لك و﴾: الحال أني لا ﴿أملِكُ لك من اللهِ من شيءٍ﴾: ولٰكنّي أدعو ربِّي عسى أن لا أكونَ بدعاءِ ربِّي شقيًّا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هٰذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا[2]: إنَّا في ذٰلك متَّبِعون لملَّة إبراهيم؛ فإنَّ الله ذَكَرَ عذرَ إبراهيم في ذٰلك بقوله: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلَّا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاه فلمَّا تَبيَّنَ له أنَّه عدوٌّ لله تبرَّأ منه[3] ...﴾ الآية، ولكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم ومن معه حين دَعَوُا الله وتوكَّلوا عليه وأنابوا إليه واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربَّنا عليك توكَّلْنا﴾؛ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرُّنا ووثقنا بك يا ربَّنا في ذٰلك، ﴿وإليك أَنَبْنا﴾؛ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرِّبُ إليك؛ فنحن في ذٰلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنَّا إليك نصيرُ، فسنستعدُّ للقدوم عليك، ونعمل ما يزلفنا إليك[4].

﴿٥﴾ ﴿ربَّنا لا تجعَلْنا فتنةً للذين كفروا﴾؛ أي: لا تسلِّطْهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتتنون أيضاً بأنفسهم؛ فإنَّهم إذا رأوا لهم الغلبة؛ ظنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفِرْ لنا﴾: ما اقترفنا من الذُّنوب والسيئات وما قصَّرْنا به من المأمورات. ﴿ربَّنا إنَّك أنت العزيز﴾: القاهر لكلِّ شيءٍ. ﴿الحكيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فبعزَّتك[5] وحكمتك انصُرْنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلِحْ عيوبنا.

---

(١) في (ب): «والقيام بلوازم». (٢) في (ب): «وتقولون».
(٣) في (ب): «أتم الآية وهي: ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾».
(٤) في (ب): «ما يقربنا زلفى إليك». (٥) في (ب): «فمن عزَّتك».

﴿٦﴾ ثم كرَّر الحثَّ لهم على[1] الاقتداء بهم وقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ﴾: وليس كلُّ أحدٍ تسهُلُ عليه هٰذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ﴾: فإنَّ الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسهِّل على العبد كلَّ عسير، ويقلِّل لديه كلَّ كثير، ويوجِبُ له [الإكثار مِن] الاقتداء بعباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين؛ فإنَّه يرى نفسه مفتقراً [و] مضطرًّا إلى ذٰلك غاية الاضطرار، ﴿ومن يتولَّ﴾: عن طاعة الله والتأسِّي برسل الله؛ فلن يضرَّ إلَّا نفسه، ولا يضرُّ الله شيئاً، ﴿فإنَّ الله هو الغنيُّ﴾: الذي له الغنى التامُّ المطلقُ من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه بوجه. ﴿الحميدُ﴾: في ذاته [وأسمائه] وصفاته وأفعاله؛ فإنَّه محمود على ذٰلك كله.

﴿٧﴾ ثم أخبر تعالى أنَّ هٰذه العداوة التي أمَرَ [اللَّهُ] بها المؤمنين للمشركين ووصفهم بالقيام بها؛ أنَّهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنَّهم إن انتقلوا إلى الإيمان؛ فإنَّ الحكم يدور مع علته، والمودَّة[2] الإيمانيَّة ترجع؛ فلا تيأسوا أيُّها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان؛ ﴿فعسى اللهُ أن يجعلَ بينكم وبينَ الذين عادَيْتُم منهم مودةً﴾: سببها رجوعهم إلى الإيمان. ﴿والله قديرٌ﴾: على كلِّ شيءٍ، ومن ذٰلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال. ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾: لا يتعاظمُهُ ذنبٌ أن يغفِرَه ولا [يكبر عليه] عيبٌ أن يستُرَه، ﴿قلْ يا عبادي الذين أسْرَفوا على أنفسِهِم لا تَقْنَطوا من رحمةِ الله إنَّ اللهَ يغفرُ الذُّنوب جميعاً إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ﴾. وفي هٰذه الآية إشارةٌ وبشارةٌ بإسلام[3] بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذٰلك، ولله الحمد والمنة.

﴿٨﴾ ولمَّا نزلت هٰذه الآيات الكريمات المهيِّجةُ على عداوة الكافرين؛ وقعتْ من المؤمنين كلَّ موقع، وقاموا بها أتمَّ القيام، وتَأَثَّموا من صِلَةِ بعض أقاربهم المشركين، وظنُّوا أنَّ ذٰلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذٰلك لا يدخُلُ في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكُمُ الله عن الذين لم يقاتِلوكم في الدِّينِ ولم يُخرِجُوكم من ديارِكُم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم إنَّ الله يحبُّ المقسِطينَ﴾؛ أي: لا ينهاكم الله عن البرِّ والصِّلة والمكافأة بالمعروف والقسطِ للمشركين من أقاربكم

---

(١) في (ب): «ثم كرَّر الحث على».
(٢) في (ب): «فإنَّ المودة».
(٣) في (ب): «إلى إسلام».

وغيرهم؛ حيث كانوا بحالٍ لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم؛ فليس عليكم جناحٌ أن تَصِلوهم؛ فإنَّ صِلَتَهم في هذه الحالة لا محذورَ فيها ولا تَبِعَةَ[١]؛ كما قال تعالى في الأبوين الكافرين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جاهَداك على أن تشرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطِعْهما وصاحِبْهما في الدُّنيا معروفاً﴾.

﴿٩﴾ وقوله: ﴿إنَّما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتَلوكم في الدِّين﴾؛ أي: لأجل دينكم؛ عداوةً لدين الله ولِمَنْ قام به، ﴿وأخرَجوكم من دِياركم وظاهَروا﴾؛ أي: عاونوا غيرهم ﴿على إخراجِكم﴾: نهاكم الله ﴿أن تَوَلَّوهم﴾: بالنصرة والمودَّة بالقول والفعل، وأما بِرُّكم وإحسانُكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين؛ فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخلٌ في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم، ﴿ومن يَتَوَلَّهم﴾ منكم ﴿فأولئك هم الظالمونَ﴾: وذلك الظلمُ يكون بحسب التولِّي؛ فإنْ كان تولياً تامًّا؛ كان ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظٌ وما هو دونه[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ[٣] ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ لما كان صلح الحديبية؛ صالَحَ النبيُّ ﷺ المشركين على أنَّ مَن جاء منهم إلى المسلمين مسلماً؛ أنَّه يردُّ إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عامًّا مطلقاً يدخل في عمومه النساء والرجال، فأمَّا الرجال؛ فإنَّ الله لم ينه رسولَه عن ردِّهم إلى الكفار[٤] وفاءً بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأمَّا النساءُ؛ فلمَّا كان ردُّهنَّ فيه مفاسد كثيرةٌ؛ أمرَ المؤمنين إذا جاءهم ﴿المؤمناتُ مهاجراتٍ﴾: وشَكُّوا في صدق إيمانهنَّ أن يمتحنوهنَّ ويختبروهنَّ بما يظهر به من صدقهنَّ من

---

(١) في (ب): «ولا مفسدة». (٢) في (ب): «دون ذلك».
(٣) في (أ) إلى قوله: ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.
(٤) في (ب): «المشركين».

أيمانٍ مغلظةٍ وغيرها؛ فإنَّه يُحتمل أن يكون إيمانُها غيرَ صادقٍ، بل رغبةً في زوج أو بلدٍ أو غير ذٰلك من المقاصد الدنيويّة؛ فإنْ كُنَّ بهٰذا الوصف؛ تعيَّن ردُّهنَّ وفاءً بالشرط من غير حصول مفسدةٍ؛ وإن امتحنوهنَّ فوجدنَ صادقاتٍ، أو علموا ذٰلك منهنَّ من غير امتحانٍ؛ فلا يَرْجِعوهنَّ إلى الكفار. ﴿**لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّون لهنَّ**﴾: فهٰذه مفسدةٌ كبيرةٌ [في ردهنَّ] راعاها الشارع وراعى أيضاً الوفاء بالشرط؛ بأن يُعطوا الكفار أزواجهنَّ ما أنفقوا عليهنَّ من المهر وتوابعه عوضاً عنهنَّ، ولا جناح حينئذٍ على المسلمين أن ينكحوهنَّ، ولو كان لهنَّ أزواجٌ في دار الشرك، ولٰكن بشرطِ أن يؤتوهنَّ أجورهنَّ من المهر والنفقة، وكما أنَّ المسلمة لا تحلُّ[١] للكافر؛ فكذٰلك الكافرة لا تحلُّ للمسلم [أن يمسكها] ما دامت على كفرها؛ غير أهل الكتاب، ولهٰذا قال تعالى: ﴿**ولا تُمسِكوا بعِصَم الكَوافِرِ**﴾. وإذا نهي عن الإمساك بعصمتها؛ فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿**واسألوا ما أنفقتم**﴾: أيُّها المؤمنون حين ترجِعُ زوجاتكم مرتداتٍ إلى الكفار؛ فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم؛ استحقَّ المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار.

وفي هٰذا دليلٌ على أنَّ خُروجَ البُضْع من الزوج متقوَّمٌ؛ فإذا أفسد مفسدٌ نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره؛ كان عليه ضمانُ المهرِ.

وقوله: ﴿**ذٰلكم حكم الله**﴾؛ أي: ذٰلكم الحكم الذي ذكره الله وبيَّنه لكم حكمُ الله؛ بيَّنه لكم ووضَّحه[٢]. ﴿**والله عليمٌ حكيمٌ**﴾: فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام، فيشرعه بحسب حكمته ورحمته[٣].

﴿١١﴾ وقوله: ﴿**وإن فاتَكم شيءٌ من أزواجِكم إلى الكفَّار**﴾: بأن ذهبنَ مرتدَّاتٍ، ﴿**فعاقبتُم فآتوا الذين ذهبتْ أزواجُهم مثل ما أنفقوا**﴾: كما تقدَّم أنَّ الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين؛ فمن ذهبت زوجتُه من المسلمين إلى الكفار، وفاتت عليه؛ فعلى المسلمين أن يعطوه[٤] من الغنيمة بدل ما أنفق. ﴿**واتَّقوا الله الذي أنتم به مؤمنونَ**﴾: فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدَّوام.

---

(١) في (ب): «لا يحل».
(٢) في (ب): «وبينه لكم يحكم به بينكم».
(٣) في (ب): «ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة».
(٤) في (ب): «لزم أن يعطيه المسلمون».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ[١] يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿١٢﴾ هٰذه الشروط المذكورة في هٰذه الآية تسمَّى مبايعة النساء، اللاتي كنَّ يبايِعْنَ على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذُّكور والنساء في جميع الأوقات، وأما الرجال؛ فيتفاوتُ ما يلزمُهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعيَّن عليهم، فكان النبيُّ ﷺ يمتثل ما أمره الله [به]، فكان إذا جاءته النساءُ يبايِعْنَه والتزمن بهٰذه الشروط؛ بايَعَهُنَّ وجَبَرَ قلوبَهُنَّ، واستغفر لهنَّ الله فيما يحصل منهنَّ من التقصير[٢] وأدخلهنَّ في جملة المؤمنين، ﴿على أن لا يُشْرِكنَ بالله شيئاً﴾: بل يفرِدْنَ الله وحده بالعبادة، ﴿ولا يَقْتُلْنَ أولادهنَّ﴾: كما يجري لنساء الجاهليَّة الجهلاء، ﴿ولا يَزْنينَ﴾: كما كان ذٰلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين ببُهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ وأرجُلهنَّ﴾: والبهتان الافتراء على الغير؛ أي: لا يفترين بكلِّ حالة، سواءً أتعلَّقت بهنَّ مع أزواجهنَّ[٣] أو تعلَّق ذٰلك بغيرهم، ﴿ولا يَعْصينَكَ في معروفٍ﴾؛ أي: لا يعصينك في كلِّ أمرٍ تأمرهنَّ به؛ لأنَّ أمرك لا يكون إلَّا بمعروفٍ، ومن ذٰلك طاعتهنَّ لك في النهي عن النياحة وشقِّ الجيوب وخمش الوجوه والدُّعاء بدعوى[٤] الجاهلية، ﴿فبايِعْهُنَّ﴾: إذا التزمنَ بجميع ما ذُكِر، ﴿واستَغْفِرْ لهنَّ اللهَ﴾: عن تقصيرهنَّ وتطييباً لخواطرهنَّ. ﴿إنَّ الله غفورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين. ﴿رحيمٌ﴾: وسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ وعمَّ إحسانُه البَرايا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾.

﴿١٣﴾ أي: يا أيُّها المؤمنون إن كنتُم مؤمنين بربِّكم، ومتَّبعين لرضاه، ومجانبين لسخطه، ﴿لا تَتَوَلَّوا قوماً غضب الله عليهم﴾: وإنَّما غضب عليهم لكفرهم، وهٰذا شاملٌ لجميع أصناف الكفار، ﴿قد يَئِسوا من الآخرةِ﴾؛ أي: قد حُرِموا من خير

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.
(٢) في (ب): «من التقصير منهن». (٣) في (ب): «تعلّقت بهن وأزواجهن».
(٤) في (ب): «بدعاء».

الآخرة، فليس لهم منها نصيبٌ؛ فاحذروا أن تَتَوَلَّوهم فتوافقوهم على شرِّهم وشركهم[١]، فتُحرموا خير الآخرة كما حُرِمُوا. وقوله: ﴿كما يئِس الكفَّار من أصحاب القبور﴾: حين أفضوا إلى الدار الآخرة، وشاهدوا[٢] حقيقة الأمر، وعلموا علم اليقين أنَّهم لا نصيب لهم منها.

ويُحتمل أنَّ المعنى: قد يئسوا من الآخرة؛ أي: قد أنكروها وكفروا بها؛ فلا يُسْتَغربُ حينئذٍ منهم الإقدام على مساخط الله وموجباتِ عذابِه، وإياسهم من الآخرة كما يئس الكفارُ المنكرون للبعث في الدُّنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسيرها. والله أعلم[٣].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الصف

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ③﴾.

﴿١﴾ وهٰذا بيانٌ لعظمته تعالى وقهره وذلِّ جميع الأشياء[٤] له تبارك وتعالى وأنَّ جميع مَن في السماوات والأرض يسبِّحون بحمدِ ربِّهم ويعبُدونه ويسألونَه حوائجهم. ﴿وهو العزيزُ﴾: الذي قهر الأشياء بعزَّته وسلطانِهِ. ﴿الحكيمُ﴾: في خلقه وأمره.

﴿٢ ـ ٣﴾ ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لم تقولونَ ما لا تفعلونَ﴾؛ أي: لم تقولونَ الخير وتحثُّون عليه، وربما تمدَّحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتَنْهَوْنَ عن الشرِّ، وربَّما نزَّهتم أنفسكم عنه وأنتم متلوِّثون متَّصفون[٥] به؛ فهل تليقُ بالمؤمنين هٰذه الحالة الذَّميمة؟! أم من أكبر المقت عند الله أن يقولَ العبدُ ما لا يفعل؟! ولهٰذا ينبغي

---

(١) في (ب): «وكفرهم».
(٢) في (ب): «ووقفوا على».
(٣) في (ب): «تم تفسير سورة الممتحنة. والحمد لله رب العالمين».
(٤) في (ب): «الخلق».
(٥) في (ب): «متلوثون به ومتصفون به».

للآمر بالخير أن يكونَ أولَ الناس إليه مبادرةً، والناهي عن الشرِّ أن يكون أبعدَ الناس عنه[1]؛ قال تعالى: ﴿أتأمرونَ الناس بالبِرِّ وتَنسَوْنَ أنفسَكم وأنتُم تتلونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلونَ﴾، وقال شعيبٌ عليه السلام [لقومه]: ﴿وما أريدُ أن أخالِفَكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿٤﴾ هٰذا حثٌّ من الله لعباده على الجهاد في سبيله، وتعليمٌ لهم كيف يصنعون، وأنهم[2] ينبغي لهم أن يَصُفُّوا في الجهاد صفًّا متراصًّا متساوياً من غير خلل يحصُلُ في الصفوف، وتكون صفوفُهم على نظام وترتيبٍ به تحصُلُ المساواة بين المجاهدين والتعاضُد وإرهاب العدوِّ وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهٰذا كان النبيُّ ﷺ إذا حضر القتال؛ صفَّ أصحابه ورتَّبهم[3] في مواقفهم بحيث لايحصُلُ اتِّكالُ بعضهم على بعض، بل تكون[4] كلُّ طائفةٍ منهم مهتمةً بمركزها وقائمةً بوظيفتها، وبهٰذه الطريقة تتمُّ الأعمال ويحصُلُ الكمال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ أي: ﴿وإذْ قال موسى لقومِهِ﴾: موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيَّته، وهم يعلمون أنَّه رسول الله: ﴿لمِ تُؤذونَني﴾: بالأقوال والأفعال، ﴿وقد تعلمونَ أنّي رسولُ الله إليكم﴾: والرسولُ من حقِّه الإكرام والإعظام والقيام بأوامره[5] والابتدار لحكمِهِ، وأمَّا أذيَّة الرسول الذي إحسانُه إلى الخلق فوق كلِّ إحسان بعد إحسان الله؛ ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد عَلِموه وتَرَكوه، ولهٰذا قال: ﴿فلمَّا زاغوا﴾؛ أي: انصرفوا عن الحقِّ بقصدهم، ﴿أزاغَ الله قلوبَهم﴾: عقوبةً لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفِّقْهم الله للهدى؛ لأنَّهم لا يَليقُ بهم الخير ولا يَصلُحون إلَّا للشرِّ. ﴿والله لا يهدي القومَ الفاسقينَ﴾؛ أي: الذينَ لم يزلِ الفسقُ وصفاً لهم،

---

(١) في (ب): «منه». (٢) في (ب): «وأنه».
(٣) كما جاء في غزوة بدر الكبرى. أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٠).
(٤) في (ب): «يكون». (٥) في (ب): «والانقياد لأوامره».

ليس لهم قصد[1] في الهدى. وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده ليس ظلماً منه ولا حجّة لهم عليه، وإنَّما ذٰلك بسببٍ منهم؛ فإنَّهم[2] الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذٰلك بالإضلال[3] والزيغ وتقليب القلوب عقوبةً لهم وعدلاً منه بهم؛ كما قال تعالى: ﴿ونقلِّبُ أفئِدَتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمِنوا به أولَ مرةٍ ونَذَرُهم في طغيانِهم يعمهونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ[4] يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٦﴾ يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدِّمين الذين دعاهم عيسى بن مريم وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيلَ إنِّي رسولُ اللهِ إليكم﴾؛ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشرِّ، وأيَّدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدلُّ على صدقي كوني ﴿مصدِّقاً لما بين يديَّ من التَّوراة﴾؛ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماويَّة، ولو كنت مدَّعٍ للنبوَّةِ؛ لجئتُ بغير ما جاء به المرسلون، و ﴿مصدِّقاً لما بين يديَّ من التَّوراة﴾: أيضاً أنها أخبرت بي وبشَّرت، فجئتُ وبعثتُ مصدقاً لها، ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ﴾: وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب النبيُّ الهاشميُّ؛ فعيسى عليه الصلاة والسلام كسائر الأنبياء[5]؛ يصدِّق بالنبيِّ السابق، ويبشِّر بالنبيِّ اللاحق؛ بخلاف الكذَّابين؛ فإنَّهم يناقضون الأنبياء أشدَّ مناقضة، ويخالِفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمرِ والنهي، ﴿فلمَّا جاءهم﴾: محمدٌ ﷺ الذي بَشَّرَ به عيسى ﴿بالبيِّناتِ﴾؛ أي: الأدلَّة الواضحة الدالَّة على أنه هو، وأنَّه رسول الله حقًّا، ﴿قالوا﴾: معاندين للحقِّ مكذِّبين له: ﴿هٰذا سحرٌ مبينٌ﴾: وهٰذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته

---

(١) في (ب): «لا قصد لهم». (٢) في (ب): «وإنهم».
(٣) في (ب): «بالضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب».
(٤) في (أ) إلى قوله: «ولو كره المشركون»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.
(٥) في (ب): «كالأنبياء».

وصارتْ أبين من شمس النهار؛ يُجعل ساحراً بيِّناً سحره؛ فهل في الخذلان أعظم من هٰذا؟! وهل في الافتراء أبلغ[١] من هٰذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته وأثبتَ له ما كان أبعد الناس عنه[٢]؟!

﴿٧﴾ ﴿ومن أظلمُ ممَّنِ افترى على الله الكذب﴾: بهٰذا أو غيره والحال أنه لا عذر له وقد انقطعت حجته لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾: ويُبَيَّن له ببراهينه وبيناته، ﴿واللهُ لا يهدي القوم الظالمينَ﴾: الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردُّهم عنه موعظةٌ ولا يزجُرُهم بيانٌ ولا برهانٌ، خصوصاً هٰؤلاء الظَّلمة القائمين بمقابلة الحقِّ ليردُّوه، ولينصروا الباطل.

﴿٨﴾ ولهٰذا قال [اللّٰه] عنهم: ﴿يريدونَ لِيُطْفِئوا نورَ الله بأفواههم﴾؛ أي: بما يَصْدُرُ منهم من المقالات الفاسدة التي يردُّون بها الحقَّ، وهي[٣] لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفةً بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متمُّ نورِهِ ولو كَرِهَ الكافرونَ﴾؛ أي: قد تكفَّل الله بنصر دينه وإتمام الحقِّ الذي أرسل به رسلَه وإظهار[٤] نورِهِ في سائر الأقطار، ولو كَرِهِ الكافرونَ، وبَذَلوا بسبب كراهته كلَّ ما قدروا عليه مما يتوصَّلون[٥] به إلى إطفاء نور الله؛ فإنَّهم مغلوبون، ومَثَلُهم كمثل[٦] مَن ينفخ عين الشمس بفيه ليطفِئَها؛ فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمتْ عقولهم من النقص والقدح فيها.

﴿٩﴾ ثم ذكر سبب الظُّهور والانتصار للدين الإسلاميِّ الحسِّي والمعنويِّ، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى ودين الحقِّ﴾: أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدُّنيا والآخرة، ﴿ودين الحقِّ﴾؛ أي: الدين الذي يُدان به ويُتَعَبَّدُ لربِّ العالمين، الذي هو حقٌّ وصدقٌ لا نقص فيه ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاءُ القلوب والأرواح وراحةُ الأبدان، وترك نواهيه سلامةٌ من الشرِّ والفساد[٧]، فما بُعِثَ به النبيُّ ﷺ من الهدي ودين الحقِّ أكبر دليل وبرهان على

(١) في (ب): «أعظم».
(٢) في (ب): «منه».
(٣) في (ب): «التي».
(٤) في (ب): «وإشاعة».
(٥) في (ب): «وبذلوا بسبب كراهتهم كلَّ سببٍ يتوصَّلُون به».
(٦) في (ب): «وصاروا بمنزلة من ينفخ».
(٧) في (ب): «وترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد».

صدقِهِ، وهو برهانٌ باقٍ ما بقي الدهر، كلَّما ازداد به العاقل تفكُّراً؛ ازداد به فرحاً وتبصُّراً. ﴿ليظهِرَه على الدِّين كلِّه﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجَّة والبرهان، ويُظْهِرَ أهلَه القائمين به بالسيف والسِّنان.

فأمَّا نفس الدين؛ فهٰذا الوصف ملازمٌ له في كلِّ وقت، فلا يمكن أن يُغالِبَهُ مغالبٌ أو يخاصِمَهُ مخاصمٌ إلَّا فَلَجَه وبلسه، وصار له الظهورُ والقهرُ، وأمَّا المنتسبون إليه؛ فإنَّهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدَوْا بهديه في مصالح دينهم ودُنياهم؛ فكذٰلك لا يقوم لهم أحدٌ، ولا بدَّ أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيَّعوا واكتفَوْا منه بمجرَّد الانتساب إليه؛ لم ينفعْهم ذٰلك، وصار إهمالهم له سببَ تسليطِ الأعداء عليهم، ويَعْرِفُ هٰذا من استقرأ الأحوال والنظر[1] في أول المسلمين وآخرهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ[2] تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٠﴾ هٰذه وصيةٌ ودلالةٌ وإرشادٌ من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين لأعظم تجارةٍ وأجلِّ مطلوب وأعلى مرغوبٍ يحصل بها النجاة من العذاب الأليم والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالَّة على أنَّ هٰذا أمرٌ يرغب فيه كلُّ متبصِّر ويسمو إليه كل لبيبٍ.

﴿١١﴾ فكأنَّه قيل: ما هٰذه التِّجارة التي هٰذا قدرها؟ فقال: ﴿تؤمنون باللهِ ورسوله﴾: ومن المعلوم أنَّ الإيمان التامَّ هو التصديقُ الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، التي من[3] أجَلِّها الجهاد في سبيله[4]؛ فلهٰذا قال:

(١) في (ب): «نظر».
(٢) في (أ) إلى آخر السورة، وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٣) في (ب): «ومن».
(٤) في (ب): «سبيل الله».

﴿وتجاهدون في سبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفسِكم﴾؛ بأن تبذلوا نفوسكم ومُهَجَكُم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصدُ نصرُ دين الله وإعلاءُ كلمته، وتنفقون ما تيسَّر من أموالكم في ذلك المطلوب؛ فإنَّ ذلك وإنْ[1] كان كريهاً للنفوس شاقًّا عليها؛ فإنَّه ﴿خيرٌ لكم إن كنتُم تعلمون﴾: فإنَّ فيه الخير الدنيويَّ من النصر على الأعداء والعزَّ المنافي للذُّلِّ والرزق الواسع وسعة الصدر وانشراحه، والخير الأخروي بالفوز[2] بثواب الله والنجاة من عقابه.

﴿١٢﴾ ولهذا ذَكَرَ الجزاء في الآخرة فقال: ﴿يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم﴾: وهو[3] شاملٌ للصغائر والكبائر؛ فإنَّ الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفِّرٌ للذُّنوب، ولو كانت كبائر، ﴿ويـدخِـلْكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾؛ أي: من تحت مساكنها وقصورها وغُرَفِها وأشجارها أنهارٌ من ماءٍ غير آسن وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُه وأنهارٌ من خمر لذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسل مصفى ولهم فيها من كلِّ الثمرات، ﴿ومساكنَ طيِّبةً في جناتِ عدنٍ﴾؛ أي: جمعت كلَّ طيبٍ من علوٍّ وارتفاع وحسن بناءٍ وزخرفةٍ، حتَّى إنَّ أهل الغرف من أهل علِّيين يتراءاهم أهلُ الجنَّة كما يُتراءى[4] الكوكب الدُّرِّي في الأفق الشرقيِّ أو الغربيِّ، وحتَّى إنَّ بناء الجنَّة بعضُه من لَبِنِ ذهبٍ وبعضُه من لَبِنِ فضَّةٍ[5]، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزُّمُرُّد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنَّها من صفائها يُرى ظاهرُها من باطنها وباطنُها من ظاهرها، وفيها من الطيبِ والحُسن ما لا يأتي عليه وصفُ الواصفين ولا خَطَرَ على قلب أحدٍ من العالمين، لا يمكن أن يدرِكوه حتى يَرَوْه ويتمتَّعوا بحسنه، وتقرَّ به أعينُهم.

ففي تلك الحالة لولا أنَّ الله خَلَقَ أهل الجنَّة وأنشأهم نشأةً كاملةً لا تقبلُ العدم؛ لأوشك أن يموتوا من الفرح؛ فسبحان من لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني عليه أحدٌ من خلقه[6]، وتبارك الجليلُ الجميلُ، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقولَ الخلق ويأخُذُ بأفئِدتهم، وتعالى من له الحكمةُ التامَّة، الذي[7] من جملتها أنه لو

---

(١) في (ب): «ولو».
(٢) في (ب): «وفي الآخرة الفوز».
(٣) في (ب): «وهذا».
(٤) في (ب): «يتراءَون».
(٥) في (ب): «من لبن ذهب ولبن فضة».
(٦) في (ب): «وفوق ما يثني عليه عباده».
(٧) في (ب): «التي».

أرى العباد الجنَّة[١] ونظروا إلى ما فيها من النعيم؛ لما تخلَّف عنها أحدٌ، ولما هناهم العيش في هٰذه الدار المنغصة المَشوب نعيمها بألمها وفرحها[٢] بِتَرَحِها. وسُمِّيت [الجنة] جنَّة عدن؛ لأنَّ أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حِوَلاً. ذٰلك الثواب الجزيل والأجر الجميل هو الفوزُ العظيم الذي لا فوزَ مثله؛ فهٰذا الثواب الأخرويُّ.

﴿١٣﴾ وأما الثواب الدنيويُّ لهٰذه التجارة؛ فذكره بقوله: ﴿**وأخرى تحبُّونها**﴾؛ أي: ويحصُلُ لكم خَصْلَةٌ أخرى تحبُّونها، وهي: ﴿**نصرٌ من الله**﴾: لكم على الأعداء، يحصُلُ به العزُّ والفرح، ﴿**وفتحٌ قريبٌ**﴾: تتَّسع به دائرة الإسلام، ويحصُلُ به الرزق الواسع؛ فهٰذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد إذا قام غيرهم بالجهادِ؛ فلم يؤيِّسْهُمُ الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿**وبشِّرِ المؤمنينَ**﴾؛ أي: بالثواب العاجل والآجل؛ كلٌّ على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ رَضِي بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً؛ وجبتْ له الجنةُ». فعجب لها أبو سعيد الخدريُّ راوي الحديث، فقال: أعدها عليَّ يا رسول الله! فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يُرْفَعُ بها العبدُ مائة درجةٍ في الجنة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض». فقال: وما هي يا رسولَ الله؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله». رواه مسلم[٣].

﴿١٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا كونوا أنصارَ اللهِ**﴾؛ أي: بالأقوال والأفعال، وذٰلك بالقيام بدين الله، والحرص على تنفيذه[٤] على الغير وجهادِ مَنْ عانده ونابذه بالأبدان والأموال، ومَنْ نَصَرَ الباطلَ بما يزعمُه من العلم، وَرَدِّ الحقِّ بدحض حجَّته وإقامة الحجَّة عليه والتحذير منه، ومن نصرِ دين الله تعلُّم كتاب الله وسنَّة رسوله [وتعليمه] والحثُّ على ذٰلك والأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

ثم هيَّج الله المؤمنين بالاقتداء بمَنْ قبلَهم من الصالحين بقوله: ﴿**كما قال عيسى**

---

(١) في (ب): «أنه لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها».

(٢) في (ب): «وسرورها».

(٣) برقم (١٨٨٤) في (ب) جاء هذا الحديث: «إنَّ في الجنةِ مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله».

(٤) في (ب): «على إقامته».

ابنُ مريم للحواريِّينَ مَنْ أنصاري إلى الله﴾؛ أي: قال لهم منبهاً[١]: من يعاونني ويقوم معي في نصر دين الله[٢] ويَدْخُلُ مدخلي ويَخْرُجُ مخرجي؟ فابتدرَ الحواريُّون فقالوا: ﴿نحنُ أنصارُ اللهِ﴾: فمضى [عيسى] عليه السلام على [أمر اللَّه و] نصرِ دين الله هو ومن معه من الحواريِّين، ﴿فآمنتْ طائفةٌ من بني إسرائيلَ﴾: بسبب دعوة عيسى والحواريِّين، ﴿وكفرت طائفةٌ﴾: منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنونَ الكافرين، ﴿فأيَّدْنا الذين آمنوا على عَدُوِّهِم﴾؛ أي: قوَّيْناهم ونصرناهم عليهم، ﴿فأصبحوا ظاهرينَ﴾: عليهم، قاهرين لهم[٣]. فأنتم يا أمَّة محمدٍ! كونوا أنصارَ الله ودعاةَ دينه؛ يَنْصُرْكُم الله كما نَصَرَ مَنْ قبلكم، ويُظْهِرْكم على عدوِّكم.

تم تفسيرها. والحمد اللّه رب العالمين[٤].

❀ ❀ ❀

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿الملكِ القدوسِ العزيزِ الحكيم﴾؛ أي: يسبح لله وينقاد لأمره ويتألَّهه ويعبده جميعُ ما في السموات والأرض؛ لأنَّه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلويِّ والسفليِّ؛ فالجميعُ مماليكه وتحت تدبيره. القُدُّوس المعظَّم المنزَّه عن كل آفة ونقص. العزيز القاهر للأشياء كلِّها. الحكيم في خلقه وأمره؛ فهٰذه الأوصاف العظيمة تدعو[٥] إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له.

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) في (ب): «قال لهم عارضاً ومنهضاً».
(٢) في (ب): «نصرتي لدين الله».
(٣) في (ب): «وقاهرين».
(٤) في (ب): «تمّت ولله الحمد».
(٥) في (ب): «ممّا تدعو».

﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾.

﴿٢﴾ ﴿هو الذي بَعَثَ في الأمِّيِّين رسولاً﴾: المراد بالأمِّيِّين الذين لا كتاب عندهم ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ممَّن ليسوا من أهل الكتاب، فامتنَّ الله تعالى عليهم منَّةً عظيمةً أعظم من منَّته على غيرهم؛ لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ﴿ضلال مبين﴾؛ يتعبدون للأصنام والأشجار[١] والأحجار، ويتخلَّقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويُّهم ضعيفَهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولاً منهم يعرِفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يَتْلو عليهم آياتِهِ﴾: القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكِّيهم﴾: بأن يفصِّل لهم الأخلاق الفاضلة ويحثُّهم عليها[٢] ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة﴾؛ أي: علم الكتاب[٣] والسنة، المشتمل[٤] على علوم الأوَّلين والآخرين، فكانوا بعد هٰذا التعليم والتزكية من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين وأكمل الخلق أخلاقاً وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتدوا بأنفسهم، وهَدَوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين وقادة المتقين[٥]، فلله تعالى عليهم ببعثة[٦] هٰذا الرسول أكملُ نعمة وأجلُّ منحة.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وآخرين منهم لَمَّا يَلْحَقوا بهم﴾؛ أي: وامتنَّ على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأمِّيِّين ممَّن يأتي بعدهم ومن أهل الكتاب ﴿لما يلحقوا بهم﴾؛ أي: فيمن باشر[٧] دعوة الرسول؛ يحتمل أنَّهم لَمَّا يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لمَّا يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كلٍّ؛ فكلا المعنيين صحيحٌ؛ فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقَهم فيها.

﴿٤﴾ وهٰذا من عزَّته وحكمته؛ حيث لم يترك عباده هَمَلاً ولا سُدىً، بل ابتعث فيهم الرسل وأمرهم ونهاهم، وذٰلك من [فضل اللّٰه العظيم][٨] الذي يؤتيه مَن يشاءُ

---

(١) في (ب): «للأشجار والأصنام».
(٢) في (ب): «بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة ويفصلها لهم».
(٣) في (ب): «القرآن».
(٤) في (ب): «المشتمل ذلك».
(٥) في (ب): «وهداة المؤمنين».
(٦) في (ب): «ببعث».
(٧) في (ب): «باشروا».
(٨) في (أ): «بياض».

من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق وغير ذٰلك من النِّعم الدُّنيوية؛ فلا أفضل من نعمة الدين التي هي مادة الفوز والسعادة الأبديَّة.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا[(١)] بِئْسَ مَثَلُ
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ
أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ
ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

﴿٥﴾ لمَّا ذكر تعالى[(٢)] منَّته على هٰذه الأمة الذين بَعَثَ[(٣)] فيهم النبيَّ الأميَّ وما خصَّهم الله [به] من المزايا والمناقب التي لا يلحقهم فيها أحدٌ، وهم الأمة الأميَّة، الذين فاقوا الأوَّلين والآخرين، حتى أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدِّمون؛ ذكر أن الذين حمَّلهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى وأمرهم أن يتعلَّموها ويعملوا بها فلم يحملوها[(٤)] ولم يقوموا بما حُمِّلوا به؛ أنَّهم لا فضيلة لَهم، وأنَّ مَثَلَهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً من كتب العلم؛ فهل يستفيد ذٰلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟! وهل تلحقه[(٥)] فضيلةٌ بسبب ذٰلك؟! أم حظُّه منها حملها فقط؟ فهٰذا مَثَلُ علماء أهل الكتاب[(٦)]، الذين لم يعملوا بما في التوراة الذي من أجلِّه وأعظمه الأمر باتِّباع محمدٍ ﷺ والبشارة به والإيمان بما جاء به من القرآن؛ فهل استفاد مَن هٰذا وصفه من التوراة إلَّا الخيبة والخسران وإقامة الحجَّة عليه؛ فهٰذا المثل مطابقٌ لأحوالهم. ﴿بئس مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا﴾ بآياتنا الدالَّة على صدق رسولنا وصحة[(٧)] ما جاء به ﴿والله لا يَهْدي القوم الظالمين﴾؛ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً.

﴿٦﴾ ومن ظلم اليهود وعنادهم أنَّهم يعلمون أنَّهم على باطل ويزعمون أنَّهم

---

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾. وفي (ب) ذكر الآياتِ كاملةً.
(٢) في (ب): «لما ذكر الله منته». (٣) في (ب): «ابتعث».
(٤) في (ب): «بما فيها وأنهم لم يحملوها».
(٥) في (ب): «وهل يلحق به». (٦) في (ب): «مثل علماء اليهود».
(٧) في (ب): «صدق».

على حقٍّ، وأنَّهم أولياء لله من دون الناس! ولهٰذا أمر الله رسوله أن يقولَ لهم: إن كنتُم صادقين في زعمِكُم أنَّكم على الحقِّ وأولياء الله؛ ﴿فتمنَّوُا الموتَ﴾: وهٰذا أمرٌ خفيفٌ؛ فإنَّهم لو علموا أنَّهم على حقٍّ؛ لما توقَّفوا عن هٰذا التحدِّي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تَمَنَّوْه و(١) كَذِبِهم إن لم يَتَمَنَّوْه.

﴿٧﴾ ولمَّا لم يقعْ منهم مع الإعلانِ لهم بذٰلك؛ عُلِمَ أنَّهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهٰذا قال: ﴿ولا يَتَمَنَّوْنَه أبداً بما قدَّمت أيديهم﴾؛ أي: من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿واللهُ عليمٌ بالظالمين﴾: فلا يمكن أن يَخْفى عليه من ظلمهم شيءٌ.

﴿٨﴾ هٰذا؛ وإن كانوا لا يَتَمَنَّوْنَ الموت بما قدَّمت أيديهم، بل يفرُّون(٢) منه غايةَ الفرار؛ فإنَّ ذٰلك لا يُنجيهم، بل لابدَّ أن يُلاقيهم الموتُ الذي قد حَتَّمه الله على العباد [وكتبه عليهم]، ثم بعد الموت واستكمال الآجال يُرَدُّ الخَلْقُ كلُّهم يوم القيامةِ إلى عالم الغيب والشهادة، فينبِّئهم بما كانوا يعملون من خيرٍ وشرٍّ قليل وكثيرٍ(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ(٤) وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين يُنادى لها والسعي إليها، والمراد بالسَّعْي هنا المبادرة [إليها] والاهتمام لها وجعلها أهمَّ الأشغال، لا العدو الذي قد نُهِيَ عنه عند المضيِّ إلى الصلاة. وقوله: ﴿وذَروا البيعَ﴾؛ أي: اتركوا البيع إذا نودي للصلاة وامضوا إليها؛ فإنَّ ﴿ذٰلكم(٥) خيرٌ لكم﴾: من اشتغالكم بالبيع، أو(٦) تفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من آكدِ

---

(١) في (ب): «أو».
(٢) في (ب): «ويفرُّون».
(٣) في (ب): «من قليلٍ وكثيرٍ وخيرٍ وشرٍّ».
(٤) في (أ) إلى آخر السورة، وفي (ب) ذكر الآيات إلى نهاية السورة.
(٥) في (ب): «ذلك».
(٦) في (ب): «و».

الفروض ﴿إن كنتُم تعلمون﴾: أن ما عند الله خيرٌ وأبقى، وأنَّ مَنْ آثر الدُّنيا على الدين؛ فقد خسر الخسارة الحقيقيَّة؛ من حيث يظنُّ[١] أنَّه يربح.

﴿١٠﴾ وهٰذا الأمر بترك البيع موقَّت مدَّة الصلاة؛ ﴿فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشروا في الأرض﴾: لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال بالتجارة[٢] مَظِنَّةَ الغفلة عن ذكر الله؛ أمر الله بالإكثار من ذكره؛ لينجبر بهٰذا، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً﴾؛ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لعلَّكم تفلحون﴾: فإنَّ الإكثار من ذِكْر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿١١﴾ ﴿وإذا رَأَوْا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها﴾؛ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذٰلك اللهو وتلك التجارة وتركوا الخير، ﴿وتركوكَ قائماً﴾: تخطُبُ الناس، وذٰلك في يوم الجمعة، بينما النبيُّ ﷺ يخطب الناس؛ إذ قَدِمَ المدينةَ عيرٌ تحمل تجارةً، فلمَّا سمع الناس بها وهم في المسجد؛ انفضُّوا من المسجد[٣]، وتركوا النبيَّ ﷺ يخطبُ استعجالاً لما لا ينبغي أن يُستعجل له وترك أدب، ﴿قل ما عندَ الله﴾: من الأجر والثواب لمن لازم الخير وصَبَّرَ نفسَه على عبادة الله[٤]، ﴿خيرٌ من اللهوِ ومن التجارةِ﴾: التي وإن حَصَلَ منها بعض المقاصد؛ فإنَّ ذٰلك قليلٌ منقضٍ[٥]، مفوتٌ لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق؛ ﴿فإنَّ الله خير الرازقين﴾؛ فمن اتَّقى الله؛ رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هٰذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أنَّ الجمعة فريضةٌ على [جميع] المؤمنين يجب عليهم السعيُ إليها[٦] والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أنَّ الخطبتين يوم الجمعة فريضةٌ[٧] يجب حضورهما؛ لأنَّه فسَّر الذِّكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضيِّ إليه والسعي له.

ومنها: مشروعيَّة النداء للجمعة[٨] والأمر به.

---

(١) في (ب): «ظنَّ».
(٢) في (ب): «في التجارة».
(٣) كما في «صحيح البخاري» (٨٩٩)، ومسلم (٨٦٣).
(٤) في (ب): «عبادة ربِّه».
(٥) في (ب): «منغص».
(٦) في (ب): «لها».
(٧) في (ب): «فريضتان».
(٨) في (ب): «ليوم الجمعة».

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة وتحريم ذٰلك، وما ذاك إلَّا لأنَّه يفوِّتُ الواجبَ ويَشْغَلُ عنه[١]، فدلَّ ذٰلك على أنَّ كلَّ أمر وإنْ[٢] كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجبٍ؛ فإنَّه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين[٣] يوم الجمعة، وذمُّ مَنْ لم يحضُرْهما[٤]، ومن لازِمِ ذٰلك الإنصاتُ لهما[٥].

ومنها: أنَّه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات، أن يُذَكِّرَها بما عند الله من الخيرات وما لمؤثِرِ رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة بمن الله وعونه.

والحمد لله ربِّ العالمين[٦].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة المنافقين

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ[٧] وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

---

(١) في (ب): «يشغل ويفوِّتُ الواجبَ».
(٢) في (ب): «ولو».
(٣) في (ب): «الخطبة».
(٤) في (ب): «لم يحضرْها».
(٥) في (ب): «لها».
(٦) في (ب): «تم تفسير سورة الجمعة. ولله الحمد والثناء».
(٧) في (أ) إلى قوله: «إن الله لا يهدي القوم الفاسقين»، وفي (ب) ذكر الآيات.

لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ لمَّا قدم النبيُّ ﷺ المدينة، وكَثُرَ الإسلام فيها وعزَّ[1]؛ صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج يظهِرون الإيمان ويبطِنون الكفر؛ ليبقى جاهُهم وتُحْقَنَ دماؤهم وتَسْلَم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يُعرفون؛ لكي يحذر العباد منهم ويكونوا منهم على بصيرةٍ، فقال: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا**﴾: على وجه الكذب: ﴿**نشهدُ إنَّك لرسولُ اللهِ**﴾: وهٰذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنَّه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإنَّ الله ﴿**يعلمُ إنَّك لرسوله واللهُ يشهدُ إنَّ المنافقين لَكاذبونَ**﴾: في قولهم ودعواهم، وأنَّ ذٰلك ليس بحقيقة منهم.

﴿٢﴾ ﴿**اتَّخذوا أيمانَهم جُنَّة**﴾؛ أي: ترساً يتترَّسون بها من نسبتهم إلى النفاق، فصدُّوا عن سبيله بأنفسهم، وصدُّوا غيرهم ممَّن يخفى عليه حالُهم. ﴿**إنَّهم ساء ما كانوا يعملونَ**﴾: حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وأقسموا على ذٰلك وأوهموا صدقهم.

﴿٣﴾ ﴿**ذٰلك**﴾: الذي زين لهم النفاق، ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنَّهم**﴾ لا يَثْبُتون على الإيمان، بل ﴿**آمنوا ثم كفروا فَطُبِعَ على قلوبهم**﴾: بحيث لا يدخلها الخيرُ أبداً. ﴿**فهم لا يَفْقَهون**﴾: ما ينفعهم ولا يَعونَ ما يعودُ بمصالحهم.

﴿٤﴾ ﴿**وإذا رأيتَهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم**﴾: من روائها ونضارتها، ﴿**وإن يقولوا تَسْمَعْ لقولِهم**﴾؛ أي: من حسن منطقهم تستلذُّ لاستماعه؛ فأجسامُهم وأقوالُهم معجبةٌ، ولكن ليس وراء ذٰلك من الأخلاق الفاضلة والهَدي الصالح شيءٌ، ولهٰذا قال: ﴿**كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ**﴾: لا منفعة فيها ولا يُنال منها إلَّا الضَّرر المحض. ﴿**يَحْسَبون كلَّ صيحةٍ عليهم**﴾: وذٰلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبِهم ورَيْبها[2]؛ يخافون أن يُطَّلع عليها؛ فهٰؤلاء ﴿**هم العدو**﴾ على الحقيقة؛ لأنَّ العدوَّ البارز[3] المتميِّز أهونُ من العدوِّ الذي لا يشعَر به، وهو مخادعٌ ماكرٌ، يزعم أنَّه وليٌّ، وهو العدو المبين. ﴿**فاحذَرهم قاتَلَهُمُ الله أنَّى يُؤْفَكونَ**﴾؛ أي: كيف يُصْرَفُون عن الدين الإسلاميِّ بعدما تبينت أدلَّته واتَّضحت معالمه إلى الكفر الذي لا يُفيدهم إلَّا الخسار والشقاء.

---

(١) في (ب): «المسلمون في المدينة واعتز الإسلام».

(٢) في (ب): «والريب الذي في قلوبهم». (٣) في (ب): «المبارز».

﴿٥﴾ ﴿وإذا قيل﴾: لهٰؤلاء المنافقين: ﴿تعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لكم رسولُ الله﴾: عمَّا صدر منكم؛ لتحسن أحوالكم، وتُقبل أعمالكم؛ امتنعوا من ذٰلك أشدَّ الامتناع، و ﴿لَوَّوْا رؤوسَهم﴾: امتناعاً من طلب الدُّعاء من الرسول، ﴿ورأيتَهم يصدُّون﴾: عن الحقِّ بغضاً له، ﴿وهم مستكبِرونَ﴾: عن اتِّباعه بغياً وعناداً. فهٰذه حالُهم عندما يُدْعَوْنَ إلى طلب الدُّعاء من الرسول.

﴿٦﴾ وهٰذا من لطف الله وكرامته لرسوله؛ حيث لم يأتوا إليه فيستغفر لهم، فإنَّه ﴿سواءٌ﴾ أستغفر لهم أمْ لم يَسْتَغْفِر لهم فـ﴿لن يَغْفِرَ اللهُ لهم﴾؟ وذٰلك لأنَّهم قومٌ فاسقون خارجون عن طاعة الله مؤثِرون للكفر على الإيمان؛ فلذٰلك لا ينفع فيهم استغفارُ الرسول لو استغفر لهم؛ كما قال تعالى: ﴿استَغْفِر لهم أو لا تَسْتَغْفِرْ لهم إن تَسْتَغْفِرْ لهم سبعينَ مرةً فلن يَغْفِرَ الله لهم﴾. ﴿إنَّ الله لا يَهْدي القوم الفاسقينَ﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ۗ[1] وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

﴿٧﴾ وهٰذا من شدَّة عداوتهم للنبيِّ ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافَهم ومسارعتَهم في مرضاة الرسول ﷺ؛ قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لا تُنفِقوا على مَنْ عندَ رسول حتى يَنفَضُّوا﴾: فإنَّهم على زعمهم لولا أموالُ المنافقين ونفقاتُهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين الله! وهٰذا من أعجب العجب أن يدَّعِيَ هٰؤلاء المنافقون الذين هم أحرصُ الناس على خذلان الدين وأذيَّة المسلمين مثل هٰذه الدَّعوى التي لا تَروجُ إلَّا على مَنْ لا علم له بالحقائق[2]، ولهٰذا قال تعالى ردًّا لقولهم: ﴿ولله خزائنُ السمٰواتِ والأرض﴾: فيؤتي الرزق مَنْ يشاءُ، ويمنعه من يشاء، وييسِّر الأسباب لمن يشاء، ويعسِّرها على مَنْ يشاء. ﴿ولٰكنَّ المنافقينَ لا يفقهونَ﴾ فلذٰلك قالوا تلك المقالة التي مضمونُها أنَّ خزائن الرزقِ في أيديهم وتحت مشيئتهم.

﴿٨﴾ ﴿يقولون لئن رَجَعْنا إلى المدينة لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾: وذٰلك في

(١) في (أ) إلى قوله: «لا يعلمون»، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.
(٢) في (ب): «بحقائق الأمور».

غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدَّر الخواطر؛ ظهر حينئذ نفاقُ المنافقين، وتبيَّن ما في قلوبهم[١]، وقال كبيرهم عبدُ الله بنُ أبيِّ بنُ سلول: ما مَثَلُنا ومَثَلُ هٰؤلاء ـ يعني: المهاجرين ـ إلَّا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبك يأكلك. وقال: لئنْ رجَعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ بزعمه أنَّه هو وإخوانه المنافقين الأعزُّون، وأنَّ رسول الله ومن اتَّبعه هم الأذلُّون، والأمر بعكس ما قال هٰذا المنافق، فلهٰذا قال تعالى: ﴿ولله العزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾: فهم الأعزَّاء، والمنافقون وإخوانُهم من الكفار هم الأذلَّاء. ﴿ولٰكنَّ المنافقين لا يعلمون﴾: ذٰلك؛ فلذٰلك زعموا أنَّهم الأعزَّاء اغتراراً بما هم عليه من الباطل.

ثم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ[٢] وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذِكْرِه؛ فإنَّ في ذٰلك الربح والفلاح والخيراتِ الكثيرةَ، وينهاهم أنْ تَشْغَلَهم أموالُهم وأولادُهم عن ذِكره؛ فإنَّ محبَّة المال والأولاد مجبولةٌ عليها أكثر النفوس، فتقدِّمها على محبة الله، وفي ذٰلك الخسارة العظيمة، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ومَن يفعلْ ذٰلك﴾؛ أي: يُلْهِهِ مالُه وولدُه عن ذكر الله، ﴿فأولٰئك هم الخاسرونَ﴾: للسعادة الأبديَّة والنعيم المقيم؛ لأنَّهم آثروا ما يفنى على ما يبقى؛ قال تعالى: ﴿إنَّما أموالكم وأولادُكم فتنةٌ والله عنده أجرٌ عظيمٌ﴾.

﴿١٠﴾ وقوله: ﴿وأنفقوا ممَّا رَزَقْناكُم﴾: يدخلُ في هٰذه النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات[٣]، ونفقة الزوجات والمماليك، ونحو ذٰلك، والنفقات المستحبَّة؛

---

(١) في (ب): «وأظهروا ما في نفوسهم».
(٢) في (أ) إلى آخر السورة وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٣) في (ب): «والكفارة».

كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿ممَّا رَزَقْناكم﴾: ليدلَّ ذٰلك على أنَّه تعالى لم يكلِّف العباد من النفقة ما يُعْنِتُهُمْ ويشقُّ عليهم، بل أمرهم بإخراج جزءٍ ممَّا رزقهم ويسَّره ويسَّر أسبابه، فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذٰلك، الموت الذي إذا جاء؛ لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرَّة من الخير، ولهٰذا قال: ﴿من قبلِ أن يأتيَ أحدَكم الموتُ فيقولَ﴾: متحسراً على ما فَرَّطَ في وقت الإمكان، سائلاً الرجعةَ التي هي محالٌ: ﴿ربِّ لولا أخَّرْتَني إلى أجل قريبٍ﴾؛ أي: لأتدارك ما فرَّطتُ فيه، ﴿فأصَّدَّقَ﴾: من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحقُّ [به] جزيل الثواب، ﴿وأكن من الصالحين﴾: بأداء المأموراتِ كلِّها واجتناب المنهيَّات، ويدخل في هٰذا الحجُّ وغيره.

﴿١١﴾ وهٰذا السؤال والتَّمني قد فات وقتُه، ولا يمكن تداركه، ولهٰذا قال: ﴿ولن يؤخِّرَ اللهُ نفساً إذا جاء أجَلُها﴾: المحتوم لها. ﴿والله خبيرٌ بما تعملون﴾: من خير وشرٍّ، فيجازيكم على ما علمه منكم من النيَّات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين. ولله الحمد.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة التغابن

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ[1] وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ هٰذه الآيات الكريمات مشتملاتٌ على جملةٍ كثيرةٍ واسعة من أوصاف الباري العظيمة، فذَكَرَ كمال ألوهيَّته سبحانه [وتعالى]، وسعة غناه، وافتقارَ جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربِّها، وأنَّ المُلْكَ كلَّه لله؛

---

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

فلا يخرج عن ملكه مخلوقٌ[١]، والحمد كله له؛ حمدٌ على ما له من صفات الكمال، وحمدٌ على ما أوجده من الأشياء، وحمدٌ على ما شرعه من الأحكام وأسداه من النِّعم، وقدرتُه شاملةٌ لا يخرج عنها موجودٌ؛ فلا يعجِزُهُ شيءٌ يريده.

﴿٢﴾ وذكر أنَّه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر؛ فإيمانهم وكفرُهم كلُّه بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذٰلك منهم؛ بأنْ جعل لهم قدرةً وإرادةً بها يتمكَّنون من كلِّ ما يريدون من الأمر والنهي. ﴿**والله بما تعلمون بصيرٌ**﴾.

﴿٣﴾ فلمَّا ذكر خلق الإنسان المأمور المنهيِّ؛ ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿**خَلَقَ السمٰواتِ والأرض**﴾؛ أي: أجرامهما وجميع ما فيهما فأحسنَ خَلْقَهما ﴿**بالحقِّ**﴾؛ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، ﴿**وصَوَّرَكم فأحسن صُوَرَكم**﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لقد خَلَقْنا الإنسان في أحسن تقويم﴾: فالإنسان أحسن المخلوقات صورةً، وأبهاها منظراً. ﴿**وإليه المصيرُ**﴾؛ أي: المرجع يوم القيامةِ، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النِّعم والنعيم الذي أولاكم؛ هل قمتُم بشكره أم لم تقوموا به[٢]؟

﴿٤﴾ ثم ذكر عموم علمه، فقال: ﴿**يعلم ما في السمٰواتِ والأرض**﴾؛ أي: من السرائر والظواهر والغيب والشهادة، ﴿**ويعلمُ ما تُسِرُّون وما تُعْلِنونَ والله عليمٌ بذاتِ الصُّدور**﴾؛ أي: بما فيها من الأسرار الطيِّبة والخبايا الخبيثة والنيَّات الصالحة والمقاصد الفاسدة؛ فإذا كان عليماً بذات الصُّدور؛ تعيَّن على العاقل البصير أن يحرص ويجتهد في حفظ باطِنِه من الأخلاق الرذيلة واتِّصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿٥﴾ لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة ما به يُعرف، ويُعبد، ويُبذل الجهدُ في مرضاته، وتُجتنبُ مساخِطُه؛ أخبر بما فعل بالأمم السابقين والقرون الماضين، الذين لم تَزَلْ أنباؤهم يتحدَّثُ بها المتأخرون، ويُخبِرُ بها الصادقون، وأنَّهم حين جاءتهم رسلُهم[٣] بالحقِّ؛ كذَّبوهم، وعاندوهم فأذاقهم الله وَبالَ أمرِهم

(١) في (ب): «فلا يخرج مخلوق عن ملكه». (٢) في (ب): «أم لم تقوموا بشكره».
(٣) في (ب): «الرّسل».

في الدُّنيا، وأخزاهم فيها. ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾: في الدار الآخرة.

﴿٦﴾ ولهٰذا ذكر السبب في هٰذه العقوبة، فقال: ﴿ذٰلك﴾: النكال والوبال الذي أحللناه بهم ﴿بأنَّه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالبيناتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات الدالَّة على الحقِّ والباطل، فاشمأزُّوا واستكبروا على رسلهم، وقالوا: ﴿أبشرٌ يهدونَنا﴾؛ أي: ليس لهم فضلٌ علينا؛ ولأيِّ شيءٍ خصَّهم الله دوننا؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿قالتْ لهم رسُلُهم إن نحنُ إلَّا بشرٌ مثلُكم ولكنَّ الله يمنُّ على مَن يشاءُ من عبادِهِ﴾: فهم حجروا فضل الله ومنَّته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابْتُلوا بعبادة الأشجار والأحجار[١] ونحوها، ﴿فكفروا﴾ بالله، ﴿وتولَّوا﴾ عن طاعته، ﴿واستغنى الله﴾ عنهم؛ فلا يبالي بهم ولا يضرُّه ضلالهم شيئاً. ﴿والله غنيٌّ حميدٌ﴾؛ أي: هو الغنيُّ الذي له الغنى التامُّ المطلقُ من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين وزعمهم الباطل وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدىً ولا كتابٍ منيرٍ، فأمر أشرف خلقِهِ أن يُقْسِمَ بربِّه على بعثهم وجزائهم بأعمالهم الخبيثة وتكذيبهم بالحقِّ. ﴿وذٰلك على الله يسيرٌ﴾: فإنَّه وإن كان عسيراً، بل متعذِّراً بالنسبة إلى الخلق؛ فإنَّ قُواهم كلهم لو اجتمعت على إحياء ميتٍ واحدٍ؛ ما قدروا على ذٰلك، وأمَّا الله تعالى، فإنَّه إذا أراد شيئاً؛ قال له[٢]: كنْ فيكون؛ قال تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَن في السمٰوات ومن في الأرض إلَّا مَن شاء الله ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظُرونَ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿٨﴾ لمَّا ذكر تعالى إنكارَ مَنْ أنكر البعث، وأنَّ ذٰلك منهم موجبٌ كفرَهم بالله وآياته؛ أمر بما يعصمُ من الهلكة والشقاء، وهو الإيمان به وبرسوله وبكتابه[٣]، وسمَّاه الله نوراً؛ لأنَّ النور ضدُّ الظلمة؛ فما[٤] في الكتاب الذي أنزله الله من

---

(١) في (ب): «الأحجار والأشجار». (٢) في (ب): «فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له».

(٣) في (ب): «وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه».

(٤) في (ب): «وما».

الأحكام والشرائع والأخبار أنوارٌ يُهتدى بها في ظُلمات الجهل المدلهمَّة، ويمشى بها في حِنْدِسِ الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله؛ فهي علومٌ ضررها أكثر من نفعها، وشرُّها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع؛ إلَّا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمانُ بالله ورسوله وكتابه يقتضي الجزم التامَّ واليقين الصادق بها والعمل بمقتضى ذاك التصديق من امتثال الأوامر واجتناب النواهي[١]. ﴿والله بما تعملونَ خبيرٌ﴾: فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ[٢] وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾.

﴿٩﴾ يعني: اذكُروا يومَ الجمع الذي يجمع الله به الأوَّلين والآخرين، ويقفُهم موقفاً هائلا عظيماً، وينبِّئهم بما عملوا؛ فحينئذٍ يظهر الفرق والتغابن[٣] بين الخلائق، ويُرفع أقوامٌ إلى علِّيين في الغرف العاليات والمنازل المرتفعات المشتملة على جميع اللَّذَّات والشهوات، ويُخفض أقوامٌ إلى أسفل سافلين محلِّ الهمِّ والغمِّ[٤] والحزن والعذاب الشديد، وذٰلك نتيجة ما قدَّموه لأنفسهم وأسلفوه أيام حياتهم، ولهٰذا قال: ﴿ذٰلك يومُ التغابنِ﴾؛ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرِفُ المجرمون أنَّهم[٥] على غير شيء، وأنَّهم هم الخاسرون. فكأنَّه قيل: بأيِّ شيءٍ يحصلُ الفلاحُ والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر [تعالى] أسباب ذٰلك بقوله: ﴿ومَن يؤمِن بالله﴾: إيماناً تامًّا شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ﴿ويعملْ صالحاً﴾: من الفرائض والنوافل؛ من أداء حقوق الله وحقوق عباده، ﴿يُدْخِلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾: فيها ما تشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأعينُ، وتختارهُ الأرواح، وتحنُّ إليه القلوب، ويكون نهاية كلِّ مرغوب. ﴿خالدين فيها أبداً ذٰلك الفوزُ العظيمُ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا﴾؛ أي: كفروا بها من غير مستندٍ شرعيٍّ

---

(١) في (ب): «المناهي».

(٢) في (أ) إلى: ﴿المصير﴾، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿وبئس المصير﴾.

(٣) في (ب): «الفرق والتفاوت». (٤) في (ب): «الغم والهم».

(٥) في (ب): «أنه».

ولا عقليٍّ، بل جاءتهم الأدلَّة والبيِّنات، فكذَّبوا بها وعاندوا ما دلَّت عليه، ﴿أولٰئك أصحابُ النار خالدين فيها وبئسَ المصيرُ﴾: لأنَّها جمعت كلَّ بؤسٍ وشدةٍ وشقاءٍ وعذابٍ.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ[١] إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١١﴾ يقول تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبةٍ إلَّا بإذنِ الله﴾: وهٰذا عامٌّ لجميع المصائب في النفس والمال والولد والأحباب ونحوهم؛ فجميع ما أصاب العباد بقضاء[٢] الله وقدره؛ قد سبق بذٰلك علمُ الله وجرى به قلمُه ونفذت به مشيئتُه واقتضتْه حكمتُه، ولٰكنَّ الشأن كل الشأن: هل يقومُ العبد بالوظيفة التي عليه في هٰذا المقام أم لا يقوم بها؟ فإنْ قام بها؛ فله الثواب الجزيل والأجر الجميل في الدُّنيا والآخرة؛ فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذٰلك وسلَّم لأمره؛ هدى الله قلبه، فاطمأنَّ ولم ينزعجْ عند المصائب؛ كما يجري ممَّن لم يهدِ الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودِها[٣] والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذٰلك ثوابٌ عاجلٌ مع ما يدَّخر اللّٰهُ له يوم الجزاء من الأجر العظيم[٤]؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

وعُلِمَ من ذٰلك[٥] أنَّ من لم يؤمنْ بالله عند ورود المصائب؛ بأن لم يلحظْ قضاء الله وقدره بل وقف مع مجرَّد الأسباب؛ أنَّه يُخذل ويَكِلُه الله إلى نفسه، وإذا وُكِلَ العبد إلى نفسه؛ فالنفس ليس عندها إلَّا الهلع والجزع[٦] الذي هو عقوبةٌ عاجلةٌ على العبد قبل عقوبة الآخرة على ما فرَّط في واجب الصبر، هٰذا ما يتعلَّق بقوله: ﴿ومَن يؤمِنْ بالله يَهْدِ قلبَه﴾ في مقام المصائب الخاصِّ، وأمَّا ما يتعلَّق بها من حيث العموم اللَّفظيُّ؛ فإنَّ الله أخبر أنَّ كلَّ مَنْ آمنَ؛ أي: الإيمان المأمور به، وهو[٧] الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه،

(١) في (أ) إلى: ﴿فليتوكل المؤمنون﴾، وفي (ب): ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «فبقضاء».
(٣) في (ب): «عندها».
(٤) في (ب): «من الثواب».
(٥) في (ب): «وعلم من هذا».
(٦) في (ب): «الجزع والهلع».
(٧) في (ب): «المأمور به من الإيمان».

وصدَّق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه[١] وواجباته؛ أنَّ هٰذا السبب الذي قام به العبدُ أكبرُ سببٍ لهداية الله له في أقواله وأفعاله وجميع أحواله[٢] وفي علمه وعمله، وهٰذا أفضلُ جزاءٍ يعطيه الله لأهل الإيمان؛ كما قال تعالى مخبراً أنَّه يثبِّت المؤمنين[٣] في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات ثباتُ القلب وصبرُه ويقينُه عند ورود كلِّ فتنة، فقال: ﴿يُثبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابتِ في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة﴾؛ فأهلُ الإيمان أهدى الناس قلوباً وأثبتُهم عند المزعجات والمقلقات، وذٰلك لما معهم من الإيمان.

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ﴾؛ أي: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فإنَّ طاعة الله وطاعة رسولِهِ مدارُ السعادة وعنوانُ الفلاح، ﴿فإن تولَّيتم﴾؛ أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فإنَّما على رسولنا البلاغُ المبينُ﴾؛ أي: يبلِّغكم ما أرسل به إليكم بلاغاً بيِّناً واضحاً، فتقوم عليكم به الحجَّة، وليس بيده من هدايتكم ولا من حسابكم شيءٌ[٤]، وإنَّما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله أو عدم ذٰلك، عالمُ الغيب والشهادة.

﴿١٣﴾ ﴿الله﴾ الذي ﴿لا إلٰه إلَّا هو﴾؛ أي: هو المستحق للعبادة والألوهيَّة؛ فكل معبودٍ سواه فباطلٌ. ﴿وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون﴾؛ أي: فليعتمدوا[٥] عليه في كلِّ أمرٍ نابهم وفيما يريدون القيام به؛ فإنَّه لا يتيسَّر أمرٌ من الأمور إلَّا بالله ولا سبيل إلى ذٰلك[٦] إلَّا بالاعتماد على الله، ولا يتمُّ الاعتماد على الله حتى يُحْسِنَ العبدُ ظنَّه بربِّه ويثق به في كفايته الأمر الذي يعتمد[٧] عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكُّله قوةً وضعفاً[٨].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

(١) في (ب): «من القيام بلوازمه».
(٢) في (ب): «في أحواله وأقواله وأفعاله».
(٣) في (ب): «كما قال تعالى في الأخبار أن المؤمنين يثبتهم الله».
(٤) في (ب): «من شيء». (٥) في (ب): «يعتمدوا».
(٦) في (ب): «لذلك». (٧) في (ب): «اعتمد».
(٨) في (ب): «وبحسب إيمان العبد يكون توكُّله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكّل».

﴿١٤ ـ ١٥﴾ هٰذا تحذيرٌ من الله للمؤمنين عن[١] الاغترار بالأزواج والأولاد؛ فإنَّ بعضهم عدوٌّ لكم، والعدوُّ هو الذي يريد لك الشرَّ، فوظيفتُك الحذرُ ممَّن هٰذه صفته[٢]، والنفس مجبولة على محبّة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هٰذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، التي فيها محذورٌ شرعيٌّ[٣]، ورغَّبهم في امتثال أوامره وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم، المشتمل على المطالب العالية والمحابِّ الغالية، وأن يؤثِروا الآخرة على الدُّنيا الفانية المنقضية. ولما كان النهيُ عن طاعة الأزواج والأولاد فيما هو ضررٌ على العبد والتحذير من ذٰلك قد يوهِمُ الغِلْظَةَ عليهم وعقابهم؛ أمَرَ تعالى بالحذر منهم والصفح عنهم والعفو؛ فإنَّ في ذٰلك من المصالح ما لا يمكن حصرُه، فقال: **﴿وإن تعفوا وتَصْفَحوا وتَغْفِروا فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾**؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فمن عفا؛ عفا الله عنه، ومن صَفَحَ؛ صفح [اللّٰه] عنه، ومن عامَلَ الله [تعالى] فيما يحبُّ، وعامل عباده بما[٤] يحبُّون وينفعهم؛ نال محبَّة الله ومحبَّة عباده واستوسق له أمره.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ[٥] وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٦﴾ يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثالُ أوامره واجتنابُ نواهيه، وقيَّد[٦] ذٰلك بالاستطاعة والقدرة. فهٰذه الآية تدلُّ على أنَّ كلَّ واجبٍ عجز عنه العبد يسقُطُ[٧] عنه، وأنَّه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه؛ فإنَّه يأتي بما يقدر عليه ويسقُطُ عنه ما يعجزُ عنه؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «إذا أمرتُكم بأمرٍ؛ فأتوا منه ما استطعتُم»[٨]. ويدخل تحت هٰذه القاعدة الشرعيَّة من الفروع ما لا يدخُل تحت الحصر. وقوله: **﴿واسمعوا﴾**؛ أي: اسمعوا ما يعِظُكم الله به وما يَشْرَعُه لكم من

---

(١) في (ب): «من».
(٢) في (ب): «ممّن هذا وصفه».
(٣) في (ب): «والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي».
(٤) في (ب): «كما يحبون».
(٥) في الأصل إلى آخرها.
(٦) في (ب): «ويقيّد».
(٧) في (ب): «أنه يسقط».
(٨) أخرجه البخاري (٧٢٧٧)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي اللّٰه عنه.

الأحكام واعلموا ذٰلك وانقادوا له، ﴿وأطيعوا﴾: الله ورسولَه في جميع أموركم، ﴿وأنفِقوا﴾: من النفقات [الشرعية] الواجبة والمستحبَّة؛ يَكُنْ ذٰلك الفعل منكم خيراً لكم في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّ الخير كلَّه في امتثال أوامر الله [تعالى] وقَبول نصائحه والانقياد لشرعه، والشرَّ كلَّه في مخالفة ذٰلك، ولكن ثَمَّ آفةٌ تمنعُ كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشحُّ المجبولة عليه أكثر النفوس؛ فإنَّها تشحُّ بالمال وتحبُّ وجوده وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة، فمن وقاه اللَّهُ [تعالى] ﴿شُحَّ نفسِه﴾: بأن سمحت نفسه بالإنفاق[1] النافع لها، ﴿فأولٰئك هم المفلحونَ﴾: لأنَّهم أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب، بل لعلَّ ذٰلك شاملٌ لكلِّ ما أمر به العبدُ ونهي عنه؛ فإنَّه إن كانت نفسُه شحيحةً لا تنقاد لما أمرت به ولا تخرِج ما قِبَلَها؛ لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنةً منشرحةً لشرع الله طالبةً لمرضاته[2]؛ فإنَّها ليس بينها وبين فعل ما كلِّفت به إلَّا العلم به ووصول معرفته إليها والبصيرة بأنَّه مُرضٍ لله [تعالى]، وبذٰلك تفلح وتنجح وتفوز كلَّ الفوز.

﴿١٧﴾ ثم رغَّب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إن تقرِضوا الله قرضاً حسناً﴾: وهو كلُّ نفقة كانت من الحلال إذا قَصَدَ بها العبدُ وجه الله تعالى ووضعها موضعها، ﴿يضاعِفه لكم﴾: النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، ﴿و﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿يَغفِرْ﴾ اللَّهُ ﴿لكم﴾: بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبَكم؛ فإنَّ الذُّنوبَ يكفرها [اللَّهُ] بالصدقات والحسنات؛ ﴿إنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات﴾. ﴿والله شكورٌ[3] حليمٌ﴾: لا يعاجِلُ من عصاه، بل يُمْهِلُه ولا يُهْمِلُه، ﴿ولو يؤاخِذُ اللهُ الناس بما كَسَبوا ما ترك على ظهرها من دابَّةٍ ولٰكن يؤخِّرُهم إلى أجلٍ مسمًّى﴾، والله[4] تعالى شكورٌ، يقبلُ من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمَّل من أجله المشاقَّ والأثقال وأنواع التَّكاليف[5] الثقال، ومن ترك شيئاً لله؛ عوَّضه الله خيراً منه.

﴿١٨﴾ ﴿عالِمُ الغيبِ والشهادةِ﴾؛ أي: ما غاب من[6] العباد من الجنود التي لا

---

(١) في (ب): «في الإنفاق».
(٢) في (ب): «المرضاة الله».
(٣) في (أ) صححت بخط مغاير إلى «شكور» وفي (ب): «غفور». والآية ﴿شكور﴾.
(٤) في (ب): «وهو تعالى».
(٥) في (ب): «المشاق وناء بالتكاليف الثقال».
(٦) في (ب): «عن».

يعلمها إلَّا هو وما يشاهدونه من المخلوقات. ﴿العزيز﴾: الذي لا يغالَب ولا يمانَع، الذي قهر جميع[١] الأشياء. ﴿الحكيم﴾: في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير السورة. ولله الحمد[٢].

❀ ❀ ❀

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ[٣] وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مخاطباً لنبيِّه [محمد] ﷺ وللمؤمنين: ﴿يا أيُّها النبيُّ إذا طلَّقْتُم النساءَ﴾؛ أي: [إذا] أردتم طلاقهنَّ، ﴿فـ﴾: التمسوا لطلاقهنَّ الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطَّلاق من حين يوجد سببه من غير مراعاةٍ لأمر الله، بل ﴿طلِّقوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾؛ أي: لأجل عدَّتهن؛ بأن يطلِّقَها زوجها وهي طاهرٌ في طهرٍ لم يجامِعْها فيه؛ فهٰذا الطلاق هو الذي تكون العدَّة فيه واضحةً بيِّنة؛ بخلاف ما لو طلَّقها وهي حائضٌ؛ فإنَّها لا تحتسب تلك[٤] الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدَّة بسبب ذٰلك، وكذٰلك لو طلَّقها في طهرٍ وطىء فيه؛ فإنَّه لا يؤمَن حملها، فلا

---

(١) في (ب): «كلَّ».
(٢) في (ب): «تمّ تفسير التغابن».
(٣) في (أ) إلى قوله: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «بتلك».

يتبيَّن ولا يتَّضح[١] بأيِّ عدَّةٍ تعتدُّ، وأمر تعالى بإحصاء العدَّة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيضُ وليست حاملاً؛ فإنَّ في إحصائها أداءً لحقِّ الله، وحق الزوج المطلِّق، وحقٍّ من سيتزوجها بعد، وحقِّها في النفقة ونحوها؛ فإذا ضبطت عدَّتها؛ علمت حالها على بصيرةٍ، وعلم ما يترتَّب عليها من الحقوق وما لها منها، وهٰذا الأمر بإحصاء العدَّة يتوجَّه للزوج وللمرأة إن كانت مكلَّفة، وإلَّا؛ فلوليِّها. وقوله: ﴿واتَّقوا الله ربَّكم﴾؛ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حقِّ الزوجات المطلَّقات.

فـ﴿لا تخرجوهنَّ من بيوتهنَّ﴾: مدة العدَّة، بل تلزم بيتها الذي[٢] طلَّقها زوجها وهي فيه[٣]. ﴿ولا يَخرُجْنَ﴾؛ أي: لا يجوز لهنَّ الخروج منها، أما النَّهي عن إخراجها؛ فلأنَّ المسكن يجب على الزوج للزوجة[٤] لتستكمل فيه عدَّتها التي هي حقٌّ من حقوقه، وأما النهي عن خروجها؛ فلما في خروجها من إضاعة حقِّ الزوج وعدم صونه، ويستمرُّ هٰذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدَّة. ﴿إلَّا أن يأتينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: بأمر قبيح واضح موجبٍ لإخراجها؛ بحيث يُدْخِلُ على أهل البيت الضَّرر من عدم إخراجها؛ كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة؛ ففي هٰذه الحال يجوز لهم إخراجُها؛ لأنَّها هي التي تسبَّبت لإخراج نفسها، والإسكانُ فيه جبرٌ لخاطرها ورفقٌ بها؛ فهي التي أدخلت الضرر عليها. وهٰذا[٥] في المعتدَّة الرجعيَّة، وأمَّا البائن؛ فليس لها سكنى واجبةٌ؛ لأنَّ السكنى تبعٌ للنفقة، والنفقة تجب للرجعيَّة دون البائن.

﴿وتلك حدودُ الله﴾؛ أي: التي حدَّها لعباده وشرعها لهم وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿ومن يتعدَّ حدودَ الله﴾: بأن لم يقف معها، بل تجاوَزها أو قصَّر عنها، ﴿فقد ظلم نفسَه﴾؛ أي: بخسها حقَّها[٦]، وأضاع نصيبه من اتِّباع حدود الله التي هي الصلاحُ في الدُّنيا والآخرة. ﴿لاتَدْري لعلَّ الله يحدِثُ بعد ذٰلك أمراً﴾؛ أي: شرع الله العدَّة، وحدَّد الطلاق بها لحِكَم عظيمةٍ:

---

(١) في (ب): «ويتضح».
(٢) في (ب): «بل يلزمن بيوتهن التي».
(٣) في (ب): «فيها».
(٤) في (ب): «فإن المسكن يجب للزوج عليها».
(٥) في (ب): «التي أدخلت الضرر على نفسها. وهذه».
(٦) في (ب): «حظها».

فمنها: أنّه لعلَّ الله يحدِثُ في قلب المطلِّق الرحمة والمودَّة، فيراجع من طلَّقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكَّن من ذٰلك مدَّة العدة، أو لعلَّه يطلِّقها لسبب منها، فيزول ذٰلك السبب في مدَّة العدَّة، فيراجعها؛ لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحِكَم أنَّها مدة التربُّص يُعلم براءة رحمها من زوجها.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿**فإذا بَلَغنَ أجَلَهُنَّ**﴾؛ أي: [إذا] قاربن انقضاء العدَّة؛ لأنهنَّ لو خرجنَ من العدَّة؛ لم يكن الزوج مخيَّراً بين الإمساك والفراق، ﴿**فأمسكوهنَّ بمعروفٍ**﴾؛ أي: على وجه المعاشرة الحسنة والصحبة الجميلة، لا على وجه الضِّرار وإرادة الشرِّ والحبس؛ فإنَّ إمساكها على هٰذا الوجه لا يجوز، ﴿**أو فارِقوهنَّ بمعروفٍ**﴾؛ أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتُم ولا تخاصُم ولا قهرٍ لها على أخذ شيءٍ من مالها، ﴿**وأشهدوا**﴾: على طلاقها ورجعتها، ﴿**ذَوَيْ عدلٍ منكم**﴾؛ أي: رجلين مسلمَيْنِ عَدْلَيْنِ؛ لأنَّ في الإشهاد المذكور سدًّا لباب المخاصمة وكتمان كلٍّ منهما ما يلزم بيانه، ﴿**وأقيموا**﴾: أيُّها الشهداء ﴿**الشهادةَ لله**﴾؛ أي: ائتوا بها على وجهها من غير زيادةٍ ولا نقصٍ، واقصدوا بإقامتها وجهَ الله تعالى[1]، ولا تُراعوا بها قريباً لقرابته ولا صاحباً لمحبَّته. ﴿**ذٰلكم**﴾: الذي ذكَرنا لكم من الأحكام والحدود، ﴿**يوعَظُ به مَن كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر**﴾: فإنَّ الإيمان[2] بالله واليوم الآخر يوجِبُ لصاحبه[3] أن يتَّعِظَ بمواعظ الله وأن يقدِّم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكَّن منها[4]؛ بخلاف من ترحَّل الإيمان من قلبه؛ فإنَّه لا يبالي بما أقدم عليه من الشرِّ، ولا يعظِّم مواعظ الله؛ لعدم الموجب لذٰلك. ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغمِّ؛ أمر تعالى بتقواه، ووعد مَنْ اتَّقاه[5] في الطلاق وغيره بأن يجعل[6] له فرجاً ومخرجاً. فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعيِّ، بأن أوقعه طلقةً واحدةً في غير حيضٍ ولا طهرٍ أصابها فيه[7]؛ فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعةً يتمكَّن بها من الرجوع إلى النكاح[8] إذا ندم على الطلاق.

والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة؛ فإنَّ العبرة بعموم اللفظ فكل من

---

(١) في (ب): «وجه الله وحده».
(٢) في (ب): «فإن من يؤمن».
(٣) في (ب): «يوجب له ذلك».
(٤) في (ب): «ما تمكن منه».
(٥) في (ب): «وأن من اتّقاه».
(٦) في (ب): «فإن الله يجعل».
(٧) في (ب): «ولا طهر قد وطئ فيه».
(٨) في (ب): «يتمكن فيها من مراجعة النكاح».

اتقى الله [تعالى] ولازم مرضاته[1] في جميع أحواله؛ فإنَّ الله يثيبه في الدُّنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كلِّ شدَّة ومشقَّة، وكما أنَّ من اتَّقى الله؛ جعل له فرجاً ومخرجاً؛ فمن لم يتَّق الله؛ يقع في الآصار[2] والأغلال التي لا يقدر على التخلُّص منها والخروج من تَبِعَتها، واعتبرْ ذٰلك في الطلاق[3]؛ فإنَّ العبد إذا لم يَتَّقِ الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرَّم؛ كالثلاث ونحوها؛ فإنَّه لا بدَّ أن يندم ندامةً لا يتمكَّن من استدراكها[4] والخروج منها.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿ويرزُقْه من حيث لا يحتسِبُ﴾؛ أي: يسوق الله الرزق للمتَّقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به، ﴿ومن يَتَوَكَّلْ على الله﴾: في أمر دينه ودنياه؛ بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضرُّه ويثق به في تسهيل ذٰلك ﴿فهو حسبُه﴾؛ أي: كافيه الأمر الذي توكَّل عليه فيه[5]، وإذا كان الأمرُ في كفالة الغنيِّ القويِّ العزيز الرحيم؛ فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربَّما أن الحكمة الإلٰهيَّة اقتضت تأخيره إلى[6] الوقت المناسب له؛ فلهٰذا قال تعالى: ﴿إنَّ الله بالغُ أمرِه﴾؛ أي: لا بدَّ من نفوذ قضائه وقدره، ولٰكنه قد جعل ﴿لكلِّ شيءٍ قَدْراً﴾؛ أي: وقتاً ومقداراً لا يتعدَّاه ولا يقصر عنه.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ[7] مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ لـمَّا ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدَّة النساء؛ ذكر العدَّة، فقال: ﴿واللاَّئي يَئِسْنَ من المحيض من نسائِكُم﴾: بأن كنَّ يَحِضْنَ ثم ارتفع حيضُهُنَّ لكبرٍ أو غيره ولم يُرْجَ رجوعُه؛ فإنَّ عدَّتها ثلاثة أشهر، جعل كلَّ شهر مقابلة حيضة. ﴿واللاَّئي لم يَحِضْنَ﴾؛ أي: الصغار اللائي لم يأتهنَّ الحيضُ بعدُ أو[8] البالغات اللاتي لم يأتهنَّ حيضٌ بالكلِّيَّة؛ فإنَّهنَّ كالآيسات، عدَّتهنَّ ثلاثة

---

(١) في (ب): «مرضاة الله».
(٢) في (ب): «وقع في الشدائد والآصار».
(٣) في (ب): «بالطلاق».
(٤) في (ب): «لا يمكنه استدراكها».
(٥) في (ب): «به».
(٦) في (ب): «في».
(٧) في (أ) إلى قوله: ﴿ويعظم له أجراً﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.
(٨) في (ب): «والبالغات».

أشهر، وأمَّا اللائي يحِضنَ؛ فذكر الله عدَّتهنَّ في قوله: ﴿والمطلَّقاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثلاثةَ قروءٍ﴾. وقوله: ﴿وأولاتُ الأحمال أجَلُهُنَّ﴾؛ أي: عدَّتُهنَّ ﴿أن يَضَعْنَ حملَهُنَّ﴾؛ أي: جميع ما في بطونهنَّ من واحدٍ ومتعددٍ، ولا عبرة حينئذٍ بالأشهر ولا غيرها. ﴿ومن يتَّقِ اللهَ يجعلْ له من أمره يُسراً﴾؛ أي: من اتَّقى الله يَسَّرَ له الأمور، وسهَّل عليه كلَّ عسير.

﴿٥﴾ ﴿ذٰلك﴾؛ أي: الحكم الذي بيَّنه الله لكم ﴿أمرُ الله أنزلَه إليكم﴾: لتمشوا عليه وتأتمُّوا به[1] وتُعظموه. ﴿ومَن يتَّقِ الله يُكَفِّرْ عنه سيئاتِهِ ويُعْظِمْ له أجراً﴾؛ أي: يندفع عنه المحذور ويحصل له المطلوب.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ[2] وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿٦﴾ تقدَّم أنَّ الله نهى عن إخراج المطلَّقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهنَّ وقدر إسكانهنَّ بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثلُه ومثلُها؛ بحسب وُجْد الزوج وعسره، ﴿ولا تُضارُّوهنَّ لِتُضَيِّقوا عليهنَّ﴾؛ أي: لا تضاروهنَّ عند سكناهنَّ بالقول أو الفعل؛ لأجل أن يمللنَ فيخرجنَ من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرِجين لهنَّ. وحاصل هٰذا أنَّه نهى عن إخراجهنَّ ونهاهنَّ عن الخروج، وأمر بسكناهنَّ على وجهٍ لا يحصلُ عليهن ضررٌ ولا مشقَّة، وذٰلك راجعٌ إلى العرف. ﴿وإن كنَّ﴾؛ أي: المطلَّقات ﴿أولاتِ حَملٍ فأنفقوا عليهنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: وذٰلك لأجل الحمل الذي في بطنها إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كانت رجعيةً، ومنتهى النَّفقة إلى وضع الحمل[3]؛ فإذا وضَعْنَ حملَهُنَّ؛ فإمَّا أن يرضِعْن أولادهنَّ أو لا، ﴿فإنْ أرْضَعْنَ لكم فآتوهنَّ أجورهنَّ﴾: المسمَّاة لهنَّ إن كان مسمًّى، وإلَّا؛ فأجر المثل، ﴿وائْتَمِروا بينكم بمعروفٍ﴾؛ أي: ليأمر كلُّ واحدٍ من الزوجين

---

(١) في (ب): «وتقوموا به».

(٢) في (أ) إلى قوله: ﴿سيجعل الله بعد عسراً يسراً﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

(٣) في (ب): «ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن».

وغيرهما[1] الآخر بالمعروف، وهو كلُّ ما فيه منفعةٌ ومصلحةٌ في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّ الغفلة عن الائتمار بالمعروف يحصُلُ فيها من الضَّرر والشرِّ[2] ما لا يعلمه إلَّا الله، وفي الائتمار تعاونٌ على البرِّ والتَّقوى. ومما يناسب هٰذا المقام أنَّ الزوجين عند الفراق وقت العدَّة، خصوصاً إذا ولد بينهما[3] ولدٌ، في الغالب يحصُلُ من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق الذي لا يحصُلُ في الغالب إلَّا مقروناً بالبغض، فيتأثَّر من ذٰلك[4] شيءٌ كثيرٌ، فكلٌّ منهما يؤمر بالمعروف والمعاشرة الحسنة وعدم المشاقَّة والمنازعة[5] وينصحُ على ذٰلك، ﴿وإن تعاسَرْتُم﴾: بأن لم يتَّفق الزوجان على[6] إرضاعها لولدها، ﴿فسترضِعُ له أخرى﴾: غيرها، و ﴿لا جُناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف﴾، وهٰذا حيثُ كان الولد يقبلُ ثدي غير أمِّه؛ فإنْ لم يقبلْ إلَّا ثدي أمِّه؛ تعينتْ لإرضاعه، ووجب عليها، وأجْبِرَتْ إن امتنعتْ، وكان لها أجرة المثل إن لم يتَّفقا على مسمًّى. وهٰذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى؛ فإنَّ الولد لمَّا كان في بطن أمِّه مدةَ الحمل لا خروج له منه[7]؛ عيَّن تعالى على وليِّه النفقة، فلما ولد وكان يتمكَّن[8] أن يتقوَّت من أمِّه ومن غيرها؛ أباح تعالى الأمرين؛ فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوَّت إلَّا من أمِّه؛ كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمُّه طريقاً لِقُوتِه.

﴿٧﴾ ثم قدَّر تعالى النفقة بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذو سَعةٍ من سعتِهِ﴾؛ أي: لينفق الغنيُّ من غناه؛ فلا ينفق نفقة الفقراء، ﴿ومن قُدِرَ عليه رزقُه﴾؛ أي: ضيِّق عليه، ﴿فلينفِقْ ممَّا آتاه الله﴾: من الرزق. ﴿لا يكلِّفُ الله نفساً إلَّا ما آتاها﴾: وهٰذا مناسبٌ للحكمة والرحمة الإلٰهية؛ حيث جعل كلاً بحسبه، وخفَّف عن المعسر، وأنَّه لا يكلِّفه إلَّا ما آتاه؛ فلا يكلِّف الله نفساً إلَّا وسعها في باب النفقة وغيرها، ﴿سيجعلُ الله بعد عسرٍ يُسْراً﴾: وهٰذه بشارةٌ للمعسرين أنَّ الله تعالى سيزيلُ عنهم الشدَّة ويرفع عنهم المشقَّة؛ فإنَّ مع العسر يسراً، إنَّ مع العسر يسراً.

---

(١) في (ب): «ومن غيرهما».
(٢) في (ب): «يحصل فيه من الشر والضرر».
(٣) في (ب): «لهما».
(٤) في (ب): «مع الفراق الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض ويتأثر منه البغض».
(٥) في (ب): «والمخاصمة». (٦) في (ب): «بأن لم تتفقوا على».
(٧) في (ب): «مدة الحمل ليس له خروج منه». (٨) في (ب): «وكان يمكن».

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا (١) وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿٨ ـ ١٠﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية والقرونَ المكذِّبة للرُّسل، وأنَّ[٢] كثرتهم وقوَّتهم لم تُغْنِ عنهم شيئاً[٣] حين جاءهم الحساب الشديد والعذاب الأليم، وأنَّ الله أذاقَهم من العذاب ما هو موجبُ أعمالهم السيِّئة، ومع عذاب الدُّنيا؛ فإنَّ الله أعدَّ لهم في الآخرة عذاباً شديداً، ﴿فاتَّقوا الله يا أولي الألبابِ﴾؛ أي: يا ذوي العقول التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأنَّ الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم؛ أنَّ مَنْ بعدَهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين.

﴿١١﴾ ثم ذكَّر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه الذي أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ؛ ليخرج الخلق من ظُلُمات الجهل والكفر[٤] والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة؛ فمن الناس من آمن به، ومنهم مَنْ لم يؤمنْ به، ﴿ومَن يؤمِن بالله ويعملْ صالحاً﴾: من الواجبات والمستحبَّات، ﴿يُدْخِلْهُ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ﴾: فيها من النعيم المقيم ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلبِ بشرٍ. ﴿خالدين فيها أبداً قد أحسنَ اللهُ له رِزْقاً﴾؛ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله؛ فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون[٥].

﴿١٢﴾ ثم أخبر تعالى أنَّه خلق السماوات والأرض ومن فيهنَّ والأرضين السبع[٦] ومن فيهنَّ وما بينهنَّ، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينيَّة، التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونيَّة والقدريَّة التي يدبِّر

---

(١) في (أ) إلى آخر السورة، وفي ذكر الآيات إلي قوله تعالى: ﴿قد أحسن الله له رزقا﴾.
(٢) في (ب): «المكذبة بالرسل أنَّ». (٣) في (ب): «لم تنفعهم شيئاً».
(٤) في (ب): «الكفر والجهل». (٥) في (ب): «ذكر الآية (١٢)».
(٦) في (ب): «أخبر أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع».

بها الخلق؛ كلُّ ذٰلك لأجل أن يعرِفَه العباد ويعلموا إحاطةَ قدرته بالأشياء كلِّها وإحاطة علمِهِ بجميع الأشياء؛ فإذا عَرَفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدَّسة[(١)]؛ عبدوه وأحبُّوه وقاموا بحقِّه؛ فهٰذه الغاية المقصودة من الخلق والأمْر؛ معرفة الله وعبادته، فقام بذٰلك الموفَّقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذٰلك الظالمون المعرضون.

تمَّ تفسيرها. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ[(٢)] وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾.

﴿١﴾ هٰذا عتابٌ من الله لنبيِّه محمدٍ ﷺ حين حرَّم على نفسه سُرِّيَّته مارية أو شُرْبَ العسل مراعاةً لخاطر بعض زوجاته في قصَّةٍ معروفة[(٣)]، فأنزل الله [تعالى] هٰذه الآيات. ﴿يا أيُّها النبيُّ﴾؛ أي: يا أيُّها الذي أنعم الله عليه بالنبوَّة والرسالة والوحي[(٤)]، ﴿لم تحرِّمُ ما أحلَّ الله لك﴾: من الطيِّبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمَّتك، ﴿تبتغي﴾: بذٰلك التحريم ﴿مرضاةَ أزواجِك واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾: هٰذا

---

(١) في (ب): «بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى».

(٢) في (أ) إلى قوله: ﴿ثيبات وأبكارا﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٩١٢)، ومسلم (١٤٧٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) في (ب): «والوحي والرسالة».

تصريحٌ بأنَّ الله قد غفر لرسوله ورفع عنه اللومَ ورحِمَه.

﴿٢﴾ وصار ذٰلك التحريمُ الصادرُ منه سبباً لشرع حكم عامٍّ لجميع الأمَّة، فقال تعالى: ﴿قد فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانِكم﴾: وهٰذا عامٌّ في جميع أيمان المؤمنين[١]؛ أي: قد شرع لكم وقدَّر ما به تَنْحَلُّ أيمانُكم قبل الحِنْثِ وما به تتكفَّر[٢] بعد الحنث، وذٰلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تُحَرِّمُوا طيباتِ ما أحلَّ الله لكم ولا تَعْتَدَوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدين...﴾ إلى أن قال: ﴿فكفَّارتُه إطعامُ عَشَرَةِ مساكين من أوسطِ ما تُطْعِمونَ أهليكم أو كِسْوَتُهم أو تحريرُ رقبةٍ فمن لم يَجِدْ فصيامُ ثلاثةِ أيَّام ذٰلك كفَّارةُ أيمانِكم إذا حَلَفْتُم﴾: فكلُّ مَنْ حرَّم حلالاً عليه من طعام أو شرابٍ أو سُرِّيَّة أو حلف يميناً بالله على فعلٍ أو ترك ثم حنثَ وأراد الحِنْثَ؛ فعليه هٰذه الكفارة المذكورة. وقوله: ﴿واللهُ مولاكم﴾؛ أي: متولِّي أموركم ومربِّيكم أحسن تربيةٍ في أمر دينكم ودُنياكم وما به يندفعُ عنكم الشرُّ؛ فلذٰلك فرض لكم تَحِلَّةَ أيمانِكم لتبرأ ذِمَمُكم. ﴿وهو العليم الحكيم﴾: الذي أحاط علمُه بظواهِركم وبواطِنِكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به؛ فلذٰلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنَّه موافقٌ لمصالحكم ومناسبٌ لأحوالكم.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وإذْ أسرَّ النبيُّ إلى بعضِ أزواجِهِ حديثاً﴾: قال كثيرٌ من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسرَّ لها النبيُّ ﷺ حديثاً، وأمر[٣] أن لا تُخْبِرَ به أحداً، فحدَّثت به عائشة رضي الله عنها، وأخبره الله بذٰلك الخبر الذي أذاعتْه، فَعرَّفها ﷺ ببعض ما قالتْ وأعرضَ عن بعضِهِ كرماً منه ﷺ وحِلْماً، فقالت له: ﴿مَنْ أنبأكَ هٰذا﴾: الخبر الذي لم يَخْرُجْ منَّا، ﴿قال نَبَّأَنِيَ العليمُ الخبيرُ﴾: الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السرَّ وأخفى.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿إن تَتوبا إلى الله فَقَدْ صَغَتْ قلوبُكما﴾: الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة وعائشة[٤] رضي الله عنهما حين كانتا سبباً لتحريم النبيِّ ﷺ على نفسه ما يحبُّه، فعرضَ الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذٰلك، وأخبرهما أنَّ قلوبكما قد صَغَتْ؛ أي: مالت وانحرفت عمَّا ينبغي لهنَّ من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يَشْقُقْنَ عليه، ﴿وإن تَظاهرا عليه﴾؛ أي: تعاونا على

(١) في (ب): «فقال تعالى حاكماً حكماً عامًّا في جميع الأيمان».
(٢) في (ب): «وما به الكفارة». (٣) في (ب): «أمرها».
(٤) في (ب): «من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة».

ما يشقُّ عليه ويستمرُّ هٰذا الأمر منكنَّ، ﴿فإنَّ الله هو مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعد ذٰلك ظهيرٌ﴾؛ أي: الجميع أعوانٌ للرسول مظاهرون. ومَنْ كان هٰؤلاء أنصاره[١]؛ فهو المنصور، وغيره إن يناوئه؛ فهو مخذولٌ[٢]، وفي هٰذا أكبر فضيلة وشرفٍ لسيِّد المرسلين؛ حيث جعل الباري نفسه الكريمة وخواصَّ خلقه أعواناً لهٰذا الرسول الكريم. وفيه[٣] من التَّحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى.

﴿٥﴾ ثم خوَّفهما أيضاً بحالةٍ تشقُّ على النساء غاية المشقَّة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيءٍ عليهنَّ، فقال: ﴿عسى ربُّه إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبْدِلَه أزواجاً خيراً منكنَّ﴾؛ أي: فلا ترفعْنَ عليه؛ فإنَّه لو طلَّقكنَّ لا يضيق عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكنَّ؛ فإنَّه سيجد[٤] ويبدله الله أزواجاً خيراً منكنَّ ديناً وجمالاً، وهٰذا من باب التعليق الذي لم يوجد ولا يلزمُ وجودُه؛ فإنَّه ما طلقهنَّ، ولو طلَّقهنَّ؛ لكان ما ذكره الله من هٰذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان وهو القيام بالشرائع الباطنة من العقائد وأعمال القلوب، والقنوت وهو دوام الطاعة واستمرارها. ﴿تائباتٍ﴾: عمَّا يكرهه الله، فوصفهنَّ بالقيام بما يحبُّه الله والتوبة عما يكرهه الله. ﴿ثيباتٍ وأبكاراً﴾[٥]؛ أي: بعضهنَّ ثَيِّبٌ وبعضهنَّ أبكارٌ؛ ليتنوَّع ﷺ فيما يحبُّ. فلمَّا سمعن رضي الله عنهنَّ هٰذا التخويف والتأديب؛ بادرنَ إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هٰذا الوصف منطبقاً عليهنَّ، فصرن أفضل نساء المؤمنين. [وفي هذا دليلٌ على أنَّ اللّهَ تعالى لا يختار لرسوله إلاَّ أكملَ الأحوال وأعلى الأمورِ، فلمّا اختار اللّهُ لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دلَّ على أنهنَّ خيرُ النساء وأكملهن][٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾.

﴿٦﴾ أي: يا مَن منَّ الله عليهم بالإيمان! قوموا بلوازمه وشروطه، فَـ﴿قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ موصوفةً بهٰذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها

---

(١) في (ب): «أعوانه».
(٢) في (ب): «وغيره ممّن يناوئه مخذول».
(٣) في (ب): «وهذا فيه».
(٤) في (ب): «فإنه سيلقى».
(٥) كذا في النسختين. سقط قوله: ﴿عابدات سائحات﴾.
(٦) زيادة من هامش (ب).

أمر الله[١] امتثالاً ونهيه اجتناباً والتوبة عمَّا يُسْخِطُ الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم وإجبارهم على أمر الله؛ فلا يسلم العبد إلَّا إذا قام بما أمر الله به في نفسه وفيمن تحت ولايته[٢] من الزوجات والأولاد وغيرهم ممَّن هم تحت ولايته وتصرُّفه، ووصف الله النار بهٰذه الأوصاف؛ ليزجر عباده عن التَّهاون بأمره، فقال: ﴿وَقودها الناسُ والحجارةُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّكم وما تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جهنَّم أنتم لها وارِدونَ﴾، ﴿عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ﴾؛ أي: غليظةٌ أخلاقُهم، شديدٌ[٣] انتهارُهم يفزعون بأصواتهم ويزعجون[٤] بمرآهم ويهينون أصحابَ النار بقوَّتهم، وينفِّذون[٥] فيهم أمرَ الله الذي حتم عليهم بالعذاب[٦]، وأوجب عليهم شدَّة العقاب، ﴿لا يعصونَ اللهَ ما أَمَرَهم ويفعلون ما يُؤمرونَ﴾: وهٰذا فيه أيضاً مدحٌ للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كلِّ ما أمرهم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾.

﴿٧﴾ أي: يوبِّخ أهل النار يوم القيامة بهٰذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يا أيُّها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾؛ أي: فإنَّه ذهب وقت الاعتذار وزال نفعه، فلم يبقَ الآنَ إلَّا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدِّموا إلَّا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائِهِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ[٧] إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾.

﴿٨﴾ قد أمر الله بالتوبة النَّصوح في هٰذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامةِ بنور إيمانهم، ويمشون بضيائِهِ، ويتمتَّعون بروحِهِ وراحته، ويشفِقون إذا طُفِئَتِ الأنوار التي تُعطى

---

(١) في (ب): «بإلزامها أمر الله والقيام بأمره». (٢) في (ب): «وفيما يدخل تحته ولايته».
(٣) في (ب): «عظيم». (٤) في (ب): «ويخيفون».
(٥) في (ب): «ويمتثلون». (٦) في (ب): «العذاب».
(٧) طمس الذي في (أ). وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: إنك على كل شيء قدير.

المنافقين، ويسألون الله أن يُتِمَّ لهم نورَهم، فيستجيب الله دعوتَهم، ويوصلهم بما[١] معهم من النور واليقين إلى جناتِ النعيم وجوار الربِّ الكريم، وكلُّ هٰذا من آثار التوبة النَّصوح، والمراد بها التَّوبة العامَّة الشاملة لجميع الذُّنوب[٢]، التي عقدها العبدُ لله، لا يريد بها إلَّا وجه الله[٣] والقرب منه، ويستمرُّ عليها في جميع أحواله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿٩﴾ يأمر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم في ذٰلك، وهٰذا شاملٌ لجهادهم بإقامة الحجَّة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة[٤] وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يُجيبَ دعوةَ اللهِ وينقادَ لحكمه؛ فإنَّ هٰذا يجاهدُ ويغلظُ له، وأما المرتبة الأولى؛ فتكون بالتي هي أحسنُ؛ فالكفَّار والمنافقون لهم عذابٌ في الدُّنيا بتسليط الله لرسوله وحزبِهِ عليهم وعلى جهادهم، وعذاب النار في الآخرة ﴿وبئس المصير﴾: الذي يصير إليها كل شقيٍّ خاسر.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا[٥] صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

هٰذان المثلان اللَّذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين؛ ليبيِّن لهم أنَّ اتِّصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيدُه شيئاً، وأنَّ اتِّصال المؤمن بالكافر لا يضرُّه شيئاً مع قيامه بالواجب عليه، فكأنَّ في ذٰلك إشارةً وتحذيراً لزوجات النبيِّ ﷺ عن المعصية، وأنَّ اتصالهنَّ به ﷺ لا ينفعهنَّ شيئاً مع الإساءة، فقال:

---

(١) في (ب): «ما معهم».
(٢) في (ب): «الشاملة للذنوب كلِّها».
(٣) في (ب): «إلا وجهه».
(٤) في (ب): «بإقامة الحجة والموعظة الحسنة».
(٥) في (أ) طمس؛ ولعله إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿١٠﴾ ﴿ضَرَبَ الله مثلا للذين كَفَروا امرأة نوح وامرأة لوطٍ كانتا﴾؛ أي: المرأتان ﴿تحت عبدينِ من عبادِنا صالِحَيْنِ﴾: وهما نوحٌ ولوطٌ عليهما السلام، ﴿فخانَتاهما﴾: في الدين؛ بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهٰذا المراد بالخيانة، لا خيانة النَّسب والفراش؛ فإنَّه ما بغت امرأةُ نبيٍّ قطُّ، وما كان الله ليجعلَ امرأةَ أحدٍ من أنبيائه بَغِيًّا، ﴿فلم يُغنيا﴾؛ أي: نوحٌ ولوطٌ ﴿عنهما﴾؛ أي: عن امرأتيهما، ﴿من اللهِ شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادْخُلا النارَ مع الدَّاخِلين﴾.

﴿١١﴾ ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأةَ فرعونَ﴾: وهي آسيةُ بنتُ مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالتْ ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنَّة ونَجِّني من فرعونَ وعملِهِ ونجِّني من القوم الظَّالمين﴾: فوصفها الله بالإيمان والتضرُّع لربِّها وسؤالها[(١)] أجلَّ المطالب، وهو دخول الجنَّة ومجاورة الربِّ الكريم، وسؤالها أن ينجِّيَها [اللَّهُ] من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ومن فتنة كلِّ ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشتْ في إيمانٍ كامل وثباتٍ تامٍّ ونجاةٍ من الفتن، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يَكْمُلْ من النساء إلَّا مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مزاحم، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ. وفضلُ عائشةَ على النساء كفضل الثريدِ على سائر الطعام»[(٢)].

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿ومريمَ ابنة عمرانَ التي أحصنتْ فَرْجَها﴾؛ أي: حفظته وصانته عن الفاحشة؛ لكمال ديانتها وعفَّتها ونزاهتها، ﴿فنَفَخْنا فيه من رُوحنا﴾: بأن نَفَخَ جبريل عليه السلام في جيب دِرْعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى عليه السلام الرسول الكريم والسيد العظيم، ﴿وصَدَّقَتْ بكلماتِ ربِّها وكتبِهِ﴾: وهٰذا وصفٌ لها بالعلم والمعرفة؛ فإنَّ التصديق بكلمات الله يشمل كلماتِهِ الدينيَّة والقدريَّة، والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصلُ التَّصديق، ولا يكون ذٰلك إلَّا بالعلم والعمل، ولهٰذا قال: ﴿وكانت من القانتينَ﴾؛ أي: المداومين على طاعة الله[(٣)] بخشيةٍ وخشوع. وهٰذا وصفٌ لها بكمال العمل؛ فإنَّها رضي الله عنها صدِّيقةٌ. والصدِّيقيَّة هي كمال العلم والعمل.

تمت [ولله الحمد].

❃ ❃ ❃

---

(١) في (ب): «والتضرّع لربها وسؤالها لربِّها».

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١) عن أبي موسى دون ذكر خديجة.

(٣) في (ب): «المطيعين لله، المداومين على طاعته».

تفسير سورة الملك

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾[1] ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿تبارك الذي بيده الملكُ﴾؛ أي: تعاظم وتعالى وكَثُرَ خيرُه وعمَّ إحسانه؛ من عظمته أنَّ بيده ملك العالم العلويِّ والسفليِّ، فهو الذي خلقه ويتصرَّف فيه بما شاء من الأحكام القدريَّة والأحكام الدينيَّة التابعة لحكمته. ومن عظمته كمالُ قدرته التي يقدر بها على كلِّ شيءٍ وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة؛ كالسماوات والأرض.

﴿٢﴾ و﴿خَلَقَ الموتَ والحياةَ﴾؛ أي: قدَّر لعباده أن يُحْيِيَهم ثم يُميتهم؛ ﴿لِيَبْلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، وذٰلك أنَّ الله[2] خلق عباده وأخرجهم لهٰذه الدار، وأخبرهم أنَّهم سيُنقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره؛ فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل؛ أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله؛ فله شرُّ الجزاء. ﴿وهو العزيز﴾: الذي له العزَّة كلُّها، التي قهر بها جميع الأشياء وانقادتْ له المخلوقاتُ. ﴿الغفور﴾: عن المسيئين والمقصِّرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا؛ فإنَّه يغفر ذنوبهم، ولو بلغتْ عنان السماء، ويستُرُ عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

﴿٣﴾ ﴿الذي خلق سبع سمٰواتٍ طباقاً﴾؛ أي: كل واحدةٍ فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خَلْقِ الرحمٰن من

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿وهو حسير﴾.
(٢) في (ب): «فإن الله».

تفاوتٍ﴾؛ أي: خلل ونقص، وإذا انتفى النقص من كل وجهٍ؛ صارت حسنةً كاملةً متناسبةً من كلِّ وجه في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من الشمس [والقمر] والكواكب النيِّرات الثوابت منهنَّ والسيارات، ولمَّا كان كمالُها معلوماً؛ أمر تعالى بتكرار النظر إليها والتأمُّل في أرجائها؛ قال: ﴿**فارجِع البصرَ**﴾؛ أي: أعده إليها ناظراً معتبراً، ﴿**هل ترى من فُطورٍ**﴾؟ أي: نقص واختلال.

﴿٤﴾ ﴿**ثم ارجِعِ البصرَ كرَّتين**﴾: [و] المراد بذلك كثرة التكرار، ﴿**ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسيرٌ**﴾؛ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرَّح بذكر حسنها، فقال:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا[1] لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾
وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾
تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ
فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا
كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

﴿٥﴾ أي: ولقد جمَّلنا ﴿**السماء الدُّنيا**﴾: التي ترونَها وتليكم، ﴿**بمصابيحَ**﴾: وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء؛ فإنَّه لولا ما فيها من النُّجوم؛ لكانت سقفاً مظلماً لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينةً للسماء، وجمالاً ونوراً وهدايةً يُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، ولا ينافي إخباره أنَّه زيَّن السماء الدُّنيا بمصابيح أن يكون كثيرٌ من النجوم فوق السماوات السبع؛ فإنَّ السماواتِ شفافةٌ، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدُّنيا وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿**وجعلناها**﴾؛ أي: المصابيح ﴿**رجوماً للشياطين**﴾: الذين يريدون استراقَ خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسةً للسماء عن تلقُّف الشياطين أخبار الأرض؛ فهذه الشهب التي تُرمى من النُّجوم أعدها الله في الدُّنيا للشياطين، ﴿**وأعتدنا لهم**﴾: في الآخرة ﴿**عذابَ السعير**﴾: لأنَّهم تمرَّدوا على الله، وأضلُّوا عباده.

﴿٦﴾ ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم قد أعدَّ الله لهم عذاب السعير؛

---

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿ما كُنَّا في أصحاب السعير﴾.

فلهٰذا[١] قال: ﴿وللذين كفروا بربِّهم عذابُ جهنَّم وبئس المصير﴾: التي يُهان بها أهلُها[٢] غايةَ الهوان.

﴿٧﴾ ﴿إذا أُلقوا فيها﴾: على وجه الإهانةِ والذُّلِّ، ﴿سمعوا لها شهيقاً﴾؛ أي: صوتاً عالياً فظيعاً.

﴿٨﴾ ﴿تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظِ﴾؛ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً وتتقطَّع من شدة غيظها على الكفار؛ فما ظنُّك ما تفعل بهم إذا حُصِّلُوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كلَّما أُلقي فيها فوجٌ سألهم خَزَنَتُها ألم يأتِكم نذيرٌ﴾؛ أي: حالكم هٰذه واستحقاقكم النار كأنكم لم تخبَّروا عنها ولم تحذِّركم النذرُ منها.

﴿٩﴾ ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقُلْنا ما نَزَّلَ اللّه من شيءٍ إن أنتم إلَّا في ضلالٍ كبيرٍ﴾: فجمعوا بين تكذيبهم الخاص والتكذيب العامِّ بكلِّ ما أنزل اللّه، ولم يكفهم ذٰلك، حتى أعلنوا بضلال الرُّسل المنذرين، وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرَّد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً؛ فأيُّ عنادٍ وتكبُّر وظلم يشبه هٰذا؟!

﴿١٠﴾ ﴿وقالوا﴾: معترفين بعدم أهليَّتهم للهدى والرشاد: ﴿لو كنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كنَّا في أصحاب السَّعير﴾: فنفَوْا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل اللّه وجاءتْ به الرسل، والعقلُ الذي ينفع صاحبَه ويوقفُه على حقائق الأشياء وإيثار الخير والانزجار عن كلِّ ما عاقبته ذميمةٌ، فلا سمعَ لهم ولا عقلَ. وهٰذا بخلاف أهل اليقين والعرفان وأرباب الصدق والإيمان؛ فإنَّهم أيَّدوا إيمانهم بالأدلَّة السمعيَّة، فسمعوا ما جاء من عند اللّه وجاء به رسولُ اللّه علماً ومعرفةً وعملاً، والأدلَّة العقليَّة المعرِّفة للهدى من الضَّلال، والحسن من القبيح، والخير من الشرِّ، وهم في الإيمان بحسب ما منَّ اللّه عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول؛ فسبحان مَن يختصُّ بفضله مَن يشاء، ويمنُّ على مَن يشاء من عباده، ويخذل مَن لا يصلُحُ للخير.

﴿١١﴾ قال تعالى عن هٰؤلاء الدَّاخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فاعْتَرَفوا بذَنبِهِم فسُحقاً لأصحاب السَّعير﴾؛ أي: بعداً لهم وخسارةً وشقاءً؛ فما

---

(١) في (ب): «ولهذا».

(٢) في (ب): «الذي يهان به أهله».

أشقاهم وأرداهم؛ حيث فاتهم ثواب اللّه، وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم، وتَطَّلِعُ على أفئدتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر حالة الأشقياء الفجّار؛ ذكر وصف الأبرار السعداء[١]، فقال: ﴿إنَّ الذين يخشَوْنَ ربَّهم بالغيب﴾؛ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطَّلع عليهم فيها إلَّا اللّه؛ فلا يقدِمون على معاصيه، ولا يقصِّرون عمَّا أمرهم به[٢]. ﴿لهم مغفرةٌ﴾: لذنوبهم، وإذا غَفَرَ اللّه ذنوبَهم؛ وقاهم شرَّها ووقاهم عذاب الجحيم. ﴿ولهم أجرٌ كبيرٌ﴾: وهو ما أعدَّه اللّه لهم في الجنة من النعيم المقيم والملك الكبير واللذَّاتِ المتواصلات والقصور والمنازل العاليات[٣] والحور الحسان والخدم والولدان، وأعظم من ذٰلك وأكبر، رضا الرحمٰن الذي يُحِلُّه على ساكني[٤] الجنان.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾.

﴿١٣﴾ هٰذا إخبارٌ من اللّه بسعة علمه وشمول لطفه، فقال: ﴿وأسِرُّوا قولَكم أو اجْهَروا به﴾؛ أي: كلّها سواءٌ لديه لا يخفى عليه منها خافيةٌ، فـ﴿إنَّه عليمٌ بذات الصُّدور﴾؛ أي: بما فيها من النيَّات والإرادات؛ فكيف بالأقوال والأفعال التي تُسمع وتُرى؟!

﴿١٤﴾ ثم قال مستدلاً بدليل عقليٍّ على علمه: ﴿ألا يعلمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ فمن خَلَقَ الخلقَ وأتقنه وأحسنه؛ كيف لا يعلمه؟! ﴿وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾: الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر والخبايا والخفايا والغيوب، ﴿وهو الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى﴾، ومن معاني اللطيف أنَّه الذي يَلْطُفُ بعبدِهِ ووليِّه، فيسوق إليه البِرَّ والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصِمُه من الشرِّ من حيث لا يحتسب، ويرقِّيه إلى أعلى المراتب بأسبابٍ لا تكون من العبد[٥] على بالٍ، حتى إنَّه يذيقُه المكارِهَ

---

(١) في (ب): «ذكر حالة السعداء الأبرار». (٢) في (ب): «فيما أمر به».
(٣) في (ب): «واللذات والمشتهيات والقصور العاليات».
(٤) في (ب): «أهل». (٥) في (ب): «لا تكون منه».

ليوصله[١] بها إلى المحابِّ الجليلة والمطالب[٢] النبيلة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: هو الذي سخَّر لكم الأرضَ وذلَّلها؛ لتدركوا منها كلَّ ما تعلقت به حاجتُكم من غرسٍ وبناءٍ وحرثٍ وطرقٍ يُتَوَصَّلُ بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فامشوا في مناكِبِها﴾؛ أي: لطلب الرزق والمكاسب، ﴿وكُلوا من رزقِهِ وإليه النشورُ﴾؛ أي: بعد أن تنتقلوا من هٰذه الدار التي جعَلَها الله امتحاناً وبلغةً يُتَبَلَّغُ بها إلى الدار الآخرة؛ تُبعثون بعد موتكم وتُحشرون إلى الله؛ ليجازِيَكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ[٣] فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٦﴾ هٰذا تهديدٌ ووعيدٌ لمن استمرَّ في طغيانه وتعدِّيه وعصيانه الموجب للنَّكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿ءأمنتُم مَن في السَّماء﴾: وهو الله تعالى العالي على خلقه، ﴿أن يخسِفَ بكم الأرضَ فإذا هي تمورُ﴾: بكم وتضطربُ حتى تَهْلِكوا وتَتْلَفوا[٤].

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿أم أمنتُم مَن في السماء أن يرسلَ عليكم حاصباً﴾؛ أي: عذاباً من السماء يحصِبُكم وينتقمُ الله منكم، ﴿فستعلمون كيف نذيرِ﴾؛ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتْكم به الرسل والكتب؛ فلا تحسَبوا أنَّ أمنكم من الله أن يعاقِبَكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعُكم، فستجدون عاقبة أمرِكم سواءً طال عليكم الأمدُ[٥] أو قَصُرَ؛ فإنَّ مَن قبلكم كذَّبوا كما كذَّبتم، فأهلكهم الله تعالى؛ فانظُروا كيف إنكارُ الله عليهم؛ عاجلهم بالعقوبة الدنيويَّة قبل عقوبة الآخرة؛ فاحذَروا أن يصيبَكم ما أصابَهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ليتوصل». (٢) في (ب): «والمقامات النبيلة».
(٣) في (أ) إلى قوله: (فكيف كان نكير). وفي (ب) ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «حتى تتلفكم وتهلككم». (٥) في (ب): «الزمان».

﴿١٩﴾ وهٰذا عتابٌ وحثٌّ على النظر إلى حالة الطير التي سخَّرها اللّه وسخَّر لها الجوَّ والهواء؛ تصفُّ فيه أجنحتها للطيران وتقبِضُها للوقوع، فتظلُّ سابحةً في الجوِّ متردِّدة فيه بحسب إرادتها وحاجتها، ﴿ما يمسِكُهُنَّ إلَّا الرحمٰنُ﴾: فإنَّه الذي سخَّر لهنَّ الجوَّ وجعل أجسادها وخلقتها[1] في حالة مستعدةٍ للطيران؛ فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها؛ دلَّته على قدرة الباري وعنايته الربانيَّة، وأنَّه الواحدُ الأحدُ الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له. ﴿إنَّه بكلِّ شيءٍ بصيرٌ﴾: فهو المدبِّر لعباده بما يليق بهم وتقتضيه حكمته.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحقِّ: ﴿أمَّن هٰذا الذي هو جندٌ لكم ينصُرُكم من دونِ الرحمٰن﴾؛ أي: ينصُرُكم إذا أرادَ الرحمٰن بكم[2] سوءاً فيدفعه عنكم؛ أي: من الذي ينصُرُكم على أعدائكم غير الرحمٰن؛ فإنَّه تعالى هو الناصر المعزُّ المذلُّ، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبدٍ لم ينفعوه بمثقال[3] ذرَّةٍ على أيِّ عدوٍّ كان؛ فاستمرارُ الكافرين على كفرهم بعد أن عَلِموا أنَّه لا ينصُرُهم أحدٌ من دون الرحمٰن غرورٌ وسفهٌ.

﴿٢١﴾ ﴿أمَّن هٰذا الذي يرزقُكُم إن أمسَكَ رزقَه﴾؛ أي: الرزق كلُّه من اللّه؛ فلو أمسك عنكم الرزق؛ فمن الذي يرسله لكم؟ فإنَّ الخلق لا يقدرون على رزق أنفسِهِم؛ فكيف بغيرهم؟! فالرازق المنعم الذي لا يصيب العبادَ نعمةٌ إلَّا منه هو الذي يستحقُّ أن يُفْرَدَ بالعبادة، ولٰكنْ الكافرون ﴿لَجُّوا﴾؛ أي: استمروا ﴿في عُتُوٍّ﴾؛ أي: قسوةٍ وعدم لينٍ للحق، ﴿ونُفورٍ﴾؛ أي: شرودٍ عن الحقِّ.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: أيُّ الرجلين أهدى؛ من كان تائهاً في الضَّلال غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه فصار الحقُّ عنده باطلاً والباطل حقًّا، ومن كان عالماً بالحقِّ، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟! فبمجرَّد

---

(١) في (ب): «جعل أجسادهن وخلقتهن». (٢) في (ب): «إذا أراد بكم الرحمٰن».
(٣) في (ب): «مثقال».

النظر إلى حال الرجلين؛ يعلم الفرق بينهما والمهتدي من الضالِّ منهما. والأحوالُ أكبرُ شاهدٍ من الأقوال.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ[١] وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى مبيِّناً أنَّه المعبودُ وحدَه وداعياً عباده إلى شكره وإفراده بالعبادة: ﴿هو الذي أنشأكم﴾؛ أي: أوجدكم من العدم؛ من غير معاونٍ له ولا مظاهر، ولما أنشأكم؛ كمَّل لكم الوجود بالسمعِ والأبصارِ والأفئدةِ، وهٰذه الثلاثة هي أفضل[٢] أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانيَّة، ولٰكنَّكم[٣] مع هٰذا الإنعام ﴿قليلاً ما تشكُرون﴾ الله، قليلٌ منكم الشاكر، وقليلٌ منكم الشكر.

﴿٢٤﴾ ﴿قل هو الذي ذَرَأكُم في الأرض﴾؛ أي: بثَّكم في أقطارها، وأسكنَكم في أرجائها، وأمركم ونهاكم، وأسدى عليكم من النِّعم ما به تنتفعون، ثم بعد ذٰلك يحشُرُكم ليوم القيامةِ، ولٰكنَّ هٰذا الوعد بالجزاء ينكِرُه هٰؤلاء المعاندون.

﴿٢٥﴾ ﴿ويقولون﴾: تكذيباً: ﴿متى هٰذا الوعدُ إن كنتُم صادقينَ﴾؟ جعلوا علامة صدقِهِم أنْ يُخْبِروهم[٤] بوقت مجيئِهِ، وهٰذا ظلمٌ وعنادٌ.

﴿٢٦﴾ فإنما ﴿العلم عند الله﴾: لا عند أحدٍ من الخلق، ولا ملازمة بين هٰذا الخبر[٥] وبين الإخبار بوقته؛ فإنَّ الصدق يُعْرَفُ بأدلَّته، وقد أقام الله من الأدلَّة والبراهين على صحَّته ما لا يبقى معه أدنى شكٍّ لمن ألقى السمع وهو شهيدٌ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا[٦] وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يعني أنَّ محلَّ تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدُّنيا؛ فإذا كان

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾. وفي ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «أنفع». (٣) في (ب): «ولكنه».
(٤) في (ب): «أن يخبروا». (٥) في (ب): «بين صدق هذا الخبر».
(٦) في (أ) إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾؛ أي: قريباً؛ ساءهم ذٰلك وأفظعهم وأقلقهم[١]، فتغيَّرت لذٰلك وجوهُهم، ووُبِّخوا على تكذيبهم، وقيل لهم: ﴿هٰذا الذي كنتُم به تَدَّعونَ﴾: فاليوم رأيتموه عياناً، وانجلى لكم الأمر، وتقطَّعت بكم الأسباب، ولم يبقَ إلَّا مباشرة العذاب[٢].

﴿٢٨﴾ ولما كان المكذِّبون للرسول ﷺ الذين يردُّون دعوته ينتظرون هلاكَه ويتربَّصون به ريب المنون؛ أمره اللّه أن يقولَ لهم: إنَّكم وإن حصلتْ لكم أمنيتُكم[٣] و﴿أهلكني اللّه ومن معي﴾: فليس ذٰلك بنافع لكم شيئاً؛ لأنَّكم كفرتم بآيات اللّه، واستحققتُم العذاب؛ فمن يجيرُكم ﴿من عذابٍ أليم﴾: قد تحتَّم وقوعُه بكم؛ فإذاً تعبُكم وحرصُكم على هلاكي غير مفيدٍ ولا مجدٍ لكم شيئاً.

﴿٢٩﴾ ومن قولهم: إنَّهم على هدى والرسول على ضلالٍ؛ أعادوا في ذٰلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر اللّه نبيَّه أن يُخبِرَ عن حاله وحال أتباعه ما به يتبيَّن لكلِّ أحدٍ هداهم وتقواهم، وهو أنْ يقولوا: ﴿آمنَّا به وعليه تَوَكَّلْنا﴾: والإيمانُ يشملُ التصديق الباطن والأعمال الباطنة والظاهرة، ولمَّا كانت الأعمالُ وجودُها وكمالُها متوقفة على التوكُّل؛ خصَّ اللّه التوكُّل من بين سائر الأعمال، وإلَّا؛ فهو داخلٌ في الإيمان، ومن جملة لوازمه؛ كما قال تعالى: ﴿وعلى اللّه فتوكَّلوا إن كُنتُم مؤمنينَ﴾؛ فإذا كانت هٰذه حال الرسول وحال مَن اتَّبعه، وهي الحال التي تتعيَّن للفلاح وتتوقَّف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدِّها؛ فلا إيمان لهم ولا توكُّل؛ عُلِمَ بذٰلك مَن هو على هدىً ومن هو في ضلال مبينٍ.

﴿٣٠﴾ ثم أخبر عن انفراده بالنِّعم، خصوصاً الماء[٤] الذي جَعَلَ اللّه منه كلَّ شيءٍ حيٍّ، فقال: ﴿قل أرأيتُم إن أصبحَ ماؤكم غَوْراً﴾؛ أي: غائراً، ﴿فمن يأتيكم بماءٍ مَعينٍ﴾: تشربون منه وتسقونَ أنعامكم وأشجارَكم وزُروعكم؟ وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: لا يقدر أحدٌ على ذٰلك غير اللّه تعالى.

تم تفسير سورة الملك والحمد للّه[٥].

---

(١) في (ب): «وقلقل أفئدتهم».
(٢) في (ب): «ولم يبقَ إلاّ مباشرة العذاب، وتقطعت بكم الأسباب».
(٣) في (ب): «أنتم وإن حصلت لكم أمانيكم».
(٤) في (ب): «بالماء».
(٥) في (ب): «تمّت ولله الحمد».

تفسير سورة نٓ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تُكْتَبُ بها أنواع العلوم، ويسطرُ بها المنثور والمنظوم[١]، وذٰلك أنَّ القلم وما يسطرُ[٢] به من أنواع الكلام من آياته[٣] العظيمة، التي تستحقُّ أن يُقْسِمَ [اللَّهُ] بها على براءة نبيِّه محمدٍ ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفى عنه ذٰلك[٤] بنعمةِ ربِّه عليه وإحسانه؛ حيث منَّ عليه بالعقل الكامل والرأي الجَزْل والكلام الفَصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام، وهٰذا هو السعادة في الدُّنيا.

﴿٣﴾ ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وإنَّ لك لأجرًا غيرَ ممنونٍ﴾؛ أي: لأجراً عظيماً كما يفيده التنكير، غير مقطوع[٥]، بل هو دائمٌ مستمرٌّ، وذٰلك لما أسلفه ﷺ من الأعمال الصالحة والأخلاق الكاملة والهداية إلى كلِّ خير.

﴿٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيمٍ﴾؛ أي: عليًا[٦] به، مستعلياً بخُلُقك الذي مَنَّ اللَّه عليك به. وحاصل خُلُقِهِ العظيم ما فسَّرته به أمُّ المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها لمن سألها عنه، فقالت: كان خلقه القرآن[٧]. وذٰلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلينَ﴾، ﴿فبما رحمةٍ من اللَّه لِنتَ لهم...﴾ الآية، ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكُم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم[٨]...﴾ الآية، وما أشبه ذٰلك من الآيات الدالاَّت على اتِّصافه ﷺ بمكارم الأخلاق،

---

(١) في (ب): «المنظوم والمنثور».
(٢) في (ب): «يسطرون به».
(٣) في (ب): «من آيات الله».
(٤) في (ب): «فنفى عنه الجنون».
(٥) في (ب): «﴿وإن لك لأجراً﴾؛ أي: عظيماً كما يفيده التنكير ﴿غير ممنون﴾؛ أي: مقطوع».
(٦) في (ب): «عالياً به».
(٧) أخرجه مسلم (٧٤٦).
(٨) في (ب): «ذكر الآية إلى قوله: ﴿رءوف رحيم﴾».

والآيات الحاثَّات على كلِّ خُلُقٍ جميل[١]، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كلِّ خصلة منها في الذُّروة العليا، فكان [ﷺ] سهلاً ليناً قريباً من الناس، مجيباً لدعوة مَنْ دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب مَنْ سأله لا يحرمه ولا يردُّه خائباً. وإذا أراد أصحابُهُ منه أمراً؛ وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذورٌ، وإن عَزَمَ على أمرٍ؛ لم يستبدَّ به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبلُ من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشِرُ جليساً إلَّا أتمَّ عشرةٍ وأحسنها، فكان لا يعبسُ في وجهه، ولا يُغْلِظُ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فَلَتات لسانِهِ، ولا يؤاخذه بما يصدُرُ منه من جفوةٍ، بل يُحْسِنُ إليه[٢] غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

﴿٥ ـ ٦﴾ فلمَّا أنزله اللّه في أعلى المنازل [من جميع الوجوه]، وكان أعداؤه ينسِبون إليه أنَّه مجنونٌ مفتونٌ؛ قال: ﴿فستُبْصِرُ ويُبْصِرونَ. بأيِّكُم المفتونُ﴾: وقد تبيَّن أنَّه أهدى الناس وأكملهم لنفسه ولغيره، وأنَّ أعداءه أضلُّ الناس وشرُّ الناس للناس[٣]، وأنَّهم هم الذين فتنوا عبادَ اللّه وأضلُّوهم عن سبيله، وكفى بعلم اللّه بذلك؛ فإنَّه [هو] المحاسب المجازي.

﴿٧﴾ ﴿إنَّ ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدينَ﴾: وهٰذا فيه تهديدٌ للضالِّين، ووعدٌ للمهتدين، وبيانٌ لحكمة اللّه؛ حيث كان يهدي مَنْ يَصْلُحُ للهداية دون غيره.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ[٤] ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

﴿٨﴾ يقول اللّه تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿فلا تُطِعِ المكذِّبين﴾: الذين كذَّبوك وعاندوا الحقَّ؛ فإنَّهم ليسوا أهلاً لأن يُطاعوا؛ لأنَّهم لا يأمرون إلَّا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلَّا الباطل؛ فالمطيع لهم مُقْدِمٌ على ما يضرُّه، وهٰذا عامٌّ في كلِّ مكذِّب وفي كلِّ طاعةٍ ناشئةٍ عن التكذيب، وإن كان السياقُ في شيءٍ

---

(١) في (ب): «الحاثات على الخلق العظيم». (٢) في (ب): «إلى عشيره».
(٣) في (ب): «أضل الناس للناس».
(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

خاصٌ، وهو أنَّ المشركين طلبوا من النبيِّ ﷺ أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم ويسكتوا عنه.

﴿٩﴾ ولهٰذا قال: ﴿ودُّوا﴾؛ أي: المشركون، ﴿لو تُدْهِنُ﴾؛ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه: إمَّا بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعيَّن الكلام فيه ﴿فَيُدْهِنونَ﴾، ولٰكن اصدعْ بأمر الله، وأظهرْ دين الإسلام؛ فإنَّ تمام إظهاره نقضُ[١] ما يضادُّه وعيب ما يناقضه.

﴿١٠﴾ ﴿ولا تطِعْ كلَّ حلاَّفٍ﴾؛ أي: كثير الحلف؛ فإنَّه لا يكون كذٰلك إلَّا وهو كذَّابٌ، ولا يكون كذاباً إلَّا وهو ﴿مَهينٌ﴾؛ أي: خسيس النفس، ناقصُ الهمة، ليس له رغبةٌ[٢] في الخير، بل إرادتُه في شهوات نفسه الخسيسة.

﴿١١﴾ ﴿همَّازٍ﴾؛ أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم[٣] بالغيبة والاستهزاء وغير ذٰلك، ﴿مشاءٍ بنميم﴾؛ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقلُ كلام بعضِ الناس لبعض لقصد الإفسادِ بينهم وإيقاع العداوة والبغضاء.

﴿١٢﴾ ﴿منَّاعٍ للخيرِ﴾: الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزَّكَوات وغير ذٰلك. ﴿معتدٍ﴾: على الخلق؛ يظلِمُهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم[٤]. ﴿أثيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم والذُّنوب المتعلِّقة في حقِّ الله [تعالى].

﴿١٣﴾ ﴿عُتُلٍّ بعدَ ذٰلك﴾؛ أي: غليظٍ شرس الخلق، قاسٍ، غير منقادٍ للحقِّ. ﴿زنيم﴾؛ أي: دعيٌّ ليس له أصلٌ ولا مادةٌ ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاَق، ولا يرجى منه فلاحٌ. له زِنَمَةٌ؛ أي: علامةٌ في الشرِّ يعرف بها.

﴿١٤﴾ وحاصل هٰذا أنَّ الله تعالى نهى عن طاعة كلِّ حلافٍ كذابٍ خسيس النفس سيِّىءِ الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمِّنة للإعجاب بالنفس، والتكبُّر على الحقِّ وعلى الخَلْق، والاحتقار للناس بالغيبة والنَّميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

﴿١٥﴾ وهٰذه الآياتُ وإن كانت نزلتْ في بعض المشركين؛ كالوليد بن المغيرة أو غيره[٥]؛ لقوله عنه: ﴿أن كان ذا مال وبنينَ. إذا تُتْلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ

---

(١) في (ب): «بنقض».
(٢) في (ب): «همّة».
(٣) في (ب): «كثير العيب والطعن في الناس».
(٤) في (ب): «في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض».
(٥) انظر «فتح الباري» (٨/ ٦٦٢).

﴿الأولينَ﴾؛ أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحقِّ ودَفَعه حين جاءه وجعله من جملة أساطير الأولين التي يمكنُ صدقُها وكذبُها؛ فإنَّها عامةٌ في كلِّ من اتَّصف بهٰذا الوصف؛ لأنَّ القرآن نزل لهداية الخلق كلِّهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربَّما نزل بعض الآياتِ في سببٍ أو [في] شخصٍ من الأشخاص، لتتَّضح به القاعدةُ العامةُ، ويُعْرَفَ به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامَّة.

﴿١٦﴾ ثم توعَّد تعالى مَنْ جرى منه ما وَصَفَ اللّه بأن اللّه سَيَسِمُهُ ﴿على الخرطوم﴾: في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً يكون عليه سِمَةً وعلامةً في أشقِّ الأشياء عليه وهو وجهه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ[(١)] أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ يقول تعالى: إنَّا بَلَوْنا هٰؤلاء المكذِّبين بالخير، وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولدٍ وطول عمرٍ ونحو ذٰلك ممَّا يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربَّما يكون استدراجاً لهم من حيثُ لا يعلمون. فاغترارهم بذٰلك نظيرُ اغترار أصحاب الجنَّة الذين هم فيها شركاء، حين أينعت أشجارها، وزهت ثمارها[(٢)]، وآن وقت صِرامها وجزموا أنَّها في أيديهم وطوع أمرهم، وأنَّه ليس ثَمَّ مانعٌ يمنعهم منها، ولهٰذا أقسموا وحلفوا من غير استثناءٍ أنَّهم سيصرمونها؛ أي: يجذُّونها مصبحين، ولم يَدْروا أنَّ اللّه بالمرصادِ، وأنَّ العذاب سيخلفهم عليها ويبادِرُهم إليها.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿فطاف عليها طائفٌ من ربِّك﴾؛ أي: عذابٌ نزل عليها ليلاً، ﴿وهم نائمونَ﴾: فأبادها، وأتلفها، ﴿فأصبحتْ كالصَّريم﴾؛ أي: كالليل المظلم، وذهبت الأشجار والثمار.

---

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) إلى آخر القصة بعد ذكر الآية (١٩).

(٢) في (ب): «حيث زهت ثمارها، وأينعت أشجارها».

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ هٰذا وهم لا يشعرون بهٰذا الواقع الملم، ولهٰذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا؛ يقول بعضهم لبعض: ﴿اغدوا على حرثِكم إن كنتُم صارمين﴾.

﴿٢٣ ـ ٢٤﴾ ﴿فانطلقوا﴾: قاصدين لها[1]، ﴿وهم يتخافتونَ﴾: فيما بينهم بمنع[2] حقِّ اللّه تعالى، ويقولون: ﴿لا يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكم مسكينٌ﴾؛ أي: بكَّروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذٰلك بمنع الفقراء والمساكين. ومن شدَّة حرصهم وبخلهم أنَّهم يتخافتون بهٰذا الكلام مخافتةً خوفاً أن يَسْمَعَهم أحدٌ فيخبر الفقراء.

﴿٢٥﴾ ﴿وغَدَوْا﴾: في هٰذه الحالة الشنيعة والقسوة وعدم الرحمة ﴿على حردٍ قادرينَ﴾؛ أي: على إمساكٍ ومنعٍ لحقِّ اللّه جازمين بقدرتهم عليها.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ ﴿فلمَّا رأوْها﴾: على الوصف الذي ذَكَرَ اللّه كالصريم، ﴿قالوا﴾: من الحيرة والانزعاج، ﴿إنَّا لضالُّون﴾؛ أي: تائهون عنها، لعلَّها غيرها، فلما تحقَّقوها ورجعت إليهم عقولهم؛ قالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾: منها، فعرفوا حينئذٍ أنَّه عقوبةٌ.

﴿٢٨﴾ فَـ﴿قَالَ أوسطُهم﴾؛ أي: أعدلُهم وأحسنُهم طريقةً: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبِّحونَ﴾؛ أي: تنزِّهون اللّه عما لا يليق به، ومن ذٰلك ظنُّكم أنَّ قدرتكم مستقلةٌ، فلولا استثنيتم وقلتُم[3]: إنْ شاء اللّه، وجعلتم مشيئتكم تابعةً لمشيئتِهِ[4]؛ لما جرى عليكم ما جرى.

﴿٢٩﴾ فَـ﴿قالوا سبحانَ ربِّنا إنَّا كُنَّا ظالمين﴾؛ أي: استدركوا بعد ذٰلك، ولٰكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يُرفع، ولٰكن لعلَّ تسبيحهم هٰذا وإقرارهم على أنفسهم بالظُّلم ينفعهم في تخفيف الإثم ويكونُ توبةً.

﴿٣٠ ـ ٣٢﴾ ولهٰذا ندموا ندامةً عظيمةً، وأقبل ﴿بعضُهم على بعضٍ يتلاومونَ﴾: فيما أجروه وفعلوه، ﴿قالوا يا وَيْلَنا إنا كُنَّا طاغينَ﴾؛ أي: متجاوزين للحدِّ في حقِّ اللّه وحقِّ عباده، ﴿عسى ربُّنا أن يُبْدِلَنا خيراً منها إنَّا إلى ربِّنا راغبونَ﴾: فهم رجوا اللّه أن يبدِّلهم خيراً منها، ووعدوا أن[5] سيرغبون إلى اللّه ويلحُّون عليه في الدُّنيا؛ فإنْ كانوا كما قالوا؛ فالظاهر أنَّ اللّه أبدلهم في الدُّنيا

(١) في (ب): «له».
(٢) في (ب): «ولكن بمنع».
(٣) في (ب): «فقلتم».
(٤) في (ب): «المشيئة الله».
(٥) في (ب): «أنهم».

خيراً منها؛ لأنَّ من دعا اللّه صادقاً ورغب إليه ورجاه؛ أعطاه سؤاله.

﴿٣٣﴾ قال تعالى معظماً[١] ما وقع: ﴿كذلك العذابُ﴾؛ أي: الدنيويُّ لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلبَه اللّه[٢] الشيء الذي طغى به وبغى وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا وأن يزيلَه عنه أحوجَ ما يكون إليه، ﴿ولَعذابُ الآخرةِ أكبرُ﴾: من عذاب الدُّنيا، ﴿لو كانوا يعلمون﴾: فإنَّ مَنْ عَلِمَ ذلك؛ أوجب له الانزجار عن كلِّ سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب[٣].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ[٤] ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٤ ـ ٤١﴾ يخبر تعالى بما أعدَّه للمتَّقين للكُفْرِ والمعاصي، من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأنَّ حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المتَّقين[٥] القانتين لربِّهم، المنقادين لأوامره، المتَّبعين مراضِيَه، كالمجرمين الذين أوضَعوا في معاصيه والكفر بآياتِهِ ومعاندةِ رسلِهِ ومحاربة أوليائِهِ، وأنَّ من ظنَّ أنَّه يسوِّيهم في الثواب؛ فإنَّه قد أساء الحكم، وأنَّ حكمه [حكمٌ] باطلٌ ورأيه فاسدٌ، وأن المجرمين إذا ادَّعوا ذٰلك؛ فليس لهم مستندٌ، لا كتابٌ فيه يدرسون ويتلون أنَّهم من أهل الجنة، وأنَّ لهم ما طلبوا وتخيَّروا، وليس لهم عند اللّه عهدٌ ويمينٌ بالغةٌ إلى يوم القيامةِ أنَّ لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاءُ وأعوانٌ على إدراك ما طلبوا؛ فإنْ كان لهم شركاءُ وأعوانٌ؛ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين. ومن المعلوم أنَّ جميع ذٰلك منتفٍ؛ فليس لهم كتابٌ ولا لهم عهدٌ عند اللّه في النجاة ولا لهم شركاءُ يعينونَهم، فعُلِمَ أنَّ دعواهم باطلةٌ فاسدةٌ. وقوله: ﴿سَلْهُم أيُّهم بذٰلك زعيمٌ﴾؛ أي: أيُّهم الكفيل بهٰذه الدعوى التي تَبَيَّنَ بطلانها؛ فإنَّه لا يمكن أحداً أن يتصدَّر بها ولا يكون زعيماً فيها[٦].

---

(١) في (ب): «مبيِّناً».
(٢) في (ب): «أن يسلب اللّه العبد».
(٣) في (ب): «ويحل العقاب».
(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «المسلمين».
(٦) في (ب): «بهذه الدعوى الفاسدة؛ فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها».

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ[١] وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾.

﴿٤٢ ـ ٤٣﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشفَ فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخُلُ تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاءِ بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبِهُها شيءٌ، ورأى الخلائقُ من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه؛ فحينئذٍ ﴿يُدْعَوْنَ إلى السجود﴾: لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجُدون لله طوعاً واختياراً، ويذهب الفجَّارُ المنافقون ليسجدوا؛ فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصِي البقرِ؛ لا يستطيعون الانحناء، وهٰذا الجزاء من جنس عملهم؛ فإنَّهم كانوا يُدْعَوْنَ في الدُّنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون لا علَّة فيهم؛ فيستكبرون عن ذٰلك، ويأبَوْن؛ فلا تسأل يومئذٍ عن حالهم وسوء مآلهم؛ فإنَّ الله قد سَخِطَ عليهم، وحقَّت عليهم كلمة العذاب، وتقطَّعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة؛ ففي هٰذا ما يزعِجُ القلوب عن المقام على المعاصي ويوجب التدارك مدة الإمكان.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا[٢] سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

﴿٤٤ ـ ٤٥﴾ أي: دعني والمكذِّبين بالقرآن العظيم؛ فإنَّ عليَّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم؛ فسنستدرِجُهم ﴿من حيث لا يعلمونَ﴾: فنُمِدُّهم بالأموال والأولاد، ونُمِدُّهم في الأرزاق والأعمال؛ ليغتروا ويستمرُّوا على ما يضرُّهم، وهٰذا[٣] من كيد الله لهم. وكيدُ الله لأعدائه متينٌ قويٌّ، يبلغ من ضررهم وعقوبتهم كلَّ[٤] مبلغ.

---

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿وهم سالمون﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (أ) إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٣) في (ب): «فإن هذا». (٤) في (ب): «وعذابهم فوق كلِّ مبلغ».

﴿٤٦﴾ ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مَغرَم مُثْقَلون﴾؛ أي: ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لك سببٌ يوجب لهم ذٰلك[١]؛ فإنَّك تعلِّمُهم وتدعوهم إلى الله لمحض مصلحتهم من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرماً يُثْقِلُ عليهم.

﴿٤٧﴾ ﴿أم عندَهم الغيبُ فهم يكتُبون﴾: ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا [فيها] أنَّهم على حقٍّ، وأنَّ لهم الثواب عند الله؛ فهٰذا أمرٌ ما كان، وإنَّما كانت حالهم حال معاندٍ ظالم.

﴿٤٨ ـ ٥٠﴾ فلم يبقَ إلَّا الصبر لأذاهم والتحمُّل لما يصدُرُ منهم والاستمرار على دعوتهم، ولهٰذا قال: ﴿فاصبِرْ لحكم ربِّك﴾؛ أي: لما حكم به شرعاً وقدراً؛ فالحكم القدريُّ يُصْبَرُ على المؤذي منه ولا يُتَلَقَّى بالسخط والجزع، والحكم الشرعيُّ يقابَلُ بالقَبول والتسليم والانقياد [التامِّ] لأمرِهِ. وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوتِ﴾: وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام؛ أي: ولا تشابِهه في الحال التي أوصلَتْه وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومِهِ الصبرَ المطلوب منه وذَهابُه مغاضباً لربِّه، حتى ركب [في] البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيُّهم يلقون؛ لكي تَخِفَّ بهم، فوقعت القرعةُ عليه، فالتقمه الحوتُ وهو مليمٌ. وقوله: ﴿إذ نادى وهو مكظومٌ﴾؛ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو: نادى وهو مغتمٌّ مهتمٌّ، فقال[٢]: لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، فاستجاب الله له، وقَذَفَتْه الحوتُ من بطنها بالعراء وهو سقيمٌ، وأنبت الله عليه شجرةً من يقطينٍ، ولهٰذا قال هنا: ﴿لولا أن تداركَه نعمةٌ من ربِّه لَنُبِذَ بالعراء﴾؛ أي: لَطُرِحَ في العراء، وهي الأرض الخالية، ﴿وهو مذمومٌ﴾: ولٰكنَّ الله تغمَّده برحمته، فَنُبِذَ وهو ممدوحٌ، وصارت حالُه أحسنَ من حاله الأولى، ولهٰذا قال: ﴿فاجتباه ربُّه﴾؛ أي: اختاره واصطفاه ونقَّاه من كلِّ كدرٍ، ﴿فجعله من الصالحين﴾؛ أي: الذين صَلَحَتْ أعمالهم وأقوالهم ونيَّاتهم وأحوالهم.

﴿٥١ ـ ٥٢﴾ فامتثل نبيُّنا محمدٌ ﷺ أمر الله[٣]، فصبر لحكم ربِّه صبراً لا يدركه [فيه] أحدٌ من العالمين، فجعل الله له العاقبة، والعاقبةُ للمتقين، ولم يبلغ[٤] أعداؤه فيه إلَّا ما يسوؤهم، حتى إنَّهم حرصوا على أن يُزْلِقوه ﴿بأبصارهم﴾؛ أي: يصيبوه

(١) في (ب): «وعدم تصديقهم لما جئت به سبب يوجب لهم ذلك».
(٢) في (ب): «بأن قال».
(٣) في (ب): «أمر رَبّه».
(٤) في (ب): «ولم يدرك».

بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم. هٰذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعليِّ، والله حافظه وناصِرُه. وأمَّا الأذى القوليُّ؛ فيقولون فيه أقوالاً بحسب ما توحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارةً: مجنونٌ! وتارةً: شاعرٌ! وتارة: ساحرٌ![١] قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾؛ أي: وما هٰذا القرآن العظيم[٢] والذِّكر الحكيم إلَّا ذكرٌ للعالمين، يتذكَّرون به مصالح دينهم ودنياهم. والحمد لله[٣].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣[٤] كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿الحاقَّة﴾: من أسماء يوم القيامة؛ لأنَّها تحقُّ وتنزل بالخلق وتظهر فيها حقائق الأمور ومخبآت الصدور؛ فعظَّم تعالى شأنها وفخَّمه بما كرَّره من قوله: ﴿الحاقَّة. ما الحاقَّة. وما أدراك ما الحاقَّة﴾؛ فإنَّ لها شأناً عظيماً وهولاً جسيماً[٥].

«ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل».

﴿٤﴾ ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدُّنيا المشاهدة فيها، وهو ما[٦] أحلَّه من العقوبات البليغة بالأمم[٧] العاتية، فقال: ﴿كذَّبتْ ثمودُ﴾: وهم القبيلةُ المشهورةُ سكان الحِجْر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام؛ ينهاهم عمَّا هم عليه من الشِّرك ويأمرهم بالتوحيد، فردُّوا دعوته، وكذَّبوه، وكذَّبوا ما

---

(١) في (ب): «تارة ساحر! وتارة شاعر». (٢) في (ب): «القرآن الكريم».
(٣) في (ب): «تم تفسير سورة نّ. والحمد لله رب العالمين».
(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٥) زيادة: في هامش (ب): لم يشر المؤلف إلى مكانها. ولعل مكانها المناسب في هذا الموضع.
(٦) في (ب): «مما أحله». (٧) في (ب): «في الأمم».

أخبر[١] به من يوم القيامةِ، وهي القارعة التي تقرع الخَلْقَ بأهوالها، وكذٰلك عادٌ الأولى سكان حضرموت حين بَعَثَ اللّه إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده، فكذَّبوه، وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك اللّه الطائفتين بالهلاك العاجل[٢].

﴿٥﴾ ﴿فأمَّا ثمودُ فأهْلِكوا بالطَّاغية﴾: وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطَّعتْ[٣] قلوبهم وزهقتْ لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يُرى إلَّا مساكِنُهم وجُثَثُهم.

﴿٦﴾ ﴿وأمَّا عادٌ فأُهْلِكوا بريح صرصرٍ﴾؛ أي: قويَّةٍ شديدةِ الهبوب لها صوتٌ أبلغ من صوت الرعد القاصف. ﴿عاتيةٍ﴾؛ أي: عتت على خزَّانها على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عادٍ، وزادت على الحدِّ كما هو الصحيح.

﴿٧﴾ ﴿سخَّرَها عليهم سبعَ ليال وثمانية أيَّام حسوماً﴾؛ أي: نحساً وشرًّا فظيعاً عليهم فدمَّرتهم وأهلكتهم؛ ﴿فترى القومَ فيها صَرْعى﴾؛ أي: هَلكى موتى، ﴿كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾؛ أي: كأنهم جذوعُ النخل التي قد قُطِّعت رؤوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض.

﴿٨﴾ ﴿فهل ترى لهم من باقيةٍ﴾؟: وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي المتقرِّر.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾[٤] فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٩ ـ ١٠﴾ أي: وكذٰلك غير هاتين الأمَّتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطُّغاة العتاة؛ كفرعون مصر الذي أرسل اللّه إليه عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأراهم من الآيات البيِّنات ما تيقَّنوا بها الحقَّ، ولٰكن جحدوا وكفروا ظلماً وعلوًّا، وجاء من قبله من المكذِّبين ﴿والمؤتفكات﴾؛ أي: قرى قوم لوطٍ؛ الجميع جاؤوا ﴿بالخاطئة﴾؛ أي: بالفعلة الطاغية، وهو الكفر والتكذيب والظُّلم والمعاندة وما انضمَّ إلى ذٰلك من أنواع المعاصي[٥] والفسوق، ﴿فعصَوْا

---

(١) في (ب): «أخبرهم به». (٢) في (ب): «المعجل».
(٣) في (ب): «انصدعت منها قلوبهم».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿أذنٌ واعية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «الفواحش».

رسولَ ربِّهم﴾: وهٰذا اسم جنس؛ أي: كلٌّ من هٰؤلاء كذَّبوا الرسول الذي أرسله اللّه إليهم[١]؛ فأخذ اللّهُ الجميع ﴿أخذةً رابيةً﴾؛ أي: زائدة على الحدِّ والمقدار الذي يحصُلُ به هلاكهم.

﴿١١ ـ ١٢﴾ ومن جملة هٰؤلاء[٢] قومُ نوح؛ أغرقهم اللّه في اليمِّ حين طغى الماءُ على وجه الأرض[٣] وعلا على مواضعها الرفيعة، وامتنَّ اللّه على الخلق الموجودين بعدَهم أن[٤] حملهم ﴿في الجاريةِ﴾، وهي السفينة؛ في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجَّاهم اللّه؛ فاحمدوا اللّه واشكروا الذي نجَّاكم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياتِهِ الدالَّة على توحيده، ولهٰذا قال: ﴿لِنَجْعَلَها﴾؛ أي: الجارية، والمراد جنسها [لكم] ﴿تذكرةً﴾: تذكِّركم أول سفينةٍ صُنِعَتْ وما قصَّتها، وكيف نجَّى اللّه عليها مَنْ آمن به واتَّبع رسوله وأهلك أهل الأرض كلَّهم؛ فإنَّ جنس الشيء مذكِّرٌ بأصله. وقوله: ﴿وتَعِيها أذنٌ واعيةٌ﴾؛ أي: يعقلها[٥] أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها. وهٰذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهلِ البلادة وعدم الفطنة؛ فإنَّهم ليس لهم انتفاعٌ بآيات اللّه؛ لعدم وعيهم عن اللّه وتفكُّرهم بآياته[٦].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ[٧] ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٣ ـ ١٨﴾ لمَّا ذكر تعالى ما فعله بالمكذِّبين لرسله، وكيف جازاهم وعجَّل لهم العقوبة في الدُّنيا، وأنَّ اللّه نجَّى الرسل وأتباعهم؛ كان هٰذا مقدِّمةً للجزاء[٨] الأخرويِّ وتوفيةَ الأعمال كاملةً يوم القيامةِ، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام يوم القيامةِ، وأنَّ أوَّل ذٰلك أنَّه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ ـ إذا تكاملتِ الأجسادُ نابتةً ـ نفخةً واحدةً؛ فتخرج الأرواح، فتدخلُ كلُّ روح في جسدها؛ فإذا الناس قيامٌ لربِّ

---

(١) في (ب): «إليه».
(٢) في (ب): «أولئك».
(٣) في (ب): «طغى في الأرض».
(٤) في (ب): «أن الله».
(٥) في (ب): «تعقلها».
(٦) في (ب): «وفكرهم بآيات الله».
(٧) في (أ): إلى قوله: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٨) في (ب): «مقدمة لذكر الجزاء».

العالمين، ﴿وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكةً واحدةً﴾؛ أي: فتُتّت الجبال، واضمحلَّت وخلطت بالأرض، ونُسِفَتْ عليها[١]، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. هٰذا ما يُصنع بالأرض وما عليها، وأمَّا ما يُصنع بالسماء؛ فإنَّها تضطرب وتمور وتشقَّق[٢] ويتغيَّر لونُها، وتـهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمرٍ عظيم أزعجها وكربٍ جسيم هائل أوهاها وأضعفها، ﴿والمَلَكُ﴾؛ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائِها﴾؛ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربِّهم، مستكينين لعظمته، ﴿ويحمِلُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومئذٍ ثمانيةٌ﴾: أملاكٌ في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهٰذا قال: ﴿يومئذٍ تُعْرَضون﴾: على الله، ﴿لا تَخْفى منكم خافيةٌ﴾: لا من أجسادكم وذواتكم[٣]، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإنَّ الله تعالى عالمُ الغيب والشهادة، ويحشُرُ العباد حفاةً عراةً غُرلاً في أرض مستويةٍ يسمِعُهم الدَّاعي ويَنْفُذُهم البصرُ، فحينئذٍ يجازيهم بما عملوا، ولهٰذا ذَكَرَ كيفيةَ الجزاءِ، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ[٤] فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ وهٰؤلاء هم أهل السعادة؛ يُعْطَوْن كُتُبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزاً لهم وتنويهاً بشأنهم ورفعاً لمقدارهم، ويقول أحدُهم عند ذٰلك من الفرح والسرور ومحبَّة أن يطَّلع الخلق على ما منَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هاؤمُ اقرؤوا كتابِيَهْ﴾؛ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه؛ فإنَّه يبشِّر بالجنَّات وأنواع الكرامات ومغفرة الذُّنوب وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هٰذه الحال ما منَّ الله به عليَّ[٥] من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهٰذا قال: ﴿إنِّي ظننتُ أنِّي ملاقٍ حسابِيَهْ﴾؛ أي: أيقنتُ؛ فالظنُّ هنا بمعنى اليقين.

(١) في (ب): «ونسفت على الأرض». (٢) في (ب): «وتتشقَّق».
(٣) في (ب): «لا من أجسامكم وأجسادكم».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «عليَّ به».

﴿٢١ ـ ٢٤﴾ ﴿فهو في عيشةٍ راضيةٍ﴾؛ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها، ﴿في جنةٍ﴾: عاليةِ المنازل والقصور عالية المحلِّ، ﴿قطوفُها دانيةٌ﴾؛ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبةٌ سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلُها قياماً وقعوداً ومتَّكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾؛ أي: من كلِّ طعام لذيذٍ وشرابٍ شهيٍّ، ﴿هنيئاً﴾؛ أي: تامًّا كاملاً من غير مكدِّرٍ ولا منغِّصٍ. وذٰلك الجزاء حصلَ لكم ﴿بما أسلفْتُم في الأيَّام الخالية﴾: من الأعمال الصالحة ـ وترك الأعمال السيِّئة ـ من صلاةٍ وصيام وصدقةٍ وحجٍّ وإحسانٍ إلى الخلق وذكر للّه وإنابةٍ إليه؛ فالأعمال جعلها اللّه سبباً لدخول الجنة ومادَّةً لنعيمها وأصلاً لسعادتها.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ[1] ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٢٥ ـ ٢٩﴾ هٰؤلاء هم أهل الشقاء؛ يعطَوْن كتبهم المشتملة على أعمالهم السيِّئة[2] بشمالهم؛ تمييزاً لهم وخزياً وعاراً وفضيحةً، فيقول أحدُهم من الهمِّ والغمِّ والحزن[3]: ﴿يا ليتني لم أوتَ كتابِيَهْ﴾؛ لأنَّه يبشر بدخول النار والخسارة الأبديَّة، ﴿ولم أدرِ ما حسابِيَهْ﴾؛ أي: ليتني كنت نسياً منسيًّا ولم أُبعَثْ وأحاسب، ولهٰذا قال: ﴿يا ليتَها كانتِ القاضيةَ﴾؛ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بَعْثَ بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه؛ فإذا هو وبالٌ عليه لم يقدِّم منه لآخرته ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئاً[4]، فيقول: ﴿ما أغنى عنِّي مالِيَهْ﴾؛ أي: ما نفعني لا في الدُّنيا ـ لم أقدِّم منه شيئاً ـ ولا في الآخرة؛ قد ذهب وقت نفعه، ﴿هلك عني

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «يعطون كتب أعمالهم السيئة». (٣) في (ب): «والخزي».
(٤) في (ب): «ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله».

سُلطانِيَهْ﴾؛ أي: ذهب واضمحلَّ، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدَدُ ولا العُدَدُ[١] ولا الجاه العريض، بل ذهب ذٰلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح.

﴿٣٠ ـ ٣٧﴾ فحينئذٍ يؤمَر بعذابه، فيقال للزَّبانية الغلاظ الشداد: ﴿خُذوه فغُلُّوه﴾؛ أي: اجعلوا في عنقه غلًّا يخنقه، ﴿ثم الجَحيم صَلُّوه﴾؛ أي: قلِّبوه على جمرها ولهبها، ﴿ثم في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعاً﴾: من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فاسْلُكوه﴾؛ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه ويعلَّق فيها فلا يزال يعذَّب هٰذا العذاب الفظيع؛ فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة له من التوبيخ والعتاب؛ فإنَّ السبب الذي أوصله إلى هٰذا المحلِّ ﴿إنَّه كان لا يؤمن باللّه العظيم﴾: بأن كان كافراً بربِّه معانداً لرسله رادًّا ما جاؤوا به من الحقِّ، ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾؛ أي: ليس في قلبه رحمةٌ يرحم بها الفقراء والمساكين؛ فلا يطعمهم من ماله ولا يحضُّ غيره على إطعامهم؛ لعدم الوازع في قلبه، وذٰلك لأنَّ مدار السعادة ومادَّتها أمران: الإخلاص للّه الذي أصله الإيمان باللّه، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوَّتون به، وهٰؤلاء لا إخلاص ولا إحسان؛ فلذٰلك استحقُّوا ما استحقُّوا. ﴿فليس له اليومَ ها هنا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿حميمٌ﴾؛ أي: قريب أو صديق يشفع له لينجو من عذاب اللّه أو يفوز بثوابه[٢]. ﴿ولا تنفعُ الشفاعة عندَه إلَّا لمن أذن له﴾، ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾. وليس له ﴿طعامٌ إلَّا من غِسْلينَ﴾: وهو صديدُ أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم[٣]، لا يأكل هٰذا الطعامَ الذميم ﴿إلَّا الخاطئونَ﴾، الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلكوا كلَّ طريق يوصِلُهم إلى الجحيم[٤]؛ فلذٰلك استحقُّوا العذاب الأليم.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ[٥] ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

(١) في (ب): «فلم تنفع الجنود الكثيرة ولا العُدَدُ الخطيرة».
(٢) في (ب): «بثواب الله».
(٣) في (ب): «في غاية الحرارة ونتن الريح وقبح الطعم ومرارته».
(٤) في (ب): «وسلكوا سبل الجحيم».
(٥) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ
عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ
حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٣٨ ـ ٤٣﴾ أقسم تعالى بما يُبْصِرُ الخلقُ من جميع الأشياء وما لا يبصِرونه، فدخل في ذٰلك كلُّ الخلق، بل دخل[١] في ذٰلك نفسُه المقدَّسة، على صدق الرسول بما جاء به من هٰذا القرآن الكريم، وأنَّ الرسول الكريم بلَّغه عن اللّه تعالى، ونزَّه اللّهُ رسولَه عمَّا رماه به أعداؤه من أنَّه شاعرٌ أو ساحرٌ، وأنَّ الذي حملهم على ذٰلك عدم إيمانهم وتذكُّرهم؛ فلو آمنوا وتذكَّروا ما ينفعهم ويضرُّهم، ومن ذٰلك أن ينظروا في حال محمدٍ ﷺ ويرمُقوا أوصافه وأخلاقه ليروا أمراً مثل الشمس يدلُّهم على أنَّه رسول اللّه حقًّا وأن ما جاء به ﴿تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾، لا يَليقُ أن يكون قولاً للبشر، بل هو كلامٌ دالٌّ على عظمة من تكلَّم به وجلالة أوصافه وكمال تربيته للخلق[٢] وعلوِّه فوق عباده. وأيضاً؛ فإنَّ هٰذا ظن منهم بما لا يليق باللّه وحكمته.

﴿٤٤ ـ ٤٧﴾ فإنه ﴿لو تقوَّل﴾: عليه وافترى ﴿بعض الأقاويل﴾: الكاذبة، ﴿لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتينَ﴾: وهو عرقٌ متصلٌ بالقلب إذا انقطع هلك[٣] منه الإنسان؛ فلو قدِّر أنَّ الرسول ـ حاشا وكلا ـ تقوَّل على اللّه؛ لعاجَلَه بالعقوبة وأخذَه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ؛ لأنَّه حكيمٌ قديرٌ على كلِّ شيءٍ[٤]؛ فحكمته تقتضي أن لا يُمْهِلَ الكاذب عليه الذي يزعم أنَّ اللّه أباح له دماء مَنْ خالفه وأموالهم، وأنَّه هو وأتباعه لهم النجاةُ، ومَنْ خالفَه؛ فله الهلاكُ. فإذا كان اللّه قد أيَّد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البيِّنات، ونصره على أعدائه، ومكَّنه من نواصيهم؛ فهو أكبر شهادةٍ منه على رسالته. وقوله: ﴿فما منكم من أحدٍ عنه حاجزينَ﴾؛ أي: لو أهلكه؛ ما امتنعَ هو بنفسه ولا قَدَرَ أحدٌ أن يمنعه من عذاب اللّه.

﴿٤٨﴾ ﴿وإنَّه﴾؛ أي: القرآن الكريم، ﴿لتذكرةٌ للمتَّقين﴾: يتذكَّرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها ويعملون عليها، يذكِّرهم العقائد الدينيَّة والأخلاق المرضيَّة

---

(١) في (ب): «بل يدخل». (٢) في (ب): «العباده».
(٣) في (ب): «مات».
(٤) في (ب): «لأنه حكيم. على كلِّ شيءٍ قدير».

والأحكام الشرعيَّة، فيكونون من العلماء الربانيِّين، والعباد العارفين، والأئمَّة المهديِّين.

﴿٤٩﴾ ﴿وإنَّا لَنَعْلَمُ أنَّ منكم مكذِّبين﴾: به، وهٰذا فيه تهديدٌ ووعيدٌ للمكذِّبين، وأنَّه[1] سيعاقِبُهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

﴿٥٠﴾ ﴿وإنَّه لحسرةٌ على الكافرين﴾: فإنَّهم لما كفروا به ورأوا ما وَعَدَهم به؛ تحسَّروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشدِّ العذاب، وتقطَّعت بهم الأسباب.

﴿٥١﴾ ﴿وإنَّه لحقُّ اليقين﴾؛ أي: أعلى مراتب العلم؛ فإنَّ أعلى مراتب العلم اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. واليقين مراتبه ثلاثةٌ، كلُّ واحدة أعلى مما قبلها: أولُها علم اليقين، وهو العلمُ المستفاد من الخبر. ثم عينُ اليقين، وهو العلم المدرَك بحاسة البصر. ثم حقُّ اليقين، وهو العلم المدرَك بحاسَّة الذوق والمباشرة. وهٰذا القرآن بهٰذا الوصف؛ فإنَّ ما فيه من العلوم المؤيَّدة بالبراهين القطعيَّة وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانيَّة يحصُلُ به لمن ذاقه حقُّ اليقين.

﴿٥٢﴾ ﴿فسبِّح باسم ربِّك العظيم﴾؛ أي: نزِّههُ عما لا يَليق بجلاله، وقدِّسه بذِكْرِ أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة. والحمد لله رب العالمين[2].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

---

(١) في (ب): «فإنه».

(٢) في (ب): «والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على كماله وإفضاله وعدله».

﴿١ ـ ٤﴾ يقول تعالى مبيِّناً لجهل المعاندين واستعجالهم لعذاب الله استهزاءً وتعنُّتاً وتعجيزاً: ﴿سأل سائلٌ﴾ أي: دعا داعٍ واستفتح مستفتح، ﴿بعذابٍ واقعٍ للكافرينَ﴾: لاستحقاقهم له بكفرِهم وعنادِهم. ﴿ليس له دافع من الله﴾؛ أي: ليسَ لهٰذا العذاب الذي استعجلَ به مَنِ استعجلَ من متمرِّدي المشركين أحدٌ يدفعه قبل نزوله أو يرفعه بعد نزوله، وهٰذا حين دعا النَّضر بن الحارث القرشيُّ أو غيره من المكذِّبين[(١)]، فقال: ﴿اللهمَّ إنْ كان هٰذا هو الحقَّ من عندِكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم...﴾ [إلى آخر الآيات]؛ فالعذابُ لا بدَّ أن يقع عليهم من الله؛ فإمَّا أن يُعَجَّلَ لهم في الدُّنيا، وإمَّا أن يُدَّخَرَ[(٢)] لهم في الآخرة؛ فلو عرفوا الله وعرفوا عظمته وسعة سلطانه وكمال أسمائِهِ وصفاتِهِ؛ لما استعجلوا، ولاستسلموا وتأدَّبوا، ولهٰذا ذكر تعالى من عظمته ما يضادُّ أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذي المعارج. تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوح إليه﴾؛ أي: ذي العلوِّ والجلال والعظمة والتَّدبير لسائر الخلق، الذي تَعْرُجُ إليه الملائكة بما جعلها[(٣)] على تدبيره، وتَعْرُجُ إليه الرُّوح، وهٰذا اسم جنس يشمل الأرواح كلَّها؛ بَرَّها وفاجِرَها، وهٰذا عند الوفاة، فأمَّا الأبرار؛ فتعرج أرواحُهم إلى الله، فيؤذن لهم من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها اللهُ عزَّ وجلَّ، فتحيي ربَّها وتسلِّم عليه وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنوِّ منه، ويحصُلُ لها منه الثناء والإكرام والبرُّ والإعظام، وأمَّا أرواحُ الفجَّار؛ فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء؛ استأذنتْ، فلا[(٤)] يؤذَنُ لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافةَ التي تَعْرُجُ فيها الملائكةُ والرُّوح[(٥)] إلى الله، وأنَّها تعرج في يوم بما يَسَّر لها من الأسباب وأعانها عليه من اللَّطافة والخفَّة وسرعة السير، مع أنَّ تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنةٍ، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حُدَّ لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى؛ فهٰذا المُلْك العظيم والعالم الكبير علويُّه وسفليُّه جميعه قد تولَّى خلقه وتدبيره العليُّ الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، [وَعَلِمَ] مستقرَّهم ومستودَعَهم، وأوصلهم من رحمته وبرِّه وإحسانه[(٦)] ما عمَّهم وشَمَلَهم، وأجرى عليهم حكمه القدريَّ وحكمه الشرعيَّ

(١) في (ب): «المشركين».
(٢) في (ب): «يؤخر».
(٣) في (ب): «بما دبرها».
(٤) في (ب): «فلم يُؤذنْ».
(٥) في (ب): «والأرواح».
(٦) في (ب): «ورزقه».

وحكمه الجزائيَّ؛ فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته ولم يقدروه حقَّ قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان. وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذَوْه فصبر عليهم وعافاهم ورزَقَهم!

هٰذا أحدُ الاحتمالات في تفسير هٰذه الآية الكريمة، فيكون هٰذا العروجُ والصعودُ في الدنيا؛ لأنَّ السِّياق الأول يدلُّ عليه[1]. ويُحتمل أنَّ هٰذا في يوم القيامةِ، وأنَّ الله [تبارك و] تعالى يظهِرُ لعباده في يوم القيامةِ من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفتِهِ مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدةً ونازلةً بالتدابير الإلٰهيّة والشؤون الربَّانيَّة[2] في ذلك اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة من طوله وشدَّته، لٰكنَّ الله تعالى يخفِّفه على المؤمن.

﴿٥ ـ ٧﴾ وقوله: ﴿فاصْبِرْ صبراً جميلاً﴾؛ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تَضَجُّرَ فيه ولا ملل، بل استمرَّ على أمر الله، وادعُ عباده إلى توحيده، ولا يمنعْك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم؛ فإنَّ في الصَّبر على ذٰلك خيراً كثيراً. ﴿إنَّهم يرونَه بعيداً ونراه قريباً﴾: الضمير يعود إلى البعث الذي فيه عذابُ السائلين بالعذاب؛ أي: إنَّ حالهم حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشِّقْوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً؛ لأنَّه رفيقٌ حليمٌ لا يَعْجَلُ، ويعلم أنَّه لا بدَّ أن يكون، و[كلُّ] ما هو آتٍ فهو قريبٌ.

ثم ذكر أهوال ذٰلك اليوم وما [يكون] فيه، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ[3] ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿٨ ـ ٩﴾ أي: ﴿يوم﴾ القيامة تقع فيه هٰذه الأمور العظيمة ﴿تكونُ السماءُ كالمُهْل﴾: وهو الرصاص المذاب من تشقُّقها وبلوغ الهول منها كلَّ مبلغ، ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْن﴾: وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذٰلك هباءً منثوراً فتضمحلُّ.

(١) في (ب): «على هذا». (٢) في (ب): «والشؤون في الخليقة».

(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿وجمع فأوعى﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ فإذا كان هٰذا الانزعاج والقلق[١] لهٰذه الأجرام الكبيرة الشديدة؛ فما ظنُّك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟! أليس حقيقياً أن ينخلِعَ قلبُه و[ينزعجَ] لبُّه ويذهلَ عن كلِّ أحدٍ؟! ولهٰذا قال: ﴿ولا يسألُ حميمٌ حميماً يُبَصَّرونَهم﴾؛ أي: يشاهدُ الحميمُ ـ وهو القريب ـ حميمَه؛ فلا يبقى في قلبه متَّسع لسؤاله[٢] عن حاله ولا فيما يتعلَّق بعشرتهم ومودَّتهم ولا يهمُّه إلَّا نفسُه. ﴿يودُّ المجرِمُ﴾: الذي حقَّ عليه العذاب ﴿لو يفتدي من عذاب يومِئذٍ ببنيه. وصاحبتِهِ﴾؛ أي: زوجته، ﴿وأخيه. وفصيلته﴾؛ أي: قرابته، ﴿التي تُؤْويه﴾؛ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصَرَ ويعينَ بعضها بعضاً؛ ففي [يوم] القيامةِ لا ينفع أحدٌ أحداً، ولا يشفع أحدٌ إلَّا بإذن الله، بل لو يفتدي المجرمُ المستحقُّ للعذاب بجميع ما في الأرض ثم ينجيه ذٰلك؛ لم ينفعه[٣].

﴿١٥ ـ ١٨﴾ ﴿كلَّا﴾؛ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقَّت عليهم كلمةُ ربِّك[٤]، وذهب نفعُ الأقارب والأصدقاء، ﴿إنَّها لظى. نزاعةً للشَّوى﴾؛ أي: النار التي تتلظَّى تنزعُ من شدَّتها للأعضاء الظاهرة والباطنة[٥]، ﴿تَدْعو﴾: إلى نفسها[٦] ﴿مَنْ أدْبَرَ وتَوَلَّى. وجَمَعَ فأوْعى﴾؛ أي: أدبر عن اتِّباع الحقِّ، وأعرض عنه؛ فلا غرض له فيه[٧]، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم ينفِقْ منها ما ينفعه ويدفع عنه النار؛ فالنار تدعو هٰؤلاء إلى نفسها[٨]، وتستعدُّ للالتهاب بهم.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾[٩] إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ
غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

(١) في (ب): «القلق والانزعاج». (٢) في (ب): «السؤال حميمه».
(٣) في (ب): «ثم ينجيه، لم ينفعه ذلك».
(٤) في (ب): «قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون».
(٥) في (ب): «أي للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدّة عذابها».
(٦) في (ب): «تدعو إليها». (٧) في (ب): «فليس له فيه غرض».
(٨) في (ب): «فإنّ النار تدعوهم إلى نفسها».
(٩) في (أ): إلى قوله: ﴿في جنات مكرمون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿١٩ ـ ٢١﴾ وهٰذا الوصف للإنسان من حيث هو؛ ووَصَفَ طبيعته [الأصلية] أنَّه هلوعٌ، وفسَّر الهَلوعَ بقوله[(١)]: ﴿إذا مسَّه الشَّرُّ جزوعاً﴾: فيجزع إن أصابه فقرٌ أو مرضٌ أو ذهابُ محبوبٍ له من مال أو أهل أو ولدٍ، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرِّضا بما قضى الله، ﴿وإذا مسَّه الخير منوعاً﴾: فلا يُنْفِقُ مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبرِّه فيجزع في الضَّراء ويمنع في السَّراء.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ﴿إلَّا المصلِّين﴾: الموصوفين بتلك الأوصاف؛ فإنَّهم إذا مسَّهم الخير؛ شكروا الله وأنفقوا مما خوَّلهم [الله]، وإذا مسَّهم الشرُّ؛ صبروا واحتسبوا. وقوله في وصفهم: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمونَ﴾؛ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكمِّلاتها، وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقتٍ، أو يفعلها على وجهٍ ناقص.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ ﴿والذين في أموالهم حقٌّ معلومٌ﴾: من زكاة وصدقة، ﴿للسائل﴾: الذي يتعرَّض للسؤال، ﴿والمحروم﴾: وهو المسكين الذي لا يسألُ الناس فيعطوه ولا يفطنُ له فيتصدَّق عليه.

﴿٢٦﴾ ﴿والذين يصدِّقون بيوم الدين﴾؛ أي: يؤمنون بما أخبر به وأخبرت به الرسلُ من الجزاء والبعث، ويتيقَّنون ذلك، فيستعدُّون للآخرة، ويَسْعَوْن لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ ﴿والذين هم من عذاب ربِّهم مشفِقون﴾؛ أي: خائفون وجِلون، فيتركون لذلك كلَّ ما يقرِّبهم من عذاب الله. ﴿إنَّ عذاب ربِّهم غيرُ مأمونٍ﴾؛ أي: هو العذاب الذي يُخشى ويُحذر.

﴿٢٩ ـ ٣١﴾ ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾: فلا يطؤون بها وطئاً محرماً من زنا أو لواطٍ أو وطءٍ في دُبُرٍ أو حيضٍ ونحو ذلك، ويحفظونها أيضاً من النظر إليها ومسِّها ممَّن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً وسائل المحرَّمات الداعية لفعل الفاحشة، ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانُهم﴾؛ أي: سُرِّيَّاتهم، ﴿فإنَّهم غير

---

(١) في (ب): «بأنه».

ملومين﴾: في وطئهنَّ في المحلِّ الذي هو محلُّ الحرثِ. ﴿فمنِ ابتغى وراء ذٰلك﴾؛ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فأولئك هم العادون﴾؛ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله. ودلَّت هٰذه الآية على تحريم نكاح المتعة؛ لكونها غير زوجةٍ مقصودةٍ ولا ملك يمينٍ.

﴿٣٢﴾ ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدِهِم راعونَ﴾؛ أي: مراعون لها حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهٰذا شاملٌ لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربِّه؛ كالتكاليف السِّرِّيَّة التي لا يطَّلع عليها إلَّا اللهُ، والأمانات التي بيْن العبد وبيْن الخلق في الأموال والأسرار، وكذٰلك العهد شاملٌ للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد الخلق عليه[1]؛ فإنَّ العهد يُسأل عنه العبد؛ هل قام به ووفَّاه أم رفضه وخانه فلم يقم به.

﴿٣٣﴾ ﴿والذين هم بشهادتهم قائمونَ﴾؛ أي: لا يشهدون إلَّا بما يعلمونه من غير زيادةٍ ولا نقصٍ ولا كتمانٍ، ولا يحابي فيها قريباً ولا[2] صديقاً ونحوه، ويكون القصد بإقامتها[3] وجه الله؛ قال تعالى: ﴿وأقيموا الشهادةَ لله﴾، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوَّامينَ بالقِسطِ شهداءَ لله ولو على أنفسِكُم أوِ الوالِدَيْن والأقربين﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾: بالمداومة عليها على أكمل الوجوه[4].

﴿٣٥﴾ ﴿أولٰئك﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات، ﴿في جناتٍ مُكْرَمون﴾؛ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هٰذا أنَّ الله وصف أهل السعادة والخير بهٰذه الأوصاف الكاملة والأخلاق المرضيَّة الفاضلة من العبادات البدنيَّة؛ كالصلاة والمداومة عليها، والأعمال القلبيَّة؛ كخشية الله الداعية لكلِّ خير، والعبادات الماليَّة، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة؛ ومعاملة الله ومعاملة خلقِهِ أحسن معاملةٍ؛ من إنصافهم وحفظ حقوقهم وأماناتهم[5] والعفَّة التامَّة بحفظ الفروج عمَّا يكرهه الله تعالى.

---

(١) في (ب): «عليه الخلق».
(٢) في (ب): «أو».
(٣) في (ب): «بها».
(٤) في (ب): «بمداومتها على أكمل وجوهها».
(٥) في (ب): «وحفظ عهودهم وأسرارهم».

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ[(١)] ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٩﴾ يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿فمال الذين كفروا قِبلَكَ مُهطِعينَ﴾؛ أي: مسرعين، ﴿عن اليمين وعن الشمال عِزينَ﴾؛ أي: قطعاً متفرِّقة وجماعاتٍ متنوِّعة[(٢)]، كلٌّ منهم بما لديه فرحٌ. ﴿أيطمعُ كلُّ امرئٍ منهم أن يُدْخَلَ جنَّةَ نعيم﴾؛ أيُّ[(٣)] سببٍ أطمعهم وهم لم يقدِّموا سوى الكفر والجحود لربِّ[(٤)] العالمين؟! ولهٰذا قال: ﴿كلَّا﴾: أي: ليس الأمر بأمانيهم ولا إدراك ما يشتهون بقوَّتهم، ﴿إنَّا خلَقْناهم ممَّا يعلمونَ﴾؛ أي: من ماء دافقٍ يخرج من بين الصُّلب والترائب؛ فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ[(٥)] إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٠ ـ ٤١﴾ هٰذا إقسامٌ منه تعالى بالمشارق والمغارب للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم وهم بأعيانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وننشِئُكم فيما لا تعلمونَ﴾. ﴿وما نحنُ بمسبوقينَ﴾؛ أي: ما أحدٌ يسبقنا ويفوتنا ويعجِزُنا إذا أردنا أن نعيدَه.

﴿٤٢﴾ فإذا تقرَّر البعث والجزاء، واستمرُّوا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله؛ ﴿فذَرْهم يخوضوا ويلعبوا﴾؛ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا ويتمتَّعوا، ﴿حتَّى يلاقوا يومَهُمُ الذي يوعدونَ﴾: فإنَّ الله قد أعدَّ لهم فيه من النَّكال والوبال ما هو عاقبةُ خوضهم ولعبهم.

﴿٤٣ ـ ٤٤﴾ ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذي يوعدون، فقال: ﴿يوم

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿كلا إنا خلقناهم مما يعلمون﴾: وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «متوزعة». (٣) في (ب): «بأيِّ».
(٤) في (ب): «بربب».
(٥) في (أ): طمس، وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يَخْرُجونَ من الأجداثِ﴾؛ أي: القبور ﴿سراعاً﴾: مجيبين لدعوة الداعي مهطِعين إليها، ﴿كأنَّهم إلى نُصُبٍ يوفِضونَ﴾؛ أي: كأنَّهم إلى علم يَؤُمُّون ويقصدون؛ فلا[1] يتمكَّنون من الاستعصاء على الدَّاعي ولا الالتواء عن نداء المنادي[2]، بل يأتون أذلَّاء مقهورين للقيام بين يدي ربِّ العالمين، ﴿خاشعةً أبصارُهم ترهَقُهم ذِلَّةٌ﴾: وذٰلك أنَّ الذِّلَّة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعتْ منهم الأبصار، وسكنتِ [منهم] الحركاتُ، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل هو يومهم ﴿الذي كانوا يوعدون﴾: ولا بدَّ من الوفاء بوعد الله.

تمت. والحمد لله.

تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ[3] مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا
﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ
وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ
وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا
وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى

---

(١) في (ب): «أي: يؤمرون ويسرعون؛ أي: فلا».
(٢) في (ب): «والالتواء لنداء المنادي».
(٣) في (أ): طمس، وفي (ب) إلى آخر السورة.

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

لم يذكر الله في هٰذه السورة إلَّا(١) قصَّة نوح وحدَها؛ لطول لَبْثِهِ في قومه وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك:

﴿١﴾ فأخبر تعالى أنَّه أرسل نوحاً(٢) إلى قومه رحمةً بهم وإنذاراً [لهم] من عذاب أليم؛ خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم [اللَّهُ] هلاكاً أبديًّا، ويعذِّبهم عذاباً سرمديًّا.

﴿٢ ـ ٤﴾ فامتثل نوحٌ عليه السلام لذٰلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿يا قوم إنِّي لكم نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: واضح النذارة بينها، وذٰلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأيِّ شيءٍ تحصُلُ النجاة؛ بيَّن ذٰلك(٣) بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بأصل ذٰلك(٤)، فقال: ﴿أنِ اعبُدوا الله واتَّقوه﴾: وذٰلك بإفراده تعالى بالعبادة والتوحيد(٥) والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله؛ فإنَّهم إذا اتَّقوا الله؛ غَفَرَ ذنوبهم؛ وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب والفوز بالثواب، ﴿ويؤخِّرْكم إلى أجل مسمًّى﴾؛ أي: يمتِّعكم في هٰذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى إجل مسمًّى؛ أي: مقدَّر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقتٍ محدودٍ، وليس المتاع أبداً؛ فإنَّ الموت لا بدَّ منه، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ أجَلَ الله إذا جاء لا يؤخَّرُ لو كنتُم تعلمون﴾: كما(٦) كفرتُم بالله وعاندتُم الحقَّ.

﴿٥ ـ ٧﴾ فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربِّه: ﴿ربِّ إنِّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزِدْهم دعائي إلَّا فراراً﴾؛ أي: نفوراً عن الحقِّ

---

(١) في (ب): «سوى».
(٢) في (ب): «أنه أرسله».
(٣) في (ب): «بين جميع ذلك».
(٤) في (ب): «وأمرهم بزبدة ما يأمرهم به».
(٥) في (ب): «بالتوحيد والعبادة».
(٦) في (ب): «لما».

وإعراضاً، فلم يبق لذٰلك فائدةٌ؛ لأنَّ فائدة الدَّعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، ﴿وإنِّي كلَّما دعوتُهم لتغفرَ لهم﴾؛ أي: لأجل أن يستجيبوا؛ فإذا استجابوا؛ غفرتَ لهم، وهٰذا[1] محضُ مصلحتهم، ولٰكن[2] أبوا إلَّا تمادياً على باطلهم ونفوراً عن الحقِّ، ﴿جعلوا أصابِعَهم في آذانهم﴾؛ حَذَرَ سماع ما يقول لهم نبيُّهم نوحٌ عليه السلام، ﴿واستَغْشَوا ثيابَهم﴾؛ أي: تغطوا بها غطاءً يغشاهم بعداً عن الحقِّ وبغضاً له، ﴿وأصرُّوا﴾: على كفرهم وشرِّهم، ﴿واستَكْبَروا﴾: على الحقِّ ﴿استِكْباراً﴾: فشرهم ازداد وخيرهم بعد.

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿ثم إنِّي دعوتُهم جهاراً﴾؛ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ثم إنِّي أعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسراراً﴾: كل هٰذا حرصٌ ونصحٌ، وإتيانهم بكلِّ طريق يظنُّ به حصول المقصود[3].

﴿١٠ ـ ١٢﴾ ﴿فقلتُ استَغْفِروا ربَّكم﴾؛ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب واستغفروا الله منها؛ ﴿إنَّه كان غفاراً﴾: كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغَّبهم بمغفرة الذُّنوب وما يترتب عليها من الثواب واندفاع العقاب، ورغَّبهم أيضاً بخير الدُّنيا العاجل، فقال: ﴿يرسِلِ السماءَ عليكم مِدراراً﴾؛ أي: مطراً متتابعاً يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد، ﴿ويُمْدِدْكم بأموال وبنينَ﴾؛ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدُّنيا وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً﴾: وهٰذا من أبلغ ما يكون من لَذَّاتِ الدُّنيا ومطالبها.

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ﴿ما لكم لا ترجونَ لله وَقاراً﴾؛ أي: لا تخافون لله عظمةً وليس لله عندكم قَدْرٌ، ﴿وقد خَلَقَكم أطواراً﴾؛ أي: خلقاً من بعد خلقٍ في بطن الأمِّ ثم في الرَّضاع ثم في سنِّ الطفوليَّة ثم التمييز ثم الشباب ثم إلى آخر ما يصل[4] إليه الخلق؛ فالذي انفردَ بالخَلْق والتَّدبير البديع متعيِّنٌ أن يُفْرَدَ بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيهٌ لهم على المعاد[5]، وأنَّ الذي أنشأهم من العدم قادرٌ على أن يعيدَهم بعد موتهم.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ واستدلَّ أيضاً[6] بخلقِ السماواتِ التي هي أكبر من خلق الناس،

---

(١) في (ب): «فكان هذا». (٢) في (ب): «ولكنهم».
(٣) في (ب): «وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود».
(٤) في (ب): «وصل». (٥) في (ب): «تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد».
(٦) في (ب): «واستدلَّ أيضاً عليهم».

فقال: ﴿ألم تَرَوْا كيف خَلَقَ الله سبع سمٰواتٍ طباقاً﴾؛ أي: كلّ سماءٍ فوق الأخرى، ﴿وجعل القمر فيهنَّ نوراً﴾: لأهل الأرض، ﴿وجعل الشمسَ سِراجاً﴾: ففيه تنبيهٌ على عظم خلق هٰذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر، الدالَّة على رحمة الله[(١)] وسعة إحسانه؛ فالعظيم الرحيم يستحقُّ أن يعظَّم ويُحبَّ[(٢)] ويُخاف ويُرجى.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿والله أنبتَكم من الأرض نباتاً﴾: حين خلق أباكم آدمَ وأنتم في صلبِهِ، ﴿ثم يعيدُكم فيها﴾: عند الموت، ﴿ويخرِجُكم إخراجاً﴾: للبعث والنشور؛ فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾؛ أي: مبسوطةً مهيئة للانتفاع بها، ﴿لِتَسْلُكوا منها سُبُلاً فِجاجاً﴾: فلولا أنَّه بسطها؛ لما أمكن ذٰلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها والبناء والسكون على ظهرها.

﴿٢١ ـ ٢٤﴾ ﴿قال نوحٌ﴾: شاكياً لربِّه: إنَّ هٰذا الكلام والوعظ والتَّذكير ما نَجَعَ فيهم ولا أفاد: ﴿إنَّهم عَصَوْني﴾: فيما أمرتُهم به، ﴿واتَّبعوا مَنْ لم يَزِده مالُه وولدُه إلَّا خساراً﴾؛ أي: عَصَوُا الرسول الناصح الدالَّ على الخير، واتَّبعوا الملأ والأشراف الذين لم تَزِدْهم أموالُهم ولا أولادُهم إلَّا خساراً؛ أي: هلاكاً وتفويتاً للأرباح؛ فكيف بِمَنِ انقادَ لهم وأطاعهم؟! ﴿ومكروا مَكْراً كُبَّاراً﴾؛ أي: مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحقِّ. قالوا لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لا تَذَرُنَّ آلهتكم﴾: فدعوهم إلى التعصُّب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يَدَعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عيَّنوا آلهتهم، فقالوا: ﴿ولا تَذَرُنَّ ودًّا ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويعوقَ ونَسْراً﴾: وهٰذه أسماء رجال صالحين؛ لما ماتوا؛ زيَّن الشيطان لقومهم أن يصوِّروا صورهم؛ لينشطوا بزعمهم على الطاعةِ إذا رأوها، ثم طال الأمدُ، وجاء غير أولٰئك، فقال لهم الشيطانُ: إنَّ أسلافكم يعبدونهم ويتوسَّلون بهم، وبهم يُسْقَوْن المطر، فعبدوهم، ولهٰذا وصَّى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يَدَعوا عبادة هٰذه الأصنام[(٣)]، ﴿وقد أضلُّوا كثيراً﴾؛ أي: أضلَّ الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق. ﴿ولا تزدِ الظالمينَ إلَّا ضلالاً﴾؛ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إيَّاهم للحقِّ[(٤)]؛ لكان مصلحةً، ولٰكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلَّا ضلالاً؛ أي: فلم يبق محلٌّ لنجاحهم وصلاحهم.

---

(١) في (ب): «على رحمته».

(٢) في (ب): «ويحب ويعبد ويخاف..».

(٣) في (ب): «الآلهة».

(٤) في (ب): «بحق».

﴿٢٥﴾ ولهٰذا ذكر الله عذابَهم وعقوبتهم الدنيويَّة والأخرويَّة، فقال: ﴿مِمَّا خطيئاتِهِم أغرِقوا﴾: في اليمِّ الذي أحاط بهم، ﴿فأُدْخِلوا ناراً﴾: فذهبت أجسادُهم في الغرق وأرواحُهم للنار والحرق. وهٰذا كلُّه بسبب خطيئاتهم التي أتاهم نبيُّهم [نوح] ينذِرُهم عنها ويخبِرُهم بشؤمها ومغبَّتها، فرفضوا ما قال، حتى حلَّ بهم النَّكال، ﴿فلم يجِدوا لهم من دونِ الله أنصاراً﴾: ينصُرونهم حين نزل بهم الأمرُ الأمرُّ، ولا أحد يقدر يعارِضُ القضاء والقدر.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ ﴿وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين ديَّاراً﴾: يدور على وجه الأرض. وذكر السبب في ذٰلك، فقال: ﴿إنَّك إن تَذَرْهم يُضِلُّوا عبادك ولا يَلِدوا إلَّا فاجراً كفَّاراً﴾؛ أي: بقاؤهم مفسدةٌ محضةٌ لهم ولغيرهم، وإنَّما قال نوحٌ ذٰلك؛ لأنَّه مع كثرة مخالطته إيَّاهم ومزاولته لأخلاقهم؛ علم بذٰلك نتيجة أعمالهم؛ فلهٰذا استجاب الله له دعوته[1] فأغرقهم أجمعين، ونجَّى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿٢٨﴾ ﴿ربِّ اغفِرْ لي ولوالديَّ ولِمَنْ دَخَلَ بيتي مؤمناً﴾: خصَّ المذكورين لتأكُّد حقِّهم وتقديم برِّهم، ثم عمَّم الدُّعاء، فقال: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزِدِ الظالمينَ إلا تَباراً﴾؛ أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح. والحمد لله[2].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة قل أوحي إليّ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ
فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيُّها الرسول للناس، ﴿أوحِيَ إليَّ أنَّه استمع نفرٌ من الجنِّ﴾: صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته؛ لتقوم عليهم الحجَّة وتتمَّ عليهم

(١) في (ب): «لا جرم أنَّ الله استجاب دعوته».
(٢) في (ب): «تمّ تفسير سورة نوح عليه السلام».

النعمة ويكونوا منذِرين[١] لقومهم، وأمر [اللّٰهُ] رسولَه أن يقصَّ نبأهم على الناس، وذٰلك أنَّهم لما حضروه؛ قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا؛ فهموا معانيه ووصلت حقائقُه إلى قلوبهم. ﴿فقالوا إنَّا سمِعْنا قرآناً عَجَباً﴾؛ أي: من العجائب الغالية والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يهدي إلى الرُّشْدِ﴾: والرُّشدُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فآمنَّا به ولن نُشْرِكَ بربِّنا أحداً﴾: فجمعوا بين الإيمان الذي يدخُلُ فيه جميع أعمال الخير، وبين التَّقوى المتضمِّنة لترك الشرِّ، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضارِّ؛ فإنَّ ذٰلك آيةٌ عظيمةٌ وحجَّةٌ قاطعةٌ لمن استنار به واهتدى بهديه، وهٰذا الإيمانُ النافع المثمر لكلِّ خير، المبنيُّ على هداية القرآن؛ بخلاف إيمان العوائد والمَرْبى والإلف ونحو ذٰلك؛ فإنَّه إيمانُ تقليدٍ تحت خطر الشُّبُهات والعوارض الكثيرة.

[﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾][٢].

﴿٣﴾ ﴿وأنَّه تعالى جَدُّ رَبِّنا﴾؛ أي: تعالت عظمتُه وتقدَّسَتْ أسماؤه، ﴿ما اتَّخذ صاحبةً ولا ولداً﴾: فعلموا من جَدِّ الله وعظمتِهِ ما دلَّهم على بطلان مَنْ يزعُمُ أنَّ له صاحبةً أو ولداً؛ لأنَّ له العظمة والجلال[٣] في كلِّ صفة كمال، واتِّخاذُ الصاحبة والولد ينافي ذٰلك؛ لأنَّه يضادُّ كمال الغنى.

﴿٤﴾ ﴿وأنَّه كان يقولُ سفيهُنا على الله شططاً﴾؛ أي: قولاً جائراً عن الصواب متعدياً للحدِّ، وما حمله على ذٰلك إلَّا سفهُه وضعفُ عقله، وإلَّا؛ فلو كان رزيناً مطمئناً؛ لعرف كيف يقول.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

﴿٥﴾ أي: كنَّا مغترِّين قبل ذٰلك، غرَّتنا السادة[٤] والرؤساء من الجنِّ والإنس، فأحسنَّا بهم الظنَّ، وحسبناهم[٥] لا يتجرؤون على الكذب على الله؛ فلذٰلك كنَّا

(١) في (ب): «نذاراً».
(٢) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.
(٣) في (ب): «الكمال».
(٤) في (ب): «غرّنا القادة...».
(٥) في (ب): «وظنناهم».

قبل ذٰلك على طريقهم؛ فاليوم إذ بان لنا الحقُّ؛ سلكنا طريقه(١)، وانقَدْنا له، ولم نبالِ بقول أحدٍ من الخلق(٢) يعارض الهدى.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

﴿٦﴾ أي: كان الإنس يعوذون بالجنِّ(٣) عند المخاوف والأفزاع ويعبُدونهم، فزاد الإنسُ الجنَّ رهقاً؛ أي: طغياناً وتكبراً، لمَّا رأوا الإنس يعبدونَهم ويستعيذون بهم، ويُحتمل أنَّ الضمير وهي الواو ترجع(٤) إلى ﴿الجنِّ﴾؛ أي: زاد الجنُّ الإنسَ ذُعْراً وتخويفاً لما رأوْهم يستعيذون بهم ليلجِئوهم إلى الاستعاذة بهم والتمسُّك بما هم عليه، فكان الإنسيُّ إذا نزل بوادٍ مخوفٍ؛ قال: أعوذ بسيِّد هٰذا الوادي من سفهاء قومه.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

﴿٧﴾ أي: فلمَّا أنكروا البعث؛ أقدموا على الشرك والطغيان.

[﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾](٥).

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿وأنَّا لمسنا السماءَ﴾؛ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فوجَدْناها مُلِئَتْ حرساً شديداً﴾: عن الوصول إلى أرجائها والدنوِّ منها، ﴿وشُهُباً﴾: يرمى بها من استرقَ السمعَ، وهٰذا مخالفٌ لعادتنا(٦) الأولى؛ فإنَّا كنَّا نتمكَّن من الوصول إلى خبر السماء فإنا ﴿كنَّا نقعدُ منها مقاعدَ للسمع﴾: فنتلقَّف من أخبار السماء ما شاء اللّه، ﴿فمن يستمِعِ الآنَ يَجِدْ له شهاباً رصداً﴾؛ أي: مرصداً له معدًّا لإتلافه وإحراقه؛ أي: وهٰذا له شأنٌ عظيمٌ ونبأٌ جسيمٌ، وجزموا أنَّ اللّه تعالى أراد أن يحدِثَ في الأرض حادثاً كبيراً من خيرٍ أو شرٍّ؛ فلهٰذا قالوا:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.

---

(١) في (ب): «إذ بان لنا الحق؛ رجعنا إليه..».
(٢) في (ب): «من الناس».
(٣) في (ب): «يعبدون الجن ويستعيذون بهم».
(٤) في (ب): «ويحتمل أن الضمير في (زادوهم) يرجع إلى الجن، ضمير الواو».
(٥) الآيات زيادة لا توجد في النسختين. (٦) في (ب): «وهذا بخلاف عادتنا».

﴿١٠﴾ أي: لا بدَّ من هٰذا أو هٰذا؛ لأنَّهم رأوا الأمر تغيَّر عليهم تغيُّراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أنَّ هٰذا الأمر يريده الله ويحدِثُه في الأرض، وفي هٰذا بيانٌ لأدبهم إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشرُّ حذفوا فاعله تأدُّباً [مع الله].

[﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾][1].

﴿١١﴾ ﴿وأنَّا منَّا الصالحون ومنَّا دون ذٰلك﴾؛ أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كنَّا طرائِقَ قِدَداً﴾؛ أي: فرقاً متنوعةً وأهواءً متفرقةً؛ كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ أي: وأنَّا في وقتنا الآن تبيَّن لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأنَّ نواصينا بيد الله؛ فلن نعجِزَه في الأرض ولن نعجِزَه إن هرَبْنا وسَعَيْنا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلَّا إليه.

[﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾][2].

﴿١٣﴾ ﴿وأنَّا لـمَّا سمِعنا الهدى﴾: وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده؛ أثَّر في قلوبنا، فآمنَّا به، ثم ذكروا ما يرغِّب المؤمن، فقالوا: ﴿فمن يؤمِن بربِّه فلا يخافُ بخساً ولا رَهَقاً﴾؛ أي: من آمن به إيماناً صادقاً؛ فلا عليه نقصٌ[3] ولا أذىً يلحقُه، وإذا سَلِمَ من الشرِّ؛ حصل له الخيرُ؛ فالإيمان سببٌ داعٍ إلى [حصول] كلِّ خيرٍ وانتفاء كلِّ شرٍّ.

﴿١٤﴾ ﴿وأنَّا منَّا المسلمونَ ومنَّا القاسطونَ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم، ﴿فَمَنْ أسلم فأولٰئك تَحرَّوْا رَشَداً﴾؛ أي: أصابوا طريق الرشد الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ [وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾][2].

---

(١) الآية زيادة لا توجد في النسختين. (٢) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.

(٣) في (ب): «﴿فمن يؤمن بربِّه﴾ إيماناً صادقاً ﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾؛ أي: لا نقصاً ولا طغياناً».

﴿١٥ ـ ١٧﴾ ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾: وذٰلك جزاءً على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنَّهم ﴿لو استقاموا على الطريقة﴾: المثلى، ﴿لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾؛ أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعهم ذٰلك إلَّا ظلمهم وعدوانهم، ﴿لِنَفْتِنَهم فيه﴾؛ أي: لنختبرهم [فيه] ونمتحِنَهم ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿ومن يعرِضْ عن ذكر ربِّه يَسْلُكه عذاباً صَعَداً﴾؛ أي: من أعرض عن ذكر الله الذي هو كتابه، فلم يتَّبِعْه وينقذ له، بل لها عنه وغفل[(١)]؛ يَسْلُكْه عذاباً صَعَداً؛ أي: بليغاً شديداً[(٢)].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ [وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾]﴾[(٣)].

﴿١٨﴾ ﴿وأنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾؛ أي: لا دعاء عبادةٍ ولا دعاء مسألةٍ؛ فإنَّ المساجد التي هي أعظم محالِّ العبادة مبنيَّةٌ على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزَّته.

﴿١٩﴾ ﴿وأنَّه لمَّا قام عبدُ اللهِ يدعوه﴾؛ أي: يسأله ويتعبَّد له ويقرأ القرآن كاد الجنُّ من تكاثُرِهم عليه، ﴿يكونون[(٤)] عليه لِبَداً﴾؛ أي: متلبِّدين متراكمين حرصاً على [سماع] ما جاء به من الهدى.

﴿٢٠﴾ ﴿قل﴾: لهم يا أيُّها الرسول، مبيِّناً حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إنَّما أدعو ربِّي ولا أشرِكُ به أحداً﴾؛ أي: أوحِّده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونَه من الأنداد والأوثان، وكلُّ ما يتَّخذه المشركون من دونه.

---

(١) في (ب): «بل غفل عنه ولها».
(٢) في (ب): «شديداً بليغاً».
(٣) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.
(٤) في (ب): «أن يكونوا».

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ﴿قل إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا رَشَداً﴾: فإنِّي عبدٌ ليس لي من الأمر والتصرُّفِ شيءٌ[١]، ﴿قلْ إنِّي لن يُجيرَني من اللهِ أحدٌ﴾؛ أي: لا أحدَ أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسولُ الذي هو أكملُ الخلق لا يملكُ ضرًّا ولا رشداً ولا يمنعُ نفسَه من الله شيئاً إن أراده بسوءٍ؛ فغيرُهُ من الخلق من باب أولى وأحرى، ﴿ولن أجدَ من دونِهِ مُلْتَحَداً﴾؛ أي: ملجأ ومنتصراً.

﴿٢٣﴾ ﴿إلَّا بلاغاً من الله ورسالاتِهِ﴾؛ أي: ليس لي مزيَّةٌ على الناس إلَّا أنَّ الله خصَّني بإبلاغ رسالاته ودعوة خلقِهِ إليه[٢]، وبذلك تقوم الحجَّةُ على الناس، ﴿ومن يَعْصِ الله ورسولَه فإنَّ له نارَ جهنَّمَ خالدين فيها أبداً﴾: وهذا المراد به المعصية الكفريَّة كما قيَّدتها النُّصوص الأخر المحكمة، وأمَّا مجرَّد المعصية؛ فإنَّه لا يوجب الخلود في النار؛ كما دلَّت على ذلك آيات القرآن والأحاديث عن النبيِّ ﷺ، وأجمع عليه سَلَفُ الأمَّة وأئمَّة هذه الأمَّة.

﴿٢٤﴾ ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدونَ﴾؛ أي: شاهدوه عياناً وجزموا أنَّه واقعٌ بهم، ﴿فسيعلمون﴾: في ذلك الوقت حقيقة المعرفة، ﴿مَنْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً﴾: حين لا ينصرُهُم غيرهم، ولا أنفسهم ينتصِرونَ، وإذْ يُحْشَرون فرادى كما خُلِقوا أوَّلَ مرَّةٍ.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿قلْ﴾ لهم إنْ سألوك فقالوا: متى هذا الوعد؟: ﴿إنْ أدري أقريبٌ ما توعدونَ أمْ يجعلُ له ربِّي أمداً﴾؛ أي: غايةً طويلةً؛ فعلمُ ذلك عند الله ﴿عالمُ الغيب فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحداً﴾: من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيوب[٣].

﴿٢٧﴾ ﴿إلَّا من ارتضى من رسول﴾؛ أي: فإنَّه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبِرَه به، وذلك لأنَّ الرسل ليسوا كغيرهم؛ فإنَّ الله أيَّدهم بتأييدٍ ما أيَّده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلِّغوه على حقيقته؛ من غير أن تَقْرَبَهُ الشياطينُ فيزيدوا فيه[٤] أو يَنْقُصوا، ولهذا قال: ﴿فإنَّه يَسْلُكُ من بينِ يديهِ ومن خلفِهِ رَصَداً﴾؛ أي: يحفظونه بأمر الله.

---

(١) في (ب): «ليس لي من الأمر شيء ولا من التصرف شيء».
(٢) في (ب): «ودعوة الخلق إلى الله». (٣) في (ب): «والغيب».
(٤) في (ب): «أن تتخبطهم الشياطين ولا يزيدوا فيه».

﴿٢٨ ـ ٢٩﴾ ﴿ليعلم﴾ بذٰلك ﴿أن قد أبلَغوا رسالات ربِّهم﴾: بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وأحاط بما لَدَيهم﴾؛ أي: بما عندهم وما أسرُّوه وما أعلنوه، ﴿وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً﴾.

وفي هٰذه السورة فوائدُ عديدةٌ[1]:

منها: وجودُ الجنِّ، وأنَّهم [مكلَّفون] مأمورون منهيُّون مجازَوْن بأعمالهم؛ كما هو صريح في هٰذه السورة وغيرها.

ومنها: أنَّ رسول الله ﷺ مبعوثٌ[2] إلى الجنِّ كما هو مبعوثٌ[2] إلى الإنس؛ فإنَّ الله صرف نفرَ الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلِّغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجنِّ ومعرفتُهم بالحقِّ، وأنَّ الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحقَّقوه من هداية القرآن وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله وحفظُه لما جاء به؛ فحين ابتدأت بشائر نبوَّته والسماء محروسةٌ بالنجوم، والشياطين قد هربت من[3] أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأنَّ الله رَحِمَ به أهل الأرض[4] رحمةً ما يُقَدَّرُ لها قدرٌ، وأراد بهم ربُّهم رشداً، فأراد أن يظهِرَ من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به[5] القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائرُ الإسلام، وينقمع به أهلُ الأوثان والأصنام.

ومنها: شدَّة حرص الجنِّ على استماعهم للرسول[6] ﷺ وتراكمهم عليه.

ومنها: أنَّ هٰذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشركِ، وبيَّنت حالة الخلق، وأن كلَّ أحدٍ منهم لا يستحقُّ من العبادة مثقالَ ذَرَّةٍ؛ لأنَّ الرسول محمداً ﷺ إذا كان لا يملك لأحدٍ نفعاً ولا ضرًّا، بل ولا يملك لنفسه؛ علم أن الخلق كلَّهم كذٰلك؛ فمن الخطأ والظلم[7] اتِّخاذ مَنْ هٰذا وصفه إلٰهاً آخر[8].

---

(١) في (ب): «فوائد كثيرة».
(٢) في (ب): «رسول».
(٣) في (ب): «عن».
(٤) في (ب): «رحم به الأرض وأهلها».
(٥) في (ب): «له».
(٦) في (ب): «شدة حرص الجن لاستماع الرسول».
(٧) في (ب): «والغلط».
(٨) في (ب): «إلٰهاً مع الله».

ومنها: أنَّ علوم الغيوب[١] قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحدٌ من الخلق؛ إلَّا من ارتضاه الله واختصَّه[٢] بعلم شيء منها.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين[٣].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾[٤] نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ المزَّمِّل: المتغطي بثيابه كالمدَّثِّر، وهٰذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه[٥]، فرأى أمراً لم يَرَ مثلَه ولا يقدِرُ على الثَّبات عليه[٦] إلَّا المرسلون، فاعتراه عند ذٰلك[٧] انزعاجٌ، حين رأى جبريلَ عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»، وهو ترعَدُ فرائصُه، ثم جاءه جبريلُ، فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئٍ». فغطه حتَّى بلغ منه الجهدَ، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ[٨].

ثم ألقى الله عليه الثباتَ، وتابع عليه الوحيَ، حتى بَلَغَ مَبْلَغاً ما بَلَغه أحدٌ من المرسلين؛ فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوَّته ونهايتها! ولهٰذا

---

(١) في (ب): «علوم الغيب». (٢) في (ب): «وخصَّه».
(٣) في (ب): «تمَّ تفسير سورة قل أوحي إليَّ. ولله الحمد».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿ومهلهم قليلاً﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «وابتدأه بإنزال جبريل إليه».
(٦) في (ب): «له». (٧) في (ب): «فاعتراه في ابتداء ذلك».
(٨) كما في «صحيح البخاري» (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

خاطبه الله بهٰذا الوصف الذي وُجِدَ منه في أول أمره، فأمره هنا بالعباداتِ المتعلِّقة به، ثم أمره بالصبر على أذيَّة قومه[١]، ثم أمر بالصَّدْع بأمره وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكدِ الأوقات وأفضلها، وهو قيامُ الليل. ومن رحمته [تعالى] أنَّه لم يأمرْه بقيام الليل كلِّه، بل قال: ﴿قم الليلَ إلَّا قليلاً﴾. ثم قدَّر ذٰلك فقال: ﴿نصفَه أو انقُصْ منه﴾؛ أي: من النصف ﴿قليلاً﴾: بأن يكون الثلث ونحوه، ﴿أو زِدْ عليه﴾؛ أي: على النصف، فيكون نحو الثلثين[٢]، ﴿ورتِّل القرآن ترتيلاً﴾؛ فإنَّ ترتيلَ القرآن به يحصُلُ التدبُّر والتفكُّر وتحريك القلوب به والتعبُّد بآياته والتهيُّؤ والاستعداد التامُّ له؛ فإنَّه قال: ﴿إنَّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾؛ أي: نوحي إليك هٰذا القرآن الثقيل؛ أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهٰذا الوصف حقيقٌ أن يُتَهَيَّأ له ويُرَتَّل ويُتَفَكَّر فيما يشتمل عليه.

﴿٦﴾ ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إنَّ ناشئةَ الليل﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم، ﴿هي أشدُّ وطئاً وأقومُ قيلاً﴾؛ أي: أقرب إلى حصول[٣] مقصود القرآن؛ يتواطأ عليه القلب واللسان، وتقلُّ الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

﴿٧﴾ وهٰذا بخلاف النهار؛ فإنَّه لا يحصلُ به هٰذه المقاصد[٤]، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾؛ أي: تردُّداً في[٥] حوائجك ومعاشك يوجبُ اشتغال القلب وعدم تفرُّغه التفرُّغ التامَّ.

﴿٨﴾ ﴿واذكرِ اسمَ ربِّك﴾: شاملٌ لأنواع الذِّكر كلِّها، ﴿وتَبَتَّلْ إليه تَبتيلاً﴾؛ أي: انقطع إليه[٦]؛ فإنَّ الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصالُ بالقلب عن الخلائق، والاتِّصاف بمحبَّة الله وما[٧] يقرِّب إليه ويدني من رضاه.

﴿٩﴾ ﴿رب المشرق والمغرب﴾: وهٰذا اسم جنس؛ يشمل المشارق والمغارب كلَّها؛ فهو تعالى ربُّ المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي

---

(١) في (ب): «أعدائه».
(٢) في (ب): «فيكون الثلثين ونحوها».
(٣) في (ب): «إلى تحصيل».
(٤) في (ب): «هذا المقصود».
(٥) في (ب): «على».
(٦) في (ب): «إلى الله تعالى».
(٧) في (ب): «وكلِّ ما».

مصلحةٌ له من العالم العلويِّ والسفليِّ؛ فهو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقُه ومدبِّره. ﴿لا إله إلَّا هو﴾؛ أي: لا معبود إلَّا وجهه الأعلى، الذي يستحقُّ أن يُخَصَّ بالمحبَّة والتعظيم والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فاتَّخِذْه وكيلا﴾؛ أي: حافظاً ومدبِّراً لأمورك كلِّها.

﴿١٠﴾ فلما أمره الله بالصَّلاة خصوصاً وبالذِّكر عموماً، وذلك يحصل للعبد مَلَكَةٌ قويةٌ في تحمُّل الأثقال وفعل المُشِقِّ[١] من الأعمال؛ أمره بالصبر على ما يقوله[٢] المعاندون له ويسبُّونه ويسبُّون ما جاء به، وأن يمضِيَ على أمر الله؛ لا يصدُّه عنه صادٌّ ولا يردُّه رادٌّ، وأن يَهْجُرَهُم هجراً جميلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحةُ [الهجرَ]، الذي لا أذيَّة فيه، بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن[٣] أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

﴿١١﴾ ﴿وذرني والمكذِّبينَ﴾؛ أي: اتركْني وإيَّاهم، فسأنتقم منهم، وإنْ أمْهَلْتُهم؛ فلا أهمِلُهم. وقوله: ﴿أولي النَّعْمةِ﴾؛ أي: أصحاب النِّعمة والغنى، الذين طَغَوْا حين وسَّع الله عليهم من رزقه وأمدَّهم من فضله؛ كما قال تعالى: ﴿كلَّا إنَّ الإنسانَ لَيَطْغى . أن رآه استَغْنى﴾.

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ أي: إنَّ عندنا ﴿أنكالا﴾؛ أي: عذاباً شديداً جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمرًّا على ما يغضِبُ الله، ﴿وجحيماً﴾؛ أي: ناراً حامية، ﴿وطعاماً ذا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وعذاباً أليماً﴾؛ أي: موجعاً مفظعاً.

﴿١٤﴾ وذلك ﴿يوم ترجُفُ الأرضُ والجبالُ﴾: من الهول العظيم، فكانتِ ﴿الجبالُ﴾: الراسياتُ الصمُّ الصلابُ ﴿كثيباً مَهيلاً﴾؛ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تُبَسُّ بعد ذلك فتكون كالهباء المنثور.

---

(١) في (ب): «الثقيل».
(٢) في (ب): «على ما يقول فيه».
(٣) في (ب): «عنهم وعن».

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ يقول تعالى: احْمَدوا ربَّكم على إرسال هٰذا النبيِّ الأميِّ العربيِّ البشير النذير الشاهد على الأمَّة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهٰذه النِّعمة الجليلة، وإيَّاكم أن تَكْفُروا، فتَعْصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتَّوحيد، فلم يصدِّقْه، بل عصاه، فأخذه الله ﴿أخذاً وبيلاً﴾؛ أي: شديداً بليغاً.

﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ أي: فكيف يحصلُ لكم الفكاكُ والنَّجاة يومَ القيامةِ، اليوم المَهيل أمرُه، العظيمُ خطرُه[(١)]، الذي يشيِّبُ الولدان وتذوبُ له الجمادات العظام؛ فتنفطر السماء وتنتثر نجومُها[(٢)]. ﴿كان وعدُه مفعولاً﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعه ولا حائل دونه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

﴿١٩﴾ أي: إنَّ هٰذه الموعظة التي نبَّأ الله بها من أحوال يوم القيامةِ وأهوالها تذكرةٌ يتذكَّر بها المتَّقون وينزجر بها المؤمنون. ﴿فمن شاءَ اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إليه، وذٰلك باتِّباع شرعه؛ فإنَّه قد أبانه كلَّ البيان وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هٰذا دليلٌ على أنَّ الله تعالى أقْدَرَ العبادَ على أفعالهم ومكَّنَهم منها، لا كما يقوله الجبريَّةُ: إنَّ أفعالهم تقع بغير مشيئتهم؛ فإنَّ هٰذا خلاف النقل والعقل[(٣)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ[(٤)] وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ

(١) في (ب): «قدره».
(٢) في (ب): «فتنفطر به السماء وتنتثر به نجومها».
(٣) في (ب): «العقل والنقل».
(٤) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآية كاملة.

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿٢٠﴾ ذكر الله في أول هٰذه السورة أنَّه أمر رسولَه بقيام نصفِ الليل أو ثلثيه أو ثلثه[1]، والأصلُ أنَّ أمته أسوةٌ له في الأحكام، وذكر في هٰذا الموضع أنَّه امتثل ذٰلك هو وطائفةٌ معه من المؤمنين. ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقَّة على الناس؛ أخبر أنَّه سهَّل عليهم في ذٰلك غاية التسهيل؛ فقال: **﴿والله يقدِّرُ الليلَ والنهارَ﴾**؛ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي ويبقى منهما[2]، **﴿علم أن لن تُحصوه﴾**؛ أي: لن تعرِفوا مقداره من غير زيادةٍ ولا نقصٍ؛ لكون ذٰلك يستدعي انتباهاً وعناءً زائداً؛ أي: فخفَّف عنكم وأمركم بما تيسَّر عليكم سواء زاد على المقدَّر أو نَقَصَ، **﴿فاقرؤوا ما تيسَّرَ من القرآن﴾**؛ أي: ممَّا تعرفون ولا[3] يشقُّ عليكم، ولهٰذا كان المصلِّي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً؛ فإذا فَتَرَ أو كسل أو نعس؛ فليسترحْ ليأتيَ الصلاةَ بطمأنينةٍ وراحةٍ.

ثم ذكر بعضَ الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: **﴿علم أن سيكونُ منكم مرضى﴾**: يشقُّ عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثيه[4] أو ثلثه، فليصلِّ المريض ما يسهُلُ عليه، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصَّلاة قائماً عند مشقَّة ذٰلك، بل لو شقَّت عليه الصلاةُ النافلةُ؛ فله تركُها، وله أجرُ ما كان يعمل صحيحاً. **﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغونَ من فضل الله﴾**؛ أي: وعلم أنَّ منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكفَّفوا عنهم[5]؛ أي: فالمسافر حالُهُ تناسِبُ التخفيفَ، ولهٰذا خفَّف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمعُ الصلاتين في وقتٍ واحدٍ وقصرُ الصَّلاة الرُّباعية. وكذلك **﴿آخرون يقاتِلون في سبيل اللهِ فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه﴾**: فذكر تعالى تخفيفين؛ تحفيفاً للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه من غير أن يُكَلَّفَ عليه تحرير الوقت، بل يتحرَّى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول، وتخفيفاً للمريض والمسافر، سواء كان سفرُه للتجارة أو لعبادةٍ من جهادٍ أو حجٍّ أو

---

(١) في (ب): «ثلثه أو ثلثيه».
(٢) في (ب): «وما يمضي منهما ويبقى».
(٣) في (ب): «وممّا لا».
(٤) في (ب): «صلاة ثلثي الليل أو نصفه».
(٥) في (ب): «عن الناس».

غيره[١]؛ فإنَّه [أيضاً] يراعي ما لا يكلِّفه؛ فلله الحمد والثناء؛ حيث لم يجعلْ علينا[٢] في الدين من حرج، بل سهَّل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين هما أمُّ العبادات وعمادُها: إقامة الصلاة التي لا يستقيمُ الدين إلَّا بها، وإيتاءُ الزَّكاة التي هي برهانُ الإيمان وبها تحصُلُ المواساة للفقراء والمساكين، فقال[٣]: ﴿وأقيموا الصلاة﴾؛ أي: بأركانها وحدودها وشروطها وجميع مكمِّلاتها[٤]، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾؛ أي: خالصاً لوجه الله بنيَّة صادقةٍ وتثبيتٍ من النفس ومالٍ طيِّبٍ، ويدخُلُ في هٰذا الصدقة الواجبة والمستحبَّة.

ثم حثَّ على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وما تقدِّموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة. وليعلمْ أنَّ مثقال ذرَّةٍ في هٰذه الدار من الخير[٥] يقابله أضعافُ أضعافِ الدُّنيا وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذَّات والشَّهوات، وأنَّ الخير والبرَّ في هٰذه الدنيا مادةُ الخير والبرِّ في دار القرار وبذرُه وأصلُه وأساسُه. فوا أسفاه على أوقاتٍ مضت في الغفلات! ووا حسرتاه على أزمانٍ تقضَّت في غير[٦] الأعمال الصالحات! ووا غوثاه من قلوبٍ لم يؤثِّرْ فيها وعظُ بارئها ولم ينجَعْ فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها[٧]! فلك اللهم الحمدُ وإليك المشتكى وبك المستغاث ولا حول ولا قوَّة إلَّا بك.

﴿واستغفروا الله إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحثِّ على أفعال الطاعة والخير فائدةٌ كبيرةٌ، وذٰلك أنَّ العبد لا[٨] يخلو من التقصير فيما أُمِرَ به: إما أنْ لا يفعلَه أصلاً، أو يفعله على وجهٍ ناقصٍ، فأُمِرَ بترقيع ذٰلك بالاستغفار؛ فإنَّ العبد يذنِبُ آناء الليل والنهار؛ فمتى لم يتغمَّدْه الله برحمته ومغفرته؛ فإنَّه هالكٌ.

تم تفسيرها. والحمد لله[٩].

❀ ❀ ❀

---

(١) في (ب): «من قتالٍ أو جهادٍ أو حجٍّ أو عمرةٍ ونحو ذلك».
(٢) في (ب): «الذي ما جعل على الأمة».
(٣) في (ب): «ولهذا قال».
(٤) في (ب): «بأركانها وشروطها ومكمّلاتها».
(٥) في (ب): «من الخير في هذه الدار».
(٦) في (ب): «بغير».
(٧) في (ب): «منها».
(٨) في (ب): «ما».
(٩) في (ب): «تمّ تفسير سورة المزمل».

تفسير سورة المدثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ تقدَّم أنَّ المزَّمِّل والمدَّثِّر بمعنى واحد، وأنَّ الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادات[١] الله القاصرة والمتعدِّية، فتقدَّم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بالإعلان بالدَّعوة والصَّدْع بالإنذار، فقال: ﴿قمْ﴾؛ أي: بجدٍّ ونشاطٍ ﴿فأنذِرْ﴾: الناس بالأقوال والأفعال التي يحصلُ بها المقصودُ وبيانُ حال المنذَر عنه ليكون ذٰلك أدعى لتركه.

﴿٣﴾ ﴿وربَّك فكبِّرْ﴾؛ أي: عظِّمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله وأن يعظِّمه العباد، ويقوموا بعبادته.

﴿٤﴾ ﴿وثيابَكَ فطَهِّرْ﴾: يُحتمل أنَّ المراد بالثياب[٢] أعماله كلها. وبتطهيرها: تخليصها، والنُّصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات والمنقصات من شركٍ ورياء ونفاق وعُجْبٍ وتكبُّر وغفلةٍ وغير ذٰلك مما يؤمَرُ العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذٰلك تطهير الثياب من النجاسة؛ فإنَّ ذٰلك من تمام التطهير للأعمال، خصوصاً في الصلاة، التي قال كثيرٌ من العلماء: إنَّ إزالة النجاسة عنها شرطٌ من شروطها[٣].

ويُحتمل أنَّ المراد بثيابه الثياب المعروفة؛ أنَّه مأمورٌ بتطهيرها عن جميع النجاسات في جميع الأوقات، خصوصاً عند الدُّخول في الصلوات.

﴿٥﴾ وإذا كان مأموراً بطهارة[٤] الظَّاهر؛ فإنَّ طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن: ﴿والرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾: يُحتمل أنَّ المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عُبِدَتْ مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها ومما نُسِبَ إليها من قول أو عملٍ، ويُحتمل أنَّ المرادَ بالرُّجز أعمالُ الشرِّ كلُّها وأقوالُه، فيكون أمراً له بترك الذُّنوب صغارها

(١) في (ب): «عبادة».
(٢) في (ب): «بثيابه».
(٣) في (ب): «من شروط الصلاة».
(٤) في (ب): «بتطهير».

وكبارها[١] ظاهرها وباطنها، فيدخل في هٰذا الشرك فما دونه[٢].

﴿٦﴾ ﴿ولا تَمْنُنْ تَسْتَكثِرْ﴾؛ أي: لا تمنُنْ على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينيَّة والدنيويَّة، فتستكثر بتلك المنَّة، وترى لك الفضل عليهم[٣]، بل أحسِنْ إلى الناس مهما أمكنك، وانسَ عندهم إحسانَك، واطلُبْ أجرك من الله تعالى[٤]، واجعلْ مَن أحسنتَ إليه وغيره على حدٍّ سواء.

وقد قيل: إنَّ معنى هٰذا ألَّا تعطي أحداً شيئاً وأنت تريدُ أن يكافِئَك عليه بأكثر منه، فيكون هٰذا خاصًّا بالنبيِّ ﷺ.

﴿٧﴾ ﴿ولربِّكَ فاصْبِرْ﴾؛ أي: احتسبْ بصبرك واقصدْ به وجهَ الله تعالى.

فامتثل رسولُ الله ﷺ لأمر ربِّه، وبادر فيه[٥]، فأنذر الناس وأوضح لهم بالآياتِ البيناتِ جميع المطالب الإلٰهيَّة، وعظَّم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهَّر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوءٍ، وهجر كلَّ ما يُعْبَدُ من دون الله[٦] وما يُعْبَدُ معه من الأصنام وأهلها والشرِّ وأهله، وله المنَّة على الناس بعد منَّة الله، من غير أن يطلبَ عليهم بذٰلك[٧] جزاءً ولا شكوراً، وصبر لربِّه[٨] أكمل صبر: فصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وصبر على أقداره[٩] المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسَلين. صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

﴿٨ ـ ١٠﴾ أي: فإذا نُفِخَ في الصُّور للقيام من القبور، وجُمِعَ الخلائق[١٠] للبعث والنشور، ﴿فذٰلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ﴾: لكثرة أهواله وشدائده، ﴿على الكافرين غيرُ يسيرٍ﴾؛ لأنَّهم قد أيِسوا من كلِّ خيرٍ وأيقنوا بالهلاك والبَوار. ومفهومُ

---

(١) في (ب): «صغيرها وكبيرها».
(٢) في (ب): «فيدخل في ذلك الشرك وما دونه».
(٣) في (ب): «وترى لك عليهم بإحسانك المنَّة».
(٤) في (ب): «ولا تطلب أجره إلا من الله». (٥) في (ب): «إليه».
(٦) في (ب): «وهجر كلَّ ما يبعد عن الله». (٧) في (ب): «منهم على ذلك».
(٨) في (ب): «لله».
(٩) في (ب): «وعن معاصي الله وعلى أقدار الله».
(١٠) في (ب): «الخلق».

ذٰلك أنَّه على المؤمنين يسيرٌ؛ كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هٰذا يومٌ عَسِرٌ﴾.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾[1] وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿١١ ـ ٣٠﴾ هٰذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة[2]، المعاند للحقِّ، المبارز[3] لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقَّة، فذمَّه الله ذمًّا لم يذمَّ به غيره[4]، وهٰذا جزاءُ كلِّ مَنْ عانَدَ الحقَّ ونابذه؛ أنَّ له الخزيَ في الدُّنيا ولَعذاب الآخرة أخزى، فقال:

﴿ذَرْني ومَن خلقتُ وحيداً﴾؛ أي: خلقته منفرداً بلا مال ولا أهل ولا غيره، فلم أزل أربِّيه وأعطيه، فجعلت ﴿له مالاً ممدوداً﴾؛ أي: كثيراً، ﴿و﴾ جعلتُ له ﴿بنينَ﴾؛ أي: ذكوراً، ﴿شهوداً﴾؛ أي: حاضرين عنده[5] على الدَّوام، يتمتَّع بهم ويقضي بهم حوائِجَه ويستنصِرُ بهم، ﴿ومهَّدْتُ له تمهيداً﴾؛ أي: مكَّنته من الدُّنيا وأسبابها حتى انقادَتْ له مطالِبُه وحصل له[6] ما يشتهي ويريدُ. ﴿ثم﴾: مع هٰذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أن أزيدَ﴾؛ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا، ﴿كلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذٰلك ﴿إنَّه[7] كان لآياتنا عنيداً﴾: عرفها[8] ثم أنكرها، ودعتْه إلى الحقِّ فلم يَنْقَدْ

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/٥٠٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) في (ب): «معاند الحق والمبارز».

(٤) في (ب): «لم يذمَّه غيره».

(٥) في (ب): «دائماً حاضرين عنده».

(٦) في (ب): «حصل على».

(٧) في (ب): «لأنه».

(٨) في (ب): «أي: معانداً عرفها».

لها، ولم يكفِهِ أنَّه أعرض عنها وتولَّى[١]، بل جعل يحاربُها ويسعى في إبطالها، ولهٰذا قال عنه: ﴿إنَّه فَكَّر﴾؛ أي: في نفسه. ﴿وقدَّر﴾: ما فكَّر فيه؛ ليقولَ قولاً يبطِلُ به القرآن، ﴿فقُتِلَ كيف قدَّر. ثم قُتِلَ كيف قدَّر﴾؛ لأنَّه قدَّر أمراً ليس في طوره، وتسوَّر على ما لا يناله هو ولا أمثاله، ﴿ثم نَظَرَ﴾: ما يقول، ﴿ثم عَبَسَ وبَسَرَ﴾: في وجهه وظاهره نفرةً عن الحقِّ وبُغضاً له، ﴿ثم أدبر﴾؛ أي: تولَّى، ﴿واستكبر﴾: نتيجة سعيه الفكريِّ والعمليِّ والقوليِّ، ﴿فقال إنْ هٰذا إلَّا سحرٌ يُؤثَرُ. إنْ هٰذا إلَّا قولُ البشر﴾؛ أي: ما هٰذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأخيار، بل كلام الأشرار منهم والفجَّار[٢] من كل كاذبٍ سحَّارٍ، فتبًّا له! ما أبعده من الصواب! وأحراه بالخسارة والتَّباب! كيف يدور في الأذهان أو يتصوَّره ضميرُ أيِّ[٣] إنسان أن يكون أعلى الكلام وأعظمه كلام الربِّ الكريم الماجد العظيم[٤] يشبِهُ كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرَّأ هٰذا الكاذب العنيد على وصفه بهٰذا الوصف لكلام الله تعالى[٥]؛ فما حقُّه إلَّا العذاب الشديد [والنكال]، ولهٰذا قال تعالى: ﴿سأُصْليه سَقَرَ. وما أدراك ما سَقَرُ. لا تُبْقي ولا تَذَرُ﴾؛ أي: لا تبقي من الشدَّة ولا على المعذَّب شيئاً إلا وبَلَغَتْه. ﴿لوَّاحةٌ للبشر﴾؛ أي: تلوحهم وتُصليهم في عذابها وتقلقهم بشدَّة حرِّها وقرِّها. ﴿عليها تسعةَ عشرَ﴾: من الملائكة، خزنة لها، غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.

﴿٣١﴾ ﴿وما جعلنا أصحاب النارِ إلَّا ملائكةً﴾: وذٰلك لشدَّتهم وقوَّتهم، ﴿وما جعلنا عِدَّتهم إلَّا فتنةً للذين كفروا﴾: يحتمل أنَّ المراد؛ إلَّا لعذابهم وعقابهم في الآخرة ولزيادة نَكالهم فيها، والعذاب يسمَّى فتنة؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ هم على النَّارِ يُفْتَنونَ﴾.

ويُحتمل أنَّ المراد أنَّا ما أخبرناكم بعدَّتهم إلَّا لنعلم من يصدِّق ممَّن[٦] يكذِّب. ويدلُّ على هٰذا ما ذكره بعده في قوله: ﴿ليستيقِنَ الذين أوتوا الكتاب ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً﴾: فإنَّ أهل الكتاب إذا وافق ما عندَهم وطابَقَه؛ ازدادَ يقينُهم بالحقِّ، والمؤمنون كلَّما أنزل الله آيةً، فآمنوا بها وصدَّقوا؛ ازداد إيمانُهم، ﴿ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون﴾؛ أي: ليزول عنهم الريبُ والشكُّ، وهٰذه مقاصدُ جليلةٌ يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كلِّ وقتٍ

---

(١) في (ب): «أعرض وتولى عنها».
(٢) في (ب): «بل كلام الفجار منهم والأشرار».
(٣) في (ب): «كلِّ».
(٤) في (ب): «الرب العظيم الماجد الكريم».
(٥) في (ب): «على وصفه كلام المبدئ المعيد».
(٦) في (ب): «ومن».

وكلِّ مسألةٍ من مسائل الدين، ودفعِ الشكوك والأوهام التي تَعرِضُ في مقابلة الحقِّ، فجعل ما أنزله على رسولِهِ محصِّلاً لهٰذه المقاصد[1] الجليلة، ومميزاً للصادقين من الكاذبين[2]، ولهٰذا قال: ﴿وليقولَ الذين في قلوبِهِم مرضٌ﴾؛ أي: شكٌّ وشبهةٌ ونفاقٌ، ﴿والكافرون ماذا أرادَ الله بهٰذا مثلاً﴾: وهٰذا على وجه الحيرة والشكِّ منهم والكفر بآيات الله، وهٰذا وذاك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يُضِلُّه، ولهٰذا قال: ﴿كذٰلك يُضِلُّ الله مَن يشاءُ ويَهْدي مَن يشاءُ﴾: فمن هداه الله؛ جعل ما أنزل[3] على رسوله رحمةً في حقِّه وزيادةً في إيمانه ودينه، ومن أضلَّه؛ جعل ما أنزله على رسوله زيادةَ شقاءٍ عليه وحيرةً وظلمةً في حقِّه، والواجب أن يُتَلَقَّى ما أخبر الله به[4] ورسولُه بالتسليم، فإنه ﴿لا يعلمُ جنودَ ربِّك﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿إلَّا هو﴾: فإذا كنتُم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير؛ فعليكم أن تصدِّقوا خبره من غير شكٍّ ولا ارتياب، ﴿وما هي إلَّا ذِكْرى للبشرِ﴾؛ أي: وما هٰذه الموعظة والتذكار مقصوداً به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكَّر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرُّهم فيتركونه.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾[5] وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٣٢ ـ ٣٤﴾ ﴿كلَّا﴾: هنا بمعنى حقًّا، أو بمعنى ألا الاستفتاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقتَ إدباره، والنهارِ وقتَ إسفاره؛ لاشتمال المذكورات على آيات الله

---

(١) في (ب): «الفوائد».
(٢) في (ب): «للكاذبين من الصادقين».
(٣) في (ب): «ما أنزله الله».
(٤) في (ب): «به الله».
(٥) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

العظيمة الدالَّة على كمال قدرةِ الله وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه.

﴿٣٥ ـ ٣٧﴾ والمقسَمُ عليه قوله: ﴿إنَّها لإحدى الكُبَرِ﴾؛ أي: إنَّ النار لإحدى[١] العظائم الطامَّة والأمور الهامَّة؛ فإذا أعلمناكم بها وكنتُم على بصيرةٍ من أمرها؛ فمن شاء منكم أن يتقدَّم فيعمل بما يقرِّبه إلى الله ويُدْنيه من رضاه ويُزْلفه من دار كرامته، أو يتأخَّر عمَّا خُلِقَ له وعمَّا يحبُّه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرَّب إلى جهنَّم؛ كما قال تعالى: ﴿وقلِ الحقُّ من ربِّكم فَمَن شاء فَلْيُؤْمِن ومَن شاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ الآية.

﴿٣٨ ـ ٤٨﴾ ﴿كلُّ نفس بما كسبتْ﴾: من أفعال الشرِّ وأعمال السوء[٢] ﴿رهينةٌ﴾: بها موثقةٌ بسعيها، قد أُلزِمَ[٣] عنقها وغُلَّ في رقبتها واستوجبت به العذاب، ﴿إلَّا أصحابَ اليمين﴾: فإنَّهم لم يرتهنوا، بل أُطلقوا وفرحوا ﴿في جناتٍ يتساءلونَ. عن المجرمينَ﴾؛ أي: في جناتٍ قد حصل لهم فيها[٤] جميع مطلوباتهم وتمَّت لهم الراحةُ والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضتْ بهم المحادثة أن سألوا عن المجرمين؛ أيُّ حال وصلوا إليها؟ وهلِ وَجَدوا ما وعَدَهم الله [تعالى]؟ فقال بعضهم لبعضٍ هل أنتم مُطَّلعونَ عليهم، فاطَّلعوا عليهم في وسطِ الجحيم يعذَّبون، فقالوا لهم: ﴿ما سَلَكَكم في سَقَرَ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ أدخلكم فيها؟ وبأيِّ ذنبٍ استَحَقيْتُموها؟ فقالوا: ﴿لم نَكُ من المصلِّينَ. ولم نكُ نطعِمُ المسكينَ﴾: فلا إخلاص للمعبودِ ولا إحسانَ ولا نفع للخلق المحتاجين، ﴿وكنَّا نخوضُ مع الخائضينَ﴾؛ أي: نخوض بالباطل ونجادل به الحقَّ، ﴿وكنَّا نكذِّبُ بيوم الدِّينِ﴾: هٰذه آثار الخوض بالباطل، وهو التَّكذيب بالحقِّ، ومن أحقِّ الحقِّ يوم الدين، الذي هو محلُّ الجزاء على الأعمال وظهور مُلك الله وحُكمه العدل لسائر الخلق، فاستمرَّ عَمَلُنا على هٰذا المذهب الباطل[٥] ﴿حتَّى أتانا اليقين﴾؛ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر؛ تعذَّرت حينئذٍ عليهم الحِيَلُ، وانسدَّ في وجوههم باب الأمل. ﴿فما تَنفَعُهم شفاعةُ الشَّافعين﴾؛ لأنَّهم لا يشفعون إلَّا لِمَنِ ارتضى، وهٰؤلاء لا يرضى الله أعمالهم.

---

(١) في (ب): «﴿إنها﴾؛ أي: النار ﴿لإحدى الكبر﴾، أي: لإحدى...».
(٢) في (ب): «من أعمال السوء وأفعال الشرّ».
(٣) في (ب): «ما لزم». (٤) في (ب): «بها».
(٥) في (ب): «فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد».

﴿٤٩ ـ ٥٣﴾ فلمَّا بيَّن الله مآل المخالفين وبيَّن ما[١] يفعل بهم؛ عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فما لهم عن التَّذكِرَةِ معرِضينَ﴾؛ أي: صادِّين غافلين عنها، ﴿كأنَّهم﴾: في نفرتِهِم الشديدة منها ﴿حمُرٌ مستنفرةٌ﴾؛ أي: [كأنَّهم] حمُرُ وحشٍ نفرتْ؛ فنفَّر بعضُها بعضاً فزاد عَدْوُها، ﴿فرَّتْ من قَسْوَرَةٍ﴾؛ أي: من صائدٍ ورامٍ يريدها أو من أسدٍ ونحوه، وهٰذا من أعظم ما يكون من النُّفور عن الحقِّ، ومع هٰذا النفور والإعراض[٢] يدَّعون الدَّعاوي الكبار؛ فيريد ﴿كلُّ﴾ واحد ﴿منهم أن يُؤْتى صُحُفاً منشَّرةً﴾: نازلة عليه من السماء؛ يزعم أنَّه لا ينقاد للحقِّ؛ إلَّا بذٰلك، وقد كذَبوا؛ فإنَّهم لو جاءتهم كلُّ آيةٍ؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ لأنَّهم[٣] جاءتهم الآياتُ البيناتُ، التي تبيِّن الحقَّ وتوضِّحه؛ فلو كان فيهم خيرٌ؛ لآمنوا، ولهٰذا قال: ﴿كلَّا﴾؛ أي: لا نعطيهم[٤] ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذٰلك إلَّا التعجيز، ﴿بل لا يخافونَ الآخرةَ﴾: فلو كانوا يخافونها؛ لما جرى منهم ما جرى.

﴿٥٤ ـ ٥٦﴾ ﴿كلاَّ [إنَّه][٥] تذكرةٌ﴾: الضمير إمَّا أن يعود على هٰذه السورة أو على ما اشتملتْ عليه من هٰذه الموعظة، ﴿فَمَن شاء ذَكَرَهُ﴾: لأنَّه قد بيَّن له السبيل ووضَح له الدَّليل. ﴿[وما يَذْكُرون][٦] إلَّا أن يشاءَ اللهُ﴾: فإنَّ مشيئة الله[٧] نافذةٌ عامَّةٌ، لا يخرج عنها حادثٌ قليلٌ ولا كثيرٌ؛ ففيها ردٌّ على القدريَّة، الذين لا يُدْخِلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبريَّة، الذين يزعمون أنَّه ليس للعبد مشيئةٌ ولا فعلٌ حقيقةً، وإنَّما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئةً حقيقةً وفعلاً، وجعل ذٰلك تابعاً لمشيئته، و﴿وهو أهلُ التَّقوى وأهلُ المغفرةِ﴾؛ أي: هو أهل أن يُتَّقى ويُعبد؛ لأنَّه الإلٰه الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له، وأهلٌ أن يَغْفِرَ لمن اتَّقاه واتَّبع رضاه.

تمت. ولله الحمد والمنة[٨].

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «ورهَّب مما».
(٢) في (ب): «ومع هذا الإعراض وهذا النفور».
(٣) في (ب): «فإنَّهم».
(٤) في (ب): «﴿كلَّا﴾: أن نعطيهم».
(٥) في النسختين: «إنها». وعليه فسَّرها. والله أعلم.
(٦) في (أ): «وما تشاؤون». وفي (ب): «وما يشاؤون».
(٧) في (ب): «مشيئته».
(٨) في (ب): «تم تفسير سورة المدثر ولله الحمد».

تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ[١] ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

﴿١﴾ ليست ﴿لا﴾ ها هنا نافية ولا زائدة، وإنَّما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح؛ فالمقسم به في هٰذا الموضع هو المقسَم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يَحْكُمُ به الربُّ عليهم.

﴿٢﴾ ﴿ولا أقسم بالنَّفس اللَّوَّامةِ﴾: وهي جميع النفوس الخيِّرة والفاجرة، سميِّت لوَّامةً لكثرة تلوُّنها وتردُّدها[٢] وعدم ثبوتها على حالةٍ من أحوالها، ولأنَّها عند الموت تلوم صاحبها على ما فعلت[٣]، بل نفسُ المؤمن تلومُ صاحبها في الدُّنيا على ما حصل منه من تفريطٍ أو تقصيرٍ في حقٍّ من الحقوق أو غفلةٍ، فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء وبين مستحقِّ الجزاء.

﴿٣ ـ ٤﴾ ثم أخبر مع هٰذا أنَّ بعض المعاندين يكذِّبون[٤] بيوم القيامة، فقال: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن لن نَجْمَعَ عظامَه﴾: بعد الموت؛ كما قال [في الآية الأخرى]: ﴿قال مَن يُحيي العظامَ وهي رميمٌ﴾، فاستبعد من جهله وعدوانه قدرةَ الله على خلق عظامه التي هي عمادُ البدن، فردَّ عليه بقوله: ﴿بلى قادرينَ على أن نُسَوِّيَ بَنانَه﴾؛ أي: أطراف أصابعه وعظامه، وذٰلك مستلزمٌ[٥] لخلق جميع أجزاء البدن؛ لأنَّها إذا وُجِدت الأنامل والبنان؛ فقد تمَّتْ خلقة الجسد.

﴿٥ ـ ٦﴾ وليس إنكارُه لقدرة الله تعالى قصوراً بالدَّليل الدَّالِّ على ذٰلك، وإنَّما وقع ذٰلك منه لأنَّ إرادته وقصده التكذيبُ[٦] بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمُّد.

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «ترددها وتلومها».

(٣) في (ب): «ما عملت».

(٤) في (ب): «يكذب».

(٥) في (ب): «المستلزم لذلك».

(٦) في (ب): «وإنما ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب».

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ[١] ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

﴿٧ ـ ١٠﴾ أي: ﴿فإذا﴾ كانت القيامة؛ برقت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يؤخِّرُهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصارُ. مهطِعين مُقْنِعي رؤوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفُهم وأفئِدَتُهم هواءٌ﴾، ﴿وخسف القمر﴾؛ أي: ذهب نوره وسُلطانه، ﴿وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ﴾: وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامةِ، ويُخسف القمر، وتكوَّر الشمس، ثم يقذفان في النار؛ ليرى العباد أنَّهما عبدان مسخَّران، وليرى مَنْ عَبَدَهما أنَّهم كانوا كاذبين، ﴿يقول الإنسانُ﴾: حين يرى تلك القلاقل المزعجات[٢]: ﴿أين المفرُّ﴾؛ أي: أين الخلاص والفكاك[٣] ممَّا طرقنا وألمَّ بنا[٤]؟

﴿١١ ـ ١٣﴾ ﴿كلاَّ لا وَزَرَ﴾؛ أي: لا ملجأ لأحدٍ دون الله، ﴿إلى ربِّكَ يومئذٍ المستقرُّ﴾: لسائر العباد، فليس في إمكان أحدٍ أن يستترَ أو يهرب عن ذٰلك الموضع، بل لا بدَّ من إيقافه؛ ليجزى بعمله، ولهٰذا قال: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّمَ وأخَّرَ﴾؛ أي: بجميع عمله الحسن والسيىء، في أول وقته وآخره، وينبَّأ بخبرٍ لا ينكِرُه.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿بل الإنسانُ على نفسِهِ بصيرةٌ﴾؛ أي: شاهدٌ ومحاسبٌ، ﴿ولو ألقى معاذيرَهُ﴾: فإنَّها معاذيرُ لا تُقبل، بل يقرَّر بعمله[٥]، فَيُقِرُّ به؛ كما قال تعالى: ﴿اقرأ كتابَكَ كفى بنفسِكَ اليوم عليك حَسيباً﴾: فالعبدُ وإن أنكر أو اعتذر عمَّا عمله؛ فإنكارُه واعتذارُه لا يفيدانه شيئاً؛ لأنَّه يشهد عليه سمعُه وبصره وجميعُ جوارحه بما كان يعمل، ولأنَّ استعتابه قد ذهب وقتُه وزال نفعُه، ﴿فيومئذٍ لا ينفعُ الذين ظلموا معذِرَتُهم ولا هم يُسْتَعْتَبونَ﴾.

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «والمزعجات». (٣) في (ب): «والفرار».
(٤) في (ب): «وأصابنا».
(٥) في (ب): «لا تقبل ولا تقابل ما يقرَّرُ به العبد».

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ كان النبيُّ ﷺ إذا جاءه جبريلُ بالوحي وشرع في تلاوته [عليه]؛ بادَرَهُ النبيُّ ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إيَّاه[1]، فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾: وقال هنا: **﴿لا تُحرِّكْ به لسانَكَ لِتَعْجَلَ به﴾**.

ثم ضمن له تعالى أنَّه لا بدَّ أن يحفظَه ويقرأه ويجمعه الله في صدره، فقال: **﴿إنَّ علينا جمعَه وقرآنه﴾**؛ فالحرص الذي في خاطرك إنَّما الداعي له حذر الفوات والنسيان؛ فإذا ضَمِنَه الله لك؛ فلا موجب لذلك، **﴿فإذا قَرَأناه فاتَّبِعْ قرآنه﴾**؛ أي: إذا أكمل جبريلُ ما يوحى إليك[2]؛ فحينئذٍ اتَّبع ما قرأه فاقرأه[3]، **﴿ثُمَّ إنَّ علينا بيانه﴾**؛ أي: بيان معانيه. فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربِّه، فكان إذا تلا عليه جبريلُ القرآن بعد هذا؛ أنصتَ له؛ فإذا فرغ؛ قرأه.

وفي هذه الآية أدبٌ لأخذ العلم: أن لا يبادر المتعلِّم[4] للعلم قبل أن يفرغ المعلِّم من المسألة التي شرع فيها؛ فإذا فرغ منها؛ سأله عمَّا أشكل عليه. **وكذلك** إذا كان في أول الكلام ما يوجب الردَّ أو الاستحسان أن لا يبادِرَ بردِّه أو قَبوله قبل[5] الفراغ من ذلك الكلام؛ ليتبيَّن ما فيه من حقٍّ أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكَّن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب[6]. **وفيها** أنَّ النبيَّ ﷺ كما بيَّن للأمَّة ألفاظ الوحي؛ فإنَّه قد بيَّن لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٢٧)، ومسلم (٤٤٨).
(٢) في (ب): «إذا أكمل جبريل قراءة ما أوحى الله إليك».
(٣) في (ب): «واقرأه».
(٤) في (ب): «المتعلم المعلم». وعدل عنها الشيخ في هامش (أ) كما هو مثبت.
(٥) في (ب): «حتى».
(٦) في (ب): «وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه».

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ أي: هٰذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنَّكم ﴿تحبُّونَ العاجلةَ﴾، وتسعون فيما يحصِّلها وفي لذَّاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأنَّ الدُّنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولعٌ بحبِّ العاجل، والآخرة متأخِّر ما فيها من النعيم المقيم؛ فلذٰلك غفلتم عنها وتركتُموها كأنَّكم لم تُخلقوا لها وكأنَّ هٰذه الدار هي دار القرار التي تُبْذَلُ فيها نفائس الأعمار ويُسعى لها آناء الليل والنهار، وبهٰذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل؛ فلو آثرتُم الآخرة على الدُّنيا ونظرتم العواقب[١] نظر البصير العاقل؛ لأنجحتم وربحتم ربحاً لا خسار[٢] معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدُّنيا: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ﴾؛ أي: حسنة بهيَّة لها رونقٌ ونورٌ مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذَّة الأرواح، ﴿إلى ربِّها ناظرةٌ﴾؛ أي: ينظرون إلى ربِّهم[٣] على حسب مراتبهم؛ منهم مَنْ ينظره كلَّ يوم بكرةً وعشيًّا، ومنهم من ينظره كلَّ جمعة مرةً واحدةً، فيتمتَّعون بالنَّظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيءٌ؛ فإذا رأوه؛ نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللَّذَّة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوهُهم، فازدادوا[٤] جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعَلَنا معهم.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة، [و] ﴿وجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ﴾؛ أي: معبسةٌ كدرةٌ[٥] خاشعةٌ ذليلةٌ، ﴿تظنُّ أن يُفْعَلَ بها فاقرةٌ﴾؛ أي: عقوبةٌ شديدةٌ وعذابٌ أليمٌ؛ فلذٰلك تغيَّرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾[٦] وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ

---

(١) في (ب): «للعَواقب».
(٢) في (ب): «خسارة».
(٣) في (ب): «تنظر إلى رَبِّها».
(٤) في (ب): «وازدادوا».
(٥) في (ب): «مكدّرة».
(٦) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ
نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٢٦ ـ ٣٠﴾ يَعِظُ تعالى عبادَه بذكر المحتضر حال السياق[1]، وأنَّه إذا بلغت روحه[2] ﴿التراقي﴾: وهي العظام المكتنفة لثُغْرَةِ النَّحر؛ فحينئذٍ يشتدُّ الكربُ، ويطلب كلَّ وسيلةٍ وسببٍ يظنُّ أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهٰذا قال: ﴿وقيلَ مَنْ راقٍ﴾؛ أي: من يرقيه، من الرُّقية؛ لأنَّهم انقطعت آمالهم من الأسباب العاديَّة، فتعلَّقوا بالأسباب الإلٰهيَّة[3]، ولٰكنَّ القضاء والقدر إذا حتم وجاء؛ فلا مردَّ له، ﴿وظنَّ أنَّه الفراقُ﴾: للدنيا، ﴿والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاق﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفَّت، وعظُم الأمر، وصعُب الكرب، وأريد أن تخرجَ الرُّوح من البدن الذي ألفته[4] ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى ليجازيها[5] بأعمالها ويقرِّرها بفعالها؛ فهٰذا الزجر الذي ذكره الله يسوقُ القلوب إلى ما فيه نجاتُها ويزجُرُها عمَّا فيه هلاكها.

﴿٣١ ـ ٣٣﴾ ولٰكنَّ المعاند الذي[6] لا تنفع فيه الآياتُ لا يزال مستمرًّا على غيِّه[7] وكفره وعناده، ﴿فلا صدَّقَ﴾؛ أي لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه، ﴿ولا صلَّى. ولٰكن كذَّبَ﴾: بالحقِّ في مقابلة التصديق، ﴿وتولَّى﴾: عن الأمر والنَّهي، هٰذا وهو مطمئنٌّ قلبهُ غير خائفٍ من ربِّه، بل ﴿ذهب إلى أهله يَتَمطَّى﴾؛ أي: ليس على بَالِه شيءٌ.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ ثم توعَّده بقوله: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾: وهٰذه كلماتُ وعيدٍ؛ كرَّرها لتكرير وعيدِهِ.

﴿٣٦ ـ ٤٠﴾ ثم ذكَّر الإنسان بخَلْقِهِ الأوَّل، فقال: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدىً﴾؛ أي: مهملاً[8] لا يؤمر ولا ينهى ولا يُثاب ولا يعاقب؟ هٰذا حسبانٌ باطلٌ

(١) في (ب): «بذكر حال المحتضر عند السياق».
(٢) في (ب): «الروح».
(٣) في (ب): «فلم يبق إلّا الأسباب الإلٰهية».
(٤) في (ب): «أن تخرج الروح التي ألفت البدن».
(٥) في (ب): «حتى يجازيها».
(٦) في (ب): «التي».
(٧) في (ب): «بغيه».
(٨) في (ب): «معطّلاً».

وظنٌّ بالله غير ما يليق بحكمته. ﴿ألم يكُ نطفةً مِن مَنِيٍّ يُمْنى. ثمَّ كان﴾: بعد المنيِّ ﴿علقةً﴾؛ أي: دماً، ﴿فَخَلَقَ﴾: الله منها الحيوان، وسواه؛ أي: أتقنه وأحكمه، ﴿فجعل منه الزوجين الذَّكر والأنثى. أليس ذٰلك﴾؛ أي: الذي خلق الإنسان وطوَّره إلى هٰذه الأطوار المختلفة[(١)] ﴿بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى؟﴾: بلى إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

تم تفسير سورة القيامة. والحمد لله ربِّ العالمين. وصلى الله على محمدٍ وسلَّم[(٢)].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

﴿١﴾ ذكر الله في هٰذه السورة أول حال الإنسان ومنتهاها ومتوسِّطها[(٣)]: فذكر أنَّه مرَّ عليه دهرٌ طويلٌ، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم، بل ليس مذكوراً.

﴿٢﴾ ثمَّ لـمَّا أراد خلقه؛ خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿من نطفةٍ أمشاجٍ﴾؛ أي: ماء مَهينٍ مستقذرٍ، ﴿نبتليه﴾: بذٰلك؛ لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغرُّه نفسه؟ فأنشأه الله وخَلَقَ له القُوى الظاهرة والباطنة[(٤)]؛ كالسمع والبصر وسائر الأعضاء، فأتمَّها له وجعلها سالمةً يتمكَّن بها من تحصيل مقاصده.

---

(١) في (ب): «الذي خلق الإنسان بهذه الأطوار».
(٢) في (ب): «تمَّ تفسير سورة القيامة. ولله الحمد والمنة. وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤».
وجاء في (ب): قبل تفسير سورة الإنسان ما نصه: «المجلد التاسع من «تيسير الرحيم الرحمٰن في تفسير القرآن» لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين. آمين».
(٣) في (ب): «ومبتداها ومتوسطها ومنتهاها». (٤) في (ب): «الباطنة والظاهرة».

﴿٣﴾ ثم أرسل إليه الرُّسل، وأنزل عليه الكتب، وهداه الطريق الموصلة إليه[١]، وبيَّنها، ورغَّبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إليه[١]، ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهَّبه عنها[٢]، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذٰلك، فانقسم الناس إلى شاكرٍ لنعمة الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه. وإلى كفورٍ للنعم[٣] أنعم الله عليه بالنعم الدينيَّة والدنيويَّة، فردَّها وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك. [ثم ذكر تعالى الفريقين عند الجزاء، فقال]:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ
مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ [٤]عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ
شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ
نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا
زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ
قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ
سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ
نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا
﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا
ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٤﴾ أي: إنَّا هيَّأنا وأرصدنا لمن كفر بالله وكذَّب رسله وتجرَّأ على معاصيه،

---

(١) في (ب): «إلى الله». (٢) في (ب): «منها».
(٣) في (ب): «النعمة الله عليه».
(٤) في (أ): طمس. وفي (ب): إلى آخر الثواب.

﴿سلاسل﴾: في نار جهنَّم؛ كما قال تعالى: ﴿ثمَّ في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعونَ ذِراعاً فاسلكوه﴾، ﴿وأغلالاً﴾: تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها، ﴿وسعيراً﴾؛ أي: ناراً تستعر بها أجسامُهم وتُحرق بها أبدانُهم، كلَّما نَضِجَتْ جلودُهم؛ بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، وهٰذا العذاب الدَّائم مؤبَّدٌ لهم[١]، مخلَّدون فيه سرمداً.

﴿٥﴾ وأمَّا ﴿الأبرار﴾، وهم الذين بَرَّتْ قلوبُهم بما فيها من معرفة الله ومحبَّته[٢] والأخلاق الجميلة؛ فبرَّت أعمالُهم[٣]، واستعملوها بأعمال البرِّ، فأخبر[٤] أنَّهم ﴿يشربون من كأسٍ﴾؛ أي: شرابٍ لذيذٍ من خمرٍ [قد] مُزِجَ بكافورٍ؛ أي: خلط به[٥] ليبرِّده ويكسر حدَّته، وهٰذا الكافور في غاية اللَّذَّة، قد سلم من كلِّ مكدِّرٍ ومنغِّص موجودٍ في كافور الدُّنيا؛ فإنَّ الآفة الموجودة في الدُّنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة[٦]؛ كما قال تعالى: ﴿في سِدْرٍ مخضودٍ. وطلحٍ منضودٍ﴾، ﴿وأزواجٌ مطهرةٌ﴾، ﴿لهم دارُ السلام عند ربِّهم﴾، ﴿وفيها ما تشتهيهِ الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ﴾.

﴿٦﴾ ﴿عيناً يشربُ بها عبادُ اللهِ﴾؛ أي: ذٰلك الكأس اللذيذ الذي يشربونه لا يخافون نفاده، بل له مادَّة لا تنقطع، وهي عينٌ دائمةُ الفيضان والجريان، يفجِّرها عباد الله تفجيراً أنَّى شاؤوا وكيف أرادوا؛ فإن شاؤوا؛ صرفوها إلى البساتين الزاهرات أو إلى الرياض النضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أيِّ جهةٍ يَرَوْنَها من الجهات المؤنَّقات.

﴿٧﴾ ثم ذكر جملةً من أعمالهم[٧]، فقال: ﴿يوفون بالنَّذْرِ﴾؛ أي: بما ألزموا به أنفسهم للَّه من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجبٍ في الأصل عليهم[٨] إلا بإيجابهم على أنفسهم؛ كان فعلُهم وقيامهم بالفروض

(١) في (ب): «وهذا العذاب دائمٌ لهم أبداً». (٢) في (ب): «من محبة الله ومعرفته».
(٣) في (ب): «جوارحهم». (٤) في (ب): «أخبر».
(٥) في (ب): «بكافور».
(٦) في (ب): «فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة».
(٧) في (ب): «وقد ذكر جملة من أعمالهم في أول هذه السورة».
(٨) في (ب): «يوفون بالنذر وهو لم يجب عليهم».

الأصليَّة من باب أولى وأحرى، ﴿ويخافون يوماً كان شَرُّه مستطيراً﴾؛ أي: فاشياً منتشراً، فخافوا أن ينالهم شرُّه، فتركوا كلَّ سببٍ موجبٍ لذٰلك.

﴿٨ ـ ١٠﴾ ﴿ويطعِمونَ الطَّعامَ على حبِّه﴾؛ أي: وهم في حال يحبُّون فيها المال والطعام، لٰكنَّهم قدَّموا محبَّة الله على محبَّة نفوسهم، ويتحرَّوْن في إطعامهم أولى الناس وأحوجَهم، ﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾: ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجهَ الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: ﴿إنَّما نطعِمُكم لوجه الله لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً﴾؛ أي: لا جزاءً ماليًّا ولا ثناءً قوليًّا، ﴿إنا نخاف من ربِّنا يوماً عبوساً﴾؛ أي: شديد الجهمة والشرِّ، ﴿قمطريراً﴾؛ أي: ضنكاً ضيقاً.

﴿١١﴾ ﴿فوقاهُمُ اللهُ شرَّ ذٰلك اليوم﴾: فلا يحزنهم الفزعُ الأكبر، وتتلقَّاهم الملائكة هٰذا يومكم الذي كنتُم توعدون، ﴿ولَقَّاهُم﴾؛ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نضرةً﴾: في وجوههم، ﴿وسروراً﴾: في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظَّاهر والباطن.

﴿١٢﴾ ﴿وجزاهم بما صبروا﴾: على طاعته[1] فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصيه[2] فتركوها، وعلى أقداره[3] المؤلمة فلم يتسخَّطوها ﴿جنَّةً﴾: جامعةً لكلِّ نعيم سالمةً من كلِّ مكدِّرٍ ومنغِّص، ﴿وحريراً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ولباسُهم فيها حريرٌ﴾: ولعلَّ اللهَ إنَّما خصَّ الحريرَ لأنَّه لباسهم الظَّاهر الدالُّ على حال صاحبه.

﴿١٣﴾ ﴿متَّكئين فيها على الأرائكِ﴾: الاتِّكاء: التمكُّن من الجلوس في حال الطُّمأنينة والراحة والرَّفاهية[4]، والأرائك هي السُّرُر التي عليها اللباس المزيَّن، ﴿لا يَرَوْن فيها﴾؛ أي: في الجنة ﴿شمساً﴾: يضرُّهم حرُّها، ﴿ولا زمهريراً﴾؛ أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظلٍّ ظليلٍ، لا حرٌّ ولا بردٌ؛ بحيث تلتذُّ به الأجساد ولا تتألَّم من حرٍّ ولا بردٍ.

﴿١٤﴾ ﴿ودانيةً عليهم ظِلالها وذُلِّلَتْ قطوفُها تذليلاً﴾؛ أي: قُرِّبَتْ ثمراتها من مريدها تقريباً، ينالها وهو قائمٌ أو[5] قاعدٌ أو[5] مضطجعٌ.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ﴿ويُطافُ عليهم﴾؛ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة[6]،

---

(١) في (ب): «طاعة الله».
(٢) في (ب): «معاصي الله».
(٣) في (ب): «أقدار الله».
(٤) في (ب): «في حال الرفاهية والطمأنينة».
(٥) في (ب): «و».
(٦) في (ب): «﴿ويطاف﴾ على أهل الجنة؛ أي: يدور عليهم الخدم والولدان».

﴿بآنيةٍ من فضّةٍ وأكوابٍ كانت قواريرَ. قواريرَ من فضّةٍ﴾؛ أي: مادتها فضّةٌ، وهي على صفاء القوارير، وهٰذا من أعجب الأشياء؛ أن تكون الفضّةُ الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير، ﴿قدّروها تقْديراً﴾؛ أي: قدّروا الأواني المذكورة على قدرِ رِيِّهم؛ لا تزيدُ ولا تنقصُ؛ لأنَّها لو زادت؛ نقصتْ لذَّتها، ولو نقصت؛ لم تكفِهِم لرِيِّهم[1]. ويُحتمل أنَّ المراد: قدَّرها أهلُ الجنة[2] بمقدارٍ يوافقُ لذَّتهم، فأتتهم على ما قدَّروا في خواطرهم.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿ويُسْقَوْنَ فيها﴾؛ أي: الجنة ﴿كأساً﴾: وهو الإناء [المملوء] من خمرٍ ورحيقٍ. ﴿كان مِزاجُها﴾؛ أي: خلطها ﴿زنجبيلاً﴾: ليطيب طعمُه وريحُه. ﴿عيناً فيها﴾؛ [أي: في الجنة] ﴿تسمّى سَلْسَبيلاً﴾: سمِّيت بذٰلك لسلاستها ولذَّتها وحسنها.

﴿١٩﴾ ﴿ويطوفُ﴾: على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم، ﴿ولدانٌ مخلَّدون﴾؛ أي: خلقوا من الجنة للبقاء؛ لا يتغيَّرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إذا رأيتَهم﴾: منتشرين في خدمتهم، ﴿حسبتَهم﴾: من حسنهم ﴿لؤلؤاً منثوراً﴾: وهٰذا من تمام لذَّة أهل الجنة؛ أن يكون خُدَّامُهم الولدان المخلَّدون، الذين تَسُرُّ رؤيتُهم، ويدخُلون في مساكنهم آمنين من تَبِعَتِهِم، ويأتونَهم بما يدَّعون وتطلُبُه نفوسُهم.

﴿٢٠﴾ ﴿وإذا رأيتَ ثَمَّ﴾؛ أي: رمقتَ ما أهل الجنة عليه[3] من النعيم الكامل، ﴿رأيتَ نعيماً وملكاً كبيراً﴾: فتجد الواحد منهم عنده من [القصور و] المساكن والغرف المزيَّنة المزخرفة ما لا يدركُه الوصفُ، ولديه من البساتين الزاهرة والثِّمار الدَّانية والفواكه اللَّذيذة والأنهار الجارية والرِّياض المعجِبَة والطُّيور المطربة المُشْجِيَة، ما يأخُذُ بالقلوب ويُفْرِحُ النفوس، وعنده من الزَّوْجاتِ اللاَّتي هنَّ في غاية الحسن والإحسان الجامعات لجمال الظاهر والباطن الخَيِّراتِ الحسانِ، ما يملأُ القلبَ سروراً ولذَّةً وحبوراً، وحوله من الوِلْدان المخلَّدين والخدم المؤبَّدين ما به تحصل الراحة والطُّمأنينة، وتتمُّ لَذَّة العيش وتكمل الغِبطة، ثم علاوة ذٰلك ومعظمه الفوز برضا[4] الربِّ الرحيم وسماع خطابه ولَذَّة قربه والابتهاج برضاه والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كلَّ وقتٍ وحينٍ؛ فسبحان المالك الملك[5] الحقِّ المُبين، الذي لا تَنْفَدُ

---

(١) في (ب): «لم تفِ بريِّهم».
(٢) في (ب): «قدرها أهل الجنة بنفوسهم».
(٣) في (ب): «أي: هناك في الجنة ورمقت ما هم فيه».
(٤) في (ب): «برؤية».
(٥) في (ب): «الملك المالك».

خزائنه ولا يقلُّ خيرُه؛ كما[1] لا نهاية لأوصافِهِ؛ فلا نهايةَ لبرِّه وإحسانه.

﴿٢١﴾ ﴿عاليهم ثيابُ سندسٍ خضرٌ﴾؛ أي: قد جلَّلتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران اللَّذان هما أجَلُّ أنواع الحرير، فالسُّندس ما غلظ من الحرير، والإستبرقُ ما رقَّ منه، ﴿وحُلُّوا أساوِرَ من فضَّةٍ﴾؛ أي: حُلُّوا في أيديهم أساور الفضَّة؛ ذكورهم وإناثهم. وهٰذا وعدٌ وَعَدَهم الله، وكان وعدُه مفعولاً؛ لأنَّه لا أصدق منه قيلاً ولا حديثاً. وقوله: ﴿وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً﴾؛ أي: لا كدر فيه بوجهٍ من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كلِّ أذىً وقذىً.

﴿٢٢﴾ ﴿[إنَّ] هٰذا﴾: الجزاء الجزيل [والعطاء الجميل] ﴿كان لكم جزاءً﴾: على ما أسلَفْتموه من الأعمال، ﴿وكان سعيُكم مشكوراً﴾؛ أي: القليل [منه] يجعل الله لكم به من النعيم [المقيم] ما لا يمكن حصره.

﴿٢٣﴾ وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إنَّا نحن نزَّلْنا عليك القرآن تنزيلاً﴾: فيه الوعد والوعيد وبيانُ كلِّ ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتمَّ القيام والسعي في تنفيذها والصبر على ذٰلك.

﴿٢٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربِّكَ ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفوراً﴾؛ أي: اصبر لحكمه القدريِّ؛ فلا تسخطه، ولحكمه الدينيِّ؛ فامض عليه، ولا يعوقنَّك عنه عائقٌ، ﴿ولا تطع﴾: من المعاندين الذين يريدونَ أن يَصُدُّوك ﴿آثماً﴾؛ أي: فاعلاً إثماً ومعصيةً، ﴿ولا كفوراً﴾: فإنَّ طاعة الكفَّار والفجَّار والفسَّاق لا بدَّ أن تكون معصيةً لله[2]؛ فإنَّهم لا يأمرون إلَّا بما تهواه أنفسهم.

﴿٢٥﴾ ولما كان الصبر يُسْتَمَدُّ من القيام بطاعة الله[3] والإكثار من ذِكْرِه؛ أمر[4] الله بذٰلك، فقال: ﴿واذكُرِ اسمَ ربِّك بكرةً وأصيلاً﴾؛ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذٰلك الصلوات المكتوبات، وما يتبعها من النَّوافل والذِّكْر والتَّسبيح والتَّهليل والتَّكبير في هٰذه الأوقات.

﴿٢٦﴾ ﴿ومن الليل فاسْجُدْ له﴾؛ أي: أكثر له من السُّجود، وذٰلك متضمِّن لكثرة الصلاة[5]، ﴿وسبِّحه ليلاً طويلاً﴾: وقد تقدَّم تقييد هٰذا المطلق بقوله: ﴿يا

---

(١) في (ب): «فكما». (٢) في (ب): «لا بد أن تكون في المعاصي».
(٣) في (ب): «ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله».
(٤) في (ب): «أمره الله».
(٥) في (ب): «أي: أكثر من السجود، ولا يكون ذلك إلاَّ بالإكثار من الصلاة».

أيُّها المزَّمِّلُ. قم الليلَ إلَّا قليلاً. نِصْفَهُ أو انقُصْ منه قليلاً. أو زِدْ عليه...﴾.

﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿إنَّ هٰؤلاءِ﴾؛ أي: المكَذِّبين لك أيها الرسول بعدما بُيِّنَتْ لهم الآيات ورُغِّبوا ورُهِّبوا، ومع ذٰلك لم يُفِدْ فيهم ذٰلك شيئاً، بل لا يزالون يُؤْثرون ﴿العاجلةَ﴾: ويطمئنُّون إليها، ﴿ويذرونَ﴾؛ أي: يتركون العمل ويهملون ﴿وراءهم﴾؛ أي: أمامهم ﴿يوماً ثقيلاً﴾: وهو يوم القيامةِ، الذي مقداره خمسون ألفَ سنةٍ ممَّا تعدُّون، وقال تعالى: ﴿يقولُ الكافرون هٰذا يومٌ عَسِرٌ﴾؛ فكأنَّهم ما خُلِقوا إلَّا للدُّنيا والإقامة فيها.

﴿٢٨﴾ ثم استدلَّ عليهم وعلى بعثهم بدليل عقليٍّ، وهو دليلُ الابتداء، فقال: ﴿نحن خَلَقْناهم﴾؛ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشَدَدْنا أسْرَهم﴾؛ أي: أحكمنا خِلْقَتَهم بالأعصاب والعروق والأوتار والقُوى الظاهرة والباطنة، حتى تمَّ الجسم واستكمل وتمكَّن من كلِّ ما يريده؛ فالذي أوجدهم على هٰذه الحالة قادرٌ على أن يعيدَهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقَّلهم في هٰذه الدار إلى هٰذه الأطوار لا يَليقُ به أن يَتْرُكَهم سدىً، لا يُؤْمَرون، ولا يُنْهَوْن، ولا يُثابون، ولا يُعاقبون، ولهٰذا قال: ﴿وإذا شِئْنا بَدَّلْنا أمثالَهم تَبْديلاً﴾؛ أي: أنشأناكم للبعث نشأةً أخرى، وأعدْناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إنَّ هٰذه تذكرةٌ﴾؛ أي: يتذكَّر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب، ﴿فمَن شاءَ اتَّخذَ إلى ربِّه سَبيلاً﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إليه؛ فالله يبيِّن الحقَّ والهدى، ثم يخيِّر الناس بين الاهتداء بها أو النُّفور عنها؛ إقامةً للحُجَّة[1]؛ ليهلكَ من هَلَكَ عن بيِّنةٍ، ويحيا من حيَّ عن بينةٍ.

﴿٣٠﴾ ﴿وما تشاؤون إلَّا أن يشاءَ اللهُ﴾: فإنَّ مشيئة الله نافذةٌ. ﴿إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾: فله الحكمةُ في هداية المهتدي وإضلال الضالِّ.

﴿٣١﴾ ﴿يُدْخِلُ مَن يشاءُ في رحمتِهِ﴾: فيختصُّه بعنايته، ويوفِّقه لأسباب السعادة، ويهديه لطُرُقِها، ﴿والظَّالمين﴾: الذين اختاروا الشقاء على الهدى، ﴿أعدَّ لهم عذاباً أليماً﴾: بظلمهم وعدوانهم.

تمت. ولله الحمد[2].

* * *

(١) في (ب): «مع قيام الحجة».

(٢) في (ب): «تمَّ تفسير سورة الإنسان. ولله الحمد والمنة».

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾[1] فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال بـ ﴿المُرْسَلات عُرْفاً﴾: وهي الملائكةُ التي يرسِلُها الله تعالى بشؤونه القدريَّة وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعيَّة ووحيه إلى رسله، و ﴿عُرْفاً﴾: حال من المرسلات؛ أي: أرسلت بالعُرْف والحكمة والمصلحة، لا بالنُّكر والعبث. ﴿فالعاصفاتِ عصفاً﴾: وهي أيضاً الملائكة التي يرسِلُها الله تعالى، وَصفَها بالمبادرة لأمره وسرعة تنفيذ أوامره كالريح العاصف أو أنَّ العاصفات الرياح الشديدة التي يُسْرِعُ هبوبها، ﴿والناشرات نشراً﴾: يُحتمل أنَّ المراد بها الملائكة[2]؛ تنشر ما دُبِّرت على نشره، أو أنَّها السحاب التي يَنْشُرُ الله بها الأرض فيحييها بعد موتها. ﴿فالمُلْقِياتِ ذِكْراً﴾: هي الملائكة تلقي أشرفَ الأوامر، وهو الذِّكْرُ الذي يرحم الله به عباده، ويذكِّرهم فيه منافعهم ومصالحهم؛ تلقيه إلى الرسل ﴿عُذْراً أو نُذْراً﴾؛ أي: إعذاراً وإنذاراً للناس؛ تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطَعُ أعذارهم[3]؛ فلا يكون لهم حُجَّةٌ على الله.

﴿٧﴾ ﴿إنَّما توعَدون﴾: من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَواقِعٌ﴾؛ أي: متحتِّم وقوعه من غير شكٍّ ولا ارتياب.

﴿٨ ـ ١٤﴾ فإذا وقع؛ حصل من التغيُّر[4] للعالم والأهوال الشَّديدة ما يزعج القلوبَ وتشتدُّ له الكروب فتنطمس النُّجوم؛ أي: تتناثر وتزول عن أماكِنِها، وتُنْسَفُ الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها

---

(١) في (أ): «إلى قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «يحتمل أنها الملائكة». (٣) في (ب): «معذرتهم».

(٤) في (ب): «التغيير».

عوجاً ولا أمتاً، وذٰلك اليوم هو اليوم الذي ﴿أُقِّتَتْ﴾ فيه الرسل، وأجِّلَتْ للحكم بينها وبين أممها، ولهٰذا قال: ﴿لأيِّ يوم أجِّلَتْ﴾: استفهامٌ للتعظيم والتفخيم والتهويل، ثم أجاب بقوله: ﴿ليوم الفصل﴾؛ أي: بين الخلائق بعضهم من بعض، وحساب كلٍّ منهم منفرداً.

﴿١٥﴾ ثم توعَّد المكذِّب بهٰذا اليوم، فقال: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ﴾؛ أي: يا حسرتهم وشدَّة عذابهم وسوءَ منقلبهم، أخبرهم الله وأقسم لهم فلم يصدقوه؛ فلذٰلك استحقُّوا[1] العقوبة البليغة.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ أي: أما أهلكنا المكذِّبين السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كَذَّب من الآخرين، وهٰذه سنَّته السابقة واللاحقة في كلِّ مجرم، لا بدَّ من عقابه[2]، فلِمَ لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟! ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: بعدما شاهدوا من الآيات البينات والعقوباتِ والمَثُلات.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٠ ـ ٢٤﴾ أي: أما خلقناكم أيُّها الآدميُّون ﴿من ماءٍ مَهينٍ﴾؛ أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصُّلب والتَّرائب، حتى جعله الله ﴿في قرارٍ مَكينٍ﴾: وهو الرحم به يستقرُّ وينمو، ﴿إلى قدرٍ معلوم﴾: ووقتٍ مقدَّرٍ. ﴿فقَدَرْنا﴾؛ أي: قدَّرْنا ودَبَّرْنا ذٰلك الجنين في تلك الظُّلمات، ونقلناه من النُّطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن جعله الله جسداً و[3] نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذٰلك. ﴿فنعم القادِرونَ﴾؛ يعني بذٰلك نفسه المقدَّسة؛ لأنَّ قَدَرَه تابعٌ لحكمته موافقٌ للحمد[4]. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ﴾، [بعد ما بَيَّن اللّٰهُ لهم الآياتِ وأراهم العبَر والبيِّناتِ].

---

(١) في (ب): «فاستحقوا».
(٢) في (ب): «عذابه».
(٣) في (ب): «ثم».
(٤) في (ب): «حيث كان قدراً تابعاً للحكمة وموافقاً للحمد».

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥ ـ ٢٨﴾ أي: أما مَنَنَّا[١] عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم فجعلناها ﴿كفاتاً﴾: لكم، ﴿أحياءً﴾: في الدور، ﴿وأمواتاً﴾: في القبور؛ فكما أنَّ الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنَّته؛ فكذلك القبور رحمة في حقِّهم وسترٌ لهم عن كون أجسادهم باديةً للسِّباع وغيرها. ﴿وجعلنا فيها رواسيَ﴾؛ أي: جبالاً ترسي الأرض لئلَّا تميدَ بأهلها، فثبَّتها الله بالجبال الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض. ﴿وأسقَيْناكم ماءً فُراتاً﴾؛ أي: عذباً زلالاً؛ قال تعالى: ﴿أفرأيْتُم الماءَ الذي تشربونَ. أأنتُم أنزَلْتُموه من المُزْنِ أم نحنُ المنزِلونَ. لو نشاءُ جعلناه أُجاجاً فلولا تَشْكُرونَ﴾. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: مع ما أراهم الله من النعم التي انفرد بها، واختصَّهم بها فقابلوها بالتكذيب.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٢٩ ـ ٣٤﴾ هٰذا من الويل الذي أُعِدَّ للمجرمين المكذِّبين أنْ يقال لهم يوم القيامةِ: ﴿انطَلِقوا إلى ما كُنتُم به تكذِّبونَ﴾: ثم فسَّر ذٰلك بقوله: ﴿انطَلِقوا إلى ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ﴾؛ أي: إلى ظلِّ نار جهنَّم التي[٢] تتمايز في خلاله ثلاث شعب؛ أي: قطع من النار تتعاوره[٣] وتتناوبه وتجتمع به. ﴿لا ظليلٍ﴾: ذٰلك الظلُّ؛ أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿ولا يُغْني﴾: من مَكَثَ فيه ﴿من اللَّهب﴾: بل اللهب قد أحاط به يمنةً ويسرةً ومن كلِّ جانب؛ كما قال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتِهم ظُلَلٌ﴾، ﴿لهم من جَهنَّمَ مهادٌ ومن فوقِهم غواشٍ وكذٰلك نجزي الظَّالمينَ﴾.

ثم ذكر عِظَمَ شرر النار الدالَّ على عظمها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال: ﴿إنها تَرْمي بشررٍ كالقَصْر. كأنَّه جِمالةٌ صُفْرٌ﴾: وهي السود التي تضرِب إلى لونٍ فيه صفرة، وهٰذا يدلُّ على أن النار مظلمة لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداءُ كريهةُ

---

(١) في (ب): «أما آمتنَنّا».
(٢) في (ب): «الذي».
(٣) في (ب): «أي: تتعاوره».

المنظر[١] شديدةُ الحرارة؛ نسأل الله العافية منها، ومن الأعمال المقرِّبة منها. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٥ ـ ٣٧﴾ أي: هٰذا اليوم العظيم الشَّديد على المكذِّبين، لا ينطِقون فيه من الخوف والوَجَل الشديد، ﴿ولا يُؤْذَنُ لهم فيعتَذِرون﴾؛ أي: لا تُقبل معذرتُهم ولو اعتذروا. ﴿فيومئذٍ لا ينفع الذينَ ظَلَموا معذِرَتُهم ولا هم يُسْتَعْتَبونَ﴾.

﴿٣٨ ـ ٤٠﴾ ﴿هٰذا يومُ الفصل جَمَعْناكم والأوَّلينَ﴾: لنفصل بينَكم ونحكُمَ بين الخلائق. ﴿فإن كانَ لكم كيدٌ﴾: تقدِرون على الخروج عن ملكي وتَنْجونَ به من عذابي، ﴿فكيدونِ﴾؛ أي: ليس لكم قدرةٌ ولا سلطانٌ؛ كما قال تعالى: ﴿يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إنِ اسْتَطَعْتُم أن تنفُذوا من أقطارِ السمٰواتِ والأرضِ فانفُذوا، لا تَنفُذون إلَّا بسلطانٍ﴾؛ ففي ذٰلك اليوم تبطُل حيل الظالمين، ويضمحلُّ مكرُهم وكيدُهم ويستسلمون لعذابِ الله، ويبين لهم كذِبُهم في تكذيبهم. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤١ ـ ٤٥﴾ لمَّا ذكر عقوبة المكذِّبين؛ ذكر مثوبة[٢] المحسنين، فقال: ﴿إنَّ المتَّقين﴾؛ أي: للتكذيب، المتَّصفين بالتَّصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذٰلك إلَّا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرَّمات، ﴿في ظلالٍ﴾: من كثرة الأشجار المتنوِّعة الزاهرة[٣] البهيَّة، ﴿وعيونٍ﴾: جاريةٍ من السلسبيل والرحيق وغيرهما، ﴿وفواكهَ ممَّا يشتهونَ﴾؛ أي: من خيار الفواكه وأطيبها[٤]، ويقال لهم: ﴿كُلوا واشرَبوا﴾: من المآكل الشهيَّة والأشربة اللَّذيذة، ﴿هنيئاً﴾؛ أي: من غير منغِّص ولا مكدِّر، ولا يتمُّ هناؤه حتى يسلمَ الطعام والشرابُ من كلِّ آفةٍ ونقصٍ،

(١) في (ب): «كريهة المرأى».
(٢) في (ب): «ثواب».
(٣) في (ب): «الزاهية».
(٤) في (ب): «وطيبها».

وحتى يجزموا أنَّه غيرُ منقطع ولا زائل؛ ﴿بما كنتُم تعملونَ﴾: فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى جنَّات النعيم[١] المقيم، وهٰكذا كلُّ من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهٰذا قال: ﴿إنَّا كذٰلك نجزي المحسِنينَ. ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: ولو لم يكن من هٰذا الويل إلَّا فوات هٰذا النعيم؛ لكفى به حزناً وحرماناً[٢].

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٦ ـ ٥٠﴾ هٰذا تهديدٌ ووعيدٌ للمكذِّبين أنَّهم وإن أكلوا في الدُّنيا وشربوا وتمتَّعوا باللَّذَّات وغفلوا عن القُرُبات؛ فإنَّهم مجرمون يستحقُّون ما يستحقُّه المجرمون، فتنقطع عنهم اللَّذَّات، وتبقى عليهم التَّبِعات. ومن إجرامهم أنَّهم إذا أُمِروا بالصَّلاة التي هي أشرف العبادات، و﴿قيل لهم اركعوا﴾: امتنعوا من ذٰلك؛ فأيُّ إجرام فوق هٰذا؟ وأيُّ تكذيب يزيد على هٰذا؟ ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: ومن الويل عليهم أنَّهم تنسدُّ عنهم[٣] أبواب التوفيق ويُحْرَمون كلَّ خيرٍ؛ فإنَّهم إذا كذَّبوا هٰذا القرآن الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق؛ ﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَه يؤمنونَ﴾: أبالباطل الذي هو كاسمه لا يقوم عليه شبهةٌ فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام[٤] مشركٍ كذَّابٍ أفَّاكٍ مبينٍ؟ فليس بعد النُّور المبين إلَّا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين القاطعة إلَّا الإفك الصراح والكذب المبينُ[٥] الذي لا يَليقُ إلَّا بمن يناسبه؛ فتبًّا لهم ما أعماهم! وويحاً لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

تمت.

* * *

---

(١) في (ب): «إلى هذا النعيم».
(٢) في (ب): «حرماناً وخسراناً».
(٣) في (ب): «عليهم».
(٤) في (ب): «بكلام كلِّ».
(٥) في (ب): «قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين».

تفسير سورة عمَّ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ أي: عن أيِّ شيءٍ يتساءل المكذِّبون بآيات الله؟ ثم بيَّن ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عن النبإ العظيم. الذي هم فيه مختلفون﴾؛ أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعُهم وانتشر فيه خلافُهم على وجه التَّكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشكَّ ولا يدخُله الريبُ، ولكن المكذِّبون بلقاء ربِّهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ، حتى يَرَوُا العذاب الأليم، ولهٰذا قال: ﴿كلَّا سيعلمونَ. ثم كلَّا سيعلمونَ﴾؛ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذابُ ما كانوا به يكذبون حين ﴿يُدَعُّون إلى نار جَهَنَّم دعًّا﴾. ويقال لهم: ﴿هٰذه النَّار التي كنتُم بها تكذِّبونَ﴾.

ثم ذكر[1] تعالى النِّعم والأدلَّة الدالَّة على ما جاءت[2] به الرُّسل فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦[3] وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

﴿٦ ـ ١٦﴾؛ أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلةٍ، فجعلنا لكم ﴿الأرضَ مِهاداً﴾؛ أي: ممهَّدة مذلَّلة[4] لكم ولمصالحكم من الحروث والمساكن والسُّبل، ﴿والجبالَ أوتاداً﴾: تمسك الأرض لئلَّا تضطرب بكم وتميدَ، ﴿وخَلَقْناكم أزواجاً﴾؛ أي: ذكوراً وإناثاً من جنس واحدٍ؛ ليسكن كلٌّ منهما إلى الآخر، فتتكوَّن[5] المودَّة والرحمة، وتنشأ عنهما الذُّرِّيَّة. وفي ضمن هٰذا الامتنان بلذَّة المنكح. ﴿وجَعَلْنا نومَكم سُباتاً﴾؛ أي: راحةً لكم وقطعاً لأشغالكم التي متى تمادت بكم؛ أضرَّت

---

(١) في (ب): «بيَّن».
(٢) في (ب): «أخبرت».
(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿ألفافاً﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «مهيئة».
(٥) في (ب): «فتكون».

بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يُغشي الناس لتسكنَ[١] حركاتُهم الضارَّة وتحصل راحتُهم النافعةُ، ﴿وبنينا فوقَكم سبعاً شِداداً﴾؛ أي: سبع سماواتٍ في غاية القوَّة والصَّلابة والشِّدَّة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفاً للأرض، فيها عدَّة منافع لهم، ولهٰذا ذكر من منافعها الشمس، فقال: ﴿وجَعَلْنا سراجاً وهَّاجاً﴾: نبَّه بالسِّراج على النِّعمة بنورها الذي صار ضرورةً للخلق، وبالوهَّاج ـ وهي حرارتها ـ على ما فيها من الإنضاج والمنافع[٢]، ﴿وأنزلنا من المعصِراتِ﴾؛ أي: السَّحاب ﴿ماءً ثَجَّاجاً﴾؛ أي: كثيراً جدًّا؛ ﴿لِنُخرِجَ به حبًّا﴾: من برٍّ وشعيرٍ وذرةٍ وأرزٍّ وغير ذٰلك ممَّا يأكله الآدميُّون، ﴿ونباتاً﴾: يشملُ سائر النَّبات الذي جعلَه الله قوتاً لمواشيهم، ﴿وجناتٍ ألفافاً﴾؛ أي: بساتين ملتفَّة فيها من جميع أصناف الفواكه اللَّذيذة؛ فالذي أنعم [عليكم] بهٰذه النِّعم الجليلة[٣] التي لا يقدر قدرها ولا يحصى عددها؛ كيف تكفُرون به وتكذِّبون ما أخبركم به من البعث والنُّشور؟! أم كيف تستعينون بنعمِهِ على معاصيه وتجحَدونها؟!

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾[٤] يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿١٧ ـ ٢٥﴾ ذكر الله تعالى ما يكون في يوم القيامةِ الذي يتساءل عنه المكذِّبون ويجحده المعاندون؛ أنَّه يومٌ عظيمٌ، وأن الله جعله ﴿ميقاتاً﴾ للخلق، ﴿يُنفَخُ في الصُّور﴾ فيأتون ﴿أفواجاً﴾: ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يَشيبُ له المولودُ[٥] وتنزعجُ له القلوبُ، فتسير الجبال حتى تكون كالهباء المبثوثِ، وتنشقُّ[٦]

---

(١) في (ب): «فتنقطع».

(٢) في (ب): «كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح».

(٣) في (ب): «العظيمة».

(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٥) في (ب): «الوليد».

(٦) في (ب): «وتشقَّق».

السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقدُ نارُ جهنَّم التي أرصدها الله وأعدَّها للطَّاغين وجعلها مثوىً لهم ومآباً، وأنَّهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرةً، والحقبُ على ما قاله كثيرٌ من المفسِّرين ثمانون سنة؛ فإذا وردوها[١]؛ ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾؛ أي: لا ما يبرِّدُ جلودَهم ولا ما يدفع ظمأهم؛ ﴿إلَّا حميماً﴾؛ أي: ماءً حارًّا يشوي وجوههم ويقطِّع أمعاءهم ﴿وغسَّاقاً﴾: وهو صديدُ أهل النار: الذي هو في غاية النتن وكراهة المذاق.

﴿٢٦ ـ ٣٠﴾ وإنَّما استحقُّوا هذه العقوبات الفظيعة جزاءً لهم وفاقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم التي استحقُّوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿إنَّهم كانوا لا يرجونَ حساباً﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أنَّ الله يجازي الخلق بالخير والشرِّ؛ فلذلك أهملوا العمل للآخرة، ﴿وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً﴾؛ أي: كذَّبوا بها تكذيباً واضحاً صريحاً، وجاءتهم البيِّنات فعاندوها، ﴿وكلَّ شيءٍ﴾: من قليلٍ وكثيرٍ وخيرٍ وشرٍّ، ﴿أحصيناه كتاباً﴾؛ أي: أثبتناه[٢] في اللوح المحفوظ؛ فلا يحسب[٣] المجرمون أنَّا عذَّبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنَّه يضيع من أعمالهم شيءٌ أو يُنسى منها مثقالُ ذرَّةٍ؛ كما قال تعالى: ﴿ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مشفقين ممَّا فيه ويقولون يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها ووجدَوا ما عمِلوا حاضراً ولا يظلِمُ ربُّك أحداً﴾. ﴿فذوقوا﴾: أيُّها المكذِّبون هذا العذاب الأليم والخزيَ الدائم، ﴿فلن نزيدكم إلَّا عذاباً﴾: فكلُّ وقتٍ وحينٍ يزدادُ عذابُهم. وهذه الآيةُ أشدُّ الآيات في شدَّة عذاب أهل النار، أجارنا الله منها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾[٤] حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣١ ـ ٣٦﴾ لمَّا ذكر حال المجرمين؛ ذَكَرَ مآلَ المتَّقين، فقال: ﴿إنَّ للمتَّقين مفازاً﴾؛ أي: الذين[٥] اتَّقوا سَخَطَ ربِّهم بالتَّمسُّك بطاعته والانكفاف عن

---

(١) في (ب): «وهم إذا وردوها». (٢) في (ب): «كتبناه».

(٣) في (ب): «فلا يخشى».

(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿عطاء حساباً﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٥) في (ب): «إن المتقين الذين. . .».

معصيته[١]؛ فلهم مفازٌ ومنجىً وبعدٌ عن النار، وفي ذٰلك المفاز لهم ﴿حدائق﴾: وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثِّمار التي تتفجَّر بين خلالها الأنهار، وخصَّ العنب[٢] لشرفه وكثرته في تلك الحدائق. ولهم فيها زوجاتٌ على مطالب النُّفوس ﴿كواعبَ﴾: وهي النواهِدُ اللاَّتي لم تتكسَّر ثديُهُنَّ من شبابهنَّ وقوَّتهن ونضارتهنَّ[٣]. والأتراب اللاَّتي على سنٍّ واحدٍ متقاربٍ، ومن عادة الأتراب أن يكنَّ متآلفاتٍ[٤] متعاشراتٍ، وذٰلك السنُّ الذي هنَّ فيه ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً أعدل ما يكون من الشباب[٥]، ﴿وكأساً دِهاقاً﴾؛ أي: مملوءة من رحيقٍ لَذَّةٍ للشاربين، ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾؛ أي: كلاماً لا فائدة فيه، ﴿ولا كِذَّاباً﴾؛ أي: إثماً؛ كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلَّا قِيلاً سلاماً سلاماً﴾، وإنَّما أعطاهم الله هٰذا الثَّواب الجزيل من فضله وإحسانه[٦]. ﴿عطاءً حساباً﴾؛ أي: بسبب أعمالهم التي وفَّقهم الله لها، وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته[٧].

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾[٨] يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٧ ـ ٣٩﴾ أي: الذي أعطاهم هٰذه العطايا هو ربُّهم، ﴿ربُّ السمٰواتِ والأرضِ﴾: الذي خلقها ودبَّرها. ﴿الرحمٰن﴾: الذي رحمته وسعتْ كلَّ شيءٍ، فربَّاهم ورحمهم ولطف بهم حتى أدركوا ما أدركوا. ثم ذكر عَظَمَتَه وملكَه العظيم يوم القيامةِ، وأنَّ جميع الخلق كلَّهم ساكتون ذٰلك اليوم[٩] لا يتكلَّمون و ﴿لا يملِكونَ منه خطاباً﴾؛ ﴿إلَّا مَنْ أذِنَ له الرحمٰن وقال صواباً﴾: فلا يتكلَّم أحدٌ إلَّا

(١) في (ب): «عمَّا يكرهه».
(٢) في (ب): «الأعناب».
(٣) في (ب): «وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها».
(٤) في (ب): «متوالفات».
(٥) في (ب): «في أعدل سنِّ الشباب».
(٦) في (ب): «هذا الثواب الجزيل جزاء من ربك لهم».
(٧) في (ب): «وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها».
(٨) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٩) في (ب): «ذلك اليوم ساكتون».

بهٰذين الشرطين: أن يأذنَ الله له في الكلام، وأنْ يكونَ ما تكلَّم به صواباً؛ لأنَّ ﴿ذٰلك اليوم﴾ [هو] ﴿الحقُّ﴾: الذي لا يَروج فيه الباطلُ ولا ينفعُ فيه الكذب. وفي ذٰلك اليوم ﴿يقومُ الرُّوح﴾: وهو جبريلُ عليه السلام، الذي هو أفضلُ[١] الملائكة، ﴿والملائكةُ﴾: أيضاً يقوم الجميع ﴿صفًّا﴾: خاضعين لله، لا يتكلَّمون إلَّا بإذنه[٢]. فلمَّا رَغَّب ورَهَّب وبشَّرَ وأنذر؛ قال: ﴿فمَن شاء اتَّخذ إلى ربِّه مآباً﴾؛ أي: عملاً وقَدَمَ صدقٍ يرجع إليه يوم القيامةِ.

﴿٤٠﴾ ﴿إنَّا أنذَرْناكم عذاباً قريباً﴾: لأنَّه قد أزِفَ مقبلاً، وكلُّ ما هو آتٍ [فهو] قريبٌ. ﴿يوم ينظُرُ المرءُ ما قدَّمتْ يداه﴾؛ أي: هٰذا الذي يهمُّه ويفزع إليه، فلينظر في هٰذه الدار ما قدَّم لدار القرار[٣]، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله وَلْتَنظُرْ نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ واتَّقوا اللهَ إنَّ الله خبيرٌ بما تعملونَ...﴾ الآيات؛ فإن وجد خيراً؛ فليحمدِ الله، وإن وجدَ غير ذٰلك؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسه. ولهٰذا كان الكفار يتمنَّوْن الموت من شدَّة الحسرة والندم. نسأل الله أن يعافِيَنا من الكفر والشرِّ كلِّه إنَّه جوادٌ كريمٌ.

تمت[٤].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ [٥]وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) في (ب): «أشرف». (٢) في (ب): «إلا بما أذن لهم الله به».
(٣) في (ب): «فلينظر في هذه الدنيا إليه كما قال تعالى».
(٤) طمس الذي في (أ). وفي (ب): «تمّ تفسير سورة عم. والحمد لله رب العالمين».
(٥) في (أ): إلى قوله: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿١ ـ ٥﴾ هٰذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالَّة على كمال انقيادهم لأمر الله وإسراعهم في تنفيذه[(١)]؛ يُحتمل أنَّ المقسم عليه الجزاء والبعث؛ بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذٰلك، ويُحتمل أنَّ المقسَم عليه والمقسَم به متَّحِدان، وأنَّه أقسم على الملائكة؛ لأنَّ الإيمان بهم أحدُ أركان الإيمان الستَّة، ولأنَّ في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمَّن الجزاء الذي تتولَّاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده، فقال: ﴿والنازعاتِ غَرْقاً﴾: وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوَّة، وتغرق في نزعها حتى تخرج الرُّوح فتجازى بعملها. ﴿والناشطاتِ نشطاً﴾: وهي الملائكة أيضاً تجتذبُ الأرواحَ بقوَّة ونشاطٍ، أو أنَّ النشطَ[(٢)] يكون لأرواح المؤمنين والنَّزْع لأرواح الكفَّار. ﴿والسَّابحاتِ﴾؛ أي: المتردِّدات في الهواء صعوداً ونزولاً، ﴿سبحاً. فالسَّابقاتِ﴾: لغيرها ﴿سبقاً﴾: فتبادِرُ لأمر الله وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله؛ لئلَّا تسترِقه[(٣)]، ﴿فالمدبِّراتِ أمراً﴾؛ [أي]: الملائكة الذين جعلهم الله يدبِّرون[(٤)] كثيراً من أمور العالم العلويِّ والسفليِّ من الأمطار والنَّبات [والأشجار] والرِّياح والبحار والأجنَّة والحيوانات والجنَّة والنار وغير ذٰلك.

﴿٦ ـ ٩﴾ ﴿يومَ ترجُفُ الرَّاجفةُ﴾: وهي قيام الساعة، ﴿تتبعُها الرادفةُ﴾؛ أي: الرجفة الأخرى التي تَرْدُفُها وتأتي تلوَها. ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ﴾؛ أي: منزعجةٌ[(٥)] من شدَّة ما ترى وتسمع، ﴿أبصارُها خاشعةٌ﴾؛ أي: ذليلةٌ حقيرةٌ قد ملك قلوبهم الخوف وأذهل أفئدتهم الفزع وغلب عليهم التأسُّف، واستولت عليهم الحسرة.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ ﴿يقولونَ﴾[(٦)]؛ أي: الكفار في الدُّنيا على وجه التكذيب: ﴿أإذا كُنَّا عظاماً نخرةً﴾؛ أي: باليةً فتاتاً، ﴿قالوا تلك إذاً كَرَّةٌ خاسرةٌ﴾؛ أي: استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرةً جهلاً منهم بقدرة الله وتجرياً عليه! قال الله في بيان سهولة هٰذا الأمر عليه: ﴿فإنَّما هي زجرةٌ واحدةٌ﴾: يُنفخ[(٧)] في الصور؛ فإذا الخلائقُ كلُّهم ﴿بالسَّاهرةِ﴾؛ أي: على وجه الأرض قيامٌ ينظرونَ، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم.

---

(١) في (ب): «تنفيذ أمره».
(٢) في (ب): «النزع».
(٣) في (ب): «حتى لا تسترقه».
(٤) في (ب): «الذين وكلهم الله أن يدبروا».
(٥) في (ب): «أي: موجفة منزعجة».
(٦) الآية (١٠) لم يفسرها المؤلف.
(٧) في (ب): «وينفخ فيها في».

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ [1]إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿١٥ ـ ٢٥﴾ يقول الله تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿هل أتاك حديثُ موسى﴾: وهٰذا الاستفهام عن أمرٍ عظيم متحقِّق وقوعه؛ أي: هل أتاك حديثه. ﴿إذ ناداه ربُّه بالوادِ المقدَّس طوىً﴾: وهو المحلُّ الذي كلَّمه الله فيه، وامتنَّ عليه بالرسالة، وابتعثه بالوحي، واجتباه[2]، فقال له: ﴿اذهبْ إلى فرعونَ إنَّه طغى﴾؛ أي: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه بقولٍ ليِّنٍ وخطابٍ لطيفٍ لعله يتذكر أو يخشى، ﴿فقُل له هل لك إلى أن تزكَّى﴾؛ أي: هل لك في خصلةٍ حميدةٍ ومحمدةٍ جميلةٍ يتنافس فيها أولو الألباب؟ وهي أن تزكِّيَ نفسك وتطهِّرَها من دَنَس الكفر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح. ﴿وأهدِيَك إلى ربِّك﴾؛ أي: أدلُّك عليه، وأبيِّن لك مواقع رضاه من مواقع سخطه، ﴿فتخشى﴾: الله إذا علمت الصراط المستقيم. فامتنع فرعون ممَّا دعاه إليه موسى، ﴿فأراه الآيةَ الكبرى﴾؛ أي: جنس الآية الكبرى؛ فلا ينافي تعدُّدها، ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ . ونزعَ يدَه فإذا هي بيضاءُ للنَّاظرين﴾. ﴿فكذَّب﴾: بالحقِّ، ﴿وعصى﴾: الأمر، ﴿ثم أدبر يسعى﴾؛ أي: يجتهد في مبارزة الحقِّ ومحاربته. ﴿فحشر﴾: جنودَه؛ أي: جمعهم، ﴿فنادى. فقال﴾: لهم: ﴿أنا ربُّكم الأعلى﴾: فأذعنوا له وأقرُّوا بباطله حين استخفَّهم. ﴿فأخذه اللهُ نَكالَ الآخرةِ والأولى﴾؛ أي: جعل الله[3] عقوبته دليلاً وزاجراً ومبيِّنةً لعقوبة الدُّنيا والآخرة.

﴿٢٦﴾ ﴿إنَّ في ذٰلك لَعبرةً لِمَن يَخْشى﴾: فإنَّ مَنْ يخشى الله هو الذي ينتفع بالآيات والعبر؛ فإذا رأى عقوبة فرعون؛ عرف أنَّ [كلَّ] من تكبَّر وعصى وبارز الملك الأعلى؛ يعاقِبه في الدُّنيا والآخرة، وأمَّا مَن ترحَّلت خشيةُ الله من قلبه؛ فلو جاءته كلُّ آيةٍ؛ لم يؤمنْ بها.

---

(١) في (أ): طمس، وفي (ب): ذكر الآيات إلى قوله: ﴿لعبرة لمن يخشى﴾.
(٢) في (ب): «واختصه بالوحي والاجتباء».
(٣) في (ب): «أي: صارت».

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾[١] رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٢٧ ـ ٣٣﴾ يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لمنكري البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد: ﴿أأنتم﴾: أيُّها البشر، ﴿أشدُّ خلقاً أم السماءُ﴾: ذات الجرم العظيم والخلق القويِّ والارتفاع الباهر، ﴿بناها﴾: الله، ﴿رفعَ سَمْكَها﴾؛ أي: جرمها وصورتها. ﴿فسوَّاها﴾: بإحكامٍ وإتقانٍ يحيِّر العقول ويذهل الألباب، ﴿وأغطشَ ليلَها﴾؛ أي: أظلمه، فعمَّت الظُّلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، ﴿وأخرج ضُحاها﴾؛ أي: أظهر فيه النُّور العظيم حين أتى بالشمس، فانتشر[٢] الناس في مصالح دينهم ودُنياهم، ﴿والأرضَ بعد ذٰلك﴾؛ أي: بعد خلق السماء ﴿دحاها﴾؛ أي: أودع فيها منافعها، وفسر ذٰلك بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها﴾؛ أي: ثبَّتها بالأرض[٣]، فدحى الأرض بعد خَلْق السماواتِ؛ كما هو نصُّ هٰذه الآيات الكريمة، وأمَّا خلق نفس الأرض؛ فمتقدِّم على خلق السماء؛ كما قال تعالى: ﴿قل أإنَّكم لتكفرونَ بالذي خلق الأرضَ في يومين وتجعلون له أنداداً ذٰلك ربُّ العالمين...﴾ إلى أن قال: ﴿ثمَّ استوى إلى السَّماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهنَّ سبع سمٰواتٍ...﴾: فالذي خلق السماواتِ العظام وما فيها من الأنوار والأجرام والأرض الغبراء الكثيفة[٤]، وما فيها من ضروريَّات الخلق ومنافعهم لا بدَّ أن يبعث الخلق المكلَّفين فيجازيهم بأعمالهم[٥]؛ فمن أحسن؛ فله الحسنى، وَمن أساء؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسه.

ولهٰذا ذكر بعد هٰذا قيام الساعة ثم الجزاء[٦]، فقال:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾[٧] يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «فامتدَّ». (٣) في (ب): «في الأرض».
(٤) في (ب): «الكثيفة الغبراء». (٥) في (ب): «على أعمالهم».
(٦) في (ب): «ولهذا ذكر بعد هذا القيام فالجزاء».
(٧) في (أ): إلى قوله: ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٤ ـ ٣٦﴾ أي: إذا جاءت القيامةُ الكبرى والشدَّةُ العظمى، التي يَهون عندها كلُّ شدَّةٍ؛ فحينئذٍ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكلُّ محبٍّ عن حبيبه، و ﴿يتذكَّرُ الإنسانُ ما سعى﴾: في الدُّنيا من خير وشرٍّ، فيتمنَّى زيادة مثقال ذرَّةٍ في حسناته، ويغمُّه ويحزن لزيادة مثقال ذرَّةٍ في سيئاته، ويعلم إذ ذاك أنَّ مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدُّنيا، وينقطع كلُّ سبب ووصلةٍ كانت في الدُّنيا سوى الأعمال، ﴿وبُرِّزَت الجحيم لمن يرى﴾؛ أي: جُعِلَت في البراز ظاهرةً لكلِّ أحدٍ؛ قد هُيِّئت[1] لأهلها، واستعدَّت لأخذهم منتظرةً لأمر ربِّها.

﴿٣٧ ـ ٣٩﴾ ﴿فأمَّا مَن طغى﴾؛ أي: جاوز الحدَّ بأن تجرَّأ على المعاصي الكبار ولم يقتصرْ على ما حدَّه الله، ﴿وآثرَ الحياة الدُّنيا﴾: على الآخرة، فصار سعيه لها ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة والعمل[2] لها؛ ﴿فإنَّ الجحيم هي المأوى﴾: له؛ أي: المقرُّ والمسكن لمن هٰذه حاله.

﴿٤٠ ـ ٤١﴾ ﴿وأمَّا مَنْ خافَ مقامَ ربِّه﴾؛ أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل؛ فأثَّر هٰذا الخوف في قلبه، فنهى ﴿النفس عن﴾: هواها الذي يصدُّها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادَّيْن عن الخير؛ ﴿فإنَّ الجنَّة﴾: المشتملة على كلِّ خيرٍ وسرورٍ ونعيم، ﴿هي المأوى﴾: لمن هٰذا وصفه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾[3] فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٢ ـ ٤٤﴾ أي: يسألك المتعنِّتون المكذِّبون بالبعث ﴿عن الساعة﴾: متى وقوعُها؟ و﴿أيَّان مُرساها﴾؟! فأجابهم الله بقوله: ﴿فيم أنت من ذكراها﴾؛ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؛ فليس تحت ذٰلك نتيجةٌ، ولهٰذا لمَّا كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحةٌ دينيةٌ ولا دنيويةٌ، بل المصلحة في

(١) في (ب): «برزت». (٢) في (ب): «وترك العمل لها».
(٣) في (أ): طمس. وفي (ب) إلى آخر السورة.

إخفائه[١] عليهم، طوى علم ذٰلك عن جميع الخلق واستأثر بعلمه فقال: ﴿إلى ربك منتهاها﴾؛ أي: إليه ينتهي علمها؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يسألونَكَ عن الساعة أيّانَ مُرْساها قل إنَّما علمُها عند ربِّي لا يُجَلِّيها لوقتها إلَّا هو﴾.

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ ﴿إنَّما أنت منذرُ مَن يَخْشاها﴾؛ أي: إنَّما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة ويخاف الوقوف بين يدي الله[٢]؛ فهم الذين لا يُهِمُّهم إلَّا[٣] الاستعداد لها والعمل لأجلها، وأما مَنْ لم[٤] يؤمن بها؛ فلا يُبالى به ولا بتعنُّته؛ لأنَّه تعنتٌ مبنيٌّ على التَّكذيب والعناد[٥]، وإذا وصل إلى هٰذه الحال؛ كان الإجابة عنه عبثاً، ينزَّه أحكم الحاكمين عنه[٦].

تمت. والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ٢ [٧]وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ١٠﴾.

سببُ[٨] نزول هٰذه الآيات الكريمات أنَّه جاء رجلٌ من المؤمنين أعمى[٩] يسألُ النبيَّ ﷺ ويتعلَّم منه، وجاءهُ رجلٌ من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ وأصغى إلى الغنيِّ وصدَّ عن الأعمى الفقير؛ رجاءَ لهداية ذٰلك الغنيِّ وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله بهٰذا العتاب اللطيف فقال:

---

(١) في (ب): «خفائه».
(٢) في (ب): «بين يديه».
(٣) في (ب): «سوى».
(٤) في (ب): «من لا».
(٥) في (ب): «على العناد والتكذيب».
(٦) في (ب): «ينزه الحكيم عنه».
(٧) في (أ): إلى قوله: ﴿فأنت عنه تلهى﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٨) في (ب): «وسبب».
(٩) وهو عبد الله بن أم مكتوم؛ كما في «سنن الترمذي» (٣٣٣١) والحاكم (٢/ ٥١٤).

﴿١ ـ ١٠﴾ ﴿عبس﴾؛ أي: في وجهه، ﴿وتولَّى﴾: في بدنه لأجل مجيء الأعمى له. ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وما يدريكَ لعلَّه﴾؛ أي: الأعمى، ﴿يَزَّكَّى﴾؛ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة، ﴿أو يَذَّكَّرُ فَتَنفعهُ الذِّكرَى﴾؛ أي: يتذكَّر ما ينفعه فينتفع[1] بتلك الذِّكرى، وهٰذه فائدةٌ كبيرةٌ، هي المقصودة من بعثة الرسل ووعظ الوعَّاظ وتذكير المذكِّرين؛ فإقبالُك على مَنْ جاء بنفسه مفتقراً لذٰلك مقبلاً[2] هو الأليقُ الواجب، وأما تصدِّيك وتعرُّضِك للغنيِّ المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع تركك مَنْ[3] أهمُّ منه؛ فإنَّه لا ينبغي لك؛ فإنَّه ليس عليك أن لا يَزَّكَّى؛ فلو لم يَتزكَّ؛ فلست بمحاسبٍ على ما عمله من الشرِّ، فدلَّ هٰذا على القاعدة المشهورة؛ أنَّه لا يُترَك أمرٌ معلومٌ لأمرٍ موهومٍ، ولا مصلحة متحقِّقة لمصلحة متوهَّمة، وأنَّه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتَقِر إليه الحريص عليه[4] أزيد من غيره.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾[5] فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿١١ ـ ١٦﴾ يقول تعالى: ﴿كلَّا إنَّها تذكرةٌ﴾: أي: حقًّا إنَّ هٰذه الموعظة تذكرةٌ من الله يُذكِّر بها عباده ويبيِّن لهم في كتابه ما يحتاجون إليه ويبيِّن الرُّشد من الغيِّ؛ فإذا تبيَّن ذٰلك؛ ﴿فَمَن شاء ذَكَرَه﴾؛ أي: عمل به؛ كقوله تعالى: ﴿وقلِ الحقُّ مِن ربِّكم فَمَن شاء فَلْيُؤمِن ومَن شاءَ فَلْيَكْفُر﴾. ثم ذكر محلَّ هٰذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها، فقال: ﴿في صحفٍ مكرمةٍ. مرفوعةٍ﴾: القدر والرتبة، ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾: من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي ﴿بأيدي سفرةٍ﴾: وهم الملائكة الذين هم سفراء بين الله وبين عباده، ﴿كرامٍ﴾؛ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿بَرَرةٍ﴾: قلوبهم وأعمالهم. وذٰلك كلُّه حفظٌ من الله لكتابه؛ أن

---

(١) في (ب): «فيعمل».
(٢) في (ب): «لذلك منك».
(٣) في (ب): «ما».
(٤) في (ب): «إليه».
(٥) في (أ): إلى قوله: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعلْ للشياطين عليه سبيلاً، وهٰذا مما يوجب الإيمان به وتلقِّيه بالقَبول.

﴿١٧ ـ ٢٣﴾ ولكنْ مع هٰذا أبى الإنسان إلَّا كُفوراً، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه﴾: لنعمة الله، وما أشدَّ معاندته للحقِّ بعدما تبيَّن، وهو؛ ما هو؟ هو من أضعفِ الأشياء، خلقه الله من ماء مَهين، ثم قدَّر خلقه وسوَّاه بشراً سويًّا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة، ﴿ثم السَّبيلَ يَسَّرَه﴾؛ أي: يسَّر له الأسباب الدينيَّة والدنيويَّة، وهداه السبيل، وبيَّنه، وامتحنه بالأمر والنهي، ﴿ثم أماتَه فأقْبَرَهُ﴾؛ أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعلْه كسائر الحيوانات التي تكون جِيَفُها على وجه الأرض، ﴿ثم إذا شاءَ أنشَرَه﴾؛ أي: بعثه بعد موته للجزاء؛ فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهٰذه التَّصاريف، لم يشارِكْه فيه مشارِكٌ، وهو مع هٰذا لا يقوم بما أمره الله، ولم يقضِ ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصِّراً تحت الطلب!

﴿٢٤ ـ ٣٢﴾ ثم أرشده الله[1] إلى النظر والتفكُّر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكرَّرت عليه طبقاتٌ عديدةٌ ويسَّره [اللَّهُ] له؛ فقال: ﴿فلينظُرِ الإنسانُ إلى طعامه. أنَّا صَبَبْنا الماء صَبًّا﴾؛ أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة ﴿ثم شَقَقْنا الأرضَ﴾ للنبات ﴿شقًّا. فأنبَتْنا فيها﴾: أصنافاً مصنَّفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهيَّة، ﴿حبًّا﴾: وهٰذا شاملٌ لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، ﴿وعنباً وقضباً﴾: وهو القتُّ، ﴿وزيتوناً ونخلاً﴾: وخصَّ هٰذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها، ﴿وحدائق غُلْباً﴾؛ أي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفَّة[2]، ﴿وفاكهةً وأبًّا﴾: الفاكهة ما يتفكَّه فيه الإنسان من تينٍ وعنبٍ وخوخٍ ورمانٍ وغير ذٰلك. والأبُّ ما تأكله البهائم والأنعام، ولهٰذا قال: ﴿متاعاً لكمْ ولأنعامكم﴾: التي خلقها الله وسخَّرها لكم. فمن نظر في هٰذه النعم؛ أوجب له ذٰلك شكر ربِّه وبذل الجهد في الإنابة إليه والإقبال على طاعته والتَّصديق لأخباره.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾[3] يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ثم أرشده تعالى». (٢) في (ب): «الملتفة الكثيرة».

(٣) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿٣٣ ـ ٤٢﴾ أي: إذا جاءت صيحة القيامةِ التي تُصَخُّ لهولها الأسماع وتنزعج لها الأفئدة يومئذٍ؛ ممَّا يرى الناس من الأهوال وشدَّة الحاجة لسالف الأعمال؛ يفرُّ المرء من أعزِّ الناس إليه وأشفقهم عليه[١]؛ من أخيه وأمِّه وأبيه وصاحبته؛ أي: زوجته وبنيه، وذلك لأنَّه ﴿لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾؛ أي: قد أشغلته نفسُه، واهتمَّ لفكاكها، ولم يكنْ له التفاتٌ إلى غيرها. فحينئذٍ ينقسم الخلقُ إلى فريقين: سعداء وأشقياء: فأمَّا السعداءُ؛ فوجوههم ﴿يومئذٍ مسفرةٌ﴾؛ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجةُ مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم، ﴿ضاحكةٌ مستبشرةٌ. ووجوهٌ﴾: الأشقياء ﴿يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ. ترهقُها﴾؛ أي: تغشاها ﴿قترةٌ﴾: فهي سوداء مظلمةٌ مدلهمةٌ، قد أيست من كلِّ خير، وعرفتْ شقاءها وهلاكها. ﴿أولئك﴾: الذين بهذا الوصف، ﴿هم الكفرةُ الفجرةُ﴾؛ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذَّبوا بآياته، وتجرَّؤوا على محارمِهِ[٢]. نسأل الله العفوَ والعافيةَ؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

والحمد لله ربِّ العالمين

❁ ❁ ❁

تفسير سورة التكوير

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾[٣] وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١ ـ ١٤﴾ أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلةُ؛ تميَّز الخلقُ، وعلم كلٌّ[٤] ما قدَّمه لآخرته وما أحضره فيها من خيرٍ وشرٍّ، وذلك أنَّه إذا كان يومُ القيامةِ؛ تُكَوَّرُ

---

(١) في (ب): «وأشفقهم لديه».

(٢) في (ب): «وكذبوا بآيات الله وتجرؤوا على محارم الله».

(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾: وفي (ب) ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «كلُّ أحد».

الشمس؛ أي: تُجمع وتلفُّ ويُخسف القمر ويلقيان في النار، ﴿وإذا النُّجوم انكدرتْ﴾؛ أي: تغيَّرت وتناثرت[١] من أفلاكها، ﴿وإذا الجبال سُيِّرَتْ﴾؛ أي: صارت كثيباً مهيلاً، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيَّرت وصارت هباءً منبثًّا وأزيلت[٢] عن أماكنها، ﴿وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ﴾؛ أي: عَطَّل الناس يومئذٍ نفائسَ أموالهم التي كانوا يهتمُّون لها، ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يُذْهِلُهم عنها، فنبَّه بالعشار ـ وهي النوق التي تتبعها أولادُها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم ـ على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وإذا الوحوشُ حُشِرَتْ﴾؛ أي: جُمِعَتْ ليوم القيامةِ؛ ليقتصَّ اللّه من بعضها لبعض، ويري العبادَ كمالَ عدلِهِ، حتى إنَّه يقتصُّ للشاة الجمَّاء من الشاةِ القرناء ثم يقال لها[٣]: كوني تراباً[٤]، ﴿وإذا البحارُ سُجِّرَتْ﴾؛ أي: أوقدت فصارت على عظمها ناراً تتوقَّد، ﴿وإذا النُّفوس زُوِّجَتْ﴾؛ أي: قُرِنَ كلُّ صاحب عمل مع نظيره، فجُمِعَ الأبرار مع الأبرار والفجَّار مع الفجَّار، وزوِّج المؤمنون بالحور العين والكافرون بالشياطين، وهٰذا كقوله تعالى: ﴿وسيقَ الذين كَفَروا إلى جهنَّم زُمَراً﴾، ﴿وسيق الذين اتَّقَوْا ربَّهم إلى الجنَّةِ زُمَراً﴾، ﴿احْشُروا الذين ظَلَموا وأزواجَهم﴾.

﴿وإذا الموؤُدةُ سُئِلَتْ﴾: وهي التي كانت الجاهليَّة الجهلاء تفعله من دفن البنات وهنَّ أحياء من غير سببٍ إلَّا خشيةَ الفقر، فتسأل: ﴿بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ﴾، ومن المعلوم أنَّها ليس لها ذنبٌ، ولٰكن هٰذا فيه[٥] توبيخٌ وتقريعٌ لقاتليها، ﴿وإذا الصُّحُفُ﴾: المشتملة على ما عمله العاملون من خيرٍ وشرٍّ، ﴿نُشِرَتْ﴾: وفرِّقت على أهلها؛ فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

﴿وإذا السماءُ كُشِطَتْ﴾؛ أي: أزيلت؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغمام﴾، ﴿يومَ نَطْوي السماءَ كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ﴾، ﴿والأرضُ جميعاً قبضَتُه يوم القيامةِ والسمٰوات مطوياتٌ بيمينه﴾، ﴿وإذا الجحيمُ سُعِّرَتْ﴾؛ أي: أوقد عليها فاستعرتْ والتهبت التهاباً لم يكنْ لها قبل ذٰلك، ﴿وإذا الجنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾؛ أي: قرِّبت

---

(١) في (ب): «تساقطت». (٢) في (ب): «وسيِّرت».

(٣) في (ب): «حتى إنه ليقتصُّ من القرناء للجمَّاء ثم يقول لها».

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ١٨٠)، وقد أورده الشيخ ناصر الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).

(٥) في (ب): «ففي هذا».

للمتقين، ﴿علمت نفسٌ﴾؛ أي: كلُّ نفس لإتيانها في سياق الشرط، ﴿ما أحضرتْ﴾؛ أي: ما حضر لديها من الأعمال التي قدَّمتها؛ كما قال تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

وهٰذه الأوصافُ التي وصَفَ [اللَّهُ] بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتدُّ من أجلها الكروب، وترتعد الفرائصُ، وتعمُّ المخاوف، وتحثُّ أولي الألباب للاستعداد لذٰلك اليوم، وتزجُرُهم عن كلِّ ما يوجب اللوم، ولهٰذا قال بعض السلف: من أراد أن يَنْظُرَ ليوم القيامة كأنه رأي عينٍ؛ فليتدبَّر سورة ﴿إذا الشمسُ كُوِّرَتْ﴾.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ[١] ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ أقسم تعالى ﴿بالخُنَّسِ﴾: وهي الكواكب التي تخنس؛ أي: تتأخَّر عن سير الكواكب المعتاد[٢] إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيَّارة؛ الشمس والقمر والزُّهرة والمشتري والمريخ وزُحل وعطارد؛ فهٰذه السبعة لها سيران: سيرٌ إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك[٣]. وسير معاكسٌ لهٰذا من جهة المشرق تختصُّ به هٰذه السبعة دون غيرها، فأقسم اللّه بها في حال خنوسها؛ أي: تأخُّرها، وفي حال جريانها، وفي حال كُنوسها؛ أي: استتارها بالنهار. ويُحتمل أنَّ المراد بها جميع الكواكب السيَّارة وغيرها.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿والليل إذا عسعس﴾؛ أي: أقبل، وقيل أدبر[٤]، والنهار ﴿إذا تَنَفَّسَ﴾؛ أي: بدت[٥] علائم الصبح، وانشقَّ النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس.

---

(١) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «المعتادة». (٣) في (ب): «مع باقي الكواكب والأفلاك».
(٤) في (ب): «أي: أدبر، وقيل أقبل». (٥) في (ب): «بانت».

﴿١٩﴾ وهٰذه آياتٌ عظامٌ أقسم اللّه عليها لقوَّة سند القرآن[١] وجلالته وحفظه من كلِّ شيطانٍ رجيم، فقال: ﴿إنَّه لَقولُ رسولٍ كريم﴾: وهو جبريل عليه السلام، نزل به من اللّه تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وإنَّه لَتنزيل ربِّ العالمين. نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ. على قلبكَ لتكونَ من المُنذِرينَ﴾. ووصفه اللّه بالكريم لكرم أخلاقِهِ و[كثرة] خصالِهِ الحميدة؛ فإنَّه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبةً عند ربِّه.

﴿٢٠﴾ ﴿ذي قوَّةٍ﴾: على ما أمره اللّه به، ومن قوَّته أنَّه قَلَبَ ديار قوم لوطٍ بهم فأهلكهم، ﴿عند ذي العرش﴾؛ أي: جبريل مقرَّبٌ عند اللّه، له منزلةٌ رفيعةٌ وخصيصةٌ من اللّه اختصَّه بها، ﴿مكينٌ﴾؛ أي: له مكانةٌ ومنزلةٌ فوق منازل الملائكة كلِّهم.

﴿٢١﴾ ﴿مطاع ثَمَّ﴾؛ أي: جبريل مطاعٌ في الملأ الأعلى؛ لأنَّه[٢] من الملائكة المقرَّبين، نافذ فيهم أمرُه، مطاعٌ رأيه، ﴿أمينٍ﴾؛ أي: ذو أمانة وقيام بما أُمِرَ به، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدَّى ما حُدَّ له، وهٰذا كلُّه يدلُّ على شرف القرآن عند اللّه تعالى: فإنَّه بعث به هٰذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادةُ أنَّ الملوك لا ترسل الكريم عليها إلَّا في أهمِّ المهمَّات وأشرف الرسائل.

﴿٢٢﴾ ولما ذكر فضل الرسول الملكيِّ الذي جاء بالقرآن؛ ذكر فضل الرسول البشريِّ الذي نزل عليه القرآنُ، ودعا إليه الناس، فقال: ﴿وما صاحِبُكم﴾: وهو محمدٌ ﷺ ﴿بمجنونٍ﴾؛ كما يقوله أعداؤه المكذِّبون برسالته، المتقوِّلون عليه [من] الأقوال التي يريدون أن يطفِئوا بها ما جاء به[٣]، بل هو أكملُ الناس عقلاً، وأجزلُهم رأياً، وأصدقُهم لهجةً.

﴿٢٣﴾ ﴿ولقد رآه بالأفُقِ المُبين﴾؛ أي: رأى محمدٌ ﷺ جبريل عليه السلام[٤] بالأفُقِ البيِّن الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿٢٤﴾ ﴿وما هو على الغيب بضَنينٍ﴾؛ أي: وما هو على ما أوحاه اللّه إليه

---

(١) في (ب): «أقسم الله بها على علو سند القرآن».
(٢) في (ب): «الديه من الملائكة المقربين جنود».
(٣) في (ب): «أن يطفئوا بها ما جاء، ما شاؤوا وقدروا عليه».
(٤) تقدم تخريجه. وهو في «صحيح مسلم» (١٧٧). وانظر «تفسير سورة النجم».

بِمُتَّهَم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمينُ أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلَّغ رسالات ربِّه البلاغَ المبين، فلم يَشُحَّ بشيءٍ منه عن غنيٍّ ولا فقيرٍ ولا رئيسٍ ولا مرؤوسٍ ولا ذكرٍ ولا أنثى ولا حضريٍّ ولا بدويٍّ، ولذلك بعثه الله في أمَّةٍ أميَّةٍ جاهلةٍ جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربَّانيِّين وأحباراً متفرِّسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والمفهوم[1]، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿٢٥﴾ ﴿وما هو بقول شيطانٍ رجيم﴾: لما ذكر جلالة كتابه وفضلَه[2] بذكر الرسولين الكريمين اللذين وَصَلَ إلى النَّاس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى؛ دَفَعَ عنه كلَّ آفةٍ ونقصٍ مما يقدحُ في صدقه، فقال: ﴿وما هو بقول شيطانٍ رجيم﴾؛ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه.

﴿٢٦﴾ ﴿فأين تذهبون﴾؛ أي: كيف يخطر هٰذا ببالكم؟! وأين عَزَبَتْ عنكم أذهانكم حتى جعلتم الحقَّ الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب الذي هو أنزلُ ما يكون وأرذلُ وأسفلُ الباطل؟! هل هٰذا إلَّا من انقلاب الحقائق؟!

﴿٢٧﴾ ﴿إنْ هو إلَّا ذكرٌ للعالمين﴾: يتذكَّرون به ربَّهم وماله من صفات الكمال وما ينزَّه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكَّرون به الأوامر والنواهي وحكمها؛ ويتذكَّرون به الأحكام القدريَّة والشرعيَّة والجزائيَّة، وبالجملة يتذكَّرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿٢٨﴾ ﴿لمن شاء منكم أن يَسْتَقيمَ﴾: بعد ما تبيَّن الرشد من الغيِّ والهدى من الضَّلال.

﴿٢٩﴾ ﴿وما تشاؤون إلَّا أن يشاء الله ربُّ العالمين﴾؛ أي: فمشيئتُه نافذةٌ لا يمكن أن تعارضَ أو تمانع. وفي هٰذه الآية وأمثالها ردٌّ على فرقتي القدريَّة النُّفاة والقدريَّة المجبرة؛ كما تقدَّم مثالها. والله أعلم والحمد لله.

❋ ❋ ❋

---

(١) في (ب): «والفهوم».

(٢) في (ب): «لما ذكر جلالته وفضله».

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ أي: إذا انشقَّت السماء، وانفطرت، وتناثرت[(١)] نجومُها، وزال جمالُها، وفُجِّرت البحار، فصارت بحراً واحداً، وبُعْثِرَتِ القبور بأن أُخْرِج ما فيها من الأموات وحُشِروا للموقف بين يدي اللّه للجزاء على الأعمال؛ فحينئذٍ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيًّا، وتعلم كلُّ نفس ما معها من الأرباح والخسران. هنالك يعضُّ الظالم على يديه إذا رأى ما قدَّمت يداه[(٢)] وأيقن بالشقاء الأبديِّ والعذاب السَّرمديِّ، وهنالك يفوز المتَّقون المقدِّمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ[(٣)] ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

﴿٦ ـ ٨﴾ يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصِّر في حقِّه المتجرِّىء على معاصيه[(٤)]: ﴿**يا أيُّها الإنسان ما غرَّك بربِّك الكريم**﴾: أتهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟! أم عدم إيمانٍ منك بجزائِهِ؟! أليس هو ﴿**الذي خَلَقَكَ فسوَّاك**﴾: في أحسن تقويم، ﴿**فعَدَلَك**﴾: وركَّبك تركيباً قويماً معتدلاً في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات؟! فهل يَليق بك أن تكفُرَ نعمة[(٥)] المنعِم أو تَجْحَدَ إحسان

---

(١) في (ب): «انتثرت».

(٢) في (ب): «إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خفَّ، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه».

(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿تفعلون﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «المقصِّر في حقِّ الله المتجرئ على مساخطه».

(٥) في (ب): «بنعمة».

المحسن؟! إنْ هٰذا إلَّا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك؛ فاحمد اللّه إذْ لم يجعلْ صورتَكَ صورة كلبٍ أو حمارٍ أو نحوهما من الحيوانات، ولهٰذا قال تعالى: ﴿في أيِّ صورةٍ ما شاء ركَّبك﴾.

﴿٩ ـ ١٢﴾ وقوله: ﴿كلَّا بل تكذِّبونَ بالدِّين﴾؛ أي: مع هٰذا الوعظ والتَّذكير لا تزالون مستمرِّين على التَّكذيب بالجزاء، وأنتم لا بدَّ أن تُحاسبوا على ما عمِلْتُم، وقد أقام اللّه عليكم ملائكةً كراماً، يكتُبون أقوالكم وأفعالكم ويَعْلَمونها[1]، فدخل في هٰذا أفعالُ القلوبِ وأفعالُ الجوارح؛ فاللائق بكم أن تكرِموهم وتُجِلُّوهم.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ[2] ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٣ ـ ١٩﴾ المراد بالأبرار هم: القائمون بحقوق اللّه وحقوق عباده، الملازمون للبرِّ في أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ فهٰؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والرُّوح والبدن في دار الدُّنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار، ﴿وإنَّ الفجَّار﴾: الذين قصَّروا في حقوق اللّه وحقوق عباده، الذين فَجَرَتْ قلوبُهم ففَجَرَتْ أعمالُهم، ﴿لفي جحيم﴾؛ أي: عذابٍ أليم في دار الدُّنيا ودار البرزخ وفي دار القرار، ﴿يَصْلَوْنها﴾: ويعذَّبون بها أشدَّ العذابَ ﴿يومَ الدِّين﴾؛ أي: يوم الجزاء على الأعمال، ﴿وما هم عنها بغائبينَ﴾؛ أي: بل هم ملازمون لها لا يخرُجون منها، ﴿وما أدراك ما يومُ الدِّينِ. ثمَّ ما أدراكَ ما يومُ الدِّينِ﴾: في[3] هٰذا تهويلٌ لذٰلك اليوم الشديد، الذي يحيِّر الأذهان، ﴿يومَ لا تملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً﴾: ولو كانت قريبةً أو حبيبةً مصافيةً[4]؛ فكلٌّ مشتغل بنفسه لا يطلب الفَكاك لغيرها. ﴿والأمرُ يومئذٍ للّه﴾: فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخُذُ للمظلوم حقَّه من ظالمه. واللّه أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «ويعلمون أفعالكم».

(٢) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٣) في (ب): «ففي». (٤) في (ب): «ولو كانت لها قريبة مصافية».

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿ويلٌ﴾: كلمة عذابٍ وعقابٍ(٢)، ﴿للمطفِّفين﴾: وفسر اللّه المطفِّفين بأنهم(٣) ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس﴾؛ أي: أخذوا منهم وفاءً لهم عمَّا قِبَلَهم(٤)، يستوفونه كاملاً من غير نقصٍ، ﴿وإذا كالوهم أو وَزَنوهم﴾؛ أي: إذا أعطوا الناس حقَّهم الذي لهم(٥) عليهم بكيلٍ أو وزنٍ، ﴿يُخْسِرونَ﴾؛ أي: ينقصِونَهم ذلك إمَّا بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المِكْيال والميزان، أو بغير ذلك؛ فهذا سرقةٌ لأموال الناس(٦) وعدمُ إنصاف لهم منهم. وإذا كان هذا وعيداً(٧) على الذين يَبْخَسونَ الناس بالمكيال والميزان؛ فالذي يأخذ أموالهم قهراً وسرقةً أولى بهذا الوعيد من المطفِّفين.

ودلَّت الآية الكريمة على أنَّ الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له يجب [عليه] أن يعطِيَهم كلَّ ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخُلُ في عموم هذا الحجج والمقالات؛ فإنَّه كما أنَّ المتناظرين قد جرت العادة أنَّ كل واحدٍ منهما يحرص على ماله من الحجج؛ فيجب عليه أيضاً أن يبيِّن ما لخصمه من الحجَّة(٨) التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلَّة خصمه كما ينظر في أدلَّته هو، وفي هذا الموضع يُعْرَفُ إنصاف الإنسان من تعصُّبه واعتسافه وتواضُعُه من كِبْره وعقلُهُ من سَفَهِهِ، نسأل اللّه التوفيق لكلِّ خير.

---

(١) في (ب): «وهي مكية».
(٢) في (ب): «ووعيد».
(٣) في (ب): «بقوله».
(٤) في (ب): «أخذوا منهم وفاء عمّا ثبت لهم قبلهم».
(٥) في (ب): «للناس».
(٦) في (ب): «أو نحو ذلك، فهذا سرقة للناس».
(٧) في (ب): «الوعيد».
(٨) في (ب): «من الحجج».

ثم توعَّد تعالى المطفِّفين، وتعجَّب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿ألا يظنُّ أولئك أنَّهم مبعوثونَ ليومٍ عظيمٍ. يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمينَ﴾: فالذي جرَّأهم على التَّطفيف عدمُ إيمانهم باليوم الآخر؛ وإلَّا؛ فلو آمنوا به وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم[1] على القليل والكثير؛ لأقلعوا عن ذٰلك وتابوا منه.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ[2] ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿٧ ـ ٩﴾ يقول تعالى: ﴿كلَّا إنَّ كتاب الفجَّار﴾: وهٰذا شاملٌ لكلِّ فاجرٍ من أنواعِ الكفرة والمنافقين والفاسقين، ﴿لفي سِجِّينٍ﴾. ثم فسَّر ذٰلك بقوله: ﴿وما أدراكَ ما سِجِّينٌ. كتابٌ مرقومٌ﴾؛ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة. والسِّجِّينُ: المحلُّ الضيِّق الضَّنك، وسِجِّين ضدّ علِّيين، الذي هو محلُّ كتاب الأبرار كما سيأتي. وقد قيل: إنَّ سجِّين هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجَّار ومستقرُّهم في معادهم.

﴿١٠ ـ ١٣﴾ ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾. ثم بيَّنهم[3] بقوله: ﴿الذين يكذِّبون بيوم الدِّين﴾؛ أي: يوم الجزاء، يوم يدين الله الناس فيه[4] بأعمالهم. ﴿وما يـكـذِّبُ به إلَّا كلُّ معتدٍ﴾: على محارم الله متعدٍّ من الحلال إلى الحرام. ﴿أثيم﴾؛ أي: كثير الإثم؛ فهٰذا يحمله عدوانه على التكذيب، ويوجب له كبره ردَّ الحقِّ[5]، ولهٰذا ﴿إذا تُتلى عليه﴾ آيات الله الدالَّة على الحقِّ وعلى صدق ما جاءت به الرسل؛ كذَّبها وعاندها وقال: هٰذه ﴿أساطيرُ الأوَّلين﴾؛ أي: من ترَّهات المتقدِّمين وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله؛ تكبُّراً وعناداً.

﴿١٤ ـ ١٧﴾ وأمَّا مَن أنصف وكان مقصودُه الحقَّ المبين؛ فإنَّه لا يكذِّب بيوم

---

(١) في (ب): «يقومون بين يدي الله يحاسبهم».

(٢) في (أ): إلى قوله: ﴿ثم يقال هٰذا الذي كنتم به تكذبون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٣) في (ب): «ثم بيَّن المكذبين». (٤) في (ب): «فيه الناس».

(٥) في (ب): «ويحمله كبره على رَدِّ الحق».

الدين؛ لأنَّ اللّه[١] قد أقام عليه من الأدلَّة القاطعة والبراهين [الساطعة] ما يجعله حقَّ اليقين[٢]، وصار لبصائرهم بمنزلة[٣] الشمس للأبصار؛ بخلاف مَنْ ران على قلبه كسبُه وغطَّته معاصيه؛ فإنَّه محجوبٌ عن الحقِّ، ولهٰذا جوزي على ذٰلك بأن حُجِبَ عن اللّه كما حُجِبَ قلبُه [في الدنيا] عن آيات اللّه. ﴿ثم إنَّهم﴾: مع هٰذه العقوبة البليغة، ﴿لصالو الجحيم. ثم يقالُ﴾: لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿هٰذا الذي كنتُم به تكذِّبونَ﴾: فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن[٤] ربِّ العالمين، المتضمِّن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودلَّ مفهومُ الآية على أنَّ المؤمنين يرون ربَّهم يوم القيامة، وفي الجنة، ويتلذَّذون بالنَّظر إليه أعظم من سائر اللَّذَّات ويبتهجون بخطابه ويفرحون بقربه؛ كما ذكر اللّه ذٰلك في عدَّة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول اللّه.

وفي هٰذه الآيات التَّحذير من الذُّنوب؛ فإنَّها ترين على القلب وتغطِّيه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمسَ نورُه وتموتَ بصيرتُه، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً. وهٰذا من أعظم[٥] عقوبات الذُّنوب.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾[٦] وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ [عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ][٧] ﴿٢٨﴾﴾.

﴿١٨ ـ ٢١﴾ لما ذكر أنَّ كتاب الفجَّار في أسفل الأمكنة وأضيقها؛ ذكر أنَّ كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها وأفسحها، وأنَّ كتابهم المرقوم ﴿يشهدُهُ المقرَّبون﴾: من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء[٨]، وينوِّه اللّه بذكرهم في الملأ الأعلى. وعليُّون: اسم لأعلى الجنة.

---

(١) في (ب): «فإن اللّه تعالى».
(٢) في (ب): «حق يقين».
(٣) في (ب): «وصار لقلوبهم مثل».
(٤) في (ب): «من».
(٥) في (ب): «من بعض».
(٦) في (أ): إلى قوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٧) زيادة على النسختين.
(٨) في (ب): «والشهداء والصديقين».

﴿٢٢ ـ ٢٨﴾ فلمَّا ذَكَرَ كتابَهم؛ ذَكَرَ أنَّهم في نعيم، وهو اسمٌ جامعٌ لنعيم القلب والرُّوح والبدن. ﴿على الأرائكِ﴾؛ أي: على السرر المزيَّنة بالفرش الحسان، ﴿ينظُرونَ﴾: إلى ما أعدَّ الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربِّهم الكريم، ﴿تعرِفُ﴾: أيُّها الناظر[١]، ﴿في وجوههم نَضْرَةَ النَّعيم﴾؛ أي: بهاءه[٢] ونضارته ورونقه؛ فإنَّ توالي اللَّذَّات والمسرَّات والأفراح[٣] يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجةً، ﴿يُسْقَوْنَ من رحيقٍ﴾: وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، ﴿مختوم﴾ ذٰلك الشرابُ ﴿ختامُه مسكٌ﴾: يُحتمل أن المراد مختومٌ عن أن يداخِلَه شيءٌ يُنْقِصُ لذَّته أو يفسِدُ طعمه، وذٰلك الختام الذي ختم به مسكٌ، ويحتمل أنَّ المراد أنَّه الذي يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر؛ فهٰذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدُّنيا أنه يراق يكون في الجنَّة بهٰذه المثابة. ﴿وفي ذٰلك﴾: النعيم المقيم الذي لا يعلم حسنه ومقداره[٤] إلَّا الله، ﴿فلْيَتَنافَسِ المتنافسونَ﴾؛ أي: فليتسابقوا[٥] في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه؛ فهٰذا أولى ما بُذِلَتْ فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال. ومزاجُ هٰذا الشراب ﴿مِن تَسْنيم﴾: وهي عين ﴿يشربُ بها المقرَّبون﴾: صرفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق؛ فلذٰلك كانت خالصةً للمقرَّبين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين؛ أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾[٦] وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٢٩ ـ ٣٣﴾ لما ذكر تعالى جزاء المجرمينَ وجزاء المحسنين، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم؛ أخبر أنَّ المجرمين كانوا في الدُّنيا يسخرون بالمؤمنين ويستهزِئون بهم و﴿يضحكون﴾: منهم، فَـ﴿يتغامزون﴾: بهم عند مرورهم عليهم

---

(١) في (ب): «أيها الناظر إليهم».
(٢) في (ب): «بهاء النعيم».
(٣) في (ب): «فإن توالي اللّذة والسرور».
(٤) في (ب): «مقداره وحسنه».
(٥) في (ب): «يتسابقوا».
(٦) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.

احتقاراً لهم وازدراءً، ومع هٰذا تراهم مطمئنّين لا يخطُر الخوف على بالهم، ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلِهم﴾: صباحاً أو مساءً، ﴿انقلبوا فَكِهين﴾؛ أي: مسرورين مغتبطين، وهٰذا أشدُّ ما يكون[١] من الاغترار؛ أنَّهم جمعوا بين غاية الإساءة مع الأمن[٢] في الدُّنيا، حتى كأنَّهم قد جاءهم كتابٌ وعهدٌ من اللّه[٣] أنَّهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنَّهم أهلُ الهدى، وأنَّ المؤمنين ضالُّون؛ افتراءً على اللّه، وتجرؤوا على القول عليه بلا علم. قال تعالى: ﴿وما أُرسِلوا عليهم حافظين﴾؛ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين، ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضَّلال، وما هٰذا منهم إلَّا تعنُّتٌ وعنادٌ وتلاعبٌ ليس له مستندٌ ولا برهانٌ.

﴿٣٤ ـ ٣٦﴾ ولهٰذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم؛ قال تعالى: ﴿فاليوم﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿الذين آمنوا من الكفّارِ يضحكون﴾: حين يرونَهم في غَمَراتِ العذاب يتقلَّبون وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿على الأرائكِ﴾: وهي السرر المزيَّنة، ﴿ينظُرون﴾: إلى ما أعدَّ اللّه لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربِّهم الكريم. ﴿هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يفعلون﴾؛ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورمَوْهم بالضلال؛ ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، حين رأوهم[٤] في العذاب والنَّكال الذي هو عقوبةُ الغيِّ والضَّلال. نعم؛ ثُوِّبوا ما كانوا يفعلون عدلاً من اللّه وحكمةً. واللّه عليمٌ حكيمٌ.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ[٥] ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ
﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ

(١) في (ب): «مغبوطين، وهذا من أعظم ما يكون».
(٢) في (ب): «والأمن». (٣) في (ب): «كتاب من الله وعهد».
(٤) في (ب): «ورأوهم».
(٥) في (أ): إلى قوله: ﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يقول تعالى مبيِّناً لما يكون في يوم القيامة من تغيُّر الأجرام العظام: ﴿إذا السماء انشقَّتْ﴾؛ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومُها، وخسف شمسُها وقمرها، ﴿وأذِنَتْ لربِّها﴾؛ أي: استمعت لأمره وألقت سمعَها وأصاخت لخطابه، أي: حُقَّ لها ذٰلك؛ فإنَّها مسخَّرة مدبَّرة تحت مسخِّر ملكٍ عظيمٍ لا يُعصى أمره ولا يخالَف حكمُه.

﴿٣ ـ ٥﴾ ﴿وإذا الأرض مُدَّتْ﴾؛ أي: رجفت وارتجَّت ونُسِفَتْ عليها جبالُها ودُكَّ ما عليها من بناء ومعلم فسويت، ومدَّها الله مدَّ الأديم، حتى صارت واسعةً جدًّا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ﴿وألقتْ ما فيها﴾: من الأموات والكنوز، ﴿وتخلَّتْ﴾: منهم؛ فإنَّه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالإسطوان العظيم، يشاهده الخلق ويتحسَّرون على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وأذِنَت لربِّها وحُقَّتْ﴾.

﴿٦﴾ ﴿يا أيُّها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فملاقيه﴾؛ أي: إنك ساعٍ إلى الله وعاملٌ بأوامره ونواهيه ومتقرِّبٌ إليه إمَّا بالخير وإمَّا بالشرِّ، ثم تلاقي اللهَ يوم القيامةِ؛ فلا تعدم منه جزاءً بالفضل أو العدل؛ بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعقوبة إن كنت شقيًّا[١].

﴿٧ ـ ٩﴾ ولهٰذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فأمَّا مَنْ أوتي كتابه بيمينِهِ﴾: وهم أهل السعادة، ﴿فسوف يحاسَبُ حساباً يسيراً﴾: وهو العرض اليسير على الله، فيقرِّره الله بذنوبه، حتى إذا ظنَّ العبدُ أنَّه قد هلك؛ قال الله تعالى: إنِّي قد سترتُها عليك في الدُّنيا وأنا أستُرها لك اليوم[٢]، ﴿وينقلبُ إلى أهله﴾: في الجنة ﴿مسروراً﴾: لأنَّه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب.

---

(١) في (ب): «جزاء بالفضل إن كنت سعيداً أو بالعدل إن كنت شقيًّا».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨).

﴿١٠ ـ ١٥﴾ ﴿وأمَّا مَن أوتي كتابَه وراء ظهرِهِ﴾؛ أي: بشماله من وراء ظهره[١]، ﴿فسوفَ يدعو ثُبوراً﴾: من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدَّمها ولم يتبْ منها، ﴿ويصلى سعيراً﴾؛ أي: تحيط به السعير من كلِّ جانب، ويقلَّب على عذابها، وذٰلك لأنَّه ﴿كان في أهلِهِ مسروراً﴾: لا يخطُرُ البعث على باله، وقد أساء، ولا[٢] يظنُّ أنَّه راجعٌ إلى ربِّه وموقوفٌ بين يديه. ﴿بلى إنَّ ربَّه كان به بصيراً﴾: فلا يحسُنُ أن يترُكَه سدىً لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُثاب ولا يُعاقب.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ[٣] ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ أقسم في هٰذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشَّفق؛ الذي هو بقيَّة نور الشمس الذي هو مفتتح الليل، ﴿والليل وما وَسَقَ﴾؛ أي: احتوى عليه من حيواناتٍ وغيرها، ﴿والقمرِ إذا اتَّسَقَ﴾؛ أي: امتلأ نوراً بإبداره، وذٰلك أحسن ما يكون وأكثر منافع. والمقسَم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾؛ أي: أيُّها الناس ﴿طبقاً﴾: بعد ﴿طبقٍ﴾؛ أي: أطواراً متعدِّدة وأحوالاً متباينة من النُّطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الرُّوح، ثم يكون وليداً وطفلاً ومميزاً[٤]، ثم يجري عليه قَلَمُ التَّكليف والأمر والنَّهي، ثم يموت بعد ذٰلك، ثم يُبْعَثُ ويجازى بأعماله؛ فهٰذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالَّة على أنَّ الله وحده هو المعبودُ الموحَّدُ المدبِّرُ لعباده بحكمته ورحمته، وأنَّ العبد فقيرٌ عاجزٌ تحت تدبير العزيز الرحيم.

﴿٢٠ ـ ٢٤﴾ ومع هٰذا؛ فكثيرٌ من الناس لا يؤمنون، ﴿وإذا قُرِىءَ عليهم القرآنُ لا يَسْجُدونَ﴾؛ أي: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بل الذين كفروا يكذِّبون﴾؛ أي: يعاندون الحقَّ بعدما تبيَّن؛ فلا يُسْتَغْرَبُ عدم إيمانهم

---

(١) في (ب): «من خلفه». (٢) في (ب): «ولم».
(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «ثم مميزاً».

وانقيادهم[١] للقرآن؛ فإنَّ المكذِّب بالحقِّ عناداً لا حيلة فيه، ﴿والله أعلم بما يُوعون﴾؛ أي: بما يعملونه وينوونه سرًّا؛ فالله يعلم سِرَّهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فبشِّرْهم بعذابٍ أليم﴾: وسميت البشارة بشارةً؛ لأنَّها تؤثِّر في البشرة سروراً أو غمًّا.

﴿٢٥﴾ فهذه حال أكثر الناس؛ التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان به. ومن الناس فريقٌ هداهم الله فآمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرُّسل، فـ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾: فهؤلاء ﴿لهم أجرٌ غير ممنونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل هو أجرٌ دائمٌ ممَّا لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ. والحمد لله[٢].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ[٣] ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿والسماءِ ذات البُروج﴾؛ أي: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيبٍ ونظامٍ دالٍّ على كمال قدرة الله [تعالى] ورحمته وسعة علمِه وحكمتِه. ﴿واليوم الموعودِ﴾: وهو

---

(١) في (ب): «وعدم انقيادهم».
(٢) في (ب): «تم تفسير السورة. ولله الحمد».
(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يومُ القيامةِ، الذي وَعَدَ اللّهُ الخَلْقَ أن يجمَعَهم فيه ويضمَّ فيه أوَّلهم وآخرَهم وقاصيَهم ودانِيَهم، الذي لا يمكن أن يتغيَّر ولا يُخْلِفُ اللّه الميعاد. ﴿وشاهدٍ ومشهودٍ﴾: وشمل هٰذا كلَّ من اتَّصف بهٰذا الوصف؛ أي: مبصِرٍ ومبصَرٍ وحاضرٍ ومحضورٍ وراءٍ ومرئيٍّ. والمقسَم عليه ما تضمَّنه هٰذا القسم من آيات اللّه الباهرة وحِكَمِهِ الظاهرة ورحمته الواسعة. وقيل: إنَّ المقسم عليه قوله:

﴿٤ ـ ٩﴾ ﴿قُتِلَ أصحابُ الأخدود﴾: وهٰذا دعاءٌ عليهم بالهلاك، والأخدودُ الحُفَرُ التي تُحْفَرُ في الأرض، وكان أصحابُ الأخدود[١] هٰؤلاء قوماً كافرين، ولديهم قومٌ مؤمنون، فراودوهم على الدُّخول[٢] في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذٰلك، فشقَّ الكافرون أخدوداً في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولَها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها؛ فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمرَّ على الإيمان قذفوه في النار، وهٰذا غايةُ المحاربة للّه ولحزبه المؤمنين، ولهٰذا لعنهم اللّه وأهلكهم وتوعَّدهم، فقال: ﴿قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ﴾، ثم فسَّر الأخدود بقوله: ﴿النارِ ذاتِ الوَقود. إذ هم عليها قعودٌ. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهودٌ﴾: وهٰذا من أعظم ما يكون من التجبُّر وقساوة القلب؛ لأنَّهم جمعوا بين الكفر بآيات اللّه ومعاندتها ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهٰذا العذاب الذي تَنْفَطِرُ منه القلوب وحضورهم إيَّاهم عند إلقائهم فيها. والحالُ أنَّهم ما نقموا من المؤمنين إلَّا حالةً[٣] يُمْدَحون عليها وبها سعادتُهم، وهي أنَّهم كانوا يؤمنون ﴿باللّه العزيز الحميد﴾؛ أي: الذي له العزَّة، التي قَهَرَ بها كلَّ شيء، وهو حميدٌ في أقواله وأفعاله وأوصافه[٤]. ﴿الذي له مُلْكُ السمٰوات والأرض﴾: خلقاً وعبيداً يتصرَّف فيهم بما يشاء[٥]. ﴿واللّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾: علماً وسمعاً وبصراً؛ أفلا خاف هٰؤلاء المتمرِّدون عليه أن يأخُذَهم[٦] العزيز المقتدر، أوَ ما علموا كلُّهم أنَّهم[٧] مماليك للّه، ليس لأحدٍ على أحدٍ سلطةٌ من دون إذن المالك؟! أوَ خَفِيَ عليهم

---

(١) قصة أصحاب الأخدود، أخرجها مسلم (٣٠٠٥).

(٢) في (ب): «للدّخول».

(٣) في (ب): «إلا خصلة».

(٤) في (ب): «وأوصافه وأفعاله».

(٥) في (ب): «يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه».

(٦) في (ب): «على الله أن يبطش بهم».

(٧) في (ب): «أو ما علموا أنهم جميعهم».

أنَّ اللّه محيطٌ بأعمالهم مجازيهم عليها[١]؟! كلاَّ إنَّ الكافر في غرورٍ، والجاهل في عمىً وضلالٍ[٢] عن سواء السبيل.

﴿١٠﴾ ثم أوعدهم ووعدهم وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمَّ لم يَتوبوا فلهم عذابُ جهنَّم ولهم عذابُ الحريق﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرِق. قال الحسن رحمه اللّه[٣]: انظُروا إلى هٰذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

﴿١١﴾ ولما ذكر عقوبة الظالمين؛ ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إنَّ الذين آمنوا﴾: بقلوبهم، ﴿وعمِلوا الصالحاتِ﴾: بجوارحهم، ﴿لهم جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ ذٰلك الفوزُ الكبيرُ﴾: الذي حَصَلَ لهم[٤] الفوزُ برضا اللّه ودار كرامته.

﴿١٢﴾ ﴿إنَّ بطش ربِّكَ لشديدٌ﴾؛ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذُّنوب العظام لقويَّةٌ شديدةٌ[٥]، وهو للظالمين بالمرصاد[٦]؛ قال اللّه تعالى: ﴿وكذٰلك أخذُ ربِّك إذا أخَذَ القُرى وهي ظالمةٌ إنَّ أخذَه أليمٌ شديدٌ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿إنَّه هو يُبدِىءُ ويعيدُ﴾؛ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته؛ فلا يشارِكهُ في ذٰلك مشارك[٧].

﴿١٤﴾ ﴿وهو الغفورُ﴾: الذي يغفر الذُّنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيِّئات لمن استغفره وأناب. ﴿الودودُ﴾: الذي يحبُّه أحبابه محبَّةً لا يشبهها شيءٌ؛ فكما أنَّه لا يشابهه شيءٌ في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال؛ فمحبَّته في قلوب خواصِّ خلقه التابعة لذٰلك لا يشبِهُها شيءٌ من أنواع المحابِّ، ولهٰذا كانت محبَّتُه أصل العبوديَّة، وهي المحبَّة التي تتقدَّم جميع المحابِّ وتغلبها، وإن لم تكن غيرها تبعاً لها؛ كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودودُ الوادُّ لأحبابه؛ كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهم ويحبُّونه﴾: والمودَّة هي المحبَّة الصافية.

وفي هٰذا سرٌّ لطيفٌ؛ حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدلَّ ذٰلك على أنَّ أهل الذُّنوب إذا تابوا إلى اللّه، وأنابوا غفر لهم ذنوبهم، وأحبهم فلا يقال تغفر ذنوبهم، ولا

---

(١) في (ب): «مجازٍ لهم على فعالهم». (٢) في (ب): «والظالم في جهل وعمى».
(٣) أي: الحسن البصري. انظر «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٣).
(٤) في (ب): «به». (٥) في (ب): «والذنوب العظام لَشديدة».
(٦) في (ب): «وهو بالمرصاد للظالمين». (٧) في (ب): «فلا مشارك في ذلك».

يرجع إليهم الود كما قاله بعض الغالطين، بل اللّه أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجلٍ على راحلته عليها طعامُهُ وشرابه وما يصلحه، فأضلَّها في أرضٍ فلاةٍ مهلكةٍ، فأيس منها، فاضطجع في ظلِّ شجرةٍ ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال؛ إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها[1]. فاللّه أعظم فرحاً بتوبة العبد من هٰذا براحلته، وهٰذا أعظم فرح يقدَّر؛ فللّه الحمد والثناء وصفو الوداد ما أعظمَ برَّه وأكثر خيرَه وأغزرَ إحسانَه وأوسع امتنانَه!

﴿١٥﴾ ﴿ذو العرش المجيدُ﴾؛ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته أنه وسع السماواتِ والأرض والكرسيَّ؛ فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاةٍ في فلاةٍ بالنسبة لسائر الأرض[2]، وخصَّ اللّه العرش بالذِّكر لعظمته، ولأنَّه أخصُّ المخلوقات بالقرب منه [تعالى]. وهٰذا على قراءة الجرِّ يكون ﴿المجيد﴾ نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع؛ فإنَّه يكون نعتاً للّه[3]، والمجدُ سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿١٦﴾ ﴿فعَّالٌ لما يريد﴾؛ أي: مهما أراد شيئاً؛ فعله، إذا أراد شيئاً؛ قال له: كن، فيكون، وليس أحدٌ فعالاً لما يريد إلَّا اللّه؛ فإنَّ المخلوقات ولو أرادت شيئاً؛ فإنَّه لا بدَّ لإرادتها من معاونٍ وممانع، واللّه لا معاون لإرادته ولا ممانع له ممَّا أراد.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ثم ذكر من أفعاله الدالَّة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هل أتاك حديث الجُنود. فرعونَ وثمودَ﴾: وكيف كذَّبوا المرسلين فجعلهم اللّه من المهلكين.

﴿١٩﴾ ﴿بل الذين كَفَروا في تكذيبٍ﴾؛ أي: لا يزالون مستمرِّين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآياتُ، ولا تُجدي لديهم العظات.

﴿٢٠﴾ ﴿واللّه من ورائهم محيطٌ﴾: قد أحاط بهم علماً وقدرةً؛ كقوله: ﴿إنَّ

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) عن عدة من الصحابة بألفاظ مختلفة.

(٢) كما في كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي (٥٨) من حديث أبي ذر رضي اللّه عنه، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٩) وقال: «واعلم أنه لا يصح حديث مرفوع عن النبي ﷺ في صفة العرش إلاّ هٰذا الحديث».

(٣) في (ب): «فإن المجيدَ نعتٌ لله».

ربِّك لبالمرصاد﴾؛ ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة مَنْ هم في قبضته وتحت تدبيره.

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ﴿بل هو قرآنٌ مجيدٌ﴾؛ أي: وسيع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم. ﴿في لوح محفوظٍ﴾: من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ، الذي قد أثبت الله فيه كلَّ شيء، وهذا يدلُّ على جلالة القرآن وجزالته ورفعة قدره عند الله تعالى. والله أعلم.

تم تفسيرها[1].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الطارق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ[2] ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿١ ـ ٤﴾ يقول الله تعالى: ﴿والسماءِ والطارقِ﴾: ثم فسَّر الطارقَ بقوله: ﴿النَّجمُ الثاقبُ﴾؛ أي: المضيء الذي يثقب نورُه فيخرِقُ السماوات فينفذ حتى يُرى في الأرض. والصحيح أنَّه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب. وقد قيل: إنَّه زحل، الذي يخرق السماوات السبع وينفذها[3] فيُرى منها، وسُمِّيَ طارقاً لأنَّه يطرق ليلاً. والمقسَم عليه قوله: ﴿إن كلُّ نفسٍ لَمَّا عليها حافظ﴾: يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستُجازى بعملها المحفوظ عليها.

---

(١) في (ب): «تَمَّ تفسير السورة».

(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٣) في (ب): «وينفذ فيها».

﴿٥ ـ ٧﴾ ﴿فلينظرِ الإنسانُ ممَّ خُلِقَ﴾؛ أي: فليتدبَّر خلقته ومبدأه؛ فإنَّه مخلوق ﴿من ماءٍ دافقٍ﴾: وهو المنيُّ، الذي ﴿يخرُجُ من بين الصُّلْبِ والترائبِ﴾: يُحتمل أنَّه من بين صلبِ الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها، ويُحتمل أنَّ المراد المنيُّ الدافق، وهو منيُّ الرجل، وأنَّ محلَّه الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعلَّ هٰذا أولى؛ فإنَّه إنَّما وصف به الماء الدافق الذي يُحَسُّ به ويشاهَدُ دفْقُه[١]، وهو منيُّ الرجل، وكذٰلك لفظ الترائب؛ فإنَّها تستعمل للرجل؛ فإنَّ الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى؛ فلو أريدت الأنثى؛ لقيل[٢] من الصُّلب والثديين ونحو ذٰلك. والله أعلم.

﴿٨ ـ ١٠﴾ فالذي أوجد الإنسان من ماءٍ دافقٍ يخرج من هٰذا الموضع الصعب قادرٌ على رجعه في الآخرة وإعادته للبعث والنُّشور والجزاء. وقد قيل: إنَّ معناه أنَّ الله على رجع الماءِ المدفوق في الصُّلب لَقادرٌ، وهٰذا وإن كان المعنى صحيحاً؛ فليس هو المرادُ من الآية، ولهٰذا قال بعده: ﴿يومَ تُبلى السرائر﴾؛ أي: تختبر سرائر الصدور ويظهر ما كان في القلوب من خيرٍ وشرٍّ على صفحات الوجوه؛ كما قال تعالى: ﴿يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ﴾؛ ففي الدُّنيا تنكتم كثيرٌ من الأشياء ولا يظهر عياناً للناس، وأمَّا يوم القيامة[٣]؛ فيظهر بِرُّ الأبرار وفجورُ الفجار، وتصير الأمور علانيةً. وقوله: ﴿فما له من قوَّةٍ﴾؛ أي: من نفسه يدفع بها[٤]، ﴿ولا ناصرٍ﴾: من خارجٍ[٥] ينتصر به، فهٰذا القسمُ على العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

﴿١١ ـ ١٤﴾ ثم أقسم قسماً ثانياً على صحة القرآن، فقال: ﴿والسماءِ ذات الرَّجْع. والأرضِ ذاتِ الصَّدْع﴾؛ أي: ترجع السماء بالمطر كلَّ عام، وتنصدِعُ الأرض للنبات، فيعيش بذٰلك الآدميُّون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأقدار والشؤون الإلٰهيَّة كلَّ وقتٍ، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إنَّه﴾؛ أي: القرآن، ﴿لقولٌ فصلٌ﴾؛ أي: حقٌّ وصدقٌ بيِّنٌ واضحٌ، ﴿وما هو بالهَزْل﴾؛ أي: جدٌّ ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

---

(١) في (ب): «إنما وصف الله به الماء الدافق والذي يحسُّ ويشاهد دفقه».

(٢) في (ب): «لقال».

(٣) في (ب): «وأمّا في القيامة».

(٤) في (ب): «﴿فما له من قوّة﴾: يدفع بها عن نفسه».

(٥) في (ب): «﴿ولا ناصر﴾: خارجي».

﴿١٥ ـ ١٧﴾ ﴿إنَّهم﴾؛ أي: المكذِّبين للرسول ﷺ وللقرآن، ﴿يكيدون كيداً﴾: ليدفعوا بكيدِهِم الحقَّ ويؤيِّدوا الباطل، ﴿وأكيدُ كيداً﴾: لإظهار الحقِّ، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويُعلم بهذا مَنْ الغالب؛ فإنَّ الآدميَّ أضعفُ وأحقرُ من أن يغالب القويَّ العليم في كيدِهِ. ﴿فمهِّلِ الكافرين أمْهِلْهم رويداً﴾؛ أي: قليلاً، فسيعلمون[1] عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسيرها[2]. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة سبح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي[3] خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمِّن لذكره وعبادته والخضوع لجلاله والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً يليق بعظمة الله تعالى؛ بأن تُذْكَرَ أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها العظيم الجليل[4]، وتذكر أفعاله التي منها أنَّه خلق المخلوقات فسواها؛ أي: أتقن وأحسن خلقها، ﴿والذي قَدَّرَ﴾: تقديراً تتبعه جميع المقدَّرات، ﴿فهدى﴾: إلى ذلك جميع المخلوقات، وهذه الهداية العامَّة التي مضمونها أنَّه هدى كلَّ مخلوق لمصلحته.

﴿٤ ـ ٥﴾ وتُذكَر فيها نِعَمه الدنيويَّة، ولهذا قال[5]: ﴿والذي أخرج المرعى﴾؛ أي:

---

(١) في (ب): «فسيعملون». (٢) في (ب): «تم تفسير سورة الطارق».
(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٤) في (ب): «الحسن العظيم». (٥) في (ب): «قال فيها».

أنزل من السماء ماءً، فأنبت به أصناف[١] النبات والعشب الكثير، فرتع فيه الناسُ والبهائم وجميع الحيوانات[٢]. ثم بعد أن استكمل ما قَدَّرَ له من الشباب؛ ألوى نباته وصوَّح عشبه، ﴿فجعله غثاءً أحوى﴾؛ أي: أسود؛ أي: جعله هشيماً رميماً.

﴿٦ ـ ٧﴾ ويذكر فيها نعمه الدينيَّة، ولهٰذا امتنَّ اللّه بأصلها ومادَّتها، وهو القرآن، فقال: ﴿سنقرِئُك فلا تَنسى﴾؛ أي: سنحفظ ما أوحيناه إليك من الكتاب ونوعيه قلبك؛ فلا تنسى منه شيئاً، وهٰذه بشارةٌ من اللّه كبيرةٌ[٣] لعبده ورسوله محمدٍ ﷺ؛ أنَّ اللّه سيعلمه علماً لا ينساه، ﴿إلَّا ما شاء اللّه﴾: مما اقتضت حكمتُه أن ينسيكه لمصلحةٍ وحكمةٍ بالغةٍ. ﴿إنَّه يعلم الجهر وما يَخفى﴾: ومن ذٰلك أنَّه يعلم ما يُصْلِحُ عباده؛ أي: فلذٰلك يشرع ما أراد ويحكم بما يريد[٤].

﴿٨﴾ ﴿ونيسِّرُك لليُسرى﴾: وهٰذه أيضاً بشارةٌ أخرى[٥]؛ أنَّ اللّه ييسِّر رسولَه ﷺ لليُسرى في جميع أموره، ويجعل شرعَه ودينَه يسيراً[٦].

﴿٩ ـ ١٣﴾ ﴿فذكِّر﴾: بشرع اللّه وآياته، ﴿إن نفعتِ الذِّكرى﴾؛ أي: ما دامت الذِّكرى مقبولةً والموعظة مسموعةً، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنَّه إن لم تنفع الذِّكرى؛ بأنْ كان التَّذكير يزيد في الشرِّ أو يَنْقُصُ من الخير؛ لم تكن مأموراً بها، بل منهيًّا عنها؛ فالذِّكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون، وغير منتفعين. فأمّا المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سيذَّكَّر مَن يخشى﴾: اللّه؛ فإنَّ خشية اللّه تعالى والعلم بمجازاته على الأعمال توجب للعبد الانكفاف عمَّا يكرهه اللّه[٧] والسعي في الخيرات، وأمَّا غير المنتفعين؛ فذكرهم بقوله: ﴿ويتجنَّبُها الأشقى. الذي يَصْلى النارَ الكُبرى﴾: وهي النار الموقدة، التي تطَّلِعُ على الأفئدة، ﴿ثمَّ لا يموت فيها ولا يَحْيا﴾؛ أي: يعذَّب عذاباً أليماً من غير راحةٍ ولا استراحةٍ، حتَّى إنَّهم يتمنَّوْن الموت؛ فلا يحصُلُ لهم؛ كما قال تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفَّفُ عنهم من عذابها﴾.

---

(١) في (ب): «أنواع». (٢) في (ب): «وكلّ حيوان».
(٣) في (ب): «كبيرة من الله».
(٤) في (ب): «فلذلك يحكم بما».
(٥) في (ب): «كبيرة». (٦) في (ب): «يسراً».
(٧) في (ب): «فإن خشيته لله وعلمه بأن سيجازيه على أعماله توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي».

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿قد أفلح من تَزَكَّى﴾؛ أي: قد فاز وربح من طهَّر نفسه ونقَّاها من الشرك والظلم ومساوىء الأخلاق، ﴿وذَكَرَ اسمَ ربِّه فصلَّى﴾؛ أي: اتَّصف بذكر اللّه، وانصبغ به قلبُه، فأوجب له ذٰلك العمل بما يرضي اللّه، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزانُ الإيمان. هٰذا معنى الآية [الكريمة]، وأمَّا من فسَّر قوله: ﴿تزكى﴾؛ يعني[1]: أخرج زكاة الفطر، و﴿ذكر اسم ربِّه فصلى﴾؛ أنَّه صلاة العيد؛ فإنَّه وإن كان داخلاً في اللفظ وبعض جزئيَّاته؛ فليس هو المعنى وحده.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ﴿بل تؤثرون الحياة الدُّنيا﴾؛ أي: تقدِّمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها المنغَّص المكدَّر الزائل على الآخرة، ﴿والآخرةُ خيرٌ وأبقى﴾: خيرٌ من الدُّنيا في كلِّ وصفٍ مطلوبٍ، ﴿وأبقى﴾؛ لكونها دار خلدٍ وبقاءٍ [وصفاء] والدنيا دار فناء. فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذَّةَ ساعةٍ بترحة الأبد، فحبُّ الدُّنيا وإيثارها على الآخرة رأس كلِّ خطيئة.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ ﴿إنَّ هٰذا﴾: المذكور لكم في هٰذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة، ﴿لفي الصُّحُفِ الأولى. صُحُفِ إبراهيم وموسى﴾: اللَّذيْنِ هما أشرف المرسلين بعد[2] محمدٍ صلى اللّه عليه وعليهم أجمعين. فهٰذه أوامر في كلِّ شريعةٍ؛ لكونها عائدةً إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

تمَّت. وللّه الحمد[3].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ[4] ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾

---

(١) في (ب): «بمعنى». (٢) في (ب): «سوى النبي».
(٣) في (ب): «تمَّ تفسير سورة سبح ولله الحمد».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿وزرابي مبثوثة﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١﴾ يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامَّة، وأنَّها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازَوْن بأعمالهم، ويتميَّزون إلى فريقين: فريق في الجنَّة، وفريق في السَّعير. فأخبر عن وصف كلا الفريقين:

﴿٢ ـ ٧﴾ فقال في وصف أهل النار: ﴿وجوهٌ يومئذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿خاشعةٌ﴾: من الذُّلِّ والفضيحة والخزي، ﴿عاملةٌ ناصبةٌ﴾؛ أي: تاعبة في العذاب، تجرُّ على وجوهها، ﴿وتغشى وجوهَهم النارُ﴾؛ ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ. عاملةٌ ناصبةٌ﴾: في الدنيا لكونهم في الدُّنيا أهل عباداتٍ وعمل، ولٰكنَّه لما عدم شرطه، وهو الإيمان؛ صار يوم القيامة هباءً منثوراً.

وهٰذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى؛ فلا يدلُّ عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنَّه قيَّده بالظرف، وهو يوم القيامةِ، ولأنَّ المقصود هنا بيان ذكر[١] أهل النار عموماً، وذٰلك الاحتمال جزءٌ قليلٌ بالنسبة إلى أهل النار[٢]، ولأنَّ الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية؛ فليس فيه تعرُّضٌ لأحوالهم في الدُّنيا.

وقوله: ﴿تَصْلى ناراً حاميةً﴾؛ أي: شديداً حرُّها تحيط بهم من كلِّ مكان، ﴿تُسقى من عينٍ آنيةٍ﴾؛ أي: شديدة الحرارة[٣]، ﴿وإن يَسْتَغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يَشْوي الوجوهَ﴾؛ فهٰذا شرابهم، وأمَّا طعامُهم؛ فَـ﴿ليس لهم طعامٌ إلَّا من ضريع. لا يُسْمِنُ ولا يُغْني من جوع﴾: وذٰلك لأنَّ[٤] المقصود من الطعام أحد أمرين: إمَّا أن يسدَّ جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإمَّا أن يُسْمِنَ بدنَه من الهزال، وهٰذا الطعام ليس فيه شيءٌ من هٰذين الأمرين، بل هو طعامٌ في غاية المرارة والنَّتن والخسَّة، نسأل الله العافية.

﴿٨ ـ ١٦﴾ وأمَّا أهلُ الخير؛ فوجوههم يوم القيامةِ ﴿ناعمةٌ﴾؛ أي: قد جرت عليهم نَضْرَةُ النعيم فَنَضَرَتْ أبدانهم واستنارت وجوههم وسُرُّوا غاية السرور، ﴿لسعيها﴾: الذي قدَّمته في الدُّنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله،

---

(١) في (ب): «وصف».
(٢) في (ب): «جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها».
(٣) في (ب): «حارة شديدة». (٤) في (ب): «أن».

﴿راضيةٌ﴾: إذْ وجدت ثوابه مدَّخراً مضاعفاً، فحمدت عقباه، وحصل لها كلُّ ما تتمنَّاه. وذٰلك أنَّها ﴿في جنَّةٍ﴾: جامعةٍ لأنواع النَّعيم كلِّها، ﴿عاليةٍ﴾: في محلِّها ومنازلها؛ فمحلُّها في أعلى عِلِّيين، ومنازلها مساكنُ عاليةٌ، لها غرفٌ، ومن فوق الغرف غرفٌ مبنيَّةٌ يشرفون منها على ما أعدَّ اللّه لهم من الكرامة. ﴿قطوفُها دانيةٌ﴾؛ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول؛ بحيث ينالونها على أيِّ حال كانوا، لا يحتاجون أن يَصْعَدوا شجرةً أو يستعصي عليهم منها ثمرةٌ. ﴿لا تسمع فيها﴾؛ أي: الجنَّة ﴿لاغيةً﴾؛ أي: كلمة لغوٍ وباطلٍ فضلاً عن الكلام المحرَّم، بل كلامُهم كلامٌ حسنٌ نافعٌ، مشتملٌ على ذكر اللّه وذكر نعمه المتواترة عليهم وعلى الآداب الحسنة[١] بين المتعاشِرين الذي يسرُّ القلوب ويشرح الصدور. ﴿فيها عينٌ جاريةٌ﴾: وهٰذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية التي يفجِّرونها ويصرِّفونها كيف شاؤوا وأنَّى أرادوا. ﴿فيها سررٌ مرفوعةٌ﴾: والسرر جمعُ سريرٍ، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها وبما عليها من الفُرُش الليِّنة الوطيئة. ﴿وأكوابٌ موضوعةٌ﴾؛ أي: أوانٍ ممتلئةٌ من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدَّت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوفُ بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارقُ مصفوفةٌ﴾؛ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلَّا اللّه، قد صُفَّتْ للجلوس والاتِّكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها أو يصفوها بأنفسهم. ﴿وزَرابِيُّ مبثوثةٌ﴾: والزرابِيُّ هي البسط الحسان، مبثوثةٌ؛ أي: مملوءةٌ بها مجالسهم من كلِّ جانب.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ[٢] ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

﴿١٧ ـ ٢٠﴾ يقول تعالى حثًّا للذين لا يصدِّقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس أنْ يتفكَّروا في مخلوقات اللّه الدالَّة على توحيده. ﴿أفلا ينظُرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ﴾؛ أي: ألا ينظُرون إلى خَلْقها البديع وكيف سخَّرها اللّه للعباد وذلَّلها لمنافعهم الكثيرة

(١) في (ب): «والآداب المستحسنة».
(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

التي يضطَرُّون إليها؟[١] ﴿وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ﴾: بهيئةٍ باهرةٍ حصل بها الاستقرار للأرض[٢] وثباتُها من الاضطراب وأودع [الله] فيها من المنافع الجليلة ما أودع، ﴿وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ﴾؛ أي: مُدَّت مدًّا واسعاً، وسُهِّلت غاية التسهيل؛ ليستقرَّ العبادُ[٣] على ظهرها ويتمكَّنوا من حرثها وغراسها والبنيان فيها وسلوك طرقها[٤].

واعلم أنَّ تسطيحها لا ينافي أنَّها كرةٌ مستديرةٌ قد أحاطتِ الأفلاك فيها من جميع جوانبها كما دلَّ على ذٰلك النقل والعقل والحسُّ والمشاهدة؛ كما هو مذكورٌ معروفٌ عند كثيرٍ من الناس[٥]، خصوصاً في هٰذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقرِّبة للبعيد؛ فإنَّ التسطيح إنَّما ينافي كرويَّة الجسم الصغير جدًّا، الذي لو سطح؛ لم يبق له استدارةٌ تُذْكَر، وأمَّا جسم الأرض الذي هو كبيرٌ جدًّا واسعٌ[٦]، فيكون كرويًّا مسطحاً، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذٰلك أرباب الخبرة.

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ﴿فذكِّرْ إنَّما أنت مذكِّرٌ﴾؛ أي: ذكِّر الناس وعِظْهم وأنذِرْهم وبشِّرْهم؛ فإنَّك مبعوثٌ لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تُبْعَثْ عليهم مسيطراً عليهم مسلطاً[٧] موكلاً بأعمالهم؛ فإذا قمت بما عليك؛ فلا عليك بعد ذٰلك لومٌ؛ كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبارٍ. فَذَكِّرْ بالقرآنِ مَن يخافُ وعيدِ﴾.

﴿٢٣ ـ ٢٤﴾ وقوله: ﴿إلَّا مَن تولَّى وكَفَرَ﴾؛ أي: لٰكن مَن تولَّى عن الطاعة وكفر بالله، ﴿فيعذِّبُه الله العذابَ الأكبرَ﴾؛ أي: الشديد الدائم.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿إنَّ إلينا إيابَهم﴾؛ أي: رجوع الخلائق[٨] وجمعهم في يوم القيامةِ. ﴿ثم إنَّ علينا حسابَهم﴾: على ما عملوا[٩] من خيرٍ وشرٍّ.

والحمد لله [رب العالمين].

❁ ❁ ❁

---

(١) في النسختين لم يفسر قوله: ﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾.
(٢) في (ب): «حصل بها استقرار الأرض».
(٣) في (ب): «الخلائق».
(٤) في (ب): «وسلوك الطرق الموصلة إلى أنواع المقاصد فيها».
(٥) في (ب): «أكثر الناس».
(٦) في (ب): «الذي هو في غاية الكبر والسعة».
(٧) في (ب): «مسيطراً عليهم مسلطاً».
(٨) في (ب): «الخليقة».
(٩) في (ب): «فنحاسبهم على ما عملوا».

تفسير سورة والفجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ الظاهر أن المقسم عليه هو المقسَم به[١]، وذٰلك جائزٌ مستعملٌ إذا كان أمراً ظاهراً مهمًّا، وهو كذٰلك في هٰذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخرُ الليل ومقدِّمة النهار؛ لما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالَّة على كمال قدرة اللّه تعالى، وأنَّه تعالى هو[٢] المدبِّر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له. ويقع في الفجر صلاةٌ فاضلةٌ معظَّمة يَحْسُنُ أن يُقسم اللّه بها، ولهٰذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح ليالي عشر رمضان أو عشر ذي الحجَّة[٣]؛ فإنَّها ليالٍ مشتملةٌ على أيَّام فاضلةٍ، ويقع فيها من العبادات والقُرُبات ما لا يقع بغيرها. وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر، وفي نهارها صيامُ آخر رمضان، الذي هو أحد أركان[٤] الإسلام العظام. وفي أيَّام عشر ذي الحجَّة الوقوف بعرفة، الذي يغفر اللّه فيه لعباده مغفرةً يحزن لها الشيطان؛ فإنَّه ما[٥] رُئي الشيطان أحقر ولا أدحر منه[٦] في يوم عرفة[٧]؛ لما يرى من تنزُّل الأملاك والرحمة من اللّه على عباده[٨]، ويقع فيها كثيرٌ من أفعال الحجِّ والعمرة، وهٰذه أشياء معظَّمة مستحقَّة أن يقسم اللّه بها، ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾؛ أي:

---

(١) في (ب): «الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه».
(٢) في (ب): «وأنه وحده».
(٣) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (١/٥٦) فقد ذكر المفاضلة فيها بين العشر من ذي الحجة والعشر الأخير من رمضان.
(٤) في (ب): «الذي هو ركن من أركان».
(٥) في (ب): «فما».
(٦) في (ب): «من».
(٧) أخرجه مالك في «الموطأ» في الحج، باب: «جامع الحج»، وعنه عبدالرزاق (٨٨٣٢) مرسلاً عن عبيدالله بن كريز.
(٨) في (ب): «لعباده».

وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنُّون رحمةً منه تعالى وحكمةً. ﴿هل في ذٰلك﴾: المذكور، ﴿قَسَمٌ لذي حِجْرٍ﴾؛ أي: لذي عقل؟ نعم بعضُ ذٰلك يكفي لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ[1] ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿٦ ـ ١٤﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر﴾: بقلبك وبصيرتك، ﴿كيف فَعَلَ﴾: بهذه الأمم الطاغية، عاد وهي ﴿إرم﴾: القبيلة المعروفة في اليمن، ﴿ذات العِماد﴾؛ أي: القوَّة الشديدة والعتوّ والتجبُّر، ﴿التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلاد﴾[2]؛ أي: في جميع البلدان في القوَّة والشدَّة؛ كما قال لهم نبيُّهم هودٌ عليه السلام: ﴿واذكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفاء من بعدِ قوم نوح وزادكُم في الخَلْقِ بَسْطَةً فاذكُروا آلاء اللّه لعلَّكم تفلِحونَ﴾. ﴿وثمودَ الذين جابوا الصَّخْر بالواد﴾؛ أي: وادي القرى؛ نحتوا بقوَّتهم الصخور فاتَّخذوها مساكن، ﴿وفرعونَ ذي الأوتادِ﴾؛ أي: ذي الجنود الذي ثبَّتوا ملكه كما تثبت الأوتاد [و] ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طَغَوْا في البلاد﴾: هٰذا الوصف عائدٌ إلى عادٍ وثمودَ وفرعونَ ومن تَبِعَهم؛ فإنَّهم طَغَوْا في بلاد اللّه، وآذوا عباد اللّه في دينهم ودنياهم. ولهٰذا قال: ﴿فأكثروا فيها الفسادَ﴾: وهو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرُّسُل وصدِّ الناس عن سبيل اللّه، فلما بلغوا من العتوِّ ما هو موجبٌ لهلاكهم؛ أرسل اللّه عليهم من عذابه ذَنُوباً وسوطَ عذاب، ﴿إنَّ ربَّك لبالمرصادِ﴾: لمن يعصيه[3]؛ يمهِلُه قليلاً ثم يأخُذُه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ[4] فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «﴿التي لم يخلق مثلها﴾؛ أي: مثل عاد في البلاد».

(٣) في (ب): «لمن عصاه».

(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿حباً جماً﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٥ ـ ٢٠﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنَّه جاهلٌ ظالمٌ لا علم له بالعواقب، يظنُّ الحالة التي تقع فيه تستمرُّ ولا تزول، ويظنُّ أنَّ إكرام اللّه في الدُّنيا وإنعامه عليه يدلُّ على كرامته [عنده] وقربِهِ منه، وأنَّه إذا ﴿قَدَرَ عليه رِزْقَه﴾؛ أي: ضيَّقه، فصار بِقَدَرِ قوتِهِ لا يفضُلُ عنه؛ أنَّ هٰذا إهانةٌ من اللّه له، فردَّ اللّه عليه هٰذا الحسبان، فقال: ﴿كلا﴾؛ أي: ليس كلُّ مَنْ نَعَّمْتُهُ في الدُّنيا فهو كريمٌ عليَّ، ولا كلُّ من قَدَرْتُ عليه رِزْقَه فهو مهانٌ لديَّ، وإنَّما الغِنى والفقر والسعة والضيق ابتلاءٌ من اللّه وامتحانٌ يمتحن به العباد؛ ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذٰلك الثواب الجزيل، ممَّن ليس كذٰلك، فينقله إلى العذاب الوبيل. وأيضاً؛ فإنَّ وقوف همَّة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمَّة، ولهٰذا لامَهُمُ اللّه على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كلاَّ بل لا تكرِمون اليتيمَ﴾: الذي فقد أباه وكاسبه واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه؛ فأنتُم لا تكرِمونه بل تهينونه، وهذا يدلُّ على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير، ﴿ولا تحاضُّون على طعام المسكين﴾؛ أي: لا يحضُّ بعضكم بعضاً على إطعام المحاويج من الفقراء والمساكين[1]، وذٰلك لأجل الشحِّ على الدنيا ومحبَّتها الشديدة المتمكِّنة من القلوب. ولهٰذا قال: ﴿وتأكُلون التُّراثَ﴾؛ أي: المال المخلَّف، ﴿أكلاً لَمًّا﴾؛ أي: ذريعاً، لا تبقون على شيءٍ منه، ﴿وتحبُّون المال حُبًّا جَمًّا﴾؛ أي: شديداً[2]، وهٰذا كقوله: ﴿بل تؤثرون الحياةَ الدُّنيا والآخرةُ خيرٌ وأبقى﴾، ﴿كلاَّ بل تحبُّونَ العاجِلَةَ وتَذَرون الآخرةَ﴾.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا[3] ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

(١) في (ب): «من المساكين والفقراء».
(٢) في (ب): «أي: كثيراً شديداً».
(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿٢١ ـ ٢٤﴾ ﴿كلاَّ﴾؛ أي: ليس كلُّ ما أحببتم من الأموال وتنافستُم فيه من اللَّذات بباقٍ لكم، بل أمامكم يومٌ عظيمٌ وهولٌ جسيمٌ تُدَكُّ فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تُجْعَلَ قاعاً صفصفاً لا عِوَجَ فيه ولا أمتا، ويجيء الله لفصل القضاء بين عباده في ظُلَلٍ من الغمام، ويجيء الملائكة الكرام أهل السماواتِ كلُّهم[1] ﴿صفًّا صفًّا﴾؛ أي: صفّاً بعد صفٍّ، كلُّ سماءٍ يجيء ملائكتها صفًّا، يحيطون بمن دونَهم من الخلق، وهٰذه الصفوف صفوفُ خضوع وذُلٍّ للملك الجبار، ﴿وجيء يومئذٍ بجهنَّم﴾: تقودُها[2] الملائكة بالسلاسل؛ فإذا وقعت هٰذه الأمور؛ فـ﴿يومئذٍ يتذكَّرُ الإنسان﴾: ما قدَّمه من خيرٍ وشرٍّ، ﴿وأنَّى له الذِّكرى﴾: فقد فات أوانُها وذهب زمانها، ﴿يقول﴾: متحسِّراً على ما فرَّط في جنب الله: ﴿يا ليتني قدَّمتُ لحياتي﴾: الباقية الدائمة[3] عملاً صالحاً؛ كما قال تعالى: ﴿يقول يا ليتني اتَّخَذْتُ مع الرسولِ سبيلاً. يا ويلتىٰ ليْتَني لم أتَّخِذْ فلاناً خليلاً﴾، وفي هٰذا[4] دليلٌ على أنَّ الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها[5] وفي تتميم لَذَّاتها هي الحياة في دار القرار؛ فإنَّها دارُ الخُلد والبقاء.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿فيومئذٍ لا يعذِّبُ عذابَه أحدٌ﴾: لمن أهمل ذٰلك اليوم ونسي العمل له، ﴿ولا يوثِقُ وَثاقَه أحدٌ﴾؛ فإنَّهم يقرنون بسلاسل من نارٍ، ويسحَبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يُسْجَرون؛ فهٰذا جزاءُ المجرمين.

﴿٢٧ ـ ٣٠﴾ وأمَّا مَن آمن بالله واطمأنَّ به[6] وصدَّق رسله؛ فيقال له: ﴿يا أيَّتها النفسُ المطمئنَّةُ﴾: إلى ذِكْرِ الله، الساكنة إلى حبِّه[7]، التي قرَّتْ عينُها بالله، ﴿ارجِعي إلى ربِّك﴾: الذي ربَّاك بنعمته، [وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه] ﴿راضيةً مَرْضِيَّةً﴾؛ أي: راضيةً عن الله وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها، ﴿فادْخُلي في عبادي. وادْخُلي جنَّتي﴾: وهٰذا تخاطَبُ به الرُّوح يوم القيامةِ، وتخاطَبُ به وقتَ السياق والموت[8].

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في (ب): «كلّها».
(٢) في (ب): «يقودها».
(٣) في (ب): «الدائمة الباقية».
(٤) في (ب): «وفي الآية».
(٥) في (ب): «التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها».
(٦) في (ب): «وأمّا من اطمأن إلى الله وآمن به».
(٧) في (ب): «لحبّه».
(٨) في (ب): «وتخاطب به في حال الموت».

تفسير سورة لا أقسم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢[1] وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ يقسم تعالى ﴿بهذا البلدِ﴾ الأمين، وهو[2] مكَّة المكرَّمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ووالدٍ وما وَلَدَ﴾؛ أي: آدم وذرِّيَّته.

﴿٤ ـ ٧﴾ والمقسَم عليه قولُه: ﴿لقد خَلَقْنا الإنسانَ في كَبَدٍ﴾: يُحتمل أنَّ المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشَّدائد في الدُّنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، وأنَّه ينبغي له أن يسعى في عملٍ يُريحُهُ من هٰذه الشَّدائد ويوجب له الفرح والسرور الدَّائم، وإن لم يفعلْ؛ فإنَّه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد، ويحتمل أن المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خِلْقة يقدر[3] على التصرف والأعمال الشديدة ومع ذٰلك فإنه لم يشكر الله على هٰذه النِّعمة العظيمة، بل بطر بالعافية، وتجبَّر على خالقه، فَحَسِبَ بجهله وظلمه أنَّ هٰذه الحال ستدوم له، وأنَّ سلطان تصرُّفه لا ينعزل، ولهٰذا قال [تعالى]: ﴿أيحسبُ أن لن يقدِر عليه أحدٌ﴾: ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه؛ فيقول ﴿أهلكتُ مالاً لُبَداً﴾؛ أي: كثيراً بعضه فوق بعض. وسمى الله [تعالى] الإنفاق في الشَّهوات والمعاصي إهلاكاً؛ لأنَّه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود إليه[4] من إنفاقه إلَّا

---

(١) في (أ): طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٢) في (ب): «الذي هو».

(٣) في (ب): «مقدر».

(٤) في (ب): «عليه».

النَّدم والخسار والتَّعب والقلَّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير؛ فإنَّ هٰذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق، قال الله[١] متوعِّداً هٰذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أيحسبُ أن لم يَرَهُ أحدٌ﴾؛ أي: أيظنُّ[٢] في فعله هٰذا أنَّ الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟! بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله[٣] من خيرٍ وشرٍّ.

﴿٨ ـ ١٠﴾ ثم قرَّره بنعمه، فقال: ﴿ألم نجعل له عينين. ولساناً وشفتين﴾: للجمال والبصر والنُّطق وغير ذٰلك من المنافع الضروريَّة فيها؛ فهٰذه نعم الدُّنيا. ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾؛ أي: طريقي الخير والشرِّ؛ بيَّنَّا له الهدى من الضَّلال، والرُّشد من الغيِّ. فهٰذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله ويشكره[٤] على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصي الله[٥].

﴿١١﴾ ولٰكن هٰذا الإنسان لم يفعل ذلك؛ ﴿فلا اقتحم العقبة﴾؛ أي: لم يقتحمْها ويعبرْ عليها؛ لأنه متَّبع لهواه[٦]، وهٰذه العقبة شديدةٌ عليه.

﴿١٢ ـ ١٦﴾ ثم فسَّر هٰذه العقبة بقوله: ﴿فكُّ رقبةٍ﴾؛ أي: فكُّها من الرقِّ بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار، ﴿أو إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَةٍ﴾؛ أي: مجاعةٍ شديدةٍ؛ بأن يطعم وقت الحاجة أشدَّ الناس حاجةً، ﴿يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ﴾؛ أي: جامعاً بين كونه يتيماً وفقيراً ذا قرابة، ﴿أو مسكيناً ذا مَتْرَبَةٍ﴾؛ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضَّرورة.

﴿١٧﴾ ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾: وعملوا الصالحات[٧]؛ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل في هٰذا كلُّ[٨] قول وفعل واجبٍ أو مستحبٍّ، ﴿وتواصَوْا بالصَّبْرِ﴾: على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره[٩] المؤلمة؛ بأن يحثَّ بعضهم بعضاً على الانقياد لذٰلك والإتيان به كاملاً منشرحاً به الصَّدر مطمئنَّةً به النفس، ﴿وتواصَوْا بالمَرْحَمَةِ﴾: للخلق؛ من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه،

---

(١) في (ب): «قال تعالى».
(٢) في (ب): «أيحسب».
(٣) في (ب): «ما عمل».
(٤) في (ب): «ويشكر الله».
(٥) في (ب): «معاصيه».
(٦) في (ب): «لشهواته».
(٧) كذا في النسختين. ذكر الشيخ الآية: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.
(٨) في (ب): «من كلِّ».
(٩) في (ب): «معصية الله وعلى أقدار الله».

ومساعدتهم على المصالح الدينيَّة والدنيويَّة، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

﴿١٨﴾ ﴿أولٰئك﴾: الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام [هذه] العقبة، ﴿أولٰئك أصحاب الميمنة﴾: لأنَّهم أدَّوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نُهوا عنه، وهٰذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿والذين كفروا بآياتنا﴾: بأن نبذوا هٰذه الأمور وراء ظُهورهم فلم يصدِّقوا بالله ولا آمنوا به ولا عملوا صالحاً ولا رحموا عباد الله. أولٰئك ﴿أصحاب المشأمة. عليهم نارٌ مؤصدةٌ﴾؛ أي: مغلقةٌ، في عَمَدٍ ممدَّدةٍ، قد مدَّت من ورائها؛ لئلَّا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيقٍ وهمٍّ وشدَّةٍ.

والحمد لله.

* * *

تفسير والشمس وضحاها

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا[(١)] ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ أقسم تعالى بهٰذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال: ﴿والشمس وضُحاها﴾؛ أي: نورها ونفعها الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾؛ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنَّهار إذا جلَّاها﴾؛ أي: جلَّى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾؛ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً؛ فتعاقُبُ الظُّلمة والضياء والشمس والقمر على هٰذا

---

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

العالم بانتظام وإتقانٍ وقيام[(١)] لمصالح العباد أكبر دليل على أن الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه المعبود وحده، الذي كلُّ معبودٍ سواه باطل[(٢)]، ﴿والسَّماء وما بناها﴾: يحتمل أن ﴿ما﴾ موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، وهو الله تعالى[(٣)]، ويحتمل أنها مصدريَّة، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها الذي هو غاية ما يقدَّر من الإحكام والإتقان والإحسان. ونحو هٰذا[(٤)] قوله: ﴿والأرضِ وما طحاها﴾؛ أي: مدَّها ووسَّعها، فتمكَّن الخلق حينئذٍ من الانتفاع بها بجميع أوجه[(٥)] الانتفاع.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿ونفسٍ وما سوَّاها﴾: يحتمل أنَّ المراد: ونفس سائر المخلوقات الحيوانيَّة؛ كما يؤيِّد هٰذا[(٦)] العموم، ويُحتمل أنَّ الإقسام[(٧)] بنفس الإنسان المكلَّف؛ بدليل ما يأتي بعده. وعلى كل؛ فالنفس آيةٌ كبيرةٌ من آياته التي يحقُّ الإقسام بها[(٨)]؛ فإنَّها في غاية اللُّطف والخفَّة، سريعة التنقُّل والحركة والتغيُّر والتأثُّر والانفعالات النفسيَّة من الهمِّ والإرادة والقصد والحبِّ والبغض، وهي التي لولاها؛ لكان البدن مجرَّد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على ما هي عليه[(٩)] آيةٌ من آيات الله العظيمة.

﴿٩ ـ ١٠﴾ وقوله: ﴿قد أفلح من زكَّاها﴾؛ أي: طهَّر نفسه من الذُّنوب، ونقَّاها من العيوب، ورقَّاها بطاعة الله، وعلَّاها بالعلم النافع والعمل الصالح، ﴿وقد خاب من دسَّاها﴾؛ أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدنُّس بالرَّذائل والدُّنوِّ من العيوب والذُّنوب[(١٠)]، وترك ما يكمِّلها وينمِّيها، واستعمال ما يشينها ويدسِّيها.

﴿١١ ـ ١٥﴾ ﴿كذَّبت ثمود بطَغْواها﴾؛ أي: بسبب طغيانها وترفُّعها عن الحقِّ وعتوِّها على رسولهم[(١١)]، ﴿إذ انبعث أشقاها﴾؛ أي: أشقى القبيلة[(١٢)]، وهو قُدَار بن سالف؛ لعقرها؛ حين اتَّفقوا على ذٰلك وأمروه فائتمر لهم، ﴿فقال لهم

---

(١) في (ب): «وانتظام».
(٢) في (ب): «فباطل».
(٣) في (ب): «الذي هو الله تبارك وتعالى».
(٤) في (ب): «ونحو ذلك».
(٥) في (ب): «وجوه».
(٦) في (ب): «ذلك».
(٧) في (ب): «أن المراد بالإقسام».
(٨) في (ب): «التي حقيقة بالإقسام بها».
(٩) في (ب): «على هذا الوجه».
(١٠) في (ب): «والاقتراف للذنوب».
(١١) في (ب): «على رسول الله».
(١٢) انظر البخاري (٣٣٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥).

رسولُ اللهِ﴾: صالحٌ عليه السلام محذِّراً: ﴿ناقة الله وسُقْياها﴾؛ أي: احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آيةً عظيمةً، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها، فكذَّبوا نبيَّهم صالحاً، ﴿فعقروها فدمدم عليهم ربُّهم بذنبهم﴾؛ أي: دمَّر عليهم، وعمَّهم بعقابه، وأرسل عليهم الصَّيحة من فوقهم والرَّجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً، ﴿فسوَّاها﴾: عليهم؛ أي: سوَّى بينهم في العقوبة[1]، ﴿ولا يخاف عُقْباها﴾؛ أي: تبعتها. وكيف يخاف من هو قاهر لا يخرج عن قهره وتصرُّفه مخلوقٌ. الحكيم في كلِّ ما قضاه وشرعه.

[تمّت ولله الحمد].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة والليل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾[2] وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾
فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ
بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا
لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾
وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ
وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ هٰذا قسمٌ من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿والليلِ إذا يغشى﴾؛ أي: يعمُّ الخلق بظلامه، فيسكنُ كلٌّ إلى مأواه ومسكنه، ويستريحُ العباد من الكدِّ والتعب، ﴿والنَّهار إذا تجلَّى﴾: للخلق، فاستضاؤوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

﴿٣﴾ ﴿وما خلقَ الذَّكَرَ والأنثى﴾: إن كانت ﴿ما﴾ موصولةً؛ كان إقساماً بنفسه

---

(١) في (ب): «بالعقوبة».

(٢) في (أ) إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

الكريمة الموصوفة بكونه[١] خالق الذُّكور والإناث، وإن كانت مصدريَّة؛ كان قسماً بخلقه للذَّكر والأنثى، وكمال حكمته في ذٰلك؛ أن خلق من كلِّ صنفٍ من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكراً وأنثى؛ ليبقى النوع ولا يضمحلَّ، وقاد كلًّا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلًّا منهما مناسباً للآخر؛ فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿إنَّ سعيَكم لشتَّى﴾: هٰذا هو المقسم عليه؛ أي: إن سعيكم أيُّها المكلَّفون لمتفاوتٌ تفاوتاً كثيراً، وذٰلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال؛ هل هو وجه الله الأعلى الباقي، فيبقى العمل[٢] له ببقائه، وينتفع به صاحبه؟ أم هي غايةٌ مضمحلَّةٌ فانيةٌ؛ فيبطل السعي ببطلانها ويضمحلُّ باضمحلالها؟ وهٰذا كلُّ عملٍ يقصَد به غير وجه الله [تعالى] بهٰذا الوصف.

﴿٥ ـ ٧﴾ ولهٰذا فصَّل الله العاملين ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فأمَّا من أعطى﴾؛ أي: ما أمر به من العبادات الماليَّة كالزَّكوات والنَّفقات والكفَّارات[٣] والصَّدقات والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنيَّة كالصَّلاة والصوم وغيرهما[٤]، والمركَّبة من ذٰلك[٥] كالحجِّ والعمرة ونحوهما، ﴿واتَّقى﴾: ما نُهِي عنه من المحرَّمات والمعاصي على اختلاف أجناسها، ﴿وصدَّق بالحُسنى﴾؛ أي: صدَّق بلا إلٰه إلَّا الله، وما دلَّت عليه من [جميع] العقائد الدينيَّة وما ترتَّب عليها من الجزاء [الأخروي]، ﴿فسنيسِّره لليُسرى﴾؛ أي: نيسِّر له أمره ونجعله مسهَّلاً عليه[٦] كلُّ خيرٍ، ميسَّراً له ترك كلِّ شرٍّ؛ لأنَّه أتى بأسباب التيسير، فيسَّر الله له ذٰلك.

﴿٨ ـ ١٠﴾ ﴿وأمَّا مَن بَخِلَ﴾: بما أمِرَ به، فترك الإنفاق الواجب والمستحبَّ، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿واستغنى﴾: عن الله، فترك عبوديَّته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرةً غاية الافتقار إلى ربِّها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلَّا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها الذي تقصده وتتوجَّه إليه، ﴿وكذَّب بالحُسنى﴾؛

---

(١) في (ب): «بأنه».
(٢) في (ب): «السعي».
(٣) في (ب): «والكفارات والنفقات».
(٤) في (ب): «ونحوهما».
(٥) في (ب): «والمركبة منهما».
(٦) في (ب): «أي: نسهل عليه أمره ونجعله ميسَّراً له».

أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة، ﴿فسنيسّرهُ للعُسْرى﴾؛ أي: للحالة العسرة والخصال الذَّميمة؛ بأن يكون ميسَّراً للشرِّ أينما كان ومقيَّضاً له أفعالُ المعاصي. نسأل الله العافية.

﴿١١﴾ ﴿وما يُغني عنه مالُه﴾: الذي أطغاه واستغنى به وبخل به إذا هلك ومات؛ فإنَّه لا يصحب الإنسان[١] إلَّا عمله الصالح. وأمَّا ماله الذي لم يخرج منه الواجب؛ فإنَّه يكون وبالاً عليه؛ إذ لم يقدِّم منه لآخرته شيئاً.

﴿١٢﴾ ﴿إنَّ علينا لَلهُدى﴾؛ أي: إنَّ الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى الله ويدني من رضاه، وأمَّا الضَّلال؛ فطرقه مسدودةٌ عن الله، لا توصل صاحبها إلَّا للعذاب الشديد.

﴿١٣﴾ ﴿وإنَّ لنا للآخرةَ والأولى﴾: ملكاً وتصرُّفاً، ليس له فيهما مشاركٌ، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين.

﴿١٤ ـ ١٦﴾ ﴿فأنذرتُكم ناراً تلظَّى﴾؛ أي: تستعر وتتوقَّد، ﴿لا يصْلاها إلَّا الأشقى. الذي كذَّب﴾: بالخبر، ﴿وتولَّى﴾: عن الأمر.

﴿١٧ ـ ٢١﴾ ﴿وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي مالَه يتزكَّى﴾: بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس[٢]، قاصداً به وجه الله تعالى. فدلَّ هٰذا على أنَّه إذا تضمَّن الإنفاق المستحبُّ ترك واجبٍ كدينٍ ونفقةٍ ونحوهما؛ فإنَّه غير مشروع، بل تكون عطيَّتُه مردودةً عند كثيرٍ من العلماء؛ لأنَّه لا يتزكَّى بفعلٍ مستحبٍّ يفوِّتُ عليه الواجبَ، ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى﴾؛ أي: ليس لأحدٍ من الخلق على هٰذا الأتقى نعمةٌ تُجزى؛ إلَّا وقد كافأه عليها[٣]، وربَّما بقي له الفضل والمنَّة على الناس، فتمحَّض عبداً للَّه؛ لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقيت[٤] عليه نعمةُ الناس فلم يجزِها ويكافئها؛ فإنَّه لا بدَّ أن يترك للناس ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.

وهٰذه الآية وإن كانت متناولةً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت بسببه[٥]؛ فإنَّه رضي الله عنه ما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى، حتى ولا رسول

---

(١) في (ب): «فإنه لا يصحبه».
(٢) في (ب): «والعيوب».
(٣) في (ب): «بها».
(٤) في (ب): «بقي».
(٥) في (ب): «في سببه».

الله ﷺ؛ إلَّا نعمة الرسول، التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدعوة إلى دين الإسلام وتعليم الهدى ودين الحقِّ؛ فإنَّ لله ورسولهِ المنَّة على كلِّ أحدٍ، منةً لا يمكنُ لها جزاء ولا مقابلة؛ فإنَّها متناولةٌ لكلِّ من اتَّصف بهٰذا الوصف الفاضل. فلم يبقَ لأحدٍ عليه من الخلق نعمةٌ تُجْزى، فبقيت أعمالُه خالصةً لوجه الله تعالى، ولهٰذا قال: ﴿إلَّا ابتغاءَ وجهِ ربِّه الأعلى. ولَسوفَ يرضى﴾: هٰذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة والضحى

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ① وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②[1] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه؛ بالضُّحى، وبالليل ﴿إذا سجىٰ﴾ وادلهمَّت ظلمته؛ على اعتناء الله برسوله ﷺ، فقال: ﴿ما ودَّعك ربُّك﴾؛ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ ربَّاك ورعاك، بل لم يزل يربِّيك أكمل[2] تربيةٍ ويُعليك درجةً بعد درجةٍ، ﴿وما﴾: قلاكَ الله؛ أي: ما أبغضك منذ أحبَّك؛ فإنَّ نفي الضِّدِّ دليلٌ على ثبوت ضدِّه، والنفي المحض لا يكون مدحاً إلَّا إذا تضمَّن ثبوت كمال. فهٰذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمُّها، محبَّة الله له واستمرارها وترقيته في درجات[3] الكمال ودوام اعتناء الله به.

﴿٤﴾ وأمَّا حاله المستقبلة؛ فقال: ﴿وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى﴾؛ أي: كلُّ

---

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٢) في (ب): «أحسن». (٣) في (ب): «درج».

حالةٍ متأخِّرةٍ من أحوالك؛ فإنَّ لها الفضل على الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعد في درجات(١) المعالي، ويمكِّن اللَّه له(٢) دينه، وينصره على أعدائِه، ويسدِّده(٣) في أحواله، حتَّى مات وقد وصل إلى حال ما(٤) وصل إليها الأوَّلون والآخرون؛ من الفضائل والنِّعم وقرَّة العين وسرور القلب.

﴿٥﴾ ثمَّ بعد هٰذا لا تسأل عن حاله في الآخرةِ من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام، ولهٰذا قال: ﴿**ولَسوف يعطيكَ ربُّك فترضى**﴾: وهٰذا أمرٌ لا يمكن التعبير عنه إلَّا بهٰذه العبارة الجامعة الشاملة.

﴿٦ ـ ٨﴾ ثم امتنَّ عليه بما يعلمه من أحواله الخاصَّة(٥)، فقال: ﴿**ألَمْ يجدْكَ يتيماً فآوى**﴾؛ أي: وجدك لا أمَّ لك ولا أبَ، بل قد مات أبوه وأمُّه وهو لا يدبِّر نفسه، فآواه الله، وكفَّله جدَّه عبد المطلب، ثم لمَّا مات جدُّه؛ كفَّله الله عمَّه أبا طالب، حتى أيَّده [اللَّه] بنصره وبالمؤمنين، ﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾؛ أي: وجدك لا تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، فعلَّمك ما لم تكن تعلمُ، ووفَّقك لأحسن الأعمال والأخلاق. ﴿**ووجدك عائلاً**﴾؛ أي: فقيراً، فأغناكَ الله بما فتح(٦) عليك من البلدان، التي جُبيت لك أموالها وخراجها، فالذي أزال عنك هٰذه النقائص سيزيل عنك كلَّ نقصٍ، والذي أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك، قابلْ نعمته بالشُّكران.

﴿٩ ـ ١١﴾ ولهٰذا قال: ﴿**فأمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ**﴾؛ أي: لا تُسِىء معاملة اليتيم، ولا يَضِقْ صدرُك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسَّر، واصنع به كما تحبُّ أن يُصْنَعَ بولدك من بعدك، ﴿**وأمَّا السائلَ فلا تنهر**﴾؛ أي: لا يصدر منك كلامٌ للسائل(٧) يقتضي ردَّه عن مطلوبه بنَهْرٍ وشراسةِ خلقٍ، بل أعطه ما تيسَّر عندك، أو ردَّه بمعروفٍ وإحسانٍ. ويدخل في هٰذا(٨) السائل للمال والسائل للعلم، ولهٰذا كان المعلِّم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلِّم ومباشرته بالإكرام والتحنُّن عليه؛ فإنَّ في ذٰلك معونةً له على مقصده وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد،

---

(١) في (ب): «درج».
(٢) في (ب): «ويمكن له الله».
(٣) في (ب): «ويسدِّد له».
(٤) في (ب): «لا».
(٥) في (ب): «من الأحوال».
(٦) في (ب): «فأغنى بما فتح الله».
(٧) في (ب): «إلى السائل كلام».
(٨) في (ب): «وهذا يدخل فيه».

﴿وأمَّا بنعمة ربِّك فَحَدِّثْ﴾: وهٰذا يشمل النِّعم الدينيَّة والدنيويَّة[(١)]؛ أي: أَثْنِ على الله بها، وخُصَّها[(٢)] بالذِّكر إن كان هناك مصلحةٌ، وإلَّا؛ فحدِّث بنعم الله على الإطلاق؛ فإنَّ التحدُّث بنعمة الله داعٍ لشكرها وموجبٌ لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها؛ فإنَّ القلوب مجبولةٌ على محبَّة المحسن.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١[(٣)] وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

﴿١ ـ ٤﴾ يقول تعالى ممتنًّا على رسوله: ﴿ألم نشرحْ لك صدرَك﴾؛ أي: نوسِّعه لشرائع الدِّين والدَّعوة إلى الله والاتِّصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيِّقاً حرجاً لا يكاد ينقاد لخيرٍ ولا تكاد تجده منبسطاً، ﴿ووضعنا عنك وِزْرَك﴾؛ أي: ذنبك، ﴿الذي أنقَضَ﴾؛ أي: أثقل ﴿ظهرَكَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ليغفرَ لك اللهُ ما تقدَّم من ذنبِكَ وما تأخَّر﴾، ﴿ورفَعْنا لكَ ذِكْرَك﴾؛ أي: أعلينا قدرَك، وجعلنا لك الثَّناء الحسن العالي، الذي لم يصلْ إليه أحدٌ من الخلق؛ فلا يُذْكَرُ الله؛ إلَّا ذُكِر معه رسوله ﷺ؛ كما في الدُّخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب[(٤)]... وغير ذٰلك من الأمور التي أعلى الله بها ذِكر رسوله محمدٍ ﷺ، وله في قلوب أمَّته من المحبَّة والإجلال والتَّعظيم ما ليس لأحدٍ غيره بعد الله تعالى؛ فجزاه الله عن أمَّته أفضل ما جزى نبيًّا عن أمَّته.

---

(١) في (ب): «﴿وأما بنعمة ربك﴾ الدينية والدنيوية ﴿فحدّث﴾».

(٢) في (ب): «وخصصها».

(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٤) في (ب): «والخطبة».

﴿٥ ـ ٦﴾ وقوله: ﴿فإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً. إنَّ مع العُسْرِ يُسْراً﴾: بشارةٌ عظيمةٌ أنَّه كلَّما وُجِدَ عسرٌ وصعوبةٌ؛ فإنَّ اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضبٍّ؛ لدخل عليه اليسر فأخرجه؛ كما قال تعالى: ﴿سيجعل اللهُ بعدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾، وكما قال النبيُّ ﷺ: «وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسراً»[(١)].

وتعريف العسر في الآيتين[(٢)] يدلُّ على أنَّه واحدٌ، وتنكير اليسرِ يدلُّ على تكراره؛ فلن يغلب عسرٌ يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللَّام الدالِّ[(٣)] على الاستغراق والعموم يدل على أنَّ كلَّ عسرٍ وإنْ بلغ من الصعوبة ما بلغ؛ فإنَّه في آخره التيسير ملازمٌ له.

﴿٧ ـ ٨﴾ ثم أمر [اللَّهُ] رسوله أصلاً والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فإذا فرَغْتَ فانصَبْ﴾؛ أي: إذا تفرَّغْتَ من أشغالِك، ولم يبقَ في قلبكَ ما يعوقه؛ فاجتهدْ في العبادة والدُّعاء، ﴿وإلى ربِّك﴾: وحده ﴿فارغَبْ﴾؛ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول دعواتك[(٤)]، ولا تكنْ ممَّن إذا فرغوا[(٥)]؛ لعبوا وأعرضوا عن ربِّهم وعن ذِكْرِه، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إنَّ معنى هٰذا[(٦)]: فإذا فرغتَ من الصَّلاة وأكملتها؛ فانصب في الدُّعاء، وإلى ربِّك فارغبْ في سؤال مطالبك.

واستدلَّ من قال هٰذا القول على مشروعيَّة الدُّعاء والذِّكر عقب الصلوات المكتوبات. والله أعلم [وبذالك].

تمت. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

(١) جزء من وصية الرسول ﷺ لابن عباس. أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، والترمذي (٢٥١٦) وقال: «حديث حسن صحيح».
(٢) في (ب): «الآية».
(٣) في (ب): «الدالة».
(٤) في (ب): «وعبادتك».
(٥) في (ب): «إذا فرغوا وتفرغوا».
(٦) في (ب): «معنى قوله».

تفسير سورة والتين

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾[(1)] وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿**التين**﴾: هو التين المعروف، وكذلك ﴿**الزَّيتون**﴾؛ أقسم بهاتين الشجرتين؛ لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأنَّ سلطانهما في أرض الشام محلِّ نبوَّة عيسى ابن مريم عليه السلام، ﴿**وطورِ سينينَ**﴾؛ أي: طور سيناء محلِّ نبوَّة موسى عليه السلام[(2)]، ﴿**وهٰذا البلدِ الأمينِ**﴾: وهو مكَّة المكرَّمة محلُّ نبوَّة محمدٍ ﷺ. فأقسم تعالى بهٰذه المواضع المقدَّسة التي اختارها وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم[(3)].

﴿٤﴾ والمقسم عليه قوله: ﴿**لقد خَلَقْنا الإنسان في أحسنِ تقويم**﴾؛ أي: تامَّ الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد ممَّا يحتاج إليه ظاهراً وباطناً شيئاً.

﴿٥ ـ ٦﴾ ومع هٰذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها؛ فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللَّهو واللَّعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفساف الأخلاق، فردَّهم الله ﴿**في أسفل سافلين**﴾؛ أي: أسفل النَّار موضع العصاة المتمرِّدين على ربِّهم؛ إلَّا مَن منَّ الله عليه بالإيمان والعمل الصَّالح والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿**فلهم**﴾: بذٰلك المنازل العالية، و ﴿**أجرٌ غيرُ ممنونٍ**﴾؛ أي: غير مقطوع، بل لَذَّاتٌ متوافرةٌ وأفراحٌ متواترةٌ ونعمٌ متكاثرةٌ؛ في أبدٍ لا يزول، ونعيم لا يحول، أكُلُها دائمٌ وظلُّها.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿**فما يكذِّبك بعدُ بالدِّينِ**﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ يكذِّبك أيُّها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال؟ وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين[(4)]،

---

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٢) في (ب): «موسى ﷺ». (٣) في (ب): «أفضل النبوات وأشرفها».

(٤) في (ب): «ما به يحصل لك اليقين».

ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيءٍ منها[١]. ﴿أليس الله بأحكم الحاكمينَ﴾: فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدىً لا يُؤمرون ولا يُنهَوْن ولا يُثابون ولا يُعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوارٍ، وأوصل إليهم من النعم والخير والبرِّ ما لا يحصونه، وربَّاهم التربية الحسنة؛ لا بدَّ أن يعيدهم إلى دارٍ هي مستقرُّهم وغايتهم التي إليها يقصدون ونحوها يؤمُّون.

تمت. والحمد لله[٢].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة اقرأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ [٣] خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

﴿١﴾ هٰذه السُّورة أول السُّور القرآنيَّة نزولاً على رسول الله ﷺ؛ فإنَّها نزلت عليه في مبادىء النبوَّة؛ إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه [الصلاة و] السلام بالرِّسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع وقال: ما أنا بقارىءٍ! فلم يزل به حتى قرأ[٤]؛ فأنزل الله [عليه]: ﴿اقرأ باسمِ ربِّك الذي خَلَقَ﴾: عموم الخلق.

﴿٢﴾ ثم خصَّ الإنسان، وذكرَ ابتداءَ خلقِه ﴿من عَلَقٍ﴾؛ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لا بدَّ أن يدبِّره بالأمر والنَّهي، وذٰلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب[٥]،

---

(١) في (ب): «ممَّا أخبرك به». (٢) في (ب): «تمت. ولله الحمد».

(٣) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٤) تقدم تخريجه وهو في «الصحيحين».

(٥) في (ب): «بإرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتب عليهم».

ولهٰذا أتى[١] بعد الأمر بالقراءة بخلقه[٢] للإنسان.

﴿٣ ـ ٥﴾ ثم قال: ﴿اقرأ وربُّك الأكرمُ﴾؛ أي: كثير الصِّفات، واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علَّم أنواع العلوم[٣]، و ﴿علَّم بالقلم. علَّم الإنسانَ ما لَمْ يعلمْ﴾: فإنَّه تعالى أخرجه من بطن أمِّه لا يعلم شيئاً، وجعل له السَّمع والبصر والفؤاد، ويسَّر له أسباب العلم؛ فعلَّمه القرآن، وعلَّمه الحكمة، وعلَّمه بالقلم، [الذي به تُحفظ العلوم][٤] وتُضبط الحقوق، وتكون رسلاً للنَّاس تنوب منابَ خطابهم؛ فلله الحمد والمنَّة الذي أنعم على عباده بهٰذه النِّعم، التي لا يقدرون لها على جزاءٍ ولا شكورٍ، ثمَّ منَّ عليهم بالغنى وسعة الرزق.

﴿٦ ـ ٨﴾ ولٰكن الإنسان لجهله وظلمه؛ إذا رأى نفسه غنيًّا؛ طغى، وبغى، وتجبَّر عن الهدى، ونسي أنَّ لربِّه ﴿الرُّجعى﴾: ولم يخفِ الجزاء، بل ربَّما وصلت به الحال أنَّه يترك الهدى بنفسه ويدعو غيره إلى تركه، فينهى عن الصَّلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان.

﴿٩ ـ ١٤﴾ يقول الله لهٰذا المتمرِّد العاتي: ﴿أرأيتَ﴾: أيُّها الناهي للعبد إذا صلَّى، ﴿إنْ كانَ﴾: العبد المصلِّي ﴿على الهُدى﴾: العلم بالحقِّ والعمل به، ﴿أو أمر﴾: غيره ﴿بالتَّقوى﴾: فهل يحسُنُ أن يُنهى مَن هٰذا وصفه؟! أليس نهيه من أعظم المحادَّة لله والمحاربة للحقِّ؟! فإنَّ النَّهي لا يتوجَّه إلَّا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى، ﴿أرأيتَ إن كذَّبَ﴾: النَّاهي بالحقِّ، ﴿وتولَّى﴾: عن الأمر؟ أما يخاف الله ويخشى عقابه؟! ﴿ألَمْ يعلمْ بأنَّ اللهَ يرى﴾: ما يعمل ويفعل.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ثم توعَّده إن استمرَّ على حاله، فقال: ﴿[كلَّا] لئن لم ينتَهِ﴾: عمَّا يقول ويفعل، ﴿لَنَسْفَعَاً بالنَّاصيةِ﴾؛ أي؛ لَنأخُذنَّ بناصيته أخذاً عنيفاً، وهي حقيقةٌ بذٰلك؛ فإنَّها ﴿ناصيةٌ كاذبةٌ خاطئةٌ﴾؛ أي: كاذبةٌ في قولها، خاطئةٌ في فعلها.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿فَلْيَدْعُ﴾: هٰذا الذي حقَّ عليه العذابُ[٥] ﴿نادِيَهُ﴾؛ أي: أهل

---

(١) في (ب): «ذكر». (٢) في (ب): «خلقه».

(٣) في (ب): «أن علم بالعلم».

(٤) كذا في (ب). وفي (أ): «الذي به تحفظ به العلوم».

(٥) في (ب): «العقاب».

مجلسه وأصحابه ومن حوله ليُعينوه على ما نزل به، ﴿سَنَدْعو الزَّبانيةَ﴾؛ أي: خزنة جهنَّم لأخذه وعقوبته. فلينظر أيُّ الفريقين أقوى وأقدر. فهٰذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة.

﴿١٩﴾ وأمَّا حالة المنهيِّ؛ فأمره الله أن لا يصغي إلى هٰذا الناهي، ولا ينقاد لنهيه، فقال: ﴿كلَّا لا تُطِعْهُ﴾؛ أي: فإنَّه لا يأمر إلَّا بما فيه الخسار[١]، ﴿واسجُدْ﴾: لربِّك، ﴿واقْتَرِبْ﴾: منه في السُّجود وغيره من أنواع الطاعات والقُرُبات؛ فإنَّها كلها تدني من رضاه وتقرِّب منه. وهٰذا عامٌّ لكلِّ ناهٍ عن الخير ولكلِّ منهيٍّ عنه، وإن كانت نازلةً في شأنِ أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعذَّبه[٢] وآذاه.

تمت. والحمد لله رب العالمين[٣].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة القدر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾[٤] وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلوِّ قدره: ﴿إنَّا أنزَلْناهُ في ليلةِ القَدْرِ﴾: [كما قال تعالى: ﴿إنَّا أنزلناه في ليلةٍ مباركة﴾] وذٰلك أنَّ الله تعالى ابتدأ بإنزال القرآن[٥] في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمةً عامَّةً لا يقدر العباد لها شكراً، وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنَّه يقدِّر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريَّة.

---

(١) في (ب): «إلا بما فيه خسارة الدارين». (٢) في (ب): «وعبث به».
(٣) في (ب): «تمت. ولله الحمد».
(٤) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٥) في (ب): «بإنزاله».

﴿٢﴾ ثم فخَّم شأنها وعظَّم مقدارها، فقال: ﴿وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْرِ﴾؛ أي: فإنَّ شأنها جليلٌ، وخطرها عظيمٌ.

﴿٣﴾ ﴿ليلةُ القدرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ﴾؛ أي: تعادل من فضلها ألف شهرٍ، فالعمل الذي يقع فيها خيرٌ من العمل في ألف شهرٍ خاليةٍ منها، وهٰذا مما تتحيَّر فيه[1] الألباب، وتندهش له العقول؛ حيث منَّ [تبارك و] تعالى على هٰذه الأمَّة الضعيفة، القوَّة والقوى بليلةٍ يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمَّرٍ عمراً طويلاً نيفاً وثمانين سنةً.

﴿٤﴾ ﴿تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها﴾؛ أي: يكثر نزولهم فيها، ﴿من كلِّ أمرٍ﴾.

﴿٥﴾ ﴿سلامٌ هي﴾؛ أي: سالمةٌ من كل آفةٍ وشرٍّ، وذٰلك لكثرة خيرها، ﴿حتَّى مطلعِ الفجرِ﴾؛ أي: مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر[2]. وقد تواترت الأحاديث في فضلها[3]، وأنَّها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتاره، وهي باقيةٌ في كلِّ سنةٍ إلى قيام الساعة، ولهٰذا كان النبيُّ ﷺ يعتكف ويكثِرُ من التعبُّد في العشر الأواخر من رمضان رجاء ليلة القدر. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾[4] رَسُولٌ
مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا

---

(١) في (ب): «به».

(٢) في (ب): «أي: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر».

(٣) انظر «صحيح البخاري» كتاب فضل ليلة القدر. و«صحيح مسلم» باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها.

(٤) في (أ): طمس. وفي (ب) إلى آخر السورة.

ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿لم يكنِ الذينَ كَفروا من أهلِ الكتابِ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، ﴿والمشركين﴾: من سائر أصناف الأمم، ﴿مُنفكِّين﴾: عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه؛ أي: لا يزالون في غيِّهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور الأوقات[1] إلَّا كفراً، ﴿حتَّى تأتِيَهُم البيِّنةُ﴾: الواضحة والبرهان الساطع.

﴿٢ ـ ٣﴾ ثم فسَّر تلك البيِّنة، فقال: ﴿رسولٌ من اللهِ﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحقِّ، وأنزل عليه كتاباً يتلوه ليعلِّم الناس الحكمة ويزكِّيهم ويخرجَهم من الظُّلمات إلى النُّور، ولهٰذا قال: ﴿يتلو صُحُفاً مطهَّرةً﴾؛ أي: محفوظةً من[2] قربان الشياطين، لا يمسُّها إلَّا المطهَّرون؛ لأنَّها أعلى[3] ما يكون من الكلام، ولهٰذا قال عنها: ﴿فيها﴾؛ أي: في تلك الصُّحف ﴿كتبٌ قيِّمةٌ﴾؛ أي: أخبارٌ صادقةٌ وأوامرُ عادلةٌ تهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم؛ فإذا جاءتهم هٰذه البيِّنة؛ فحينئذٍ يتبيَّن طالب الحقِّ ممَّن ليس له مقصدٌ في طلبه، فيهلكُ مَن هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بيِّنةٍ.

﴿٤﴾ وإذا لم يؤمن أهل الكتاب بهٰذا الرسول وينقادوا له؛ فليس ذٰلك ببدع من ضلالهم وعنادهم؛ فإنَّهم ما تفرَّقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إلَّا من بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّنَةُ﴾: التي توجب لأهلها الاجتماع والاتِّفاق، ولٰكنَّهم لرداءتهم ونذالتهم لم يزدهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمىً.

﴿٥﴾ مع أنَّ الكتب كلَّها جاءت بأصل واحدٍ ودين واحدٍ؛ فما ﴿أُمِروا﴾ في سائر الشرائع، إلا أن يعبدوا ﴿اللهَ مخلصين له الدِّين﴾؛ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظَّاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزُّلفى لديه، ﴿حنفاءَ﴾؛ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التَّوحيد، وخصَّ الصلاة والزَّكاة بالذِّكر مع أنَّهما داخلان في قوله: ﴿ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾؛ لفضلهما وشرفهما

---

(١) في (ب): «السنين».
(٢) في (ب): «عن».
(٣) في (ب): «لأنها في أعلى».

وكونهما العبادتين اللتين مَن قام بهما قام بجميع شرائع الدين. ﴿وذٰلك﴾؛ أي: التَّوحيد والإخلاص في الدِّين هو ﴿دين القيِّمة﴾؛ أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنَّات النَّعيم، وما سواه فطرقٌ موصلةٌ إلى الجحيم.

﴿٦﴾ ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البيِّنة، فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا من أهل الكتابِ والمشركينَ في نارِ جهنَّم﴾: قد أحاط بهم عذابها، واشتدَّ عليهم عقابها، ﴿خالدين فيها﴾: لا يُفتَّر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون. ﴿أولٰئك هم شرُّ البريَّة﴾: لأنَّهم عرفوا الحقَّ، وتركوه، وخسروا الدُّنيا والآخرة.

﴿٧﴾ ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات أولٰئك هم خيرُ البريَّة﴾: لأنَّهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدُّنيا والآخرة.

﴿٨﴾ ﴿جزاؤهم عند ربِّهم جناتُ عدنٍ﴾؛ أي: جناتُ إقامةٍ لا ظعن فيها ولا رحيل ولا طلب لغايةٍ فوقَها، ﴿تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً رضيَ الله عنهم ورضوا عنه﴾: فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه بما أعدَّ لهم من أنواع الكرامات [وجزيل المثوبات]. ﴿ذٰلك﴾: الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خشيَ ربَّه﴾؛ أي: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه، وقام بما أوجب عليه[(١)].

تمت. والحمد لله.

❀ ❀ ❀

تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾[(٢)] وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يخبر تعالى عمَّا يكون يوم القيامة، وأنَّ الأرض تتزلزل وترجف وترتجُّ

---

(١) في (ب): «وقام بواجباته».

(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

حتى يسقطَ ما عليها من بناءٍ ومَعْلَم[١]، فتندكُّ جبالها، وتسوَّى تلالُها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمتا، ﴿وأخرجت الأرضُ أثقالها﴾؛ أي: ما في بطنها من الأموات والكنوز.

﴿٣﴾ ﴿وقال الإنسان﴾: إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم [مستعظمًا لذلك]: ﴿ما لها﴾؛ أي: أيُّ شيء عرض لها؟!

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿يومئذٍ تحدِّث﴾: الأرض ﴿أخبارَها﴾؛ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خيرٍ وشرٍّ؛ فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم. ذٰلك ﴿بأنَّ ربَّك أوحى لها﴾؛ أي[٢]: أمرها أن تخبر بما عمل عليها؛ فلا تعصي[٣] لأمره.

﴿٦﴾ ﴿يومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ﴾: من موقف القيامة [حين يقضي اللَّهُ بينهم] ﴿أشتاتاً﴾؛ أي: فرقاً متفاوتين، ﴿لِيُرَوْا أعمالَهم﴾؛ أي: ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات[٤]، ويريهم جزاءه موفراً.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿فمَن يعملْ مثقال ذرَّةٍ خيراً يَرَهُ. ومَن يعملْ مثقال ذرَّةٍ شرًّا يَرَهُ﴾: وهٰذا شامل عامٌّ للخير والشرِّ كلِّه؛ لأنَّه إذا رأى مثقال الذَّرَّة التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها؛ فما فوق ذٰلك من باب أولى وأحرى؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ من خيرٍ محضَراً وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً﴾، ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾، وهٰذا فيه الترغيب[٥] في فعل الخير، ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر، ولو حقيراً.

تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾[٦] فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾

(١) في (ب): «وَعَلَم».
(٢) في (ب): «و».
(٣) في (ب): «ولا تستعصي».
(٤) في (ب): «من الحسنات والسيئات».
(٥) في (ب): «وهذه الآية فيها غاية الترغيب».
(٦) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

﴿١﴾ أقسم [الله تبارك و] تعالى بالخيل؛ لما فيها من آياتِه[١] الباهرة ونِعَمِه الظَّاهرة ما هو معلومٌ للخلق، وأقسم تعالى بها في الحال التي لا يشاركُها فيه غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿والعادياتِ ضَبْحاً﴾؛ أي: العاديات عدواً بليغاً قويًّا يصدر عنه الضَّبحُ، وهو صوت نَفَسها في صدرها عند اشتداد عَدْوها[٢].

﴿٢﴾ ﴿فالمورياتِ﴾: بحوافرهنَّ ما يطأنَ عليه من الأحجار، ﴿قَدْحاً﴾؛ أي: تنقدح[٣] النار من صلابة حوافرهنَّ وقوتهنَّ إذا عَدَوْنَ.

﴿٣﴾ ﴿فالمغيراتِ﴾: على الأعداء، ﴿صبحاً﴾: وهٰذا أمرٌ أغلبيٌّ أنَّ الغارة تكون صباحاً.

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿فأثرنَ به﴾؛ أي: بعدوهنَّ وغارتهنَّ، ﴿نقعاً﴾؛ أي: غباراً، ﴿فوسطن به﴾؛ أي: براكبهنَّ ﴿جمعاً﴾؛ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

﴿٦﴾ والمقسَم عليه قوله: ﴿إنَّ الإنسانَ لربِّه لَكَنودٌ﴾؛ أي: منوعٌ للخير الذي لله عليه[٤]؛ فطبيعة الإنسان وجِبِلَّتُه أنَّ نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها[٥] من الحقوق الماليَّة والبدنيَّة؛ إلَّا مَن هداه الله وخرج عن هٰذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

﴿٧﴾ ﴿وإنَّه على ذٰلك لَشهيدٌ﴾؛ أي: إن الإنسانَ على ما يعرفُ من نفسه من المنع والكَنَد لشاهدٌ بذٰلك لا يجحده ولا ينكره؛ لأنَّ ذٰلك [أمرٌ] بيِّن واضحٌ، ويحتمل أنَّ الضمير عائدٌ إلى الله [تعالى]؛ أي: إنَّ العبد لربِّه لكنودٌ، والله شهيدٌ على ذٰلك؛ ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمَن هو لربِّه كنودٌ بأنَّ الله عليه شهيدٌ.

---

(١) في (ب): «آيات الله».
(٢) في (ب): «العدو».
(٣) في (ب): «تقدح».
(٤) في (ب): «المنوع للخير الذي عليه لربه».
(٥) في (ب): «عليه».

﴿٨﴾ ﴿وإنه﴾؛ أي: الإنسان ﴿لحبِّ الخير﴾؛ أي: المال، ﴿لشديدٌ﴾؛ أي: كثير الحبِّ للمال، وحبُّه لذلك هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه؛ قدَّمَ شهوة نفسه على رضا[1] ربِّه، وكلُّ هذا لأنَّه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة.

﴿٩ ـ ١٠﴾ ولهذا قال حاثًّا له على خوف يوم الوعيد: ﴿أفلا يعلمُ﴾؛ أي: هلاّ يعلم هذا المغتر، ﴿إذا بُعْثِرَ ما في القبورِ﴾؛ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم، ﴿وحُصِّل ما في الصُّدور﴾؛ أي: ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشرِّ، فصار السرُّ علانيةً والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿١١﴾ ﴿إنَّ ربَّهم بهم يومئذٍ لخبيرٌ﴾؛ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفيَّة والجليَّة، ومجازيهم عليها، وخصَّ خبرهم[2] بذلك اليوم مع أنه خبيرٌ بهم كلَّ وقتٍ؛ لأنَّ المراد بهذا الجزاء على الأعمال[3] الناشىء عن علم الله واطِّلاعه.

* * *

تفسير سورة القارعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢[4] وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿القارعة﴾: من أسماء يوم القيامة، سمِّيت بذلك لأنَّها تقرع الناس وتزعِجهم

(١) في (ب): «حق». (٢) في (ب): «خبره».
(٣) في (ب): «لأنَّ المراد بذلك الجزاء بالأعمال».
(٤) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

بأهوالها، ولهٰذا عظَّم أمرها وفخَّمه بقوله: ﴿القارعةُ. ما القارعةُ. وما أدراكَ ما القارعةُ﴾.

﴿٤﴾ ﴿يومَ يكونُ الناسُ﴾: من شدَّة الفزع والهول، ﴿كالفراشِ المبثوثِ﴾؛ أي: كالجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض، والفراش هي الحيوانات التي تكون في الليل يموج بعضها ببعض، لا تدري أين توجَّه؛ فإذا أوقد لها نارٌ؛ تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهٰذه حال الناس أهل العقول.

﴿٥﴾ وأما الجبال الصمُّ الصلابُ؛ فتكون ﴿كالعهنِ المنفوشِ﴾؛ أي: كالصُّوف المنفوش الذي بقي ضعيفاً جدًّا تطير به أدنى ريح؛ قال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبُها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحابِ﴾، ثم بعد ذٰلك تكون هباءً منثوراً، فتضمحلُّ ولا يبقى منها شيءٌ يشاهَد. فحينئذٍ تُنصَبُ الموازينُ، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء:

﴿٦ ـ ٧﴾ ﴿فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازينُه﴾؛ أي: رجحت حسناتُه على سيئاتِه، ﴿فهو في عيشةٍ راضيةٍ﴾: في جنَّات النعيم.

﴿٨ ـ ١١﴾ ﴿وأمَّا من خفَّت مَوازينُه﴾: بأن لم تكنْ له حسناتٌ تقاوم سيئاتِه، ﴿فأمُّه هاويةٌ﴾؛ أي: مأواهُ ومسكنُه النارُ التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأمِّ الملازمة؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ عذابَها كانَ غَراماً﴾. وقيل: إنَّ معنى ذٰلك: فأمُّ دماغه هاويةٌ في النار؛ أي: يُلقى في النار على رأسه، ﴿وما أدراكَ ما هِيَهْ﴾: وهٰذا تعظيمٌ لأمرها. ثم فسَّرها بقوله: ﴿نارٌ[1] حاميةٌ﴾؛ أي: شديدةُ الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة ألهاكم التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ[2] ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

---

(١) في (ب): «بقوله: هي نار».

(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿١﴾ يقول تعالى موبِّخاً عباده عن اشتغالهم عمَّا خُلِقوا له من عبادته وحده لا شريك له ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبَّته على كلِّ شيءٍ: ﴿أَلْهاكُمُ﴾: عن ذٰلك المذكور، ﴿التَّكاثُرُ﴾: ولم يذكر المُتَكاثَرَ به؛ ليشمل ذٰلك كلَّ ما يَتَكاثَرُ به المتكاثرون ويفتخر به المفتخرون؛ من [التكاثر في] الأموال والأولاد والأنصار والجُنود والخدم والجاه وغير ذٰلك ممَّا يقصد منه مكاثرة كلِّ واحدٍ للآخر، وليس المقصود منه وجه الله(١).

﴿٢﴾ فاستمرَّت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم ﴿حتَّى زُرْتُمُ المقابرَ﴾: فانكشف حينئذٍ لكم(٢) الغطاءُ، ولٰكنْ بعدَما تعذَّر عليكم استئنافه. ودلَّ قولُه: ﴿حتَّى زرتُم المقابر﴾: أنَّ البرزخ دارٌ المقصود منها النفوذ إلى الدار الآخرة(٣)؛ لأن الله سمَّاهم زائرين، ولم يسمِّهم مقيمين، فدلَّ ذٰلك على البعث والجزاء على الأعمال(٤) في دار باقيةٍ غير فانيةٍ.

﴿٣ ـ ٦﴾ ولهٰذا توعَّدهم: ﴿كلَّا سوف تعلمون. ثم كلَّا سوف تعلمون. كلَّا لو تعلمونَ علمَ اليقينِ﴾؛ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصلُ إلى القلوب؛ لما ألهاكم التَّكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة، ولٰكن عدم العلم الحقيقيِّ صيَّركم إلى ما ترون، ﴿لَتَرَوُنَّ الجحيم﴾؛ أي: لَتَرِدُنَّ القيامة، فلَتَرَوُنَّ الجحيم التي أعدَّها الله للكافرين.

﴿٧﴾ ﴿ثمَّ لَتَرَوُنَّها عين اليقين﴾؛ أي: رؤيةً بصريةً؛ كما قال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النَّارَ فظَنُّوا أنَّهم مُواقِعوها ولَمْ يَجِدوا عنها مَصْرِفاً﴾.

﴿٨﴾ ﴿ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن النَّعيم﴾: الذي تنعَّمتم به في دار الدُّنيا؛ هل قمتم بشكره، وأدَّيتم حقَّ الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه؛ فينعِّمكم نعيماً أعلى منه وأفضل؟ أم اغتررتُم به، ولم تقوموا بشكره، بل ربَّما استعنتم به على المعاصي(٥)؛ فيعاقبكم على ذٰلك؟ قال تعالى: ﴿ويومَ يُعْرَضُ الذين كفروا على النارِ أَذْهَبْتُم طيباتِكم في حياتكم الدُّنيا واستمتعتم بها فاليوم تُجْزَوْنَ عذاب الهُونِ...﴾ الآية.

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى».
(٢) في (ب): «لكم حينئذٍ».
(٣) في (ب): «إلى الدار الباقية».
(٤) في (ب): «بالأعمال».
(٥) في (ب): «معاصي الله».

تفسير سورة والعصر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم؛ أن كلَّ إنسانٍ خاسرٌ، والخاسر ضدُّ الرابح، والخسار مراتبُ متعدِّدةٌ متفاوتةٌ: قد يكون خساراً مطلقاً؛ كحال من خسر الدُّنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحقَّ الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعضٍ، ولهٰذا عمَّم اللهُ الخسار لكلِّ إنسانٍ؛ إلَّا مَن اتَّصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر اللّه بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم؛ فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهٰذا شاملٌ لأفعال الخير كلِّها، الظاهرة والباطنة، المتعلِّقة بحقوق[1] الله وحقوق[1] عباده، الواجبة والمستحبَّة.

والتَّواصي بالحقِّ الذي هو الإيمان والعمل الصالح؛ أي: يوصي بعضُهم بعضاً بذٰلك، ويحثُّه عليه، ويرغِّبه فيه.

والتَّواصي بالصَّبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين يكمِّل العبد[2] نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد[2] قد سلم من الخسار وفاز بالرِّبح العظيم.

❋ ❋ ❋

(١) في (ب): «حق».

(٢) في (ب): «الإنسان».

تفسير سورة الهمزة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

﴿١﴾ **﴿ويلٌ﴾**؛ أي: وعيدٌ ووبالٌ وشدَّة عذابٍ، **﴿لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾**؛ أي: الذي يهمز الناس بفعله ويلمزهم بقوله؛ فالهمَّاز: الذي يَعيبُ الناس ويطعُنُ عليهم بالإشارة والفعل، واللَّمَّاز: الذي يعيبهم بقوله.

﴿٢﴾ ومن صفة هٰذا الهمَّازِ [اللَّمَّازِ] أنَّه لا همَّ له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبةٌ في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذٰلك.

﴿٣﴾ **﴿يحسبُ﴾**: بجهله **﴿أنَّ ماله أخلَدَهُ﴾**: في الدُّنيا، فلذٰلك كان كدُّه وسعيه [كلُّه] في تنمية ماله، الذي يظنُّ أنَّه ينمي عمره، ولم يدرِ أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البرَّ يزيد في العمر.

﴿٤ ـ ٧﴾ **﴿كلَّا لَيُنبذَنَّ﴾**؛ أي: ليطرحنَّ[(١)] **﴿في الحُطَمَةِ. وما أدراك ما الحُطَمَةُ﴾**: تعظيمٌ لها وتهويلٌ لشأنها. ثم فسَّرها بقوله: **﴿نار الله الموقَدة﴾**: التي وقودها الناس والحجارة، **﴿التي﴾**: من شدَّتها **﴿تطَّلع على الأفئدة﴾**؛ أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

﴿٨﴾ ومع هٰذه الحرارة البليغة، هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهٰذا قال: **﴿إنَّها عليهم مؤصدةٌ﴾**؛ أي: مغلقة، **﴿في عَمَدٍ﴾**: من خلف الأبواب، **﴿ممدَّدةٍ﴾**: لئلا يخرجوا منها؛ ﴿كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾، نعوذ بالله من ذٰلك، ونسأله العفو والعافية.

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «يطرحن».

تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ أي: أما رأيتَ من قدرة الله وعظيم شأنه ورحمته بعباده وأدلَّة توحيده وصدق رسوله [محمدٍ] ﷺ ما فعله اللهُ بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيتَه الحرام، وأرادوا إخرابه؛ فتجهَّزوا لأجل ذٰلك، واستصحبوا معهم الفِيَلَةَ لهدمه، وجاؤوا بجمعٍ لا قِبَلَ للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهَوْا إلى قربِ مكَّةَ ـ ولم يكن بالعرب مدافعةٌ، وخرج أهل مكَّة من مكَّة خوفاً [على أنفسهم] منهم ـ أرسل الله عليهم طيراً أبابيلَ؛ أي: متفرِّقة، تحمل أحجاراً[1] محمَّاة من سِجِّيلٍ، فرمتْهم بها، وتتبَّعَتْ قاصِيَهم ودانِيَهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصفٍ مأكولٍ، وكفى الله شرَّهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، وقصَّتُهم معروفةٌ مشهورةٌ، وكانت تلك السنة التي وُلِدَ فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته وأدلَّة[2] رسالته. فلله الحمد والشكر.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

﴿١ ـ ٤﴾ قال كثيرٌ من المفسِّرين: إنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل؛ لأجل قريشٍ وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن وفي الصيف للشام لأجل التِّجارة والمكاسب.

---

(١) في (ب): «حجارة».

(٢) في (ب): «ومقدِّمات».

فأهلك الله من أرادهم بسوءٍ، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أيِّ سفرٍ أرادوا، ولهٰذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فليَعبُدوا ربَّ هٰذا البيتِ﴾؛ أي: ليوحِّدوه ويُخلِصوا له العبادة، ﴿الذي أطعَمَهُم من جوعٍ وآمَنَهُم من خوفٍ﴾: فرغدُ الرِّزق والأمن من الخوف[1] من أكبر النِّعم الدنيويَّة الموجبة لشكر الله تعالى. فلك اللهمَّ الحمد والشُّكر على نعمك الظَّاهرة والباطنة. وخصَّ الله الربوبيَّة بالبيت[2] لفضله وشرفه، وإلَّا؛ فهو ربُّ كلِّ شيءٍ.

* * *

تفسير سورة الماعون

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى ذامًّا لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أرأيتَ الذي يُكذِّبُ بالدِّين﴾؛ أي: بالبعث والجزاء؛ فلا يؤمن بما جاءت به الرُّسل.

﴿٢﴾ ﴿فذٰلك الذي يَدُعُّ اليتيمَ﴾؛ أي: يدفعه بعنفٍ وشدَّةٍ، ولا يرحمه؛ لقساوة قلبه، ولأنَّه لا يرجو ثواباً ولا يخاف[3] عقاباً.

﴿٣﴾ ﴿ولا يحضُّ﴾: غيره ﴿على طعام المسكينِ﴾: ومن باب أولى أنَّه بنفسه لا يطعم المسكين.

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿فويلٌ للمصلِّينَ﴾؛ أي: الملتزمين[4] لإقامة الصلاة، ولٰكنهم ﴿عن صلاتهم ساهونَ﴾؛ أي: مضيِّعون لها، تاركون لوقتها، مُخِلُّون[5] بأركانها، وهٰذا لعدم اهتمامهم بأمر الله؛ حيث ضيَّعوا الصلاة التي هي أهمُّ الطاعات، والسَّهو عن

---

(١) في (ب): «من المخاوف».
(٢) في (ب): «بالربوبية البيت».
(٣) في (ب): «ولا يخشى».
(٤) في (ب): «أي: الذين ملتزمون».
(٥) في (ب): «مفوّتون».

الصَّلاة هو الذي يستحقُّ صاحبه الذمَّ واللوم[١]، وأمَّا السَّهو في الصَّلاة؛ فهٰذا يقع من كلِّ أحدٍ، حتَّى من النبيِّ ﷺ[٢].

ولهٰذا وصف الله هٰؤلاء بالرِّياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿الذين هم يراؤون﴾؛ أي: يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس، ﴿ويمنعون الماعون﴾؛ أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضرُّ إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة؛ كالإناء والدَّلو والفأس ونحو ذٰلك ممَّا جرت العادة ببذله والسَّماح به[٣]، فهٰؤلاء لشدَّة حرصهم يمنعون الماعون؛ فكيف بما هو أكثر منه؟!

وفي هٰذه السورة الحثُّ على إطعام[٤] اليتيم والمساكين، والتَّحضيض على ذٰلك، ومراعاة الصَّلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها، وفي سائر الأعمال[٥]، والحثُّ على فعل المعروف، وبذل الأمور الخفيفة كعارية الإناء والدَّلو والكتاب ونحو ذٰلك؛ لأنَّ الله ذمَّ من لم يفعل ذٰلك. والله سبحانه أعلم[٦].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

﴿١﴾ يقول الله تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ [ممتنًا عليه]: ﴿إنَّا أعطيناك الكوثر﴾؛ أي: الخير الكثير والفضل الغزير، الذي من جملته ما يعطيه اللهُ لنبيِّه ﷺ [يوم القيامة] من النهر الذي يقال له: الكوثر[٧]، ومن الحوض[٨]؛ طولُه شهرٌ وعرضُه

---

(١) في (ب): «الذم والوعيد».
(٢) كما في «صحيح البخاري» (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث ابن مسعود أنه ﷺ قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني».
(٣) في (ب): «والسماحة بها».
(٤) في (ب): «إكرام».
(٥) في (ب): «وعلى الإخلاص في جميع الأعمال».
(٦) في (ب): «والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. والحمد لله رب العالمين».
(٧) كما في «صحيح مسلم» (٤٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٨) في (ب): «ومن الحوض الذي يقال له الكوثر».

شهرٌ، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء[١] في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربةً؛ لم يظمأ بعدها أبداً[٢].

﴿٢﴾ ولمَّا ذكر مِنَّتَه عليه؛ أمَرَهُ بشكرها، فقال: ﴿فصلِّ لربِّك وانْحَر﴾: خصَّ هاتين العبادتين بالذِّكر؛ لأنَّهما أفضل[٣] العبادات وأجلُّ القربات، ولأنَّ الصلاة تتضمَّن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقله[٤] في أنواع العبوديَّة، وفي النحر تقرُّبٌ إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراجٌ للمال الذي جُبِلَت النُّفوس على محبَّته والشُّحِّ به.

﴿٣﴾ ﴿إنَّ شانِئَكَ﴾؛ أي: مبغضك وذامَّك ومتنقصك، ﴿هو الأبتر﴾؛ أي: المقطوع من كلِّ خيرٍ؛ مقطوعُ العمل، مقطوعُ الذِّكر، وأمَّا محمدٌ ﷺ؛ فهو الكامل حقًّا، الذي له الكمال الممكن للمخلوق[٥] من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

* * *

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ أي: قلْ للكافرين معلناً ومصرِّحاً: ﴿لا أعبُدُ ما تعبُدون﴾؛ أي: تبرَّأ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهراً وباطناً. ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبُدُ﴾: لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله[٦]؛ فعبادتُكم له المقترنةُ بالشِّرك لا تسمَّى عبادةً. وكرَّر ذلك ليدلَّ الأوَّل على عدم وجود الفعل، والثاني على أنَّ ذلك قد صار وصفاً

---

(١) في (ب): «أوانيه كنجوم السماء».
(٢) كما في «صحيح مسلم» (٢٣٠٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٣) في (ب): «من أفضل». (٤) في (ب): «وتنقلها».
(٥) في (ب): «في حق المخلوق». (٦) في (ب): «لله في عبادتكم».

لازماً، ولهٰذا ميَّز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿لكم دينُكم وليَ دينِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿قلْ كلٌّ يَعْمَلُ على شاكِلَتِه﴾؛ أنتم بريئون ممَّا أعمل، وأنا بريءٌ ممَّا تعملون.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة النصر

وهي مدنية[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ في هٰذه السورة الكريمة: بشارةٌ، وأمرٌ لرسوله عند حصولها، وإشارةٌ، وتنبيهٌ على ما يترتَّب على ذٰلك:

فالبشارةُ هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكَّة، ودخول الناس ﴿في دين الله أفواجاً﴾ بحيث يكون كثيرٌ منهم من أهله وأنصاره بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هٰذا المبشَّر به.

وأما الأمر بعد حصول النَّصر والفتح؛ فأمر [اللَّهُ] رسولَه أن يشكره[٢] على ذٰلك، ويسبِّح بحمده، ويستغفره.

وأما الإشارة؛ فإن في ذٰلك إشارتين: إشارة أنَّ النَّصر يستمرُّ للدين[٣] ويزداد عند حصول التَّسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله؛ فإن هٰذا من الشُّكر، والله يقول: ﴿لئن شكرتُمْ لأزيدَنَّكم﴾: وقد وُجِدَ ذٰلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هٰذه الأمَّة، لم يزل نصر الله مستمرًّا حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دينٌ من الأديان، ودخل فيه من لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتُلوا[٤] بتفرُّق الكلمة وتشتُّت الأمر، فحصل ما حصل، ومع هٰذا؛ فلهٰذه الأمَّة وهٰذا الدِّين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

---

(١) في (أ): «مكية». (٢) في (ب): «أن يشكر ربَّه».

(٣) في (ب): «إشارة لأنْ يستمرَّ النصر لهذا الدين».

(٤) في (ب): «فابتلاهم الله».

وأما الإشارة الثانية؛ فهي الإشارة إلى أنَّ أجلَ رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذٰلك أنَّ عمره عمرٌ فاضلٌ، أقسم الله به، وقد عُهِدَ أنَّ الأمور الفاضلة تُخْتَم بالاستغفار؛ كالصلاة والحجِّ وغير ذٰلك، فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هٰذه الحال إشارةٌ إلى أنَّ أجله قد انتهى؛ فلْيستعدَّ ويتهيَّأ للقاء ربِّه ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه، فكان [ﷺ] يتأوَّل القرآن ويقول ذٰلك في صلاته؛ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهمَّ! اغفر لي»[1].

❋ ❋ ❋

تفسير سورة تبت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

أبو لهبٍ هو عمُّ النبيِّ ﷺ، وكان شديد العداوة والأذيَّة له[2]؛ فلا فيه دين له، ولا حميَّةٌ للقرابة، قبَّحه الله، فذمَّه الله بهٰذا الذَّمِّ العظيم، الذي هو خزيٌ عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿١﴾ ﴿تبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ﴾؛ أي: خسرت يداه وشقي، ﴿وتبَّ﴾: فلم يربح.

﴿٢﴾ ﴿ما أغنى عنه مالُه﴾: الذي كان عنده؛ فأطغاه[3]، ولا ﴿ما كسبَ﴾: فلم يردَّ عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به.

﴿٣ ـ ٥﴾ ﴿سيصلى ناراً ذات لهبٍ﴾؛ أي: ستحيط به النَّار من كلِّ جانبٍ، هو ﴿وامرأتُه حَمَّالةَ الحطبِ﴾: وكانت أيضاً شديدة الأذيَّة لرسول الله ﷺ؛ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشرَّ، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذيَّة الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها الأوزار[4]؛ بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعدَّ له

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٦٧ و ٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤) عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) في (ب): «للنبي ﷺ». (٣) في (ب): «وأطغاه».
(٤) في (ب): «من الأوزار».

في عنقه حبلاً ﴿من مسدٍ﴾؛ أي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلِّدةً في عنقها حبلاً من مسدٍ.

وعلى كلٍّ؛ ففي هٰذه السورة آيةٌ باهرةٌ من آيات الله؛ فإنَّ الله أنزل هٰذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنَّهما سيعذَّبان في النار ولا بدَّ، ومن لازم ذٰلك أنَّهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

* * *

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه: ﴿هو اللَّه أحدٌ﴾؛ أي: قد انحصرت فيه الأحديَّة؛ فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدَّسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿٢﴾ ﴿اللهُ الصمدُ﴾؛ أي: المقصود في جميع الحوائج؛ فأهل العالم العلويِّ والسفليِّ مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونَه حوائجَهم، ويرغبون إليه في مهمَّاتهم؛ لأنَّه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي [قد] كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته، الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ... وهٰكذا سائر أوصافه.

﴿٣﴾ ومن كماله أنَّه ﴿لم يَلِدْ ولم يولَدْ﴾؛ لكمال غناه.

﴿٤﴾ ﴿ولم يكن له كُفُواً أحدٌ﴾: لا في أسمائه، ولا في صفاته[١]، ولا في أفعاله؛ تبارك وتعالى.

فهٰذه السورة مشتملةٌ على توحيد الأسماء والصفات.

* * *

(١) في (ب): «أوصافه».

تفسير سورة الفلق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قل﴾: متعوِّذاً: ﴿أعوذُ﴾؛ أي: ألجأ وألوذُ وأعتصمُ، ﴿بربِّ الفلق﴾؛ أي: فالق الحبِّ والنَّوى، وفالق الأصباح.

﴿٢﴾ ﴿من شرِّ ما خلَقَ﴾: وهٰذا يشمل جميع ما خلق الله من إنسٍ وجنٍّ وحيوانات؛ فيستعاذ بخالقها من الشرِّ الذي فيها.

﴿٣﴾ ثم خصَّ بعدما عمَّ، فقال: ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ﴾؛ أي: من شرِّ ما يكون في الليل حين يغشى النَّاسَ، وتنتشر فيه كثيرٌ من الأرواح الشرِّيرة والحيوانات المؤذية.

﴿٤﴾ ﴿ومن شرِّ النَّفَّاثات في العقد﴾؛ أي: ومن شرِّ السَّواحر اللاتي يَسْتَعِنَّ على سحرهنَّ بالنَّفْثِ في العقد التي يَعْقِدْنَها على السحر.

﴿٥﴾ ﴿ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ﴾: والحاسدُ هو الذي يحبُّ زوال النِّعمة عن المحسود؛ فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شرِّه وإبطال كيده. ويدخل في الحاسد العاينُ؛ لأنَّه لا تصدر العين إلَّا من حاسدٍ شرِّيرِ الطبع خبيث النفس.

فهٰذه السورة تضمَّنت الاستعاذة من جميع أنواع الشُّرور عموماً وخصوصاً، ودلَّت على أنَّ السِّحر له حقيقةٌ؛ يُخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله.

❊ ❊ ❊

تفسير سورة الناس

وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ④ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ⑥﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ وهٰذه السورة مشتملةٌ على الاستعاذة بربِّ النَّاس ومالكهم وإلٰههم من الشيطان، الذي هو أصل الشُّرور كلِّها ومادتها، الذي من فتنته وشرِّه أنَّه يوسوس في صدور النَّاس؛ فيحسِّن لهم الشرَّ، ويريهم إيَّاه في صورة حسنةٍ، وينشِّط إرادتهم لفعله، ويثبِّطهم عن الخير[1]، ويريهم إيَّاه في صورةٍ غير صورتِه، وهو دائماً بهٰذه الحال، يوسوس ثم يخنُسُ؛ أي: يتأخَّر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربَّه واستعان [به] على دفعه؛ فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبيَّة الله للناس كلِّهم، وأنَّ الخلق كلَّهم داخلون تحت الرُّبوبيَّة والملك، فكلُّ دابَّةٍ هو آخذٌ بناصيتها، وبألوهيَّته التي خلقهم لأجلها؛ فلا تتمُّ لهم إلَّا بدفع شرِّ عدوِّهم الذي يريد أن يقتَطِعَهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبِه؛ لِيكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجنِّ يكون من الإنس، ولهٰذا قال: ﴿من الجِنَّةِ والنَّاسِ﴾.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبنا التي حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته، ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشرِّ ما عندنا؛ فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا الضَّالُّون[2]، وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه على يد جامعه وكاتبه عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي. [غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين].

(١) في (ب): «ويقبح لهم الخيرَ».

(٢) في (ب): «القوم الضالون».

وقع النقل في ٧ شعبان سنة (١٣٤٥)[١][٢]

ربَّنا تقبل منَّا واعف عنَّا إنك أنت الغفور الرحيم.

❁ ❁ ❁

(١) في هامش (أ): بلغ مقابلة.

(٢) في (ب): «وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ».